

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ  
وَتَنْبِيْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ  
فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ  
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّودُ أَحَدَكُمُ أَن تَكُونَ  
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ  
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ  
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ  
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا  
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ  
بِتَّاجِرِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ  
﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلقَرَوِيَّاءِ مُرْكَمٍ يَالْفَحْشَاءُ  
وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾  
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ  
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

ذَلِكَ الثَّرَابُ، بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلُّهُ، أَيْ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ  
الْمُرَاتِينَ تَذَهَبُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ  
أَعْمَالٌ فِيمَا يَرَى النَّاسُ كَالثَّرَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا  
يَقْدُرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ  
وَتَنْبِيْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ  
أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٦٥﴾

وَهَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ  
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ، ﴿وَتَنْبِيْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ وَهُمْ مُتَحَقِّقُونَ  
مُسْتَبْتُونَ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، وَنَظِيرُ  
هَذَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى  
صِحَّتِهِ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاجْتِسَابًا»<sup>(١)</sup>. أَيْ يُؤْمِنُ  
أَنَّ اللَّهَ شَرَعَهُ، وَيَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أَيْ كَمَثَلِ بُسْتَانٍ بِرَبْوَةٍ،  
وَهُوَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ: الْمَكَانُ الْمَرْفَعُ الْمُسْتَوِي مِنَ  
الْأَرْضِ، وَزَادَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: وَتَجْرِي فِيهِ  
الْأَنْهَارُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ، كَمَا تَقَدَّمَ،  
فَآتَتْ ﴿أُكُلَهَا﴾ أَيْ ثَمَرَتَهَا ﴿ضَعْفَيْنِ﴾ أَيْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى  
غَيْرِهَا مِنَ الْجَنَانِ ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ﴾ قَالَ  
الضَّحَّاكُ: هُوَ الرِّدَاذُ، وَهُوَ اللَّيْنُ مِنَ الْمَطَرِ<sup>(٣)</sup>. أَيْ هَذِهِ  
الْجَنَّةُ بِهَذِهِ الرَّبْوَةِ لَا تَمَلُّ أَبَدًا، لِأَنَّهَا إِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ  
فَطُلَّ، وَأَيُّ مَا كَانَ فَهُوَ كِفَافُهَا، وَكَذَلِكَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِ لَا  
يَبُورُ أَبَدًا، بَلْ يَتَقَبَّلُهُ اللَّهُ وَيُكَثِّرُهُ وَيُتِمِّمُهُ، كُلُّ غَامِلٍ بِحَسَبِهِ،  
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ  
مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ شَيْءٌ.

﴿أَيُّودُ أَحَدَكُمُ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ  
وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ  
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٦٦﴾

[مَثَالُ ضِيَاعِ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،  
وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ يَوْمًا  
لِّأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَنْ تُرَوُّنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ؟ ﴿أَيُّودُ

أَحَدَكُمُ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قَالُوا: اللَّهُ  
أَعْلَمُ. فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ،  
فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،  
قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلَا تُخَفِّرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضَرَبْتُ مَثَلًا لِّعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ:  
أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِّعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيَ  
يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ  
بِالْمَعَاصِي، حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ كِفَايَةٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَتَبَيَّنَ  
مَا فِيهَا مِنَ الْمَثَلِ يَعْمَلُ مَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ أَوَّلًا، ثُمَّ بَعْدَ  
ذَلِكَ انْعَكَسَ سَبْرُهُ، فَبَدَّلَ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ، عِيَادًا  
بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، فَأُطْلِلَ بِعَمَلِهِ الثَّانِي مَا أَسْلَفَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ  
مِنَ الصَّالِحِ، وَاجْتَنَابَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَوَّلِ فِي أَضْبَقِ

(١) فتح الباري: ٣٠٠/٤ (٢) الطبري: ٥٣٧/٥ (٣) الطبري:

٥٣٩/٥ (٤) فتح الباري: ٤٩/٨

الْأَرْضِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَطْيَبِ الْمَالِ وَأَجْوَدِهِ وَأَنْفُسِهِ، وَنَهَاَهُمْ عَنِ التَّصَدُّقِ بِرَذَالَةِ الْمَالِ وَدَنِيَّةٍ، وَهُوَ خَيْبَتُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ﴾ أَيُّ تَقْصِدُوا الْحَيِّتَ ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ﴾ أَيُّ لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ مَا أَخَذْتُمُوهُ، إِلَّا أَنْ تَتَخَاضُوا فِيهِ، فَاللَّهُ أَعْنَى عَنْهُ مِنْكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ مَا تَكْرَهُونَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أَيُّ لَا تَعْدِلُوا عَنِ الْمَالِ الْحَلَالِ، وَتَقْصِدُوا إِلَى الْحَرَامِ، فَتَجْعَلُوا نَفَقَتَكُمْ مِنْهُ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾... الْآيَةِ، قَالَ: نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَ أَيَّامُ جُذَافِ النَّخْلِ أَخْرَجَتْ مِنْ حِطَانِهَا أَقْنَاءَ الْبُسْرِ، فَعَلَّقُوهُ عَلَى حَبْلِ بَيْنَ الْأُسْطُوَانَتَيْنِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْكُلُ فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُ، فَيَعْمِدُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِلَى الْحَشَفِ، فَيَدْخُلُهُ مَعَ أَقْنَاءِ الْبُسْرِ، يَطْرُقُ أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ﴾ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ حَقٌّ، فَجَاءَكُمْ بِحَقِّ دُونِ حَقِّكُمْ لَمْ تَأْخُذْهُ بِحِسَابِ الْجِدِّ حَتَّى تُنْقِصُوهُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ﴾ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لِنَفْسِكُمْ، وَحَقِّي عَلَيْكُمْ مِنْ أَطْيَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِهِ؟ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَزَادَ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ وَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَاتِ وَبِالطَّيِّبِ مِنْهَا فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِيَسَاوِيَ الْغَنِيِّ الْفَقِيرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٢٧] وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَجَمِيعِ خَلْقِهِ فَقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَاسِعٌ

الْأَحْوَالِ، فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَخَانَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ مُضَعَّافَةً فَآصَابَهَا إِغْصَارٌ﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الشَّدِيدُ ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أَيُّ أَحْرَقَ ثِمَارَهَا، وَأَبَادَ أَشْجَارَهَا، فَأَيُّ حَالٍ يَكُونُ حَالُهُ...؟

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا حَسَنًا، وَكُلُّ أَمَثَالِهِ حَسَنٌ، قَالَ: ﴿أَبُودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يَقُولُ: صَنَعَهُ فِي شَبَبِهِ ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ وَوَلَدَهُ وَذُرِّيَّتُهُ ضِعَافٌ عِنْدَ آخِرِ عُمُرِهِ، فَجَاءَهُ إِغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْرَقَ بُشَاتَانَهُ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ قُوَّةٌ أَنْ يَغْرِسَ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ نَسْلِهِ خَيْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رُدَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَيْسَ لَهُ خَيْرٌ فَيُسْتَعْتَبُ، كَمَا لَيْسَ لِهَذَا قُوَّةٌ فَيَغْرِسَ مِثْلَ بُشَاتَانِهِ، وَلَا يَجِدُهُ قَدَّمَ لِنَفْسِهِ خَيْرًا يَعُودُ عَلَيْهِ، كَمَا لَمْ يُغْنِ عَنْ هَذَا وَلَدَهُ، وَحُرِّمَ أَجْرُهُ عِنْدَ أَفْقَرٍ مَا كَانَ إِلَيْهِ، كَمَا حُرِّمَ هَذَا جَنَّةُ اللَّهِ عِنْدَ أَفْقَرٍ مَا كَانَ إِلَيْهَا، عِنْدَ كِبَرِهِ وَضَعْفِ ذَرِيَّتِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّي وَانْقِضَاءِ عُمْرِي»<sup>(٤)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيُّ تَعْتَبِرُونَ وَتَتَفَهَّمُونَ الْأَمْثَالَ وَالْمَعَانِي وَتَنْتَرِلُونَهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ السَّيِّطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْتِرُكُمْ بِالْمَعْصِيَةِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

[تَرْغِيبٌ إِتْفَاقِ الْمَالِ الطَّيِّبِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ] يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّدَقَةُ هُنَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مِنْ طَيِّبَاتِ مَا زَرَقَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا، وَمِنْ الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ الَّتِي أَنْبَتَهَا لَهُمْ مِنَ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٧٤/٣ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٢) الحاكم: ٥٤٢/١ وفيه عيسى بن ميمون وهو متهم وقال الألباني: ضعيف جدًا [سلسلة الأحاديث الضعيفة: ١٣٨٥] (٣) الطبري: ٥٥٩/٥ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١٠٨٨/٣ والطبري: ٥٦٥/٥

الْفَضْلِ، لَا يَنْفُذُ مَا لَدَيْهِ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ، كَرِيمٌ جَوَادٌ، وَسَيَجْزِيهِ بِهَا - وَيُضَاعِفُهَا لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً - مَنْ يَفْرُضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظُلُومٍ، وَهُوَ الْحَمِيدُ، أَيُّ الْمَحْمُودِ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

### [الْوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِيَّةُ فِي الْإِنْفَاقِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَمَةً يَابِنَ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَمَةً، فَأَمَّا لَمَمَةُ الشَّيْطَانِ فَإِبْعَادُ بِالْشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَمَةُ الْمَلِكِ فَإِبْعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾<sup>(١)</sup> الْآيَةَ، وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابَيْ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا جَمِيعًا<sup>(٢)</sup>.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أَيُّ يُخَوِّفُكُمُ الْفَقْرَ لِيُتَسَكَّبَ مَا بِأَيْدِيكُمْ، فَلَا تُنْفِقُوهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أَيُّ مَعَ نَهْيِهِ إِيَّاكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةِ الْإِمْلَاقِ؛ يَأْمُرُكُمْ بِالْمَعَاصِي وَالْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَمُخَالَفَةِ الْخَلَاقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أَيُّ فِي مُقَابَلَةِ مَا أَمَرَكُمْ الشَّيْطَانُ بِالْفَحْشَاءِ ﴿وَفَضْلًا﴾ أَيُّ فِي مُقَابَلَةِ مَا خَوَّفَكُمْ الشَّيْطَانُ مِنَ الْفَقْرِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

### [مَعْنَى الْحِكْمَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُعْنِي الْمَعْرِفَةَ بِالْقُرْآنِ، نَاسِجِهِ وَمُسَوِّجِهِ، وَمُحْكَمِهِ وَمُشَابِهِهِ، وَمُقَدِّمِهِ وَمُؤَخَّرِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَأَمْثَالِهِ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»<sup>(٤)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٥)</sup>.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُومُ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُفْسِدْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ الْيَتَامَى وَاللَّفِظُ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالِتَّلَوِّ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٨٠﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَيُّ وَمَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكَارِ إِلَّا مَنْ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ، يَعْنِي بِهِ الْخُطَّابَ وَمَعْنَى الْكَلَامِ.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْعَامِلُونَ مِنَ الْخَيْرَاتِ مِنَ التَّنَقَّاتِ وَالْمُنْذِرَاتِ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مُجَازَاتِهِ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجُزَاءِ لِلْعَامِلِينَ لِذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَرَجَاءِ مَوْعُودِهِ، وَتَوَعَّدَ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِطَاعَتِهِ، بَلْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَكَذَّبَ خَبْرَهُ، وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٩٠/٣ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٣٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٠٥/٦ (٣) الطبري: ٥٧٦/٥ (٤) أحمد: ٤٣٢/١ (٥) فتح الباري: ١٩٩/١ ومسلم: ٥٥٩/١ والنسائي في الكبرى: ٤٢٦/٣ وابن ماجه: ١٤٠٧/٢

أَنْصَارٍ ﴿ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقْبَضُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقِمَتِهِ .  
[فَضْلُ إِظْهَارِ الصَّدَقَةِ وَإِخْفَائِهَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ بُشِدُوا الصَّدَقَتِ فَنِعْمًا هِيَ﴾ أَيْ إِنْ أَظْهَرْتُمُوهَا فَنِعْمَ شَيْءٌ هِيَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفَقْرَةَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِسْرَارَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهَا، لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ، إِلَّا أَنْ يَتَرْتَّبَ عَلَى الْإِظْهَارِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنْ افْتِدَاءِ النَّاسِ بِهِ، فَيَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ هَذِهِ الْحَيِّثِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»<sup>(١)</sup>. وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِسْرَارَ أَفْضَلُ لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَلَمَّا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَعَةُ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهُ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَعَاتِكُمْ﴾ أَيْ بَدَلَ الصَّدَقَاتِ، وَلَا سِيمًا إِذَا كَانَتْ سِرًّا، يَحْضُلُ لَكُمْ الْخَيْرُ فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ، وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ .

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَظْلِمُونَ

ضَرَبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَبْعِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِ وَالْأَنفُسِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾

[الصَّدَقَةُ لِلْمُشْرِكِينَ]

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَحُوا لِأَنسَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسَأَلُوا فَرَّخَصَ لَهُمْ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: نَفَقَ الْمُؤْمِنُ لِنَفْسِهِ. وَلَا يُنْفِقُ الْمُؤْمِنُ إِذَا أَنْفَقَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: يُعْنِي إِذَا أُعْطِيَ لَوْجُو اللَّهِ فَلَا عَلَيْكَ مَا كَانَ عَمَلُهُ<sup>(٥)</sup>.

وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٍ وَخَاصِلُهُ: أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ إِذَا تَصَدَّقَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِمَنْ أَصَابَ، أَبْرَأُ أَوْ فَاجِرٌ أَوْ مُسْتَحِقٌّ أَوْ غَيْرُهُ، وَهُوَ مُثَابٌّ عَلَى قَصْدِهِ، وَمُسْتَنْدٌ هَذَا تَمَامُ الْآيَةِ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ وَالْحَدِيثُ الْمُخْرَجُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تَصَدَّقَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تَصَدَّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى غَنِيٍّ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تَصَدَّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ! وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ. فَأُنِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ زَنَاها، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيَنْفِقَ مِمَّا أُعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ»<sup>(٦)</sup>.

(١) أَبُو دَاوُدَ: ٨٣/٢ (٢) فتح الباري: ٣٤٤/٣ ومسلم: ٢/٧١٥ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٠٥/٦ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١١١٥/٣ (٥) ابن أبي حاتم غ: ١١١٥/٣ (٦) فتح الباري: ٣٤٤/٣ ومسلم: ٧٠٩/٢



## [مَنْ أَحَقُّ بِالصَّدَقَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يزدون به على أنفسهم ما يُغنيهم و ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني سفرًا للتسبب في طلب المعاش. والصرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاعِرٌ بِضُرِّهِ فِي الْأَرْضِ يَتَقَوَّنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي الجاهل بأمورهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقاليهم، وفي هذا المعنى الحديث الممتق على صحيحه عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ الثَّمَرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَصْدَقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا»<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بما يظهر لذوي الأبواب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿يَسِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وَقَالَ: ﴿وَتَعْرِفُهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فَإِنْ مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ عَنِ السُّؤَالِ، فَقَدْ أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: سَرَحْتَنِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ، فَأَتَيْتُهُ فَقَعَدْتُ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَنِي فَقَالَ: «مَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَعْفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَكْفَّ كَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ أَوْقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ». قَالَ: فَقُلْتُ: نَاقَتِي الْيَافُوتَةُ خَيْرٌ مِنْ أَوْقِيَّةٍ، فَرَجَعْتُ فَلَمْ أَسْأَلُهُ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالسَّائِغِيُّ<sup>(٥)</sup>.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَيْتَ اللَّهُ يَوْمَ عَلَيْهِ أَوفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ﴾.

الْمِائَةُ الثَّلَاثُ

٤٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبَطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا بَيْعُ مِثْلِ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنًا ﴿٢٧٨﴾ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ وَاتَّقُوا يَوْمَ مَا تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾

## [مَدْحُ الْمُتَصَدِّقِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هَذَا مَدْحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُتَصَدِّقِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ مِنْ لَيْلٍ وَنَهَارٍ وَالْأَحْوَالِ: مِنْ سِرٍّ وَجَهَارٍ، حَتَّى إِنْ تَنَفَّهَ عَلَى الْأَهْلِ تَدَخَّلَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ عَادَهُ مَرِيضًا عَامَ الْفَتْحِ. وَفِي رِوَايَةٍ: عَامَ حَجَّةِ الْوُدَاعِ: «وَأَنْتَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَرَدَدْتُ بِهَا دَرَجَةً وَرَفَعَةً، حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً».

(١) فتح الباري: ٣/٣٩٩ (٢) أحمد: ١/٣٨٤ (٣) أحمد: ٩/٣ (٤) أبو داود: ٢/٢٧٩ والنسائي: ٥/٩٨ (٥) فتح الباري: ٣/١٩٦ ومسلم: ٤/١٢٥٠

أَخْرَجَاهُ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَاتِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطُلُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

[ذَمُّ أَكْلِ الرِّبَا]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْأَبْرَارَ الْمُؤَدِّينَ لِلْفَقَاتِ، الْمُخْرِجِينَ الرِّكَوَاتِ، الْمُتَفَضِّلِينَ بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَاتِ لِلذَّوِي الْحَاجَاتِ وَالْقَرَابَاتِ، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ، شَرَعَ فِي ذَمِّ أَكْلِ الرِّبَا وَأَمْوَالِ النَّاسِ، بِالْبَاطِلِ وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا، إِلَى بَعْثِهِمْ وَنُشُورِهِمْ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطُلُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، أَيَّ لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَضْرُوعُ حَالَ صَرْعِهِ، وَتَخْطُطُ الشَّيْطَانُ لَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَكَلَ الرِّبَا يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يُخَنَقُ<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ نَحْوُ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ فِي حَدِيثِ الْمَنَامِ الطَّوِيلِ: «فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ -: أَحْمَرُ مِثْلَ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَابَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ الْحِجَابَةَ عِنْدَهُ، فَيَفْعُرُ لَهُ فَاةً، فَيُلْقِيهِمْ حَجَرًا»... فَذَكَرَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ أَكَلَ الرِّبَا<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، أَيَّ إِنَّمَا جُوزُوا بِذَلِكَ لِإِعْتِرَاضِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ، وَلَيْسَ هَذَا قِيَاسًا مِنْهُمْ لِلرِّبَا عَلَى الْبَيْعِ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّةِ أَصْلِ الْبَيْعِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْقِيَاسِ لَقَالُوا: إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ، وَإِنَّمَا قَالُوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أَيَّ هُوَ تَطْيِيرُهُ، فَلِمَ حَرَّمَ هَذَا وَأَبِيحَ هَذَا؟

وَهَذَا إِعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى الشَّرْعِ، أَيَّ هَذَا مِثْلَ هَذَا، وَقَدْ أُحِلَّ هَذَا وَحُرِّمَ هَذَا! وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ رَدًّا عَلَيْهِمْ، أَيَّ عَلَى مَا قَالُوهُ مِنَ الْإِعْتِرَاضِ، مَعَ عَلَيْهِمْ بِتَفْهِيمِ اللَّهِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا حُكْمًا، وَهُوَ الْعِلْمُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا، وَمَا يَنْفَعُ عِبَادَهُ فَيَسْبِيحُهُ لَهُمْ، وَمَا يَضُرُّهُمْ فَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنَ الْوَالِدَةِ يُولِّدُهَا الطُّفْلَ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَيَّ مَنْ بَلَغَهُ نَهْيُ اللَّهِ عَنِ الرِّبَا، فَانْتَهَى حَالَ وَضُوءِ الشَّرْعِ إِلَيْهِ، فَلَهُ مَا سَلَفَ مِنَ الْمُعَامَلَةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: «وَكُلُّ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَأَوَّلُ رِبَا أَضْعُ رِبَا الْعَبَّاسِ»<sup>(٥)</sup>. وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِرَدِّ الرِّبَادَاتِ الْمَأْخُودَةِ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، بَلْ عَفَا عَمَّا سَلَفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ مَا كَانَ أَكَلَ مِنَ الرِّبَا قَبْلَ التَّحْرِيمِ<sup>(٦)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أَيَّ إِلَى الرِّبَا، فَفَعَلَهُ بَعْدَ بُلُوغِ نَهْيِ اللَّهِ لَهُ عَنْهُ، فَقَدْ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطُلُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدْرِ الْمُخَابَرَةَ فَلْيُؤْذِنْ بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»<sup>(٧)</sup> وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَإِنَّمَا حُرِّمَتِ الْمُخَابَرَةُ، وَهِيَ: الْمَزَارَعَةُ بِبَعْضِ

(١) البخاري: ٥٥، ومسلم: ١٠٠٢ (٢) الطبري: ٩/٦ (٣) ابن أبي حاتم غ: ١١٣٠/٣، ١١٣١ (٤) فتح الباري: ٢٩٥/٣ (٥) أبو داود: ٦٢٨/٣ (٦) ابن أبي حاتم غ: ١١٣٥/٣ (٧) أبو داود: ٦٩٥/٣ (٨) الحاكم: ٢٨٥/٢ ضعيف: وعلة ضعفه تدليس أبي الزبير وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٩٠) وقال: وقد صح النهي عن المخابرة من طرق أخرى عن جابر رضي الله عنه عند مسلم وغيره ولكنه محمول على الوجه المفضي إلى الغرر والجهالة لا على كرائها مطلقا حتى بالذهب والفضة لثبوت جواز ما لا غرر فيه في أحاديث كثيرة...

وَيُكْتَبُ إِلَّا إِذَا أَظْهَرَ فِي صُورَةِ عَقْدٍ شَرْعِيٍّ، وَيَكُونُ دَاخِلُهُ فَاسِدًا، فَلَا غَيْبًا بِمَعْنَاهُ لَا بِصُورَتِهِ، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ.

﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَتَمَّ﴾ [الذِّبْتِ] ءَامُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

### [لَا يَبَارِكُ فِي الرِّبَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَمْحُ الرِّبَا، أَيُّ يُذْهِبُهُ، إِمَّا بِأَنْ يُذْهِبَهُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ يَدٍ صَاحِبِهِ، أَوْ يُحَرِّمُهُ بَرَكَةً مَالِهِ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، بَلْ يُعَذِّبُهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُعَاقِبُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَتُهُ الْخَبِيثُ﴾ [المائدة: ١٠٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وَقَالَ: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لَيْرَبًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيءُ عِنْدَ اللَّهِ﴾... [الآيَةُ [الروم: ٣٩]، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا﴾: وَهَذَا نَظِيرُ الْخَبَرِ الَّذِي رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ [عَنِ النَّبِيِّ ﷺ] أَنَّهُ قَالَ: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنْ عَاقِبَتُهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ»<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِخَوْرِهِ<sup>(٢)</sup>.

[إِنَّ اللَّهَ يُزِي الصَّدَقَاتِ كَمَا يُزِي أَحَدَكُمْ فَلَوْهَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُزِي الصَّدَقَاتِ﴾ أَيُّ يُنْمِيهَا. وَقِيلَ: يُزِيئُهَا. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلٍ ثَمَرَةً مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا يَمِينُهُ، ثُمَّ يُزِيئُهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُزِي أَحَدَكُمْ فَلَوْهَ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْحَبْلِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح الباري: ٤٨/١٠ ومسلم: ٢٣٢٢/٤ (٢) فتح الباري: ١٥٣/١ ومسلم: ١٢١٩/١ (٣) تحفة الأحوذى: ٢٢١/٧ والنسائي: ٣٢٨/٨ (٤) أحمد: ٣٦/١ وابن ماجه: ٢٢٧٦ (٥) ابن ماجه: ٧٦٤/٣ ونحوه للحاكم في المستدرک: ٣٧/٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (٦) أحمد: ٤٦/٦ (٧) فتح الباري: ٥١/٨ ومسلم: ١٢٠٦/٣ وأبو داود: ٧٥٩/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٠٦/٦ وابن ماجه: ١١٢٢/٢ (٨) فتح الباري: ٥٧٢/٦ ومسلم: ١٢٠٧/٣ (٩) مسلم: ١٢١٩ (١٠) الطبري: ١٥/٦ (١١) أحمد: ٣٩٥/١ (١٢) فتح الباري: ٣٢٦/٣ وفتح الباري: ٤٢٦/١٣ (١٣) مسلم: ٧٠٢

مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمُزَابَنَةُ، وَهِيَ: اشْتِرَاءُ الرُّطْبِ فِي رُؤُوسِ النَّخْلِ بِالتَّمْرِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَالْمُحَافَلَةُ، وَهِيَ اشْتِرَاءُ الْحَبِّ فِي سُنْبُلِهِ فِي الْحَقْلِ بِالْحَبِّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. إِنَّمَا حُرِّمَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَمَا شَاكَلَهَا حَسْمًا لِمَادَةِ الرِّبَا، لِأَنَّهُ لَا يُعْلَمُ التَّسَاوِي بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ قَبْلَ الْجَفَافِ، وَبَابُ الرِّبَا مِنْ أَشْكَلِ الْأَبْوَابِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثَلَاثٌ وَدِدْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهْدَ إِلَيْنَا فِيهِنَّ عَهْدًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ: الْجَدُّ، وَالْكَلَالَةُ، وَأَبْوَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا<sup>(١)</sup>. - يَعْنِي بِذَلِكَ بَعْضَ الْمَسَائِلِ الَّتِي فِيهَا شَائِئُهُ الرِّبَا - وَالشَّرِيعَةُ شَاهِدَةٌ بِأَنَّ كُلَّ حَرَامٍ فَالْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ، لِأَنَّ مَا أَقْضَى إِلَى الْحَرَامِ حَرَامٌ، كَمَا أَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي السَّنَنِ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «دَعْ مَا يَرِيئُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيئُكَ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ عُمَرَ قَالَ: مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ، آيَةُ الرِّبَا، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُضِيَ قَبْلَ أَنْ يُفَسَّرَهَا لَنَا، فَدَعَا الرِّبَا وَالرِّبَاةَ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرِّبَا سَبْعُونَ حُوبًا، أَسْرَهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ»<sup>(٥)</sup>.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَهُوَ تَحْرِيمُ الْوَسَائِلِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْمُحَرَّمَاتِ، الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَرَأَهُنَّ، فَحَرَّمَ التَّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ، سِوَى التِّرْمِذِيِّ<sup>(٧)</sup>. كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا، فَبَاغَوْهَا وَآكَلُوا أَثْمَانَهَا»<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا عِنْدَ لَعْنِ الْمُحَلِّلِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] قَوْلُهُ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكَلَهُ وَشَاهِدِيهِ وَكَاتِبِيهِ»<sup>(٩)</sup>. قَالُوا: وَمَا يَشْهَدُ عَلَيْهِ

ءَامِنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٢٧٩﴾ فَقَالُوا: نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَنَذَرُ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا، فَتَرَكُوهُ كُلَّهُمْ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى تَعَاطِي الرِّبَا بَعْدَ الْإِنذَارِ.

### [أَكُلِ الرِّبَا إِغْلَانً عَنِ الْحَرْبِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾، أَيِ اسْتَيْقِنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْهُ قَالَ: يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْلِ الرِّبَا: خُذْ سِلَاحَكَ لِلْحَرْبِ، ثُمَّ قَرَأْ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. فَمَنْ كَانَ مُقِيمًا عَلَى الرِّبَا، لَا يَنْزِعُ عَنْهُ فَحَقٌّ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَتِيْبَهُ، فَإِن نَزَعَ وَإِلَّا ضَرَبَ عَنْقَهُ<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَابْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ أَيِ بِأَخْذِ الزِّيَادَةِ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أَيِ بِوَضْعِ رُءُوسِ الْأَمْوَالِ أَيْضًا، بَلْ لَكُمْ مَا بَدَلْتُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَقْصٍ مِنْهُ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَخْوَصِ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ رِبَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، وَأَوَّلُ رِبَا مَوْضُوعٍ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»<sup>(٤)</sup>.

### [الْإِحْسَانُ إِلَى الْمُعْسِرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنُظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى الْمُعْسِرِ الَّذِي لَا يَجِدُ وَفَاءً، فَقَالَ: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنُظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ لَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمُدَيْبِهِ إِذَا حَلَّ عَلَيْهِ الدَّيْنُ: إِنَّمَا أَنْ تَقْضِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تُرْبِي، ثُمَّ يَنْدُبُ إِلَى الْوَضْعِ عَنْهُ، وَيَعِدُّ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرَ وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَقَالَ: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيِ وَأَنْ تَتْرَكُوا رَأْسَ الْمَالِ بِالْكُلِّيَّةِ وَتَضَعُوهُ عَنِ الْمِلْإِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ،

(١) ابن أبي حاتم غ: ١١٤٠، ١١٤١ (٢) الطبري: ٢٦/٦

(٣) الطبري: ٢٥/٦ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١١٤٧/٣

### [الْكَافِرُ الْأَيْمُ مُبْغَضٌ عِنْدَ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، أَيِ لَا يُحِبُّ كُفُورَ الْقَلْبِ، أَثِيمُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُنَاسَبَةٍ فِي خَتْمِ هَذِهِ الْآيَةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْمُرَاطِبِي لَا يَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحَلَالِ، وَلَا يَكْتَفِي بِمَا شَرَعَ لَهُ مِنَ التَّكْسِبِ الْمُبَاحِ، فَهُوَ يَسْعَى فِي أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، بِأَنْوَاعِ الْمَكَايِبِ الْخَبِيثَةِ، فَهُوَ جَحُودٌ لِمَا عَلَيْهِ مِنَ النِّعْمَةِ، ظُلُومٌ أَثِمٌ بِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

### [مَدْحُ الشَّاكِرِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَا دَحَا لِلْمُؤْمِنِينَ يَرْبِّهِمُ الْمُطِيعِينَ أَمْرَهُ، الْمُؤَدِّينَ شُكْرَهُ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى خَلْقِهِ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ، مُخْبِرًا عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَأَنْتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّبِعَاتِ آمِنُونَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنُظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

### [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَاجْتِنَابِ الرِّبَا]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، نَاهِيًا لَهُمْ عَمَّا يُقْرَبُهُمْ إِلَى سَخَطِهِ وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ رِضَاهُ، فَقَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيِ خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ فِيمَا تَفْعَلُونَ ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أَيِ اثْرَكُوا مَا لَكُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَمْوَالِ، بَعْدَ هَذَا الْإِنذَارِ ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْبَيْعِ وَتَحْرِيمِ الرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ، وَابْنُ جُرَيْجٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيُّ: أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ نَزَلَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ مِنْ ثَقِيفٍ، وَبَنِي الْمُغِيرَةِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، كَانَ بَيْنَهُمْ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَدَخَلُوا فِيهِ، طَلَبَتْ ثَقِيفٌ أَنْ تَأْخُذَهُ مِنْهُمْ، فَتَسَاوَرُوا، وَقَالَتْ بَنُو الْمُغِيرَةِ: لَا نُؤَدِّي الرِّبَا فِي الْإِسْلَامِ، فَكَتَبَ فِي ذَلِكَ عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ، نَائِبُ مَكَّةَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَرَكَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَكَتَبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

الْبَقَرَةُ

٤٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يَأْتِيهَا الذِّكْرُ ءَامُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى  
فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ  
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ  
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا  
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ  
أَنْ يُمْلِعَ لَهُ فُلْيُمْلِلْ لَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ  
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ  
يَمَن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ  
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا  
أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ  
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ  
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِ جُنَاحٌ  
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ  
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَلُّوا فَإِنَّهُ فَسَوْفَ لَكُمْ وَاتَّقُوا  
اللَّهَ وَيَعْلَمْكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا  
يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾. وَكَذَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ <sup>(٦)</sup>.

﴿يَأْتِيهَا الذِّكْرُ ءَامُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى  
فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ  
أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ  
الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي  
عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِعَ لَهُ  
فُلْيُمْلِلْ لَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ  
لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ يَمَن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ  
أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ  
الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ

قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ  
يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا  
فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَاهُ صَدَقَةٌ» قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ  
تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» ثُمَّ  
سَمِعْتُكَ تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَاهُ  
صَدَقَةٌ»، قَالَ: «لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ  
الَّذِينَ، فَإِذَا حُلَّ الَّذِينَ فَأَنْظَرَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَاهُ  
صَدَقَةٌ» <sup>(١)</sup>.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ: أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ  
كَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَى رَجُلٍ، وَكَانَ يَأْتِيهِ يَتَقَضَّاهُ فَيَحْتَبِي مِنْهُ،  
فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَخَرَجَ صَبِيٌّ، فَسَأَلَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: نَعَمْ هُوَ  
فِي الْبَيْتِ يَأْكُلُ خَزِيرَةً، فَتَادَاهُ، فَقَالَ: يَا فَلَانُ، اخْرُجْ،  
فَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكَ هَاهُنَا، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا يُعْنِيكَ  
عَنِّي؟ فَقَالَ: إِنِّي مُعْسِرٌ، وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ. قَالَ: اللَّهُ  
إِنَّكَ مُعْسِرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَبَكَى أَبُو قَتَادَةَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ، أَوْ مَحَا عَنْهُ،  
كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» <sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي  
صَحِيحِهِ <sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ عَنْ حُدَيْفَةَ، قَالَ:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَى اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
قَالَ: مَاذَا عَمِلْتَ لِي فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ لَكَ  
يَا رَبِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الدُّنْيَا أَرْجُوكَ بِهَا - قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -  
قَالَ الْعَبْدُ عِنْدَ آخِرِهَا: يَا رَبِّ، إِنَّكَ كُنْتَ أَعْطَيْتَنِي فَضْلَ  
مَالٍ، وَكُنْتُ رَجُلًا أَبَايَعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَارُ،  
فَكُنْتُ أَيْسَرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأَنْظِرُ الْمُعْسِرَ، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَحَقُّ مَنْ يُيَسَّرُ، ادْخُلِ الْجَنَّةَ». وَقَدْ أَخْرَجَهُ  
الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ حُدَيْفَةَ، زَادَ مُسْلِمٌ: وَعُقْبَةُ  
ابْنِ عَامِرٍ وَأَبِي مَسْعُودٍ الْبُذْرِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ <sup>(٤)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يَعْطُ عِبَادَهُ، وَيَذْكُرُهُمْ زَوَالَ الدُّنْيَا، وَفَنَاءَ  
مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا، وَإِتْيَانِ الْآخِرَةِ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ  
تَعَالَى، وَمُحَاسَبَتِهِ تَعَالَى خَلْقَهُ عَلَى مَا عَمِلُوا، وَمُجَازَاتِهِ  
إِيَّاهُمْ بِمَا كَسَبُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَيُحَذِّرُهُمْ عَقُوبَتَهُ، فَقَالَ:  
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا  
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
نَزْلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
عَبَّاسٍ، قَالَ: أَخْرَجُ شَيْءٌ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا

(١) أحمد: ٣٦٠/٥ (٢) أحمد: ٣٠٨/٥ (٣) مسلم: ٤/

٢٠٧٤ (٤) فتح الباري: ٥٧٠/٦ ومسلم: ١١٩٥/٣ وابن ماجه:

٨٠٨/٢ (٥) النسائي في الكبرى: ٣٠٧/٦ (٦) الطبري: ٦/

٤٠ العوفي لا يحتج به كما مر

عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلَيْتَى اللَّهُ رَبُّهُ ﴿أَيُّ وَلِيْمِلِ الْمَدِينُ عَلَى الْكَاتِبِ مَا فِي ذِمَّتِهِ مِنَ الدِّينِ، وَلَيْتَى اللَّهُ فِي ذَلِكَ﴾ وَلَا يَبْحَسُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿أَيُّ لَا يَكُنْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا مَحْجُورًا عَلَيْهِ بِتَبْذِيرٍ وَنَحْوِهِ ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أَيْ صَغِيرًا، أَوْ مَجْنُونًا ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ إِمَّا لِعِيٍّ أَوْ جَهْلٍ بِمَوْضِعِ صَوَابِ ذَلِكَ مِنْ خَطِيئِهِ ﴿فَلْيُمْلِلِ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

### [الْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أَمْرٌ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ لِزِيَادَةِ التَّوْقِيفِ ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ، وَمَا يُفْضَدُ بِهِ الْمَالُ، وَإِنَّمَا أُقِيمَتِ الْمَرَأَتَانِ مَقَامَ الرَّجُلِ لِنُقْصَانِ عَقْلِ الْمَرَأَةِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْإِسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ جَزَلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «تَكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أُغْلِبَ لِدِي لُبٌّ مِنْكُنَّ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالْدِّينِ؟ قَالَ: «أَمَّا نُقْصَانُ عَقْلُهَا، فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمَكُّتُ اللَّيَالِي لَا تُصَلِّي وَتُقَطِّرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ تَزَوَّنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اشْتِرَاطِ الْعَدَالَةِ فِي الشُّهُودِ، وَقَوْلُهُ: «أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا يَغْنِي الْمَرَأَتَيْنِ، إِذَا نَسِيَتِ الشَّهَادَةَ (فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) أَيُّ يَحْضُلَ لَهَا ذِكْرُي بِمَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ. وَلِهَذَا قَرَأَ آخَرُونَ: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِذَا دُعُوا لِلتَّحْمِلِ فَعَلْنَاهُمُ الْإِجَابَةَ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ وَمِنْ هَهُنَا اسْتِفْهَادُ أَنَّ تَحْمِلَ الشَّهَادَةِ فَرَضٌ كِفَايَةٌ. وَقِيلَ: - وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ - الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ:

كَاتِبًا إِلَى أَجْلِهِ ذَلِكَ أَمْرٌ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرَةً حَاضِرَةً تُدْرِكُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَاِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

### [الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْمَعَامَلَاتِ الْمُوجَلَةِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أَحَدَ الْقُرْآنِ بِالْعَرْشِ آيَةُ الدِّينِ<sup>(١)</sup>.

فَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بَيْنَ يَدَيْ إِلَهٍ أَجَلٍ مُسَمًّى فَالْكُتُبُوهُ﴾ هَذَا إِرْسَادٌ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَعَامَلُوا بِمَعَامَلَاتٍ مُوجَلَةٍ أَنْ يَكْتُبُوهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَحْفَظَ لِمَقْدَارِهَا وَمِيقَاتِهَا، وَأَضْطَ لِلشَّاهِدِ فِيهَا، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى هَذَا فِي آخِرِ الْآيَةِ حَيْثُ قَالَ: ﴿ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ فِي الثَّمَارِ السَّتِينَ وَالثَّلَاثَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزَنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَالْكُتُبُوهُ﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالْكِتَابَةِ لِلتَّوْقِيفِ وَالْحِفْظِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مَنْ إِذَا دَانَ فَلْيَكْتُبْ، وَمَنْ ابْتَنَعَ فَلْيُشْهَدْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ وَالشَّعْبِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالْحَسَنُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٤)</sup>: كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا، ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فليؤدِّ الَّذِي أَوْفَّقْنِ آمَنَتَهُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أَيُّ بِالْقِسْطِ وَالْحَقِّ، وَلَا يَجُزُّ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَكْتُبُ إِلَّا مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أَيُّ وَلَا يَمْتَنِعُ مَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ إِذَا سُئِلَ أَنْ يَكْتُبَ لِلنَّاسِ، وَلَا ضُرُورَةٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَكَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَى غَيْرِهِ وَمَنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَلْيَكْتُبْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تُعِينَ صَانِعًا أَوْ تَضَعُ لِأَخْرَقٍ»<sup>(٥)</sup> وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلُجَامٍ مِنْ نَارٍ»<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: وَاجِبٌ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي

(١) الطبري: ٤١/٦ (٢) فتح الباري: ١٠٥/٤ ومسلم: ٣/

١٢٢٦ (٣) الطبري: ٤٧/٦ (٤) الطبري: ٤٧/٦، ٤٩، ٥٠

(٥) فتح الباري: ١٧٦/٥ (٦) الطبراني: ٥/١١ (٧) مسلم:

﴿وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾<sup>(١)</sup>: لِلْأَدَاءِ؛ لِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ: «الشُّهَدَاءُ». وَالشَّاهِدُ - حَقِيقَةٌ - فَيَمْنُ تَحْمَلُ، فَإِذَا دُعِيَ لِأَدَائِهَا فَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ إِذَا تَعَيَّنَتْ، وَإِلَّا فَهُوَ فَرَضٌ كِفَايَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو مِجْلَزٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِذَا دُعِيتَ لِتَشْهَدَ فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ، وَإِذَا شَهِدْتَ فَدُعِيتَ فَأَجِبْ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهَا تَعْمُ الْحَالَيْنِ: التَّحْمَلُ وَالْأَدَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِرْسَادِ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْحَقِّ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا﴾ أَيُّ لَا تَمْلُوا أَنْ تَكْتُبُوا الْحَقَّ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كَانَ مِنَ الْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْكِتَابَةِ لِلْحَقِّ إِذَا كَانَ مُوجَلًّا ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أَيُّ أَغْدَلُ ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أَيُّ أَثْبَتُ لِلشَّاهِدِ - إِذَا وَضَعَ خَطَّهُ ثُمَّ رَأَاهُ تَذَكَّرَ بِهِ الشَّهَادَةُ - لِإِحْتِمَالِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْتُبْهُ أَنْ يَنْسَاهُ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ غَالِبًا ﴿وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وَأَقْرَبُ إِلَىٰ عَدَمِ الرِّبَةِ بَلْ تَرْجِعُونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَىٰ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُمُوهُ فَيَفْضِلُ بَيْنَكُمْ بِلَا رِيبَةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أَيُّ إِذَا كَانَ الْبَيْعُ بِالْحَاضِرِ يَدًا بِيَدٍ، فَلَا بَأْسَ بِعَدَمِ الْكِتَابَةِ لِانْتِفَاءِ الْمَحْذُورِ فِي تَرْكِهَا.

فَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَىٰ الْبَيْعِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَاعْتُمْ﴾ وَهَذَا الْأَمْرُ مُنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُوَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتُهُ﴾ أَوْ مَحْمُولٌ عَلَىٰ الْإِرْسَادِ وَالنَّدْبِ لَا عَلَىٰ الْوُجُوبِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيثُ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ، وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ عَمَّهُ حَدَّثَهُ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، إِبْتِنَاعَ فَرَسًا مِنْ أَغْرَابِيٍّ، فَاسْتَبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَفْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبْطَأَ الْأَغْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَغْرَابِيَّ، فَيَسْأَلُونَهُ بِالْفَرَسِ، وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِبْتِنَاعَهُ، حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمُ الْأَغْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ عَلَى ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي إِبْتِنَاعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَتَادَى الْأَغْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ مُبْتِنَاعًا هَذَا الْفَرَسَ

فَاتَّبَعْتُهُ وَإِلَّا بَعْتُهُ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَغْرَابِيِّ، قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ ابْتِنَعْتُهُ مِنْكَ؟» قَالَ الْأَغْرَابِيُّ: لَا وَاللَّهِ مَا بَعْتُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ قَدْ ابْتِنَعْتُهُ مِنْكَ» فَطَفِقَ النَّاسُ يَلُودُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْأَغْرَابِيَّ، وَهُمَا يَتَرَاكِعَانِ، فَطَفِقَ الْأَغْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِدَا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ، فَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلْأَغْرَابِيِّ: وَبَلِّغْ إِنْ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، حَتَّى جَاءَ خُزَيْمَةُ فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاجَعَةِ الْأَغْرَابِيِّ، يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِدَا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ، قَالَ خُزَيْمَةُ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: «يَمَّ تَشْهَدُ؟» فَقَالَ: بِتَضَدِّيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ نَحْوَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَارَّ الْكَاتِبُ وَلَا الشَّاهِدُ، فَيَكْتُبْ هَذَا خِلَافَ مَا يُمْلِي، وَيَشْهَدُ هَذَا بِخِلَافِ مَا سَمِعَ، أَوْ يَكْتُمُهَا بِالْكُلِّيَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا<sup>(٥)</sup>». وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَعْلَمُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أَيُّ إِنْ خَالَفْتُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَ فَعَلْتُمْ مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ فُسُوقٌ كَائِنْ بِكُمْ، أَيُّ لَا رَمَّ لَكُمْ، لَا تَحِيدُونَ عَنْهُ، وَلَا تَتَفَكَّحُونَ عَنْهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ خَافُوا وَرَاقِبُوا وَأَتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَاتَّقُوا زَجْرَهُ ﴿وَيُكَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَةً مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ هُوَ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَعَوَاقِبِهَا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُوَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتُهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا الشُّهَدَاءَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(١) الطبري: ٦٨/٦ (٢) ابن أبي حاتم غ: ١١٨١/٣ والطبري: ٧١/٦ (٣) أحمد: ٢١٥/٥ (٤) أبو داود: ٣١/٤ والنسائي: ٣٠١/٧ (٥) الطبري: ٨٦، ٨٥/٦

## [بَيَانُ الرِّهْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مُسَافِرِينَ، وَتَدَايَنْتُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يَكْتُبْ لَكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوْ وَجَدُوهُ، وَلَمْ يَجِدُوا قِرْطَاسًا أَوْ دَوَاةً أَوْ قَلَمًا؛ فَرَهْنٌ مَقْبُوضَةٌ أَيْ فَلْيَكُنْ بَدَلُ الْكِتَابَةِ رَهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فِي يَدِ صَاحِبِ الْحَقِّ. وَقَدْ اسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَرَهْنٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ عَلَى أَنَّ الرِّهْنَ لَا يَلْزَمُ إِلَّا بِالْقَبْضِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، تُوْفِيَ وَرِزْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ عَلَى ثَلَاثِينَ وَشَقًا مِنْ شَعِيرٍ، رَهْنَهَا فَوْنَا لِأَهْلِهِ. وَفِي رَوَايَةٍ: مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ مِنْ أَمْنَتِهِ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: هَذِهِ نَسَخَتْ مَا قَبْلَهَا <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِذَا اتَّخَذَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلَا بَأْسَ أَنْ لَا تَكْتُبُوا أَوَّلًا تُشْهَدُوا <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبُّكُمْ﴾ يَعْنِي الْمُؤْتَمَنَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ رَوَايَةٍ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ عَنْ سَمُرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذْتَ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ» <sup>(٤)</sup>.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أَيْ لَا تُخْفُوهَا وَتَغْلُوهَا، وَلَا تَظْهَرُوهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: شَهَادَةُ الزُّورِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايِرِ، وَكَيْتُمُوهَا كَذَلِكَ <sup>(٥)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَائِمٌ قَلْبُهُ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي فَاجِرٌ قَلْبُهُ <sup>(٦)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآدَمِيِّينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِالْأَقْسَطِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَائِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ <sup>(٧)</sup>

[أَهْلٌ يُحَاسِبُ الْعِبَادَ عَلَى مَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِيهِنَّ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ

## الْبَقَرَةُ

٤٩

## سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ مِنْ أَمْنَتِهِ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَائِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ <sup>(٣)</sup> ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِأَطَاقَةِ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ <sup>(٤)</sup>

الظَّاهِرُ، وَلَا السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَحَاسِبُ عِبَادَهُ عَلَى مَا فَعَلُوهُ وَمَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩] وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ الْبَاطِنَ الْخَفِيُّ﴾ [طه: ٧] وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ، وَهُوَ الْمُحَاسَبَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ وَضَيَّ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَخَافُوا مِنْهَا، وَمِنْ مُحَاسَبَةِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى جَلِيلِ الْأَعْمَالِ وَخَفِيرِهَا، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَإِقَانِهِمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى

(١) فتح الباري: ٣٥٤/٤ ومسلم: ١٢٢٦/٣ عن عائشة (٢) ابن أبي حاتم غ: ١٢٠٢/٣ (٣) ابن أبي حاتم غ: ١٢٠٣/٣ (٤) أحمد: ١٣/٥ وأبو داود: ٨٢٢/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٨٢/٤ والنسائي في الكبرى: ٤١١/٣ وابن ماجه: ٨٠٢/٢ (٥) الطبري: ١٠٠/٦ (٦) الطبري: ١٠٠/٦



وَقَدْ رَوَى الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمُ السَّيِّئَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ»<sup>(٤)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكِبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاتَّكِبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكِبُوهَا عَشْرًا»<sup>(٥)</sup>.

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾<sup>(٦)</sup> لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٥﴾

### ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ

#### الْكَرِيمَتَيْنِ نَفَعَنَا اللَّهُ بِهِمَا

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»<sup>(٦)</sup> وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ مِثْلَهُ<sup>(٧)</sup>. وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ<sup>(٨)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ<sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، قَالَ: ﴿إِذْ يَنْتَقِي السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ٣١] قَالَ: فَرَأَسُ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَبُّوا عَلَى الرُّكْبِ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُفِّتْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَا نُطِيقُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلَى قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فَلَمَّا أَقْرَبَ بِهَا الْقَوْمُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أُنْزِلَ اللَّهُ فِي أَثَرِهَا ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ فَأُنْزِلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾... إِلَى آخِرِهِ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فَذَكَرَ مِثْلَهُ، وَلَفْظُهُ: فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ، فَأُنْزِلَ اللَّهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ. ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ<sup>(٢)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَمَرَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَبَكَى، قَالَ: أَيُّهُ آيَةٌ؟ قُلْتُ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ أُنْزِلَتْ، غَمَّتْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَمًّا شَدِيدًا، وَغَاطَتْهُمْ غَيْظًا شَدِيدًا، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْنَا، إِنْ كُنَّا نُواخِذُ بِمَا تَكَلَّمْنَا وَبِمَا نَعْمَلُ، فَأَمَّا قُلُوبُنَا فَلَيْسَتْ بِأَيْدِينَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، قَالَ: فَنَسَخَهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إِلَى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فَتَجَوَّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأَجْدُوا بِالْأَعْمَالِ<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد: ٤١٢/٢ (٢) مسلم: ١١٥/١ (٣) أحمد: ١/٣٣٢ (٤) فتح الباري: ٣٠٠/٩ ومسلم: ١١٧/١ وأبو داود: ٦٥٧/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٦١/٤ والنسائي: ١٥٦/٦ وابن ماجه: ٦٥٨/١ (٥) فتح الباري: ٤٧٣/١٣ ومسلم: ١١٧/١ (٦) فتح الباري: ٦٧٢/٨ (٧) مسلم: ٥٥٥/١ وأبو داود: ١١٨/١ وتحفة الأحوذى: ١٨٨/٨ والنسائي في الكبرى: ١٤/٥ وابن ماجه: ٤٣٥/١ (٨) فتح الباري: ٧١٢/٨ و٣٦٩/٧ ومسلم: ٥٥٤/١ (٩) أحمد: ١١٨/٤

لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُفْجَمَاتُ<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي فَصَائِلِ الْفَاتِحَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرِيلُ، إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ، مَا فُتِحَ قَطُّ، قَالَ: فَتَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَبَشِّرْ بِثَوْرَيْنِ قَدْ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوْتِيَتْهُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup> وَهَذَا لَفْظُهُ.

### [تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْجَمِيعِ فَقَالَ: ﴿كُلُّ أَمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفُوقُ بَيْتَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فَاَلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، فَرَدَّ صَمَدٌ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبٌّ سِوَاهُ. وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَالْكَتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، بَلِ الْجَمِيعُ عَنْدهُمْ صَادِقُونَ بَارُونَ رَاشِدُونَ مَهْدِيُونَ هَادُونَ إِلَى سُبُلِ الْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يُنْسَخُ شَرِيعَةً بَعْضٍ بِإِذْنِ اللَّهِ، حَتَّى يُنسخَ الْجَمِيعُ بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الَّذِي تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَلَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّوْا سَمِيعًا وَأَطَعُوا﴾ أَيُّ سَمِيعًا قَوْلُكَ يَا رَبَّنَا وَفَهْمُنَا، وَفَهْمُنَا بِهِ وَامْتَنَلْنَا الْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ، ﴿عُفْرَانُكَ رَبَّنَا﴾ سُؤَالٌ لِلْعُفْرِ وَالرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَيُّ لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَهَذِهِ هِيَ النَّاسِخَةُ الرَّافِعَةُ لِمَا كَانَ أَشْفَقَ مِنْهُ الصَّحَابَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أَيُّ هُوَ وَإِنْ حَاسَبَ وَسَّالَ، لَكِنْ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا بِمَا يَمْلِكُ الشَّخْصُ دَفْعَهُ، فَأَمَّا مَا لَا يُمَكِّنُ دَفْعَهُ مِنْ وَسْوَسةِ النَّفْسِ وَحَدِيثِهَا، فَهَذَا لَا يُكَلِّفُ بِهِ الْإِنْسَانَ. وَكَرَاهِيَةُ الْوَسْوَسةِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْإِيمَانِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أَيُّ مِنْ خَيْرٍ ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أَيُّ مِنْ شَرٍّ، وَذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ التَّكْلِيفِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا عِبَادَهُ إِلَى سُؤَالِهِ، وَقَدْ تَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا أَرَشَدُهُمْ وَعَلَّمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أَيُّ إِنْ تَرَكْنَا قَرْصًا عَلَى جِهَةِ النَّسْيَانِ، أَوْ فَعَلْنَا حَرَامًا كَذَلِكَ، أَوْ أَخْطَأْنَا أَيُّ الصَّوَابَ فِي الْعَمَلِ، جَهْلًا مَتَا يُوْجِبُهُ الشَّرْعِي. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»<sup>(٣)</sup>. وَلِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ اللَّهُ: «قَدْ فَعَلْتُ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أَيُّ لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، وَإِنْ أَطَقْنَاهَا، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَنَا مِنَ الْأَغْلَالِ وَالْأَصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، الَّتِي بَعُثْتَ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ، بِوَضْعِهِ فِي شَرْعِهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ السَّهْلِ السَّمْحِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»<sup>(٥)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ»<sup>(٦)</sup>. وَجَاءَ الْحَدِيثُ مِنْ طُرُقٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أَيُّ مِنْ التَّكْلِيفِ وَالْمَصَائِبِ وَالْبَلَاءِ، لَا تَبْتَلِنَا بِمَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ، وَقَدْ قَالَ مَكْحُولٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: الْعُرْبَةُ وَالْغُلْمَةُ<sup>(٨)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أَيُّ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مِمَّا تَعَلَّمُهُ مِنْ تَقْصِيرِنَا وَزَلَلِنَا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أَيُّ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادِكَ، فَلَا تُظْهِرْهُمْ عَلَى مَسَاوِينَا وَأَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أَيُّ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَلَا تُؤْفِقُنَا بِتَوَفِيقِكَ فِي ذَنْبٍ آخَرَ، وَلِهَذَا قَالُوا: إِنَّ الْمَذْنِبَ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَنْ يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ عِبَادِهِ، فَلَا يَفْضَحْهُ بِهِ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ يَعْصِمَهُ، فَلَا يُوقِعْهُ فِي تَطْيِيرِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: «نَعَمْ»، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أَيُّ أَنْتَ وَلِيُّنَا وَنَاصِرُنَا، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْكَ التَّكْلَانُ، وَلَا

(١) مسلم: ١٥٧/١ (٢) مسلم: ٥٥٤/١ والنسائي في الكبرى:

١٢/٥ (٣) مسلم: ١١٥/١ (٤) مسلم: ١١٦/١ (٥) مسلم:

١١٥/١ (٦) مسلم: ١١٦/١ (٧) أحمد: ٢٦٦/٥ ١١٦/٦،

٢٣٣ (٨) ابن أبي حاتم غ: ٢٣٥/٣

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

٥٠

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

## سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لَا يُخْلَفُ ﴿٩﴾

الْأَنْبِيَاءَ، فَهِيَ تُصَدِّقُهُ بِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ، وَبَشَّرَتْ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَهُوَ يُصَدِّقُهَا، لِأَنَّهُ طَابَقَ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ وَبَشَّرَتْ، مِنَ الْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أَيُّ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أَيُّ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أَيُّ فِي زَمَانِهِمَا. ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وَهُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْعَمَى وَالرَّشَادِ، بِمَا يَذْكُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَائِلِ

(١) الطبري: ١٤٦/٦ إسنادُه ضعيف وفيه أبو إسحاق السبيعي مدلس ولم يصرح، والسند إليه - فيه شيخ الطبري مجهول الحال ومما يدل على أن هناك واسطة بين أبي إسحاق ومعاذ رضي الله عنه ما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي إسحاق عن رجل: أن معاذًا . . [٨٠٦٢] وروى مثله الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن [٤٣١].

حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ، ﴿فَأَنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ جَحَدُوا دِينَكَ، وَأَنكَرُوا وَحْدَانِيَّتَكَ، وَرِسَالَاتَكَ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ، فَأَنصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ﴾. وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ﴾.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: أَنَّ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿فَأَنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: آمِينَ<sup>(١)</sup>.

## تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

لِأَنَّ صَدْرَهَا إِلَى ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ آيَةً مِنْهَا نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ، وَكَانَ قُدُومُهُمْ فِي سَنَةِ تِسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْمُبَاهَلَةِ مِنْهَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْبَقَرَةِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾

قَدْ ذَكَرْنَا الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي أَنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] و﴿الْم﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْم﴾ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَتَقَدَّمَ أَيْضًا الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي نَزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ، أَيُّ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ، بَلْ هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيُّ مِنْ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ

أَصْلُهُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْاِشْتِيَاءِ ﴿وَأُخْرُ مُشْكِهَتْ﴾ أَيُّ تَحْتَمِلُ دَلَالَتَهَا مُوَافَقَةَ الْمُحْكَمِ، وَقَدْ تَحْتَمِلُ شَيْئًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَالتَّرْكِيْبُ، لَا مِنْ حَيْثُ الْمُرَادُ. فَالْمُحْكَمَاتُ نَاسِخُهُ وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ وَأَحْكَامُهُ وَحُدُودُهُ وَقَرَانِصُهُ وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَيُعْمَلُ بِهِ. وَالْمُتَشَابِهَاتُ: إِنَّهُنَّ الْمُنْسُوخَةُ، وَالْمَقْدَمُ مِنْهُ وَالْمُؤَخَّرُ، وَالْأَمْثَالُ فِيهِ وَالْأَقْسَامُ، وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿بَنَتْ مُحْكَمَاتٌ﴾ فِيهِنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ، وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَفْعُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ، لَيْسَ لَهُنَّ تَضْرِيفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وَضَعْنَ عَلَيْهِ، قَالَ: وَالْمُتَشَابِهَاتُ فِي الصَّدَقِ، لَهُنَّ تَضْرِيفٌ وَتَحْرِيفٌ وَتَأْوِيلٌ، إِنْتَلَى اللَّهُ فِيهِنَّ الْعِبَادَ، كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، لَا يُضَرَفْنَ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يُحَرَفْنَ عَنِ الْحَقِّ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَنْبٌ﴾ أَيُّ ضَلَالٍ وَخُرُوجٍ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا نَشَاءُ مِنْهُ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِالْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُحَرِّفُوهُ إِلَى مَقَاصِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَيُزَلُّوهُ عَلَيْهَا، لِاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَضُرُّوهُ، فَاثِمًا الْمُحْكَمُ فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهِ، لِأَنَّهُ دَامِعٌ لَهُمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا الْفِتْنَةَ﴾ أَيُّ الْإِضْلَالِ لِاتِّبَاعِهِمْ، إِيهَامَا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى بَذْعِهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَهَذَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ، كَمَا لَوْ اخْتَجَّ النَّصَارَى بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَطَقَ بِأَنَّ عِيسَى هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَتَرَكُوا الْإِخْتِجَاجَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] وَبِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ الْمُضَرِّحَةِ بِأَنَّهُ خَلَقَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، وَعَبْدٌ وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعُوا تَأْوِيلَهُ﴾ أَيُّ تَحْرِيفِهِ عَلَى مَا يُرِيدُونَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَؤُا الْأَنْبِيَاءُ﴾ فَقَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ فَهُمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ، فَاحْذَرُوهُمْ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ

الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، وَبَيَّنَّهُ وَبَوَّضَهُ وَيُفَسِّرُهُ وَيُفَرِّدُهُ وَيُرْشِدُ إِلَيْهِ وَبَيَّنَّهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَيُّ جَحَدُوا بِهَا وَأَنْكَرُوهَا وَرَدُّوَهَا بِالْبَاطِلِ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ، ﴿ذُو أَنْبَاءٍ﴾ أَيُّ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، وَخَالَفَ رُسُلَهُ الْكِرَامَ وَأَنْبِيََاءَهُ الْعِظَامَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هُوَ الَّذِي يُمَوِّزُكَ فِي الْأَنْبَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، ﴿هُوَ الَّذِي يُمَوِّزُكَ فِي الْأَنْبَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَيُّ يَخْلُقُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَمَا يَشَاءُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَحَسَنَ وَفَسِيحَ، وَشَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي خَلَقَ، وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةُ وَالْأَحْكَامُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفٌ، بَلْ تَضْرِيفٌ بِأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ مَخْلُوقٌ، كَمَا خَلَقَ اللَّهُ سَائِرَ الْبَشَرِ، لِأَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ فِي الرَّحِمِ، وَخَلَقَهُ كَمَا يَشَاءُ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا - كَمَا رَعَمْتُهُ النَّصَارَى، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - وَقَدْ ثَقَلَبَ فِي الْأَحْشَاءِ، وَتَنَقَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فَاثِمًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَنْبٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا نَشَاءُ مِنْهُ اتِّبَاعًا الْفِتْنَةَ وَاتِّبَاعًا تَأْوِيلَهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَؤُا الْأَنْبِيَاءُ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾

[بَيَانُ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَالْمُحْكَمَاتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، أَيُّ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ الدَّلَالَةِ، لَا الْتِبَاسَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخْرُ فِيهَا اِشْتِيَاءٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ، فَمَنْ رَدَّ مَا اِشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ، وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ، فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أَيُّ

وَسَاغَ هَذَا، وَهُوَ - أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَعْطُوفِ دُونَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ - كَقَوْلِهِ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا...﴾ الآية [الحشر: ١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَيْكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٢٢] أَيْ وَجَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ صُفُوفًا صُفُوفًا.

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ﴾، أَيْ بِالْمُشَافَهَةِ، ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أَيْ الْجَمِيعُ مِنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُشَافَهَةِ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُصَدِّقُ الْآخَرَ وَيَشْهَدُ لَهُ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمُخْتَلِفٍ وَلَا مُتَضَادٍّ، لِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء: ٨٢]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَفْهَمُ وَيَعْقِلُ وَيَتَذَكَّرُ الْمَعَانِي عَلَى وَجْهِهَا أُولُو الْعُقُولِ السَّالِمَةِ وَالْفُهُومِ الْمُسْتَقِيمَةِ. وَرَوَى ابْنُ الْمُنْذِرِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ نَافِعِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: يُقَالُ: الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: الَّتَوَاضِعُونَ لِلَّهِ، الْمُتَذَلِّلُونَ لَهُ فِي مَرْضَاتِهِ، لَا يَتَعَاطُونَ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلَا يَحْقِرُونَ مَنْ دُونَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ مُخْبِرًا أَنَّهُمْ دَعَا رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أَيْ لَا تُبَلِّغْنَا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ أَمْتَمْتَهَا عَلَيْهِ، وَلَا تَجْعَلْنَا كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ ثَبَّتْنَا عَلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ، وَدِينِكَ الْقَوِيمِ، ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أَيْ مِنْ عِنْدِكَ ﴿رَحْمَةً﴾ ثَبَّتْ بِهَا قُلُوبَنَا، وَتَجَمَّعَ بِهَا سَمَلُنَا، وَتَزِيدَنَا بِهَا إِيمَانًا وَإِقَانًا، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا مُغَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيْ

الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْقَدَرِ مِنْ صَحِيحِهِ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الشَّيْءِ مِنْ سُنَنِهِ، ثَلَاثُهُمْ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: ثَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»<sup>(١)</sup>. لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

[لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهَاتِ إِلَّا اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي الْوَقْفِ هَهُنَا. فَقِيلَ: عَلَى الْجَلَالَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: تَفْسِيرٌ لَا يُعَذِّرُ أَحَدٌ فِي فَهْمِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ<sup>(٢)</sup>. وَيُرْوَى هَذَا الْقَوْلُ عَنْ عَائِشَةَ وَعُرْوَةَ، وَأَبِي الشَّعْثَاءِ، وَأَبِي نَهْكَ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وَتَبِعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلِ الْأَصُولِ، وَقَالُوا: الْخِطَابُ بِمَا لَا يُفْهَمُ، بَعِيدٌ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ<sup>(٣)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا لِابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَفِّهْ فِي الدِّينِ وَعَلِّمُهُ التَّأْوِيلَ»<sup>(٤)</sup>. وَالتَّأْوِيلُ يُطْلَقُ، وَيُرَادُّ بِهِ فِي الْقُرْآنِ مَعْنَيَانِ، أَحَدُهُمَا: التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى حَقِيقَةِ الشَّيْءِ، وَمَا يُؤَوَّلُ أَمْرُهُ إِلَيْهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أَيْ حَقِيقَتُهُ مَا أُخْبِرُوا بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ هَذَا، فَالْوَقْفُ عَلَى الْجَلَالَةِ، لِأَنَّ حَقَائِقَ الْأُمُورِ وَكُنْهَهَا لَا يَعْلَمُهُ عَلَى الْحِلَّةِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مُتَبَدِّلًا وَ﴿يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ﴾ خَبَرَهُ، وَأَمَّا إِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ الْمَعْنَى الْآخَرُ، وَهُوَ التَّفْسِيرُ وَالْبَيَانُ وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الشَّيْءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثَبَّتْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أَيْ بِتَفْسِيرِهِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى، فَالْوَقْفُ عَلَى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ وَيَفْهَمُونَ مَا خُوطِبُوا بِهِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، وَإِنْ لَمْ يُحِيطُوا عِلْمًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ عَلَى كُنْهِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ﴾ حَالًا مِنْهُمْ،

(١) فتح الباري: ٥٧/٨ ومسلم: ٢٠٥٣/٤ وأبو داود: ٦/٥

(٢) الطبري: ٥٧/١ (٣) الطبري: ٢٠٣/٦ (٤) فتح الباري: ٢٠٥/١ وأحمد (٢٣٩٧) ٢٢٥/٤ واللفظ له، وفي البخاري لفظ "الكتاب" يدل "التأويل" (٥) ابن أبي حاتم: ٨٤/٢ والطبري: ٢١٣/٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ  
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابٌ آوَى  
 فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ  
 وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُكُمْ  
 وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ  
 لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقَتَنِافَةِ تَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَآخَرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ  
 يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي  
 الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ  
 وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ  
 وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ  
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ  
 أَوْثَقُوا بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَنْ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ  
 تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ  
 وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

آلِ الْمِهَادِ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقَتَنِافَةِ تَقْتُلُونَ فِي  
 سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ  
 وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي  
 الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

[تَهْدِيدُ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ سَيُغْلَبُونَ، وَحَثُّهُمْ عَلَى الْإِغْتِيَارِ  
 بِيَوْمِ بَدْرٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أَيُّ  
 فِي الدُّنْيَا، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ  
 الْمِهَادُ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ  
 عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَصَابَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ  
 مَا أَصَابَ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي  
 قَيْنَقَاعَ. وَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ! أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ  
 مَا أَصَابَ قُرَيْشًا» فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ لَا يَغْرُوكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنْ

يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: إِنَّكَ يَا رَبَّنَا سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ  
 مَعَادِهِمْ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ، وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ،  
 وَتَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.  
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ  
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿١٠﴾ كَذَابٌ آوَى  
 فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ  
 وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ  
 الظَّالِمِينَ مَعَدْرَتُهُمْ وَلَهُمْ النَّعْتَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾  
 [غافر: ٥٢] وَلَيْسَ مَا أُوْتُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ  
 بِنَافِعٍ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا بِمُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُغْنِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ  
 اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾  
 [التوبة: ٨٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي  
 الْأَرْضِ﴾ ﴿١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا أُوتِيَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [آل  
 عمران: ١٩٦، ١٩٧]، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا﴾ أَيُّ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَخَالَفُوا كِتَابَهُ،  
 وَلَمْ يَتَّقُوا بِوَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا  
 أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أَيُّ حَطَبُهَا  
 الَّذِي تُسَجَّرُ بِهِ، وَتُوقَدُ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَابٌ آوَى فِرْعَوْنَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ: كَصْنِيعِ آلِ فِرْعَوْنَ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ  
 وَمُجَاهِدٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ  
 يَقُولُ: كُشْنَةُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَفْعَلُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكُشْبِهِ آلِ  
 فِرْعَوْنَ<sup>(٢)</sup>. وَالْأَلْفَاظُ مُتَقَارِبَةٌ، وَالذَّابُّ: الصَّنِيعُ وَالْحَالُ  
 وَالشَّانُ وَالْأَمْرُ وَالْعَادَةُ، كَمَا يُقَالُ: لَا يَزَالُ هَذَا دَابِّي  
 وَدَابُّكَ. وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ  
 الْأَمْوَالُ وَلَا الْأَوْلَادُ، بَلْ يَهْلِكُونَ وَتُعَذَّبُونَ، كَمَا جَرَى  
 لِآلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ  
 مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيُّ شَدِيدُ  
 الْأَخْذِ، أَلِيمُ الْعَذَابِ، لَا يَمْنَعُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يَقْوَاهُ  
 شَيْءٌ، بَلْ هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، الَّذِي غَلَبَ كُلَّ شَيْءٍ، وَذَلَّ  
 لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُكُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ

(١) الطبري: ٦/ ٢٢٤ لم يلق الضحاك ابن عباس كما مر (٢) ابن  
 أبي حاتم: ٩٢/٢

تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَوَّلُهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿أَيُّ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ وَفَهُمْ يَهْتَدِي بِهِ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَأَفْعَالِهِ، وَقَدَرِهِ الْجَارِي بِنَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْثِقُوا بِخَبَرٍ مِن دَالِكُمْ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بِالْآبَاءِ ﴿١٥﴾

### [بَيَانُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا زَيْنٌ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَادُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، فَبَدَأَ بِالنِّسَاءِ، لِأَنَّ الْفِتْنَةَ بِهِنَّ أَشَدُّ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»<sup>(١)</sup>. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بِهِنَّ الْإِعْطَافَ وَكَثْرَةَ الْأَوْلَادِ، فَهَذَا مَطْلُوبٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ، مَنُذُوبٌ إِلَيْهِ، كَمَا وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالتَّرْغِيبِ فِي التَّزْوِيجِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ «وَإِنْ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ كَانَ أَكْثَرُهَا نِسَاءً»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ: إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتُهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «حُبُّ إِلَيَّ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النِّسَاءِ. إِلَّا الْخَيْلُ. وَفِي رِوَايَةٍ: مِنَ الْخَيْلِ. إِلَّا النِّسَاءَ<sup>(٥)</sup>.

وَحُبُّ الْبَنِينَ تَارَةً يَكُونُ لِلتَّقَاخُرِ وَالزَّيْنَةِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا، وَتَارَةً يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النِّسْلِ، وَتَكْثِيرِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ

فَقُلْتُ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَعْمَارًا، لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ وَاللَّهُ! لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنْتَ لَمْ تَلَقَ مِثْلَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾<sup>(١)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أَيُّ قَدْ كَانَ لَكُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ الْقَائِلُونَ مَا قُلْتُمْ آيَةً، أَيُّ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مُعِزُّ دِينِهِ، وَنَاصِرُ رَسُولِهِ، وَمُطَهِّرُ كَلِمَتِهِ، وَمُعَلِّمُ أَمْرِهِ ﴿فِي فِتْنَتَيْنِ﴾ أَيُّ طَائِفَتَيْنِ ﴿التَّقَى﴾ أَيُّ لِقَاتِلِ ﴿فِتْنَةٍ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَأُخْرَى كَافَةٌ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَرْوَنَّهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْكُفَّيْنِ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ - فِيمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ: يَرَى الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَيْهِمْ فِي الْعَدَدِ رَأَى أَغْيِيهِمْ، أَيُّ جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيمَا رَأَوْهُ سَبَبًا لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَرْوَنَّهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْكُفَّيْنِ﴾ أَيُّ تَرَى الْفِتْنَةَ الْمُسْلِمَةَ الْفِتْنَةَ الْكَافِرَةَ مِثْلَيْهِمْ، أَيُّ ضِعْفَيْهِمْ فِي الْعَدَدِ، وَمَعَ هَذَا نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: وَقَدْ نَظَرْنَا إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَرَأَيْنَاهُمْ يُضِعِفُونَ عَلَيْنَا، ثُمَّ نَظَرْنَا إِلَيْهِمْ فَمَا رَأَيْنَاهُمْ يَزِيدُونَ عَلَيْنَا رَجُلًا وَاحِدًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِ فِي أَعْيُنِكُمْ قِيلَ لَا يَمْلِكُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ... [الْأَنْفَالُ: ٤٤]، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَقَدْ قُلُّوا فِي أَعْيُنِنَا حَتَّى قُلْتُ لِرَجُلٍ إِلَى جَانِبِي: تَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: أَرَاهُمْ مِائَةً، قَالَ: فَأَسْرَرْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقُلْنَا، كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: أَلْفًا<sup>(٢)</sup>.

فَعِنْدَمَا عَايَنَ كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَ، رَأَى الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَيْهِمْ، أَيُّ أَكْثَرَ مِنْهُمْ بِالضَّعْفِ، لِيَتَوَكَّلُوا وَيَتَوَجَّهُوا وَيَطْلُبُوا الْإِعَاذَةَ مِنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَأَى الْمُشْرِكُونَ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ، لِيَحْصُلَ لَهُمُ الرُّغْبُ وَالْخَوْفُ وَالْجَزَعُ وَالْهَلَعُ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ التَّصَافُ، وَالتَّقَى الْفَرِيقَانِ، قَلَّلَ اللَّهُ هَوْلًا فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ، وَهَوْلًا فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ، لِيُقَدِّمَ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ ﴿لِيَقْصِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الْأَنْفَالُ: ٤٤] أَيُّ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَيُظْهِرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَيُعِزَّ الْمُؤْمِنِينَ وَيَذِلَّ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ

(١) الطبري: ٢٣٤/٦ عاصم بن عمر بن قتادة تابعي، فالرواية

مرسلة (٢) الطبري: ٢٣٦/٦ أبو إسحاق مدلس ولم يصرح وأبو

عبدة لم يسمع من أبيه عبدالله بن مسعود على الراجح كما قال ابن

حجر في التقريب (٣) فتح الباري: ٤١/٩ (٤) فتح الباري: ٩/

١٥ (٥) مسلم: ١٠٩٠/٢ (٦) النسائي في الكبرى: ٢٨٠/٥

(٧) النسائي: ٢١٧/٦ و٦١/٧ عن أنس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْكٌ فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا  
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْقَنِينِ  
وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ  
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ  
اللَّهِ أَلْسَلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ  
بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ  
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّكَ فَقُلْ أَسَمِعْتُ  
وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ  
ءِ اسْلَمْتُمْ فَإِنْ اسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا  
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ  
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ  
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ  
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِنَ النَّصِيرِ ﴿٢٢﴾

هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مِنْ زَهْرَتِهَا وَنَعِيمِهَا الَّذِي هُوَ زَائِلٌ لَا  
مَحَالَةَ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ  
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ تَنْحَرِقُ بَيْنَ جَوَانِبِهَا  
وَأَرْجَائِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَشْرَبِ: مِنَ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ  
وَالْخَمْرِ وَالْمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ  
سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ  
مَآكِينٍ فِيهَا أَبَدَ الْأَبَادِ، لَا يَنْعَوْنَ عَنْهَا جَوْلًا، ﴿وَأَزْوَاجٌ  
مُطَهَّرَةٌ﴾ أَيْ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ، وَالْأَدَى وَالْحَيْضِ  
وَالنَّعَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَغْتَرِي نِسَاءَ الدُّنْيَا ﴿وَيَرْضَوْنَ  
مِنْ اللَّهِ﴾ أَيْ يَجِلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُهُ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ  
أَبَدًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى الَّتِي فِي بَرَاءَةِ:  
﴿وَيَرْضَوْنَ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أَيْ أَعْظَمُ مِمَّا  
أَعْطَاهُمْ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ

مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهَذَا مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ،  
كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي  
مُكَائِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

وَحُبُّ الْمَالِ كَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ،  
وَالْتَكَبُّ عَلَى الضُّعْفَاءِ، وَالتَّجَبُّرُ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَهَذَا  
مَدْمُومٌ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلتَّقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ  
وَالْقُرَابَاتِ، وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ مَحْمُودٌ  
عَلَيْهِ شَرَعًا.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُتَسَرُّونَ فِي مَقْدَارِ الْقِنطَارِ عَلَى أَقْوَالٍ،  
وَخَاصِلُهَا: أَنَّهُ الْمَالُ الْعَزِيزُ. كَمَا قَالَه الضَّحَّاكُ  
وغيره<sup>(٢)</sup>.

(وَحُبُّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَفْسَامٍ) تَارَةً يَكُونُ رَبَطُهَا  
أَصْحَابُهَا مُعَدَّةً لِسَيْلِ اللَّهِ، مَتَى اخْتَأَجُوا إِلَيْهَا غَزَوْا عَلَيْهَا،  
فَهَؤُلَاءِ يَتَابُونَ. وَتَارَةً تُرَبِّطُ فَخْرًا وَبَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ،  
فَهَؤُلَاءِ عَلَى صَاحِبِهَا وَزُرٌّ. وَتَارَةً لِلتَّعَفُّفِ وَافْتِنَاءِ نَسْلِهَا،  
وَلَمْ يَسَّرْ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا. فَهَؤُلَاءِ لِصَاحِبِهَا سِنَرٌ. كَمَا  
سَيَأْتِي الْحَدِيثُ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾...

الْآيَةُ [الأنفال: ٦٠]، وَأَمَّا الْمُسُومَةُ، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْمُسُومَةُ الرَّاعِيَةُ<sup>(٣)</sup> وَالْمُطَهَّمَةُ الْحِسَانُ.  
وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ  
وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السُّدِّيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ  
وَأَبِي سِتَّانٍ. وَغَيْرُهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مَكْحُولٌ: الْمُسُومَةُ الْغُرَّةُ  
وَالْتَحْجِيلُ<sup>(٥)</sup>. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ  
أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ  
مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدَّنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجَرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ  
يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ  
مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ - أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ»<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَنْكَمُ﴾ يَعْنِي الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ،  
﴿وَالْحَرْثُ﴾ يَعْنِي الْأَرْضَ الْمُتَّخَذَةَ لِلْغُرَاسِ وَالزَّرَاعَةِ.  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مَكْنُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ إِنَّمَا  
هَذَا زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَزِينَتُهَا الْفَانِيَةُ الزَّائِلَةُ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ  
حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ أَيْ حُسْنُ الْمَرْجِعِ وَالنَّوَابِ.

[جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْتَيْتُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أَيْ  
قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ: أَأَخْبِرْكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي

(١) ابن حبان: ١٣٤/٦ (٢) الطبري: ٢٥٠/٦ (٣) الطبري:

٢٥٢/٦ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٣/٢ - ١٢٥ (٥) ابن أبي

حاتم: ١٢٧/٢ (٦) أحمد: ١٧٠/٥



أَهْتَدُوا وَابْتَغُوا فَلَئِمَّا عَلَيْكَ الْبَلْعُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بِالْإِسْلَامِ ﴿٢٠﴾

[شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ]

شَهِدَ تَعَالَى، وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا، وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ وَأَعْدَلُهُمْ، وَأَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ﴿أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ الْمُنْتَفِرَةِ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُهُ وَخَلْقُهُ وَالْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ... آيَةُ [النساء: ١٦٦]، ثُمَّ قَرَنَ شَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ وَأُولِي الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ، فَقَالَ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أَيُّ هُوَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَذَلِكَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ عَظَمَةً وَكِبَرِيَاءً، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشُرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

[الَّذِينَ هُوَ الْإِسْلَامُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾ إِنْخِبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ جِيلٍ، حَتَّى خَتَمُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي سُدَّ جَمِيعُ الطُّرُقِ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بَعْدَ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِدِينٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِهِ فَلَيْسَ بِمُتَقَبَّلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ... آيَةُ [آل عمران: ٨٥]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُخْبِرًا بِإِنْخِبَارِ الَّذِينَ الْمُتَقَبَّلِ عِنْدَهُ فِي الْإِسْلَامِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ، إِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِمَا يَبْتَغُونَ﴾ أَيُّ بَغْيٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَاخْتَلَفُوا فِي الْحَقِّ، لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ، فَحَمَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ الْبَعْضِ الْآخِرَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا،

بِالْإِسْلَامِ ﴿٢٠﴾ أَيُّ يُعْطَى كُلًّا بِحَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَطَاءِ. ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا مَعَكُمْ فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَرَبَّنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿الْمَكِيدِينَ وَالْمَكِيدِينَ وَالْمَكِيدِينَ وَالْمَكِيدِينَ﴾ بِالْأَسْحَارِ ﴿٢١﴾

[دُعَاءُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمْ]

يَصِفُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا مَعَكُمْ أَيُّ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ﴾، ﴿فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَيُّ بِإِيمَانِنَا بِكَ وَبِمَا شَرَعْتَهُ لَنَا، فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَتَقْصِرْنَا مِنْ أَمْرِنَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ، ﴿وَرَبَّنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ فِي قِيَامِهِمْ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِهِمُ الْمَحْرَمَاتِ، ﴿وَالْمَكِيدِينَ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيمَانِهِمْ بِمَا يَلْتَزِمُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، ﴿وَالْمَكِيدِينَ﴾ وَالْقُنُوتِ الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ ﴿وَالْمَكِيدِينَ﴾ أَيُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ، وَسَدِّ الْخَلَاتِ، وَمُوَاسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ ﴿وَالْمَكِيدِينَ﴾ بِالْأَسْحَارِ ﴿٢٢﴾ دَلَّ عَلَى فَضِيلَةِ الْإِسْتِغْفَارِ وَقَتِ الْأَسْحَارِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ يَغْفُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا قَالَ لِنَبِيِّهِ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ إِنَّهُ أَخْرَجَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ.

وَبُتِّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَسَانِدِ وَالسَّنَنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: ﴿يُنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟... الْحَدِيثُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْ أَوَّلِهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ، فَانْتَهَى وَتَرُّهُ إِلَى السَّحْرِ» (٢٣). وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا نَافِعُ، هَلْ جَاءَ السَّحَرُ؟ فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ، أَقْبَلَ عَلَى الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ حَتَّى يُضْهِجَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢٤).

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَكِيدُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِمَا يَبْتَغُونَ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ فَإِنْ حَاسِبُوكَ فَقَدْ آسَفْتَ وَتَجِبَى لِلَّهِ وَمَنْ أَتَعَبَنَّ وَقَدْ لَئِذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَيْمَانَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ

(١) فتح الباري: ١٣٣/١١ ومسلم: ٥٢١/١ وأبو داود: ٧٧/٢  
وتحفة الأحوذى: ٤٧١/٩ والنسائي في الكبرى: ١٢٣/٦ وابن  
ماجه: ٤٣٥/١ وأحمد: ٤٨٧/٢ (٢) فتح الباري: ٥٦٤/٢  
ومسلم: ٥١٢/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٤٥/٢ والطبري: ٦٧٥٠

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَتَّيْتُ اللَّهُ﴾ أَيُّ مَنْ جَحَدَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ وَيَحَاسِبُهُ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَيُعَاقِبُهُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ كِتَابَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَاجَّكَ﴾ أَيُّ جَادَلُوكَ فِي التَّوْحِيدِ ﴿فَقُلْ أَتَسْتَنْتَ لِلَّهِ وَمِنْ أَتْبَعِنَ﴾ أَيُّ فَقُلْ: أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي لِلَّهِ وَخَدَّهَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يَدَّ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، ﴿وَمِنْ أَتْبَعِنَ﴾ أَيُّ عَلَى دِينِي يَقُولُ كَمَا تَلْتِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ... [يوسف: ١٠٨].

[الإسلام دين الناس كافة، والنبي ﷺ مبعوث إليهم جميعاً]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَدِينِهِ، وَالِدُخُولِ فِي شَرْعِهِ، وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ: الْكِتَابَيْنِ مِنَ الْمَلَكَيْنِ، وَالْأَمِينَيْنِ مِنَ الْمُسْرِكَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِلَّا تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أَيُّ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَأْبَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحُكْمُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْأَعْمَالِ﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَاةَ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْتَلُونَ [الأنبياء: ٢٣] وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِحُكْمِيهِ وَرَحْمَتِهِ.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دلَّ عليه الكتاب والسنة في غير ما آتاه وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْتُ النَّاسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَرَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كُتْبُهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مُلُوكَ الْأَقَاقِ، وَطَوَائِفَ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبِهِمْ وَعَجَبِهِمْ كِتَابِيَهُمْ وَأُمِّيَهُمْ، امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي

أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>. رواه مسلم.

وقال ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وَقَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيِّنَةٌ لَهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [١١] أَوْلَيْكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنَ نَصِيرَةٍ﴾ [١٢]

[دَمُ الْيَهُودِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ]

هَذَا دَمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ فِي تَكْذِيبِهِمْ بَيِّنَاتِ اللَّهِ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا، الَّتِي بَلَّغْتُهُمْ بِهَا الرُّسُلَ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَعِنَادًا لَهُمْ، وَتَعَاطُفًا عَلَى الْحَقِّ، وَاسْتِنْتِكَافًا عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَمَعَ هَذَا قَتَلُوا

(١) فتح الباري: ٤٢/١ ومسلم: ٤/١٩٩٣ (٢) مسلم: ١/١٣٤

(٣) مسلم: ٣٧٠/١ والبخاري: ٣٣٥

وَمَحَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ، وَمَجَازِبُهُمْ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيُّ لَا شَكَّ فِي وَفُوعِهِ وَكَوْنِهِ، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾ تُولِيهِ الْيَدِ فِي النَّهَارِ وَتُولِيهِ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْفَعُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٢﴾﴾

### [الإرشاد إلى الشكر]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ﴾ يَا مُحَمَّدُ مَعْظَمًا لِرَبِّكَ، وَشَاكِرًا لَهُ، وَمُقَوِّضًا إِلَيْهِ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ أَيُّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ أَيُّ أَنْتَ الْمُعْطِي، وَأَنْتَ الْمَانِعُ، وَأَنْتَ الَّذِي مَا شِئْتَ كَانَ، وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهُ وَإِرْشَادٌ إِلَى شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَهَذِهِ الْأُمَّةِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَوَّلَ النُّبُوَّةَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ الْمَكِّيِّ الْأُمِّيِّ، خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَرَسُولِ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ مَحَاسِنَ مَن كَانَ قَبْلَهُ، وَخَصَّهُ بِخَصَائِصَ لَمْ يُعْطَهَا نَبِيًّا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا رَسُولًا مِّنَ الرُّسُلِ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَأَطْلَاعِهِ عَلَى الْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ وَالْآيَةِ، وَكَشْفِهِ لَهُ عَنْ حَقَائِقِ الْآخِرَةِ، وَنَشْرَ أَمْنِهِ فِي الْأَفَاقِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَشَرْعِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ. فَصَلَّوْا اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾...

الْآيَةِ، أَيُّ أَنْتَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِكَ، الْفَعَالُ لِمَا تُرِيدُ، كَمَا رَدَّ تَعَالَى عَلَى مَن يَتَحَكَّمُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قَالَ اللَّهُ رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَهُمَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾... الْآيَةِ [الزخرف: ٣٢]، أَيُّ نَحْنُ نَتَصَرَّفُ فِي خَلْقِنَا كَمَا تُرِيدُ بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ، وَلَنَا الْحِكْمَةُ

مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ حِينَ بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ بِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا جَرِيْمَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، إِلَّا لِيُكَزِّبَهُمْ دَعْوُهُمْ إِلَى الْحَقِّ ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الْكِبَرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»<sup>(١)</sup>.

وَلِهَذَا لَمَّا أَنْ تَكَبَّرُوا عَنِ الْحَقِّ وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْخَلْقِ، فَابْتَلَاهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِالذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَكْبَرْتُمْ بِكَذَابِ آيِسٍ﴾ أَيُّ مُوجِعٍ مُهِينٍ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّارُ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ وَنَحْمُ فِي دِينِهِ مَّا كَانُوا يَقْتُمُونَ ﴿٣٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[دَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ عَلَى عَدَمِ تَحْكِيمِهِمْ كِتَابَ اللَّهِ] يَقُولُ تَعَالَى مُكْرِئًا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الْمُتَمَسِّكِينَ فِيمَا يَزْعُمُونَ بِكِتَابَيْهِمُ اللَّذَيْنِ بَأْيَدِيهِمْ، وَهُمَا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى مَا فِيهِمَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِيهِمَا مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، تَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ عَنْهُمَا، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنْ دَمِهِمْ، وَالتَّنَوُّيَةِ بِذِكْرِهِمْ بِالْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّارُ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أَيُّ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ وَجَرَائِمُهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْحَقِّ أَفْزَاؤُهُمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ لَأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُعَدُّونَ فِي النَّارِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَنْ كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ فِي الدُّنْيَا يَوْمًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَحْمُ فِي دِينِهِ مَّا كَانُوا يَقْتُمُونَ﴾ أَيُّ تَبْتَهُمْ عَلَى دِينِهِمُ الْبَاطِلِ، مَا خَدَعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ النَّارَ لَا تَمْسُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْتَرُوا هَذَا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَافْتَعَلُوهُ، وَلَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ بِهِ سُلْطَانًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيُّ كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ وَقَدْ أَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَقَتَلُوا أَنْبِيََاءَهُ، وَالْعُلَمَاءَ مِنْ قَوْمِهِمْ، الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ،

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٥٤

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

كَبِيرٌ ﴿الأنفال: ٧٣﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتُمُوا مِنْهَ تَكْتُمُ﴾ أَيُّ إِلَّا مَنْ خَافَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ أَوْ الْأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ، قُلَهُ أَنْ يَتَّقِيَهُمْ بِظَاهِرِهِ لَا بِطَائِبِهِ وَيَتَّبِعُهُ. كَمَا حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ الْحَسَنُ: التَّقِيَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أَيُّ يُحَذِّرُكُمْ يَقَمُّهُ أَيُّ مُخَالَفَتُهُ وَسَطَوْتُهُ فِي عَذَابِهِ لِمَنْ وَالَى أَعْدَاءَهُ، وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿قُلْ إِنْ تَحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُتَدَوُّ بِعَلَمِهِ اللَّهُ وَسَعَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup> يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ

الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الثَّامَّةُ فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا نُعْطِي النُّبُوَّةَ لِمَنْ نُرِيدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾... الآية [الإسراء: ٢١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أَيُّ تَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَتَزِيدُهُ فِي قِصَرِ هَذَا، فَيَعْتَدِلَانِ، ثُمَّ تَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَتَقَاوَرَانِ، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ، وَهَكَذَا فِي فُصُولِ الشَّيْءِ رِبْعًا وَصَيِّفًا وَخَرِيفًا وَشَيْئًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَيُّ تُخْرِجُ الْحَيَّةَ مِنَ الزَّرْعِ، وَالزَّرْعَ مِنَ الْحَيَّةِ، وَالتَّخْلَةَ مِنَ النَّوَاةِ، وَالنَّوَاةَ مِنَ التَّخْلَةِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَالْبَيْضَةَ مِنَ الدَّجَاجَةِ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿وَتَزْنِي مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَيُّ تُعْطِي مَنْ شِئْتَ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَعْذُرُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِحْصَائِهِ، وَتَقْتَرُ عَلَىٰ آخِرِينَ لِمَا لَكَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْعَدْلِ.

﴿لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾<sup>(٣)</sup>

[النَّهْيُ عَنْ مَوَالَاةِ الْمُشْرِكِينَ]

نَهَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أَيُّ وَمَنْ يَرْتَكِبْ نَهْيَ اللَّهِ فِي هَذَا، فَقَدْ بَرَّءَ مِنَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُوا إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَوَلَّيْهُمْ يَكُنْ لَهُمْ فِتْنَةٌ مِنْهُمْ﴾... الآية [المائدة: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مَوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَعْرَابِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ

(١) فتح الباري: ١٠/٥٤٤

أَنْ يَبَيِّنَهَا وَيَبَيِّنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

[اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ، وَيُخْضِرُ كُلَّ أَعْمَالِ الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

دَعَاؤُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ، وَالَّذِينَ النَّبَوِيُّ، فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أَيُّ يَحْصُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ، فَاتَّبَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ بِاتِّبَاعِكُمْ الرَّسُولَ ﷺ، يَحْصُلُ لَكُمْ هَذَا كُلُّهُ مِنْ بَرَكَتِهِ سِفَارَتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمِيرًا لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيُّ خَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي الطَّرِيقَةِ كُفْرٌ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ، وَإِنْ ادَّعَى وَزَعَمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، حَتَّى يُتَابِعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ وَرَسُولَ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْحَيِّ وَالْإِنْسِي، الَّذِي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ بَلِ الْمُرْسَلُونَ بَلِ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنْهُمْ فِي زَمَانِهِ مَا وَسِعَهُمْ إِلَّا اتِّبَاعُهُ، وَالذُّخُولُ فِي طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعُ شَرِيعَتِهِ، كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾ الْآيَةِ [آل عمران: ١٨١]. إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخْضَرًّا...» الْآيَةِ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْضَرُ لِلْعَبْدِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْذُرُوا الْإِنْسَانُ يُوَدِّعُ يَمًا فَادَمَ وَأَثَرُ﴾ [القيامة: ١٣] فَمَا رَأَى مِنْ أَعْمَالِهِ حَسَنًا سَرَهُ ذَلِكَ وَأَفْرَحَهُ، وَمَا رَأَى مِنْ قَبِيحٍ سَاءَهُ وَغَاطَهُ، وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ بَعِيدٌ. كَمَا يَقُولُ لِشَيْطَانِهِ الَّذِي كَانَ مُقَرَّنًا بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي جَرَّاهُ عَلَى فِعْلِ الشَّوْءِ ﴿وَبَيَّنْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ التَّمْشِقِينِ فَيُتَسَّ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكِّدًا وَمَهْدِدًا وَمُتَوَعِّدًا: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ﴾ أَيُّ يُخَوِّفُكُمْ عِقَابَهُ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُرْجِيًا لِعِبَادِهِ لئَلَّا يَنَاسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَقْنَطُوا مِنْ لُطْفِهِ ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ حَذَرَهُمْ نَفْسُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ<sup>(١)</sup>: أَيُّ رَجِيمٌ بِخَلْقِهِ، يُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا رَسُولَهُ الْكَرِيمَ.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾

[حُبُّ اللَّهِ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

[الْمُضْطَفُّونَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الْبَيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَاصْطَفَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسَجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَهْبَطَهُ مِنْهَا لَمَّا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ. وَاصْطَفَى نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ رَسُولٍ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، لَمَّا عَبْدَ النَّاسُ الْأَوْثَانَ، وَأَشْرَكُوا فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَانْتَقَمَ لَهُ

(١) الطبري: ٢٠٢/٦ (٢) فتح الباري: ٣٥٥/٥ (٣) ابن أبي حاتم: ٢٠٥/٢

لَمَّا طَالَتْ مُدَّتُهُ بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَغْرَقَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ. وَاضْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَالْإِيمَانُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِعِمْرَانَ هَذَا هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦﴾

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمَرْغِمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ٣٧﴾

[نُشُوءُ مَرْيَمَ وَكَرَامَتُهَا عَلَى اللَّهِ]

يُخْبِرُ رَبُّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نَذِيرَةً، وَأَنَّهُ «وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا»، أَيَّ جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيحًا، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْقَبُولِ، وَقَرَّنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، تَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ وَالِدِينَ، «وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» أَيَّ جَعَلَهُ كَافِلًا لَهَا. وَإِنَّمَا قَدَّرَ اللَّهُ كَوْنَ زَكَرِيَّا كَافِلًا لِسَعَادَتِهَا، لِتَقْبَسَ مِنْهُ عِلْمًا جَمًّا نَافِعًا، وَعَمَلًا صَالِحًا، وَلِأَنَّهُ كَانَ زَوْجَ خَالَتِهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ: زَوْجُ أُخْتِهَا. كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «إِذَا يَبْحَثُ وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ ذَلِكَ أَيْضًا تَوْشَعًا، فَعَلَى هَذَا كَانَتْ فِي حِصَانَةِ خَالَتِهَا، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي عُمَارَةَ بِنْتِ حَمْزَةَ أَنَّ تَكُونَ فِي حِصَانَةِ

الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَالْإِيمَانُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِعِمْرَانَ هَذَا هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦﴾

الرَّجِيمِ ٣٦﴾

[قِصَّةُ وَلَادَةِ مَرْيَمَ]

امْرَأَةُ عِمْرَانَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَهِيَ حَتَّةُ بِنْتُ فَاقُودَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ امْرَأَةً لَا تَحْمِلُ، فَرَأَتْ يَوْمًا طَائِرًا يَرُوقُ فَرَحَهُ، فَاشْتَهَتْ الْوَلَدَ، فَدَعَتْ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهَبَهَا وَلَدًا، فَاشْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا، فَوَاقَعَهَا زَوْجُهَا، فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فَلَمَّا تَحَقَّقَتِ الْحَمْلَ نَذَرَتْ أَنْ يَكُونَ مُحَرَّرًا، أَيَّ خَالِصًا مُفْرَعًا لِلْعِبَادَةِ، وَلِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَقَالَتْ: «رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أَيَّ السَّمِيعُ لِدُعَائِي، الْعَلِيمُ بِنِيَّتِي، وَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا فِي بَطْنِهَا: أَذْكَرًا أَمْ أُنْثَى؟ «فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى» أَيَّ فِي الْقُوَّةِ وَالْجَلَدِ فِي الْعِبَادَةِ وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى «وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ» فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الْوِلَادَةِ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السَّبَاقِ لِأَنَّهُ شَرُعَ مِنْ قَبْلُنَا، وَقَدْ حُكِيَ مُفَرَّرًا، وَبِذَلِكَ ثَبَتَ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ».

أَخْرَجَاهُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِيهِمَا: أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ذَهَبَ بِأَخِيهِ حِينَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَنَكُهُ وَسَمَّاهُ عَبْدُ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَلِكَ ثَبَتَتْ تَسْمِيَةُ الْآخَرِينَ يَوْمَ الْوِلَادَةِ.

(١) فتح الباري: ٣٠٦/٣ ومسلم: ١٨٠٧/٤ (٢) فتح الباري: ٥٠١/٩ (٣) أحمد: ٧/٥ وأبو داود: ٢٥٩/٣ وتحفة الأحوذى: ١١٥/٥ والنسائي: ١٦٦/٧ وابن ماجه: ١٠٥٧/٢ (٤) عبد الرزاق: ١١٩/١ (٥) فتح الباري: ٦٠/٨ ومسلم: ٤/١٨٣٨ (٦) فتح الباري: ٥٣٩/٦

خَالَتَهَا امْرَأَةٌ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَيَادَتِهَا وَجَلَالَتِهَا فِي مَحَلِّ عِبَادَتِهَا، فَقَالَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الشَّعْثَاءِ وَإِبْرَاهِيمُ التَّخَعِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطِيَّةُ الْعُوفِيُّ وَالسُّدِّيُّ: يَغْنِي وَجَدَ عِنْدَهَا فَاقِهَةً الصَّنِيفِ فِي الشِّتَاءِ، وَفَاقِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّنِيفِ<sup>(٢)</sup>. فَإِذَا رَأَى زَكَرِيَّا هَذَا عِنْدَهَا ﴿قَالَ يَمْرَيْمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أَيُّ يَقُولُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾<sup>(٣)</sup> فَدَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ<sup>(٤)</sup> قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ<sup>(٥)</sup> قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكَرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِنْكَرِ<sup>(٦)</sup>

[دُعَاءُ زَكَرِيَّا وَتَبَشِيرُهُ بِيَحْيَى]

لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامَ فَاقِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّنِيفِ، وَفَاقِهَةً الصَّنِيفِ فِي الشِّتَاءِ، طَمِعَ حِينَئِذٍ فِي الْوَلَدِ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ وَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ، وَاشْتَغَلَ رَأْشُهُ شَيْئًا، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرَةً وَعَاقِرًا، لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ نِدَاءَ حَقِيقَةٍ، وَقَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أَيُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أَيُّ وَلَدًا صَالِحًا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَدَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أَيُّ خَاطَبَتُهُ الْمَلَكَةُ شِفَاهَا خِطَابًا أَسْمَعَتْهُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِ عِبَادَتِهِ، وَمَحَلِّ خُلُوتِهِ، وَمَجْلِسِ مُنَاجَاتِهِ وَصَلَاتِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا بَشَّرَتْهُ بِهِ الْمَلَكَةُ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ أَيُّ بِوَلَدٍ يُوجَدُ لَكَ مِنْ صُلْبِكَ اسْمُهُ يَحْيَى. قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا سُمِّيَ يَحْيَى لِأَنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُ بِالْإِيمَانِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾. رَوَى الْعُوفِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ

سُورَةُ آلِ اْإِمْرَانِ

٥٥

الْمَلِكِ

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ<sup>(٣٨)</sup> فَدَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ<sup>(٣٩)</sup> قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ<sup>(٤٠)</sup> قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكَرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِنْكَرِ<sup>(٤١)</sup> وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ<sup>(٤٢)</sup> يَمْرَيْمُ اقْنُطِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ<sup>(٤٣)</sup> ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَيُّهُمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ<sup>(٤٤)</sup> إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ<sup>(٤٥)</sup>

وَأَبُو الشَّعْثَاءِ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ<sup>(١)</sup>. قَوْلُهُ: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمْ: الْحَكِيمُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالتَّوْرِيُّ وَالضَّحَّاكُ: السَّيِّدُ: الْحَكِيمُ التَّخَفِيُّ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ. وَقَالَ عَطِيَّةُ: السَّيِّدُ فِي خَلْقِهِ وَدِينِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ الْغَضَبُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ الشَّرِيفُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْكَرِيمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَصُورًا﴾ لَيْسَ مَعْنَاهُ هَهُنَا أَنَّهُ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، بَلْ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ مَغْضُومٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْقَادُورَاتِ. وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ تَرْوِيجِهِ بِالنِّسَاءِ الْحَلَالِ وَغَشْيَانِهِنَّ

(١) فتح الباري: ٥٧١/٧ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٢٧/٢-٢٢٩

(٣) ابن أبي حاتم: ٢٣٥/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٣٥/٢-٢٣٥

٢٣٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٢٣٨/٢ (٦) الطبري: ٣٧٥/٦

وَأَيُّهَا الَّذِينَ، بَلْ قَدْ يُفْهِمُ وَجُودُ النَّسْلِ لَهُ مِنْ دُعَاءِ زَكْرِيَّا الْمُتَقَدِّمِ حَيْثُ قَالَ: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَدًا لَهُ ذُرِّيَّةٌ وَنَسْلٌ وَعَقِبٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ ثَانِيَّةٌ بِنَبْوَةِ يَحْيَى بَعْدَ الْبَشَارَةِ بِوَلَادَتِهِ، وَهِيَ أَعْلَى مِنَ الْأُولَى، كَقَوْلِهِ لِأُمِّ مُوسَى: ﴿إِنَّا رَأَوُكَ إِلَى الْإِلَهِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فَلَمَّا تَحَقَّقَ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْبَشَارَةَ، أَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ وَجُودِ الْوَلَدِ مِنْهُ بَعْدَ الْكِبَرِ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أَيُّ الْمَلِكِ ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ هَكَذَا أَمْرُ اللَّهِ عَظِيمٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَتَعَاطَمُهُ أَمْرٌ، ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَيُّ عِلَامَةً أَتَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى وَجُودِ الْوَلَدِ مِنِّي ﴿قَالَ﴾ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ﴿أَيُّ إِشَارَةً لَا تَسْتَطِيعُ النَّطْقَ مَعَ أَنَّكَ سَوِيٌّ صَحِيحٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثُمَّ أَمَرَ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّشِيِّ وَالْإِنْكَارِ﴾. وَسَيَأْتِي طَرَفٌ آخَرُ فِي بَسْطِ هَذَا الْمَقَامِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ مَرْيَمَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَلَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢) يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَادْكِي مَعَ الزَّكِيَّاتِ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَكْفَلَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

### [فَضْلُ مَرْيَمَ عَلَى نِسَاءِ عَصْرَهَا]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُمْ بِذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ قَدِ اصْطَفَاهَا، أَيُّ اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا وَزَهَادَتِهَا. وَشَرَفَهَا، وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَكْذَارِ وَالْوَسَاوِسِ، وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِحَبْلَالَتِهَا: عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» (١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٢). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمُلْ مِنْ

الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» (٣). وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ (٤). وَلَقَطَ الْبُخَارِيُّ: «كَمُلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَلُ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (٥). وَقَدْ اسْتَقْصَيْتُ طَرُقَ هَذَا الْحَدِيثِ وَاللَّفَاطَةِ فِي قِصَّةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي كِتَابِنَا: «الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوها بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالرُّكُوعِ وَالذُّعُوبِ فِي الْعَمَلِ لَهَا، لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ مِمَّا فِيهِ مِحْنَةٌ لَهَا، وَرَفْعَةٌ فِي الدَّارَيْنِ، بِمَا أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، حَيْثُ خَلَقَ مِنْهَا وَلَدًا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَادْكِي مَعَ الزَّكِيَّاتِ﴾ أَمَّا الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ فِي خُشُوعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلْ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لِمٍ قَلْبُكَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بَعْدَ مَا أَطْلَعَهُ عَلَى جَلِيلَةِ الْأَمْرِ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ نَقَضُهُ عَلَيْكَ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَكْفَلَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أَيُّ مَا كُنْتَ عَنْدهُمْ يَا مُحَمَّدٌ، فَتُخْبِرُهُمْ عَنْهُمْ مُعَايَنَةً عَمَّا جَرَى، بَلْ أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ كَأَنَّكَ كُنْتَ حَاضِرًا وَشَاهِدًا لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ حِينَ اقْتَرَعُوا فِي شَأْنِ مَرْيَمَ أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا، وَذَلِكَ لِرَغْبَتِهِمْ فِي الْأَجْرِ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجَتْ بِهَا، يَعْنِي أُمَّ مَرْيَمَ بِمَرْيَمَ، تَحْمِلُهَا فِي خَرَقِهَا إِلَى بَنِي الْكَاهِنِ بْنِ هَارُونَ أَخِي مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قَالَ: وَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَلُوتُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَا يَلِي الْحِجْبَةَ مِنَ الْكُفَّةِ، فَقَالَتْ لَهُمْ: دُونَكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَةُ، فَإِنِّي خَرَزْتُهَا، وَهِيَ ابْنَتِي، وَلَا تَدْخُلُ الْكَيْسَةَ حَائِضٌ، وَأَنَا لَا أَرُدُّهَا إِلَى بَيْتِي. فَقَالُوا:

(١) تحفة الأحوذى: ٣٨٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥٤٢/٦  
ومسلم: ١٨٨٦/٤ (٣) الطبري: ٣٩٧/٦ (٤) فتح الباري: ٥٤٣/٦  
ومسلم: ١٨٨٦/٤ و تحفة الأحوذى: ٥٦٣/٥ والنسائي في الكبرى: ٩٣/٥ وابن ماجه: ١٠٩١/٢ (٥) فتح الباري: ١٣٣



الْمَلَأْنِي

٥٦

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾  
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ  
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَخْتُمْ أَمْرًا فَلَنَمَ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾  
 وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾  
 وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ  
 أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ  
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ  
 وَأُخْرِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخَرُونَ  
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾  
 وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلِلَ لَكُمْ  
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ  
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ  
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَسَ عِيسَى مِنْهُمْ  
 الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ  
 أَنْصَارُ اللَّهِ عَامِنَا بِاللَّهِ وَشَهِدْنَا بِمَا نُسَلِّمُونَ ﴿٥٣﴾

عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ، مُعْجَزَةً وَآيَةً،  
 وَحَالِ كُهُولَتِهِ حِينَ يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ  
 إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا  
 تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ فِي صِغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبُ جُرْنِجٍ» (٤).  
 وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:  
 «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي  
 زَمَنِ جُرْنِجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرُ» (٥) ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيْ فِي قَوْلِهِ  
 وَعَمَلِهِ لَهُ عِلْمٌ صَحِيحٌ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ.

[خَلَقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَب]

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهَا بِذَلِكَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ  
 وَجَلَّ، قَالَتْ فِي مُتَابَعَاتِهَا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ  
 يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ تَقُولُ: كَيْفَ يُوجَدُ هَذَا الْوَلَدُ مِنِّي وَأَنَا

(١) ابن جرير: ٣٥١/٦ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦٦/٢ (٣) ابن  
 أبي حاتم: ٢٦٧/٢، ٢٦٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٧٢/٢، ٢٧٣  
 ابن إسحاق مدلس ولم يصرح بسماحه (٥) ابن أبي حاتم: ٢/  
 ٢٧٢ والبخاري: ٣٤٣٦ ومسلم: ٢٥٥٠

هَذِهِ ابْنَةُ إِمَامِنَا - وَكَانَ عِمْرَانُ يُؤْمِنُهُمْ فِي الصَّلَاةِ -  
 وَصَاحِبُ قُرْبَانِنَا! فَقَالَ زَكَرِيَّا: ادْفَعُوهَا إِلَيَّ فَإِنْ خَالَتَهَا  
 تَحْتِي، فَقَالُوا: لَا تَطِيبُ أَنْفُسُنَا، هِيَ ابْنَةُ إِمَامِنَا، فَذَلِكَ  
 حِينَ اقْتَرَعُوا بِأَفْلاهِمْ عَلَيْهَا الَّتِي يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَةَ،  
 فَفَرَعَهُمْ زَكَرِيَّا فَكَفَّلَهَا (١). وَقَدْ ذَكَرَ عِكْرَمَةُ أَيْضًا (٢)  
 وَالسُّدِّيُّ وَفَتَاةَ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرَ وَاحِدٍ، دَخَلَ حَدِيثُ  
 بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: أَنَّهُمْ دَخَلُوا إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ، وَاقْتَرَعُوا  
 هُنَالِكَ عَلَى أَنْ يُلْقُوا أَفْلاَهُمْ، فَأَيُّهُمْ ثَبَّتَ فِي جَرِيَةِ الْمَاءِ  
 فَهُوَ كَافِلُهَا، فَأَلْقُوا أَفْلاَهُمْ، فَاحْتَمَلَهَا الْمَاءُ إِلَّا قَلَمُ  
 زَكَرِيَّا، فَإِنَّهُ ثَبَّتَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ صُعْدًا يَشُقُّ جَرِيَةَ  
 الْمَاءِ (٣). وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ كِبِيرُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَعَالِمُهُمْ  
 وَإِمَامُهُمْ وَنَبِيِّهُمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ  
 النَّبِيِّينَ.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ  
 الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمَقَرِّينَ﴾ (٥)  
 وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ  
 أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
 إِذَا فَضَخْتُمْ أَمْرًا فَلَنَمَ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾  
 [تَبَشِيرُ مَرْيَمَ الصَّالِحَةِ بِعِيسَى]

هَذِهِ بِشَارَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِأَنْ  
 سَيُوجَدُ مِنْهَا وَلَدٌ عَظِيمٌ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ  
 قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أَيْ بِوَلَدٍ  
 يَكُونُ وَجُودُهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ، أَيْ يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ،  
 وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ كَمَا ذَكَرَهُ  
 الْجُمْهُورُ ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أَيْ يَكُونُ مَشْهُورًا  
 بِهَذَا فِي الدُّنْيَا، يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، وَشُمِّيَ الْمَسِيحُ  
 لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا مَسَحَ أَحَدًا مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ بَرِيءًا بِإِذْنِ اللَّهِ  
 تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نِسْبَةٌ لَهُ إِلَى أُمِّهِ حَيْثُ لَا  
 أَبَ لَهُ ﴿وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمَقَرِّينَ﴾ أَيْ لَهُ وَجَاهَةٌ  
 وَمَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، بِمَا يُوحِيهِ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ،  
 وَيُزِيلُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا مَتَّحَهُ بِهِ، وَفِي  
 الدَّارِ الْآخِرَةِ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فِيمَنْ يَأْذَنُ لَهُ فِيهِ، فَيَقْبَلُ مِنْهُ،  
 أَسْوَةٌ بِإِخْوَانِهِ مِنْ أَوْلِي الْعَزَمِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ  
 وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

[كَلَامُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَيْ يَدْعُو إِلَى

الْبَقَرَةُ

٥٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

رَبَّاءَ امْتَابَا أَنْزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ  
الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ  
الْمُكِرِينَ ﴿٥٨﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُسَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ  
إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ  
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ  
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ  
كَفَرُوا فَأَعَذِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا  
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾  
ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾  
مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ  
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٣﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٤﴾  
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ  
أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ  
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾

مَعْرُوفٌ، ﴿وَأُنْهِيَ الْمَوْتُ لِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: بَعَثَ اللَّهُ كُلَّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ  
بِمُعْجَزَةٍ تُنَاسِبُ أَهْلَ زَمَانِهِ، فَكَانَ الْغَالِبُ عَلَى زَمَانٍ  
مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّحَرُ، وَتَعْظِيمُ السَّحَرَةِ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ  
بِمُعْجَزَةٍ بَهَرَتْ الْأَبْصَارَ، وَحَبَّرَتْ كُلَّ سَحَّارٍ، فَلَمَّا  
اسْتَبَقُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ انْقَادُوا لِلْإِسْلَامِ،  
وَصَارُوا مِنَ الْأَبْرَارِ. وَأَمَّا عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَعَثَهُ فِي  
زَمَنِ الْأَطِبَّاءِ، وَأَصْحَابِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، فَجَاءَهُمْ مِنْ  
الْآيَاتِ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا مِنَ  
الَّذِي شَرَعَ الشَّرِيعَةَ، فَمِنْ أَيْنَ لِلطَّبِيبِ قُدْرَةٌ عَلَى إِحْيَاءِ  
الْجَمَادِ، أَوْ عَلَى مُدَاوَاةِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، وَبَعَثَ مَنْ هُوَ  
فِي قَبْرِهِ رَهِينٌ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ. وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، بَعَثَهُ فِي  
زَمَانِ الْفُصَحَاءِ وَالْبُلَغَاءِ، وَنَحَارِيرِ الشُّعْرَاءِ، فَأَتَاهُمْ بِكِتَابٍ  
مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا  
بِمِثْلِهِ، أَوْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، لَمْ  
يَسْتَطِيعُوا أَبَدًا، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، وَمَا ذَاكَ

لَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا مِنْ عَزْمِي أَنْ أَتَزَوَّجَ، وَلَسْتُ  
بَعِيًّا، حَاشَا لِلَّهِ! فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي  
جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيْ هَكَذَا  
أَمَرَ اللَّهُ عَظِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَصَرَّحَ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿يَخْلُقُ  
مَا يَشَاءُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يَفْعَلُ. كَمَا فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا، بَلْ نَصَّ  
هُنَا عَلَى أَنَّهُ يَخْلُقُ لَيْلًا يَبْقَى لِمُطْلِ شَهْوَةٍ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ  
بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيْ فَلَا يَتَأَخَّرُ  
شَيْئًا، بَلْ يُوجَدُ عَقِيبَ الْأَمْرِ بِلا مُهْلَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا  
أَمْرًا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمصر: ٥٠] أَيْ إِنَّمَا نَأْمُرُ  
مَرَّةً وَاحِدَةً لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ سَرِيعًا كَلَمْحٍ  
بِالْبَصَرِ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وَرَسُولًا  
إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَيْ قَدْ جِئْتُكُمْ بِنَاصِيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَيْ خَلَقْتُ  
لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا  
لِإِذْنِ اللَّهِ وَارْتِيءِ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْهِيَ الْمَوْتَ لِإِذْنِ اللَّهِ  
وَأَنْتَشِئَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَنْشَبُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ  
لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَمُسَدِّدًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ  
مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحْدِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ  
وَجِئْتُكُمْ بِنَاصِيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُواهُ ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ  
رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٨﴾

[صِفَاتُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُعْجَزَاتُهُ وَدَعْوَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ تَمَامِ بَشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِابْنِهَا  
عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُهُ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾،  
الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ هُنَا: الْكِتَابَةُ، وَالْحِكْمَةُ  
تَقْدَمُ الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ﴿وَالتَّوْرَةَ  
وَالْإِنْجِيلَ﴾: فَالتَّوْرَةُ، هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى  
مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ. وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى  
ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقَدْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
يَحْفَظُ هَذَا وَهَذَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَيْ  
يَجْعَلُهُ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ، فَإِنَّمَا لَهُمْ: ﴿أَيْ قَدْ جِئْتُكُمْ  
بِنَاصِيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَيْ خَلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ  
فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا لِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ، يُصَوِّرُ  
مِنَ الطَّيْنِ شَكْلَ طَيْرٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَطِيرُ عَيْنًا لِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ، الَّذِي جَعَلَ هَذَا مُعْجَزَةً لَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ  
﴿وَارْتِيءِ الْأَكْمَةَ﴾ هُوَ الَّذِي يُوَلِّدُ أَعْمَى، وَهَذَا الْمَعْنَى  
أَبْلَغُ فِي الْمُعْجَزَةِ، وَأَقْوَىٰ فِي التَّحْدِي ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَدَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْأَخْزَابِ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: «فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ» قَالَ: مَعَ أُمِّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

### [هَمَّ الْيَهُودُ بِقَتْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِيمَا هَمُّوا بِهِ مِنَ الْفُتْكِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِرَادَتِهِ بِالسَّوْءِ وَالصُّلْبِ حِينَ تَمَالَوْا عَلَيْهِ، وَوَسَّوْا بِهِ إِلَى مَلِكٍ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكَانَ كَافِرًا، فَأَتَهُوا إِلَيْهِ أَنْ هَمُّنَا رَجُلًا يُضِلُّ النَّاسَ، وَيُضِدُّهُمْ عَنْ طَاعَةِ الْمَلِكِ، وَيَفْتِنُ الرِّعَايَا، وَيَفْرُقُ بَيْنَ الْأَبِ وَابْنِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَلَّدُوهُ فِي رِقَابِهِمْ، وَرَمَوْهُ بِهِ مِنَ الْكُذْبِ، وَأَنَّهُ وَلَدَ زَنِيَّةٍ حَتَّى اسْتَنَارُوا غَضَبَ الْمَلِكِ، فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِ مَنْ يَأْخُذُهُ وَيُضْلِيهِ وَيُنْكَلُ بِهِ. فَلَمَّا أَحَاطُوا بِمَنْزِلِهِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِهِ، نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِهِمْ، وَرَفَعَهُ مِنْ رُوحَتِهِ ذَلِكَ النَّبِيَّ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَلْقَى اللَّهُ شِبْهَهُ عَلَى رَجُلٍ كَانَ عِنْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ، فَلَمَّا دَخَلَ أُولَئِكَ اعْتَقَدُوهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ عِيسَى، فَأَخَذُوهُ وَأَهَانُوهُ وَصَلَبُوهُ، وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ الشُّوْكَ، وَكَانَ هَذَا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُ نَجَّى نَبِيَّهُ، وَرَفَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَتَرَكَّهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ يَعْصَمُونَ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِطَلَبَتِهِمْ، وَأَسْكَنَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ قَسْوَةً، وَعِنَادًا لِلْحَقِّ مُلَازِمًا لَهُمْ، وَأَوْرَثَهُمْ ذِلَّةً لَا تُفَارِقُهُمْ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ».

«إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»<sup>(٥)</sup> فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ<sup>(٦)</sup> وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يَجُبُ الظَّالِمِينَ<sup>(٧)</sup> ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ<sup>(٨)</sup>

(١) ابن أبي حاتم: ٢٩٠/٣ (٢) أحمد: ٣٢٢/٣ (٣) فتح الباري: ٦٣/٦ ومسلم: ١٨٧٩/٤ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٩٤/٢

إِلَّا لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُشَبِّهُ كَلَامَ الْخَلْقِ أَبَدًا. وَقَوْلُهُ: «وَأَتَيْنُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» أَيْ أَخْبَرَكُمْ بِمَا أَكَلْتُمْ أَحَدُكُمْ الْآنَ، وَمَا هُوَ مُدْخِرٌ فِي بَيْتِهِ لَعَدِهِ، «إِنْ فِي ذَلِكَ» أَيْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ «لَايَةً لَكُمْ» أَيْ عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»<sup>(٩)</sup> وَمَصَدَقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْحِيدِ أَيْ مُفَرِّدًا لَهَا وَمُثَبِّتًا «وَلَوَحِدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَسَخَ بَعْضَ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنِ الْمُغْطَى فِي مَا كَانُوا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ خَطَأً، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «وَلَا يُؤْنِسُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ: «وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ» أَيْ بِحُجَّةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا»<sup>(١٠)</sup> إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَيْ أَنَا وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ إِلَيْهِ «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ<sup>(١١)</sup> رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ<sup>(١٢)</sup> وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ<sup>(١٣)</sup>

### [نُصْرَةُ الْخَوَارِثِ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

يَقُولُ تَعَالَى: «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى أَنَّ اسْتَشْعَرَ مِنْهُمْ التَّصْمِيمَ عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِمْرَارَ عَلَى الضَّلَالِ، قَالَ: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ» قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَى اللَّهِ»<sup>(١٤)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ مَنْ أَنْصَارِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ؟ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ: «مَنْ رَجُلٌ يُؤَيِّنِي حَتَّى أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي. فَإِنْ قُرْبِنَا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي»<sup>(١٥)</sup>. حَتَّى وَجَدَ الْأَنْصَارَ، فَأَوَّاهُ وَنَصَرُوهُ. وَهَاجَرَ إِلَيْهِمْ، فَاسَمَوْهُ وَمَنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ. وَهَكَذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتَدَبَ لَهُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَآمَنُوا بِهِ وَآزَرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: «قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»<sup>(١٦)</sup> رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ<sup>(١٧)</sup> الْخَوَارِثُونَ قِيلَ: كَانُوا قَصَارِينَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْخَوَارِثَ النَّاصِرَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ

## [مَعْنَى مُتَوَفِّيكَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الْمُرَادُ بِالْوَفَاةِ هَهُنَا النُّوْمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَنبَاءٍ...﴾ [الأنعام: ٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا...﴾ [الزمر: ٤٢]. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ إِذَا قَامَ مِنَ النُّوْمِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَكْفُرْهُمْ عَنْ مَّرِيَمَ بَنَتًا عَظِيمًا﴾ [١٥٦] وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [١٥٧] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيبًا حَكِيمًا [١٥٨] وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا [النساء: ١٥٦-١٥٩] وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى، وَذَلِكَ حِينَ يَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ، فَجَيِّدٌ يُؤْمِنُ بِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ كُلُّهُمْ، لِأَنَّهُ يَضَعُ الْجُزْئِيَّةَ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يَعْنِي وَفَاةَ الْمَنَامِ، رَفَعَهُ اللَّهُ فِي مَنَامِهِ<sup>(٢)</sup>.

## [التَّحْرِيفُ فِي دِينِ الْمَسِيحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ بِرَفْعِي إِيَّاكَ إِلَى السَّمَاءِ ﴿وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ. وَهَكَذَا وَقَعَ، فَإِنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ، تَفَرَّقَتْ أَصْحَابُهُ شَبَعًا بَعْدَهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَابْنُ أُمِّيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ غَلَا فِيهِ فَجَعَلَهُ ابْنَ اللَّهِ، وَآخَرُونَ قَالُوا: هُوَ اللَّهُ، وَآخَرُونَ قَالُوا: هُوَ نَالِثٌ ثَلَاثَةً. وَقَدْ حَكَى اللَّهُ مَقَالَاتِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَرَدَّ عَلَى كُلِّ فَرِيقٍ فَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ نَبَعَ لَهُمْ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْيُونَانِ، يُقَالُ لَهُ: قُسْطَنْطِينُ، فَدَخَلَ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، قِيلَ: حِيلَةً، لِيُفْسِدَهُ، فَإِنَّهُ كَانَ فَيْلَسُوفًا، وَقِيلَ: جَهْلًا مِنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ بَدَّلَ لَهُمْ دِينَ الْمَسِيحِ وَحَرَفَهُ، وَزَادَ فِيهِ وَنَقَصَ مِنْهُ. وَوُضِعَتْ لَهُ الْقَوَانِينُ، وَالْأَمَانَةُ الْكُبْرَى، الَّتِي هِيَ الْخِيَانَةُ الْحَقِيرَةُ، وَأَجَلَ فِي زَمَانِهِ لَحْمُ الْجَنْزِيرِ، وَصَلُّوا لَهُ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَصَوَّرُوا لَهُ

الْكَنَائِسَ، وَزَادُوا فِي صِيَامِهِمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ ارْتِكَابِهِ فِيَمَا يَزْعُمُونَ، وَصَارَ دِينَ الْمَسِيحِ دِينَ قُسْطَنْطِينِ، إِلَّا أَنَّهُ بَنَى لَهُمْ مِنَ الْكَنَائِسِ وَالْمَعَابِدِ وَالصَّوَامِعِ وَالذِّيَارَاتِ مَا يَزِيدُ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ مَعْبَدٍ، وَبَنَى الْمَدِينَةَ الْمُنَشُوبَةَ إِلَيْهِ، وَاتَّبَعَهُ الطَّائِفَةُ الْمَلِكِيَّةُ مِنْهُمْ، وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ قَاهِرُونَ لِلْيَهُودِ، أَتَدَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِّ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ كُفَّارًا، عَلَيْهِمْ لَعْنَتُنِ اللَّهِ.

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَكَانَ مَنْ آمَنَ بِهِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ، كَانُوا هُمْ أَتْبَاعَ كُلِّ نَبِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، إِذْ قَدْ صَدَّقُوا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، خَاتِمَ الرُّسُلِ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى التَّصْدِيقِ بِجَمِيعِ الْحَقِّ، فَكَانُوا أَوَّلَى بِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ أُمَّتِهِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ وَطَرِيقَتِهِ، مَعَ مَا قَدْ حَرَفُوا وَبَدَّلُوا، ثُمَّ لَوْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، لَكَانَ قَدْ نَسَخَ اللَّهُ بِشَرِيعَتِهِ شَرِيعَةَ جَمِيعِ الرُّسُلِ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا يُغَيَّرُ وَلَا يُبَدَّلُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلَا يَزَالُ قَائِمًا مَنْصُورًا ظَاهِرًا عَلَى كُلِّ دِينٍ، فَلِهَذَا فَتَحَ اللَّهُ لِأَصْحَابِهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَاحْتَازُوا جَمِيعَ الْمَمَالِكِ، وَذَانَتْ لَهُمْ جَمِيعُ الدُّوَلِ، وَكَسَرُوا كِسْرَى، وَقَصَرُوا قِصْرَ، وَسَلَبُوا هُمَا كُنُوزَهُمَا، وَأَنْفَقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ نَبِيُّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...﴾ [الأنعام: ٥٥]، وَلِهَذَا لَمَّا كَانُوا هُمْ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَسِيحِ حَقًّا، سَلَبُوا النَّصَارَى بِلَادَ الشَّامِ، وَأَجْلَوْهُمْ إِلَى الرُّومِ، فَلَجَّؤُوا إِلَى مَدِينَتِهِمُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ فَوْقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمُصَدِّقُ أَمَّتَهُ بِأَنَّهُ أَخْرَجَهُمْ سَقَطَحُونَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَيَسْتَفِيضُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَيَقْتُلُونَ الرُّومَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جَدًّا، لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهَا، وَلَا يَرُونَ بَعْدَهَا نَظِيرَهَا، وَقَدْ جَمَعْتُ فِي هَذَا جُزْءًا مُفْرَدًا.

(١) فتح الباري: ١١/١٣٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢/٢٩٦

## [تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَخُصِمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٩) فالَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِمَنْ كَفَرَ بِالْمَسِيحِ مِنَ الْيَهُودِ، أَوْ غَلَا فِيهِ أَوْ أَطْرَاهُ مِنَ النَّصَارَى، عَذِبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ، وَإِزَالَهَ الْأَيْدِي عَنِ الْمَمَالِكِ، وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَذَابُهُمْ أَشَدُّ وَأَشَقُّ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي هَذَا الَّذِي قَضَضْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي أَمْرِ عِيسَى، وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ، وَكَيْفِيَّةِ أَمْرِهِ، هُوَ مِمَّا قَالَهُ تَعَالَى وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ، وَنَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْضُوطِ، فَلَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٦٠) مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَنْخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مریم: ٣٤، ٣٥) وَهَهُنَا قَالَ تَعَالَى:

﴿إِن كُنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٨) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥٩﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَهُ الْغَرِيبِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

## [الْمَمَائِلَةُ فِي خَلْقِ آدَمَ وَعِيسَى]

يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن كُنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ آبٍ ﴿كَمِثْلِ آدَمَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ آبٍ وَلَا أُمَّ بَلْ ﴿خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فَالَّذِي خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ آبٍ وَأُمٍّ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عِيسَى بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى، وَإِنْ جَارَ ادِّعَاءُ الْبُتُوَّةِ فِي عِيسَى لِكُونِهِ مَخْلُوقًا مِنْ غَيْرِ آبٍ، فَجَوَّازُ ذَلِكَ فِي آدَمَ بِالطَّرِيقِ الْأُولَى. وَمَعْلُومٌ بِالِاتِّفَاقِ أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، فَدَعَاَهَا فِي عِيسَى أَشَدُّ بَطْلَانًا وَأَظْهَرُ فُسَادًا، وَلَكِنَّ الرَّبَّ

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَهُ الْغَرِيبِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ءَأَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَكَأَنْتُمْ هُنَا لَعَجَبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِن أَرَى النَّاسَ يُبْهَرُونَكَ بِالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

جَلَّ جَلَالُهُ أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ قُدْرَتَهُ لِخَلْقِهِ، حِينَ: خَلَقَ آدَمَ لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا مِنْ أُنْثَى، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، كَمَا خَلَقَ بَقِيَّةَ الْبَرِيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ (مریم: ٢١) وَقَالَ هَهُنَا: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أَي هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْحَقُّ فِي عِيسَى الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، وَلَا صَحِيحَ سِوَاهُ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ.

## [الدَّعْوَةُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ، أَنْ يُبَاهِلَ مَنْ عَادَدَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ عِيسَى بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيَانِ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أَي نَحْضُرُهُمْ فِي حَالِ الْمُبَاهَلَةِ ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أَي نَلْتَعِنُ ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أَي مِتْنَا أَوْ مِنْكُمْ. وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ أَوَّلِ

الله، بِأَنَّهُ كَانَ يُخَيِّي الْمَوْتَى وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ  
وَالْأَسْقَامَ، وَيُخَيِّرُ بِالْغُيُوبِ، وَيَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ  
الطَّيْرِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ.  
وَلِيَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ، وَيَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ: بِأَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ،  
يَقُولُونَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ يَعْلَمُ. وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي الْمُهْدِ بِشَيْءٍ  
لَمْ يَصْنَعْهُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُ. وَيَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ بِأَنَّهُ  
ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَعَلْنَا وَأَمَرْنَا وَخَلَقْنَا وَقَضَيْنَا،  
فَيَقُولُونَ لَوْ كَانَ وَاحِدًا مَا قَالَ إِلَّا فَعَلْتُ وَقَضَيْتُ وَأَمَرْتُ  
وَخَلَقْتُ. وَلَكِنَّهُ هُوَ وَعِيسَى وَمَرْيَمُ - تَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ  
وَتَنَزَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا - فِي  
كُلِّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ قَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَلَى التَّفْسِيرِ إِلَى أَنْ قَالَ: فَلَمَّا  
أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ مِنَ اللَّهِ، وَالْفَضْلَ مِنَ الْقَضَاءِ  
بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَأَمَرَ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ مُلَاعَظَتِهِمْ إِنْ رَدُّوا ذَلِكَ  
عَلَيْهِ، دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، دَعْنَا  
نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا، ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِيمَا دَعَوْتَنَا  
إِلَيْهِ، فَاَنْصَرِفُوا عَنْهُ، ثُمَّ خَلَوْا بِالْعَاقِبِ، وَكَانَ ذَا رَأْيِهِمْ،  
فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ  
النَّصَارَى، لَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَنَبِيِّ مَرْسَلٍ، وَلَقَدْ  
جَاءَكُمْ بِالْفَضْلِ مِنْ خَيْرِ صَاحِبِكُمْ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ مَا  
لَا عَنْ قَوْمٍ نَبِيًّا قَطُّ، فَتَجَبَّي كِبِيرُهُمْ وَلَا نَبَتْ صَغِيرُهُمْ. وَإِنَّهُ  
لَلْإِسْتِصْالِ مِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ، فَإِنْ كُثِمْتُمْ أَيْبَتُمْ إِلَّا إِلْفٌ  
دِينِكُمْ، وَالْإِقَامَةُ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي  
صَاحِبِكُمْ، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَانْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ، فَأَتَوْا  
النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَدْ رَأَيْنَا إِلَّا تُلَاعِنَكَ،  
وَنَتَرَكُكَ عَلَى دِينِكَ، وَنَرْجِعُ عَلَى دِينِنَا، وَلَكِنْ ابْعَثْ مَعَنَا  
رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا بِحُكْمِ بَيْنَتِنَا فِي أَشْيَاءَ  
اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أُمُورِنَا، فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا رَضًا<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ  
الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،  
يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا  
تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعِنَاهُ لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا  
عَقِبَتَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ  
مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا، فَقَالَ:

السُّورَةُ إِلَى هُنَا فِي وَفْدِ نَجْرَانَ: أَنَّ النَّصَارَى حِينَ قَدِمُوا  
فَجَعَلُوا يُحَاجُّونَ فِي عِيسَى، وَيَزْعُمُونَ فِيهِ مَا يَزْعُمُونَ مِنْ  
النُّبُوَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ،  
كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ وَغَيْرُهُ. قَالَ  
ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ الْمَشْهُورَةِ وَغَيْرِهِ: وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ وَفْدٌ نَصَارَى نَجْرَانَ، سِتُّونَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةٌ  
عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يُؤُولُ إِلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ وَهُمْ:  
الْعَاقِبُ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ، وَالسَّيِّدُ، وَهُوَ الْأَيْهَمُ، وَأَبُو  
حَارِثَةَ بْنُ عُلْقَمَةَ أَخُو بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ، وَأُوَيْسُ بْنُ الْحَارِثِ،  
وَزَيْدٌ، وَقَيْسٌ، وَيَزِيدُ وَنَبِيهٌ، وَخُوَيْلِدٌ، وَعَمْرُو، وَخَالِدٌ،  
وَعَبْدُ اللَّهِ، وَيُحَسِّنُ. وَأَمْرُهُمْ هَؤُلَاءِ يُؤُولُ إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ،  
وَهُمْ: الْعَاقِبُ، وَكَانَ أَمِيرَ الْقَوْمِ، وَذَا رَأْيِهِمْ، وَصَاحِبَ  
مَشُورَتِهِمْ، وَالَّذِي لَا يَصْدُرُونَ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ. وَالسَّيِّدُ وَكَانَ  
عَالِمَهُمْ وَصَاحِبَ رَحْلِهِمْ وَمُجْتَمِعِهِمْ. وَأَبُو حَارِثَةَ بْنُ  
عُلْقَمَةَ، وَكَانَ أَشَقَفَهُمْ وَحَبْرَهُمْ وَإِمَامَهُمْ، وَصَاحِبَ  
مَذْرَاسِهِمْ. وَكَانَ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ،  
وَلَكِنَّهُ تَنَصَّرَ فَطَعَّمَتَهُ الرُّومُ وَمَلُّوكُهَا، وَشَرَفُوهُ، وَنَبَّوْا لَهُ  
الْكُنَائِسَ، وَمَوَلَّوْهُ، وَأَخْلَدُوهُ، لِمَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي  
دِينِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصِفَتَهُ  
وَسَائِئِهِ، بِمَا عَلِمَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَكِنْ حَمَلَهُ جَهْلُهُ  
عَلَى الْاسْتِمْرَارِ فِي النَّصْرَانِيَّةِ، لِمَا يَرَى مِنْ تَعْظِيمِهِ فِيهَا،  
وَجَاهِهِ عِنْدَ أَهْلِهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ،  
قَالَ: قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ  
مَسْجِدَهُ حِينَ صَلَّى الْعَصْرَ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْجَبَرَاتِ: جُبٌّ  
وَأَرْدِيَّةٌ، فِي جَمَالِ رِجَالِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ. قَالَ:  
يَقُولُ بَعْضُ مَنْ رَأَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا رَأَيْنَا  
بَعْدَهُمْ وَفْدًا مِثْلَهُمْ، وَقَدْ حَانَتْ صَلَاتُهُمْ، فَقَامُوا فِي  
مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَصْلُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
«دَعُوهُمْ» فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ، قَالَ: فَكَلَّمَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ أَبُو حَارِثَةَ بْنُ عُلْقَمَةَ، وَالْعَاقِبُ  
عَبْدَ الْمَسِيحِ، أَوِ السَّيِّدُ الْأَيْهَمُ، وَهُمْ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ عَلَى  
دِينِ الْمَلِكِ مَعَ اخْتِلَافِ أَمْرِهِمْ يَقُولُونَ: هُوَ اللَّهُ،  
وَيَقُولُونَ: هُوَ وَلَدُ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، تَعَالَى  
اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ النَّصْرَانِيَّةِ، فَهُمْ يَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ: هُوَ

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَعْنِي يُطِيعُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أَيْ فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا التَّصْفِ وَهَذِهِ الدَّعْوَةِ، فَأَشْهَدُوهُمْ أَنَّكُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ.

وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمُ تَسْلِمًا، وَأَسْلِمُ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَتَأَهَّلُ الْكُتُبُ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً سَلَامَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾».

وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّ صَدْرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إِلَى بَضْعٍ وَتَمَانِينَ آيَةً مِنْهَا؛ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: هُمْ أَوَّلُ مَنْ بَدَلَ الْجِزْيَةِ. وَلَا خِلَافَ أَنَّ آيَةَ الْجِزْيَةِ نَزَلَتْ بَعْدَ الْفَتْحِ! فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ كِتَابَةِ هَذِهِ الْآيَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ إِلَى هِرَقْلَ فِي جُمْلَةِ الْكِتَابِ، وَبَيْنَ مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ وَالزُّهْرِيُّ؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ قُدُومَ وَفْدِ نَجْرَانَ كَانَ قَبْلَ الْخُدَيْيَةِ، وَأَنَّ الَّذِي بَدَّلُوهُ مُصَالِحَةً عَنِ الْمَبَاهِلَةِ لَا عَلَى وَجْهِ الْجِزْيَةِ، بَلْ يَكُونُ مِنْ بَابِ الْمُهَادَنَةِ وَالْمُصَالِحَةِ، وَوَافَقَ نَزُولَ آيَةِ الْجِزْيَةِ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ: فَرُضَ الْحُمْسُ وَالْأَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ وَفَقَ مَا فَعَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ فِي تِلْكَ السَّرِيَةِ قَبْلَ بَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَتْ فَرِيضَةُ الْقَسَمِ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ [البقرة: ٢١٧]. وَتَحْتَمِلُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا أَمَرَ بِكُتُبِ هَذَا فِي كِتَابِهِ إِلَى هِرَقْلَ، لَمْ يَكُنْ أُنْزِلَ بَعْدُ، ثُمَّ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ مُوَافَقَةً لَهُ ﷺ، كَمَا نَزَلَ بِمُوَافَقَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي الْحِجَابِ وَفِي الْأَسَارَى، وَفِي عَدَمِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَاجْتَنِبُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَفَكَ أَنْ يُبْدِلَهُ

﴿لَا تَبْعَثْ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ﴾ فَاسْتَشْرَفَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ. فَبَحَّه اللَّهُ: إِنْ رَأَيْتَ مُحَمَّدًا يُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَا يَتَنَبَّهَ، حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ، قَالَ: فَقَالَ: «لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عَيْنَانِ»، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَا لَا وَلَا أَهْلًا»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فِي شَأْنِ عِيسَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَعْدِلَ عَنْهُ وَلَا مَحِيدَ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَى اللَّهِ نُفُوسُ الْغَائِبِينَ﴾<sup>(٥)</sup> فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيْ عَنْ هَذَا إِلَى غَيْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ فَهُوَ الْمُفْسِدُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ شَرُّ الْجَزَاءِ، وَهُوَ الْقَادِرُ الَّذِي لَا يَقُوتُهُ شَيْءٌ، سُبْحَانَهُ وَيَحْمَدُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ حُلُولِ نِقْمَتِهِ.

﴿قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكُتُبُ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً سَلَامَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٦)</sup>

[مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ]

هَذَا الْخُطَابُ يُعَمُّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ. ﴿قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكُتُبُ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً﴾ وَالْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُفِيدَةِ، كَمَا قَالَ هُنَا، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿سَلَامَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيْ عَدْلٍ وَنُصْفٍ، نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لَا وَتَنَا، وَلَا صَلِيْبًا، وَلَا صَنْمًا، وَلَا طَاغُوتًا، وَلَا نَارًا، وَلَا شَيْئًا، بَلْ نُفَرِّدُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَهَذِهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى:

(١) فتح الباري: ٦٩٥/٧ (٢) فتح الباري: ٦٩٦/٧ (٣)

أحمد: ٢٤٨/١ (٤) فتح الباري: ٥٩٥/٨ وتحفة الأحوذى:

٧٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦

يَتَّاهِلَ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ  
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا  
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ  
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ  
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكم  
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ  
عِلْمُهُ ﴿٧٣﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ  
الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ  
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا  
مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ  
سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾  
بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ  
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا  
خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

الآية [البقرة: ١٣٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ  
وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى:  
أَحَقُّ النَّاسِ بِمُتَابَعَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَلَى  
دِينِهِ، وَهَذَا النَّبِيُّ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ  
أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بَعْدَهُمْ. رَوَى  
سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وِلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ،  
وَإِنَّ وَلِيَّيَّ مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» ثُمَّ قَرَأَ:  
﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ (١) ... الآية. قَوْلُهُ:  
﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ وَلِيِّ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِرُسُلِهِ.

﴿وَدَّتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا  
أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢) يَتَّاهِلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ  
اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧١﴾ يَتَّاهِلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ

أَرْوَجًا خَيْرًا مِنْكُمْ﴾ ... الآية [التحریم: ٥].

﴿يَتَّاهِلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّورَةُ  
وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣) هَكَأُنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ  
فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ  
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ  
لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٤﴾  
[مُحَاجَّةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ]

يُنَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي  
مُحَاجَّتِهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَدَعَا كُلَّ  
طَافِيَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ، كَمَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ  
ابْنُ يَسَارٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:  
اجْتَمَعَتِ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَخْبَارُ يَهُودٍ عِنْدَ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَهُ، فَقَالَتِ الْأَخْبَارُ: مَا كَانَ  
إِبْرَاهِيمَ إِلَّا يَهُودِيًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ  
إِلَّا نَصْرَانِيًّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّاهِلُ الْكِتَابُ لِمَ  
تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ... الآية، أَيُّ كَيْفَ تَدَّعُونَ - أَيُّهَا  
الْيَهُودُ - أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، وَقَدْ كَانَ زَمَنُهُ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ  
التَّورَةُ عَلَى مُوسَى؟ وَكَيْفَ تَدَّعُونَ - أَيُّهَا النَّصَارَى - أَنَّهُ  
كَانَ نَصْرَانِيًّا (١). وَإِنَّمَا حَدَّثَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بَعْدَ زَمَانِهِ بِدْهَرٍ؟  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَكَأُنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ  
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ... الآية. هَذَا  
إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّ الْيَهُودَ  
وَالنَّصَارَى تَحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِمَا عِلْمٌ، وَلَوْ تَحَاجُّوا  
فِيمَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْهُ عِلْمٌ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَدْيَانِهِمُ الَّتِي شَرَعَتْ  
لَهُمْ إِلَى حِينِ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لَكَانَ أَوَّلَى بِهِمْ، وَإِنَّمَا  
تَكَلَّمُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ،  
وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ  
وَالشَّهَادَةِ الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا،  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ  
قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ  
حَنِيفًا مُّسْلِمًا أَيُّ مُتَحَنِّنًا عَنِ الشَّرِكِ، قَاصِدًا إِلَى الْإِيمَانِ  
﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي  
سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا يَهْتَدُوا﴾ ...



الْأَقْدَمِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ يُؤْفَكَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يَقُولُونَ: لَا تَظْهَرُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ لِلْمُسْلِمِينَ، فَيَتَعَلَّمُوهُ مِنْكُمْ، وَيَسْأَلُوكُمْ فِيهِ، وَيَمْتَارُوا بِهِ عَلَيْكُمْ لِيُشَدَّ الْإِيمَانُ بِهِ، أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ، أَيْ يَتَّخِذُوهُ حُجَّةً عَلَيْكُمْ بِمَا فِي أَيْدِيكُمْ، فَتَقُومَ بِهِ عَلَيْكُمْ الدَّلَالَةُ، وَتَرْكَبَ الْحُجَّةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ

الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ الْأُمُورُ كُلُّهَا تَحْتَ تَصَرُّفِهِ، وَهُوَ الْمُعْطِي الْمَنَاعِ، يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالتَّصَوُّرِ التَّامِّ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيُعْمِي بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ، وَيَخْتِمْ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ، وَيَجْعَلُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، وَلَهُ الْحُجَّةُ التَّامَّةُ وَالْحُكْمُ الْبَالِغَةُ ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿أَيِ اخْتَصَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَا يَحُدُّ وَلَا يُوصَفُ بِمَا شَرَّفَ بِهِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَاكُمْ بِهِ إِلَى أَكْمَلِ الشَّرَائِعِ.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧١﴾

### [بَيَانُ حَالِ أَمَانَةِ الْيَهُودِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّهُ فِيهِمُ الْخَوَنَةُ، وَيَحْذِرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِهِمْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ﴾ أَيْ مِنَ الْمَالِ ﴿يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ أَيْ وَمَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأُولَى أَنْ يُؤَدِّيَهُ إِلَيْكَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أَيْ بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمُلَازِمَةِ وَالْإِلْحَاحِ فِي اسْتِخْلَاصِ حَقِّكَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعُهُ فِي الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أُولَى أَنْ لَا يُؤَدِّيَهُ إِلَيْكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَبِيلٌ﴾ أَيْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمْ الْعَرَبُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْلَاهَا لَنَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَقَدْ اخْتَلَفُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَاتَّفَقُوا بِهَذِهِ الضَّلَالَةِ، فَإِنَّ

وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا عَاجِرُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَا تَوَيْمُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ الْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ أَنْ يُؤْفَكَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٧٤﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾

### [حَسَدُ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ وَكَيْدُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ حَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَبَغْيِهِمْ إِيَّاهُمْ الْإِضْلَالِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ وَبَالَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ أَنََّّهُمْ مَمْكُورٌ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُكْرًا عَلَيْهِمْ: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾ أَيْ تَعْلَمُونَ صِدْقَهَا وَتَتَحَقَّقُونَ حَقَّهَا ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ تَكْتُمُونَ مَا فِي كُتُبِكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَتَتَحَقَّقُونَهُ.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا عَاجِرُهُمْ﴾... الْآيَةُ، هَذِهِ مَكِيدَةٌ أَرَادُوهَا لِيَلْبَسُوا عَلَى الضَّعْفَاءِ مِنَ النَّاسِ أَمْرَ دِينِهِمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ اشْتَرَوْا بَيْنَهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا الْإِيمَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَيُصَلُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَإِذَا جَاءَ آخِرُ النَّهَارِ ارْتَدُّوا إِلَى دِينِهِمْ، لِيَقُولَ الْجَهْلَةُ مِنَ النَّاسِ: إِنَّمَا رَدَّاهُمْ إِلَى دِينِهِمْ أَطْلَاعُهُمْ عَلَى تَقِيصَةِ وَعَيْبِ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْيَهُودِ بِهَذِهِ الْآيَةِ: يَعْنِي يَهُودَ، صَلَّتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَكُفُّوا آخِرَ النَّهَارِ مَكْرًا مِنْهُمْ، لِيَرَوْا النَّاسَ أَنَّ قَدْ بَدَتْ لَهُمْ مِنْهُ الضَّلَالَةُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا اتَّبَعُوهُ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَوَيْمُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أَيْ لَا تَطْمَئِنُّوا وَتَظْهَرُوا سِرَّكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ، وَلَا تَظْهَرُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَخْتَجُّوا بِهِ عَلَيْكُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ الْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَنْتُمْ الْإِيمَانِ بِمَا يُنْزِلُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ؛ وَإِنْ كَتَمْتُمْ أَبْنَاءَ الْيَهُودِ مَا بِأَيْدِيكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فِي كُتُبِكُمُ الَّتِي نَقَلْتُمُوهَا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ

اللَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهْتُ.

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ يَرِيدٍ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: إِنَّا نَصِيبُ فِي الْغَزْوِ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ الدَّجَاجَةَ وَالشَّاةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَقُولُونَ مَاذَا؟ قَالَ: تَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ، قَالَ: هَذَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمْثَلِ سَيْئٌ﴾، إِنَّهُمْ إِذَا أَدَّوْا الْجَزْيَةَ لَمْ تَحِلَّ لَكُمْ أَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِطَبِيبٍ أَنْفُسُهُمْ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ أَيُّ لَكِنْ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِي عَاهَدْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ، كَمَا أَخَذَ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمِهِمْ بِذَلِكَ، وَاتَّقَى مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ طَاعَتَهُ وَشَرِيعَتَهُ الَّتِي بَعَثَ بِهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ وَسَيِّدَ الْبَشَرِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

[لَا نَصِيبَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ خَالَفَ الْعَهْدَ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ عَمَّا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَذَكَرِ صِفَتِهِ لِلنَّاسِ وَبَيَّانِ أَمْرِهِ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةَ الْفَاجِرَةَ الْأَيْمَةَ بِالْأَيْمَانِ الْقَلِيلَةِ الزَّهِيدَةِ، وَهِيَ غُرُوضُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا وَلَا حَظٌّ لَهُمْ مِنْهَا ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ﴾ أَيُّ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ لَهُمْ، يَعْنِي لَا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامَ لُطْفٍ بِهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ أَيُّ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَذْنَانِ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ تَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، فَلَنَذْكُرْ بَعْضًا مِنْهَا.

(الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي دَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ خَابِرُوا وَخَسِرُوا؟ قَالَ: وَأَعَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمُتَّقِفُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ، وَالْمَنَانُ»<sup>(٣)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ الشُّعْبِ<sup>(٤)</sup>.

(الْحَدِيثُ الثَّانِي) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَوْبَةَ

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيفًا يَلُونُ أَلَيْسَتْهُمْ بِالْكِتَابِ لِحَسْبِهِمْ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

الْكِنْدِيِّ، قَالَ: خَاصِمَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ، يُقَالُ لَهُ: إِمْرُؤُ الْقَيْسِ ابْنُ عَبَّاسٍ، رَجُلًا مِنْ حَضْرَمَوْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَرْضِ، فَقَضَى عَلَى الْحَضْرَمِيِّ بِالْبَيْتَةِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتَةٌ، فَقَضَى عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ بِالْيَمِينِ، فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: إِنَّ أَمَكْنَتَهُ مِنَ الْيَمِينِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَهَبَتْ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ أَرْضِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ خَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةً لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالٌ أَحَدٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» قَالَ رَجَاءٌ - أَحَدُ رُؤَايِهِ -: وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: مَاذَا لِمَنْ تَرَكَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «الْجَنَّةُ». قَالَ: فَاشْهَدْ أَنِّي قَدْ تَرَكَتُهَا لَهُ كُلَّهَا<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٥)</sup>.

(١) عبد الرزاق: ١٢٣/١ فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس لم يصرح بالسماع (٢) أحمد: ١٤٨/٥ (٣) مسلم: ١٠٢/١ وأبو داود: ٣٤٦/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٠١/٤ والنسائي: ٢٤٥/٧ وابن ماجه: ٧٤٤/٢ (٤) أحمد: ١٩١/٤ (٥) النسائي في الكبرى: ٤٨٦/٣

مَحْفُوظَةٌ لَا تُحَوَّلُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، فَإِنْ عَنَى وَهَبٌ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَهَا التَّيْدِيلُ وَالتَّحْرِيفُ وَالزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ، وَأَمَّا تَعْرِيبُ ذَلِكَ الْمَشَاهِدِ بِالْعَرَبِيَّةِ فَفِيهِ خَطَأٌ كَبِيرٌ، وَزِيَادَاتٌ كَثِيرَةٌ وَنُقْصَانٌ، وَوَهْمٌ فَاحِشٌ، وَهُوَ مِنْ بَابِ تَفْسِيرِ الْمُعَبَّرِ الْمُعَرَّبِ؛ وَفَهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ بَلْ جَمِيعُهُمْ فَاسِدٌ. وَأَمَّا إِنْ عَنَى كُتِبَ اللَّهُ الَّتِي هِيَ كُتِبَتْ عَنْدَهُ فَنِلْتُكَ كَمَا قَالَ مَحْفُوظَةٌ لَمْ يَدْخُلْهَا شَيْءٌ.

﴿مَا كَانَ لِيَسْخَرَ أَنْ يُؤَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٨) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٩﴾

[النَّبِيُّ لَا يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَلَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ] أَيُّ مَا يَبْغِي لِيَسْخَرَ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ، أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: اعْبُدُونِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَيْ مَعَ اللَّهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يَصْلُحُ لِنَبِيِّ وَلَا لِمُرْسَلٍ، فَلَا أَنْ لَا يَصْلُحُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى، فَالْجَهْلَةُ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَمَشَائِخِ الضَّلَالِ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ، بِخِلَافِ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَبَلَّغَتْهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكِرَامُ، وَإِنَّمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَلَّغَتْهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكِرَامُ، فَالرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، هُمُ السُّفَرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي آدَاءِ مَا حَمَلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاجِ الْأَمَانَةِ، فَقَامُوا بِذَلِكَ أَتَمَّ قِيَامٍ وَنَصَحُوا الْخَلْقَ، وَبَلَّغُوهُمْ الْحَقَّ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أَيُّ وَلَكِنْ يَقُولُ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ: كُونُوا رَبَّائِينَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو رَزِينٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيُّ حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الصَّحَّاحُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ حَقٌّ عَلَى مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تَحْفَظُونَ أَلْفَاظَهُ.

(الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ) رَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ». فَقَالَ الْأَشْعَثُ: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ؛ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَاكَ بَيْتَةٌ؟» قُلْتُ: لَا. فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «اخْلِفْ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا يَحْلِفَ فَيَذْهَبَ مَالِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾... الآية<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ<sup>(٣)</sup>.

(الْحَدِيثُ الرَّابِعُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُرْكَبُهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عَنْدَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ - يَعْنِي كَاذِبًا - وَرَجُلٌ بَاعَ إِمَامًا فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٥)</sup>.

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ الْآيَاتِ هُتُوتُ لِيَتَحَسَّبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٠)

[تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللَّهِ بِلَيِّ الْأَلْسُنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ عَلَيْهِمُ لَعْنَتُ اللَّهِ، أَنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يَحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَذِلُّونَ كَلَامَ اللَّهِ وَيُزِيلُونَهُ عَنِ الْمُرَادِ بِهِ، لِيُوهِمُوا الْجَهْلَةَ أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَيَنْسِبُونَهُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿يَلُونُ الْآيَاتِ هُتُوتُ لِيَتَحَسَّبُوهُ﴾ يَحَرِّفُونَهُ<sup>(٦)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ يَحَرِّفُونَ وَيَزِيدُونَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُزِيلُ لَفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ يَحَرِّفُونَهُ: يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ. وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مُتَبِّهِ: إِنَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ كَمَا أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى، لَمْ يُعَيَّرْ مِنْهُمَا حَرْفٌ، وَلَكِنَّهُمْ يُضِلُّونَ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَكُتِبَ كَانُوا يَكْتُبُونَهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فَأَمَّا كُتُبُ اللَّهِ فَإِنَّهَا

(١) أحمد: ٣٧٩/١ (٢) فتح الباري: ٣٣٦/٥ ومسلم: ١/١٢٢ (٣) أحمد: ٤٨٠/٢ (٤) أبو داود: ٧٤٩/٣ وتحفة الأحوذى: ٢١٨/٥ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٦١/٢ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٦٥/٢

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

قُلْ ءَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيْمَ  
وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ  
مُوسٰى وَعِيسٰى وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ  
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ  
دِيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٨٥﴾  
كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ وَشَهِدُوا  
أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَءَهُمُ الْبَيِّنٰتُ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِيْنَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّٰهِ  
وَالْمَلٰئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ ﴿٨٧﴾ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا لَا يُخَفَّفُ  
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ  
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ نُّقَبِّلَ تَوْبَهُمْ  
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّآلُّوْنَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ  
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَابًا وَلَوْ  
أَفْتَدَىٰ بِهِ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِيْنَ ﴿٩١﴾

حَيَّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ<sup>(٣)</sup>. وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ  
عَلَى أُمَّتِهِ لَعِنَ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَخْيَافٌ لِّيُؤْمِنَنَّ بِهِ  
وَلَيَنْصُرَنَّهُ. وَقَالَ طَاوُوسٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: أَخَذَ  
اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَذَا لَا  
يُضَادُّ مَا قَالَهُ عَلِيُّ وَابْنُ عَبَّاسٍ.

فَالرُّسُولُ مُحَمَّدٌ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ  
دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ الَّذِي لَوْ وُجِدَ فِي  
أَيِّ عَصْرِ وَجِدَ، لَكَانَ هُوَ الْوَاجِبُ الطَّاعَةِ، الْمُقَدَّمُ عَلَى  
الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَلِهَذَا كَانَ إِمَامَهُمْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ لَمَّا اجْتَمَعُوا  
بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَذَلِكَ هُوَ الشَّفِيعُ فِي يَوْمِ الْمَحْشَرِ فِي  
إِتْيَانِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَهُوَ  
الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي لَا يَلِيْقُ إِلَّا لَهُ، وَالَّذِي يَجِيْدُ عَنْهُ  
أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، حَتَّى تَنْتَهِيَ التَّوْبَةُ إِلَيْهِ،

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ  
أَرْبَابًا ۖ أَيْ وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، لَا نَبِيٍّ مُّرْسَلٍ  
وَلَا مَلِكٍ مُّقَرَّبٍ ۖ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيْ لَا  
يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى  
الْكُفْرِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَخِدَّةُ  
لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ  
رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]  
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ  
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾... الْآيَةُ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ:  
﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ  
إِلَٰهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَقَالَ إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَايِكَةِ:  
﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ، فَلَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ  
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِيْنَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ  
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ  
وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا  
قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٦﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ  
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

[أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]  
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَهْمَا أَتَى اللَّهُ  
أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَبَلَغَ أَيُّ مَبْلَغٍ، ثُمَّ جَاءَهُ  
رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وَلَا يَمْتَنِعَهُ مَا هُوَ  
فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّوْبَةِ مِنْ اتِّبَاعِ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ وَنُصْرَتِهِ،  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا  
آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ۖ أَيْ لَمَهْمَا أَعْطَيْنَاكُمْ مِنْ  
كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ۖ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ  
بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾. وَقَالَ  
ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي  
عَهْدِي<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿إِصْرِي﴾ أَيْ يُقَالُ مَا  
حُمِّلْتُمْ مِنْ عَهْدِي<sup>(٢)</sup>. أَيْ مِيثَاقِي الشَّدِيدِ الْمُؤَكَّدَ ﴿قَالُوا  
أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ  
ذَٰلِكَ ۖ أَيْ عَنْ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ  
الْفٰسِقُونَ﴾، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ عَمَّةٍ عَبْدُ اللَّهِ  
ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ  
الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ، لَعِنَ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُوَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧٣/٢، ٣٧٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢/

٢٧٣ (٣) الطبري: ٥٥٥/٦

فَيَكُونُ هُوَ الْمَخْصُوصُ بِهِ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُوثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُجْعَلُونَ﴾ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَلَا يُقْبَلُ غَيْرُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَكْرِرًا عَلَى مَنْ أَرَادَ دِينًا سِوَى دِينِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيِ اسْتَسْلَمَ لَهُ مَنْ فِيهِمَا طَوْعًا وَكَرْهًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾... الآية، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَفْتَنُوا ظُلُمَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذُرُوعٌ ﴿٨٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٥﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠] فَالْمُؤْمِنُ مُسْتَسْلِمٌ بِقَلْبِهِ وَقَالِيهِ لِلَّهِ، وَالْكَافِرُ مُسْتَسْلِمٌ لِلَّهِ كَرْهًا، فَإِنَّهُ تَحْتَ التَّشْخِيرِ وَالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ، وَقَدْ رَوَى وَكِيعٌ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قَالَ: هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِقَوْلِكَ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] (١) وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قَالَ: حِينَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ (٢). ﴿وَإِلَيْهِ يُجْعَلُونَ﴾ أَيِ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أَيِ مِنَ الصُّحُفِ وَالْوَحْيِ، ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وَهُمْ يُطَوَّنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُتَشَعَّبَةُ مِنْ أَوْلَادِ إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ - الْأَثْنِي عَشَرَ، ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ جُمْلَةً ﴿لَا نَفَرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي بَلْ نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ، لَا يَكْفُرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ هُمْ مُصَدِّقُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾... الآية، أَيِ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا سِوَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ إِذْ ذَاكَ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلَاةُ؛ فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ؛ وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ؛ فَيَقُولُ إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ؛ فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ أَخُذُ وَبِكَ أُعْطِي، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ تَقَرَّرَ بِهِ أَحْمَدُ (٤).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾

[لَا يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ تَابَ] رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلِحَقَّ بِالشَّرْكِ، ثُمَّ نَدِمَ، فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ أَنْ سَلُوا لِي رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: فَزَلْتُ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ فَأَسْلَمَ (٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ وَابْنُ حِبَّانَ (٦). وَقَالَ

(١) الطبري: ٥٦٥/٦ (٢) الطبري: ٥٦٥/٦ (٣) فتح الباري: ٣٥٥/٥ (٤) أحمد: ٣٦٢/٢ فيه عباد بن راشد التميمي ضعفه الجمهور، أنظر تحرير تقريب التهذيب ١٧٧/٢ والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة كما ذكر ابن كثير هنا، أنظر للتفصيل "جامع التحصيل في أحكام المراسيل" للعلائي ص ١٦٤ ط. عالم الكتب. (٥) الطبري: ٥٧٢/٦ (٦) النسائي في الكبرى: ٦/٣١١ والحاكم: ٣٦٦/٤ وابن حبان: ٣٢٣/٦

الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَيُّ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ وَالْبُرَاهِينُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُولُ، وَوَضَحَ لَهُمُ الْأَمْرُ، ثُمَّ ارْتَدُّوا إِلَى ظُلْمَةِ الشُّرْكِ، فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ الْهِدَايَةَ بَعْدَمَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَاللَّعْنَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أَيُّ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ، وَيَلْعَنُهُمْ خَلْقُهُ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ فِي اللَّعْنَةِ، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُظْفَرُونَ﴾ أَيُّ لَا يُفْتَرَّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ وَبِرِّهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَازِدَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ أَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، تَابَ عَلَيْهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأَوَلَيْكَ هُمْ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْسَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْمِيرٍ (٩١)

[لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا فِذِيَّتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمَهْدِدًا لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، ثُمَّ أَزْدَادَ كُفْرًا، أَيُّ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ، وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُمْ لَنْ تُقْبَلَ لَهُمْ تَوْبَةٌ عِنْدَ مَمَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْلَسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ... الْآيَةُ [النساء: ١٨]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأَوَلَيْكَ هُمْ الضَّالُّونَ﴾ أَيُّ الْخَارِجُونَ عَنِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ إِلَى طَرِيقِ الْغَيِّ، رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قَوْمًا أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا، ثُمَّ أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا، فَأَرْسَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يَسْأَلُونَ لَهُمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْسَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أَيُّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا. وَلَوْ كَانَ قَدْ أَتَفَقَ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا فِيمَا يَرَاهُ قُرْبَةً، كَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ، وَكَانَ يَقْرِي الضَّيْفَ، وَيَتُكِّ الْعَانِي، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ: هَلْ يَنْتَعُهُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «لَا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ

يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» (٢). وَكَذَلِكَ لَوْ افْتَدَى بِمِثْلِ الْأَرْضِ ذَهَبًا مَا قُبِلَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةُ﴾ [البقرة: ١٢٣] وَقَالَ: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْسَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ فَعَطْفُ ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ عَلَى الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُهُ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ أَحْسَنَ مِنْ أَنْ يُقَالَ: أَنَّ الْوَاوَ زَائِدَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيَقْتَضِي ذَلِكَ أَنَّ لَا يُنْفَذُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ قَدْ أَتَفَقَ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَوْ افْتَدَى نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ بِمِثْلِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، بِوَرْنِ جِبَالِهَا وَتَلَالِهَا وَتُرَابِهَا، وَرِمَالِهَا وَسَهْلِهَا وَوُغْرِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ خَيْرٍ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ، فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَلَا أَتَمَنَّ إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَارٍ، لِمَا بَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَرِّ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ لَهُ: تَقْتَدِي مِنِّي بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ نَعَمْ، فَيَقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَسْرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيَرُدُّ إِلَى النَّارِ» (٣). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْمِيرٍ﴾ أَيُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ أَحَدٍ يُنْفَذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَا يُجِيرُهُمْ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِ حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ وَمَا نُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ

اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

[الْإِنْفَاقُ مِنْ أَحَبِّ الْأَمْوَالِ مِنَ الْبِرِّ]

رَوَى وَكِيعٌ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِ﴾ قَالَ: الْجَنَّةُ (٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، يَقُولُ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِي بِالْمَدِينَةِ مَالًا،

(١) الدر المنثور: ٢٥٨/٢ (٢) مسلم: ١٩٦/١ (٣) أحمد:

٢٠٧/٣ (٤) الطبري: ٥٨٧/٦ فيه تدليس أبي إسحاق السبيعي

ولم يصرح وشريك بن عبدالله القاضي سبى الحفظ.

تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَيْضُ غَلِيظٌ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ أَضْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَّةُ، بِإِذْنِ اللَّهِ: إِنْ عَلَا مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِنْ عَلَا مَاءَ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامَ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟» قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ قَالُوا: وَأَنْتَ الْآنَ فَحَدِّثْنَا مَنْ وَلَيْكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا نُجَامِعُكَ أَوْ نَفَارِقُكَ. قَالَ: «إِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ»، قَالُوا: فَعِنْدَهَا نَفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَلَيْكَ غَيْرُهُ لَتَابَعْنَاكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ...﴾ [الْبَقَرَةِ: ٩٧] (٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ قِيلَ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أَيُّ حَرَمَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ، قُلْتُ: وَلِهَذَا السِّيَاقُ بَعْدَمَا تَقَدَّمَ مَنَاسِبَاتَانِ.

(إِحْدَاهُمَا) أَنَّ إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَتَرَكَهَا لِلَّهِ، وَكَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرِيعَتِهِمْ، فَلَهُ مَنَاسِبَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَنَا، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمِمَّا يُحِبُّهُ الْعَبْدُ وَيُسْتَهَيِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّى كُنَّا عَلَىٰ حِيْبِهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُطِيعُونَ أَمْرًا عَلَىٰ حِيْبِهِ...﴾ [الْأَيَّةُ [الْإِنْسَان: ٨].

(الْمَنَاسِبَةُ الثَّانِيَةُ) لَمَّا تَقَدَّمَ السِّيَاقُ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى، وَاعْتِقَادِهِمُ الْبَاطِلَ فِي الْمَسِيحِ، وَتَبْيِينِ زَيْفِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَظُهُورِ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ فِي أَمْرِ عِيسَى وَأَمْرِهِ، وَكَيْفَ خَلَقَهُ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ قَبْحَهُمُ اللَّهُ، وَبَيَانَ أَنَّ السَّنَخَ الَّذِي أَنْكَرُوا وَفُوعَهُ وَجَوَازَهُ قَدْ وَقَعَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَصَّ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَةَ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ، أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ يَأْكُلُ مِنْهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ

وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءُ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَتَشَرَّبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءُ، وَإِنَّهَا صَدَقَةُ اللَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْعٌ بَيْعٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفَعُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ (١). أَخْرَجَاهُ (٢). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ أَصِْبْ مَالًا قَطُّ هُوَ أَنَفْسُ عِنْدِي مِنْ سَهْمِي الَّذِي هُوَ بِخَيْرٍ، فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ؟ قَالَ: «حَبْسِ الْأَصْلِ وَسَبْلِ الثَّمَرَةِ» (٣).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ قَاتِلُوا بِالْتَّوْرَةِ قَاتِلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣) فَمِنْ أَفْرَازٍ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) [أَسْئَلُهُ الْيَهُودَ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَضَرَتْ عِصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسَأُكَ عَنْهُمْ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، قَالَ: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَىٰ بَنِيهِ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتَتَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ» قَالُوا: فَذَلِكَ لَكَ، قَالَ: «فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ». قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعِ خِلَالٍ: أَخْبِرْنَا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ وَكَيْفَ مَاءُ الْمَرْأَةِ وَمَاءُ الرَّجُلِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الذَّكْرُ مِنْهُ وَالْأُنْثَى؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ فِي التَّوْمِ، وَمَنْ وَلِيُّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ لَئِنْ أَخْبَرَهُمْ لَيَتَابِعْنَهُ، فَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَتَدَرَّ اللَّهُ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيَحْرَمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟» فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ

(١) أحمد: ١٤١/٣ (٢) فتح الباري: ٧١/٨ ومسلم: ٢/٦٦٣ (٣) مسلم: ١٢٥٦/٣ والنسائي: ٢٣٢/٦ أخرجه بهذا اللفظ 'حبس الأصل وسبل الثمرة' النسائي وابن ماجه وغيرهما ولم يوجد بهذا اللفظ في الصحيحين. (٤) أحمد: ٢٧٨/١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

الْاِیَاتُ

٦٢

لَنْ نُنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَنِ انْفَقَا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّىَ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ الْتَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩﴾ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ سَبِيلٌ وَاللَّهُ يَهْدِى الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ سَبِيلٌ وَاللَّهُ يَهْدِى الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ يَتَاهِلُ الْكِتَابُ لَمْ يَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ يَتَاهِلُ الْكِتَابُ لَمْ يَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبَعُوا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطْيَعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ ائِمْنِكُمْ كَفِرِينَ ﴿٢٥﴾

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ سَبِيلٌ وَاللَّهُ يَهْدِى الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢٠﴾

[الْكَعْبَةُ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْعِبَادَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أُنِى لِعُمُومِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهِمْ وَتُسْكِينِهِمْ، يَطُوفُونَ بِهِ، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَيَعْتَكَفُونَ عِنْدَهُ ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ يَعْنِى الْكَعْبَةَ الَّتِى بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِى يَزُعمُ كُلُّ مَنْ طَافَ بِهَا النَّصَارَى وَالْيَهُودُ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَا يَحْجُونَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِى بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَنَادَى النَّاسَ إِلَى حَجِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُبَارَكًا﴾ أُنِى وُضِعَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُنِى مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ أُنِى؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى». قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قُلْتُ: ثُمَّ أُنِى؟ قَالَ: «ثُمَّ

عَلَى نَفْسِهِ لِحَمَانِ الْإِبِلِ وَالْبَنَاهَا، فَاتَّبَعَهُ بَنُوهُ فِي ذَلِكَ، وَجَاءَتِ التَّوْرَةُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ، وَأَشْيَاءٌ أُخَرُ زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذِنَ لِأَدَمَ فِي تَرْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ التَّسْرِي عَلَى الرُّوْجَةِ مُبَاحًا فِي شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ فِي هَاجَرَ لَمَّا تَسَرَّى بِهَا عَلَى سَارَةٍ، وَقَدْ حَرَّمَ مِثْلَ هَذَا فِي التَّوْرَةِ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ سَائِغًا، وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَمَعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ، ثُمَّ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي التَّوْرَةِ عِنْدَهُمْ، وَهَذَا هُوَ الشَّخْخُحُ بِعَيْنِهِ، فَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي إِحْلَالِهِ بَعْضَ مَا حَرَّمَ فِي التَّوْرَةِ، فَمَا بَالُهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ؟ وَكَذَلِكَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمِلَّةَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، فَمَا بَالُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّىَ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أُنِى كَانَ حِلًّا لَهُمْ جَمِيعُ الْأَطْعِمَةِ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ إِسْرَءِيلُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنَّهَا نَاطِقَةٌ بِمَا قُلْنَاهُ ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أُنِى فَمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، وَادَّعى أَنَّهُ شَرَعَ لَهُمْ السَّبْتَ وَالتَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَةِ دَائِمًا، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا أُخَرَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ بَعْدَ هَذَا الَّذِى بَيَّنَّاهُ مِنْ وَقُوعِ الشَّخْخُحِ وَظُهُورِ مَا ذَكَرْنَاهُ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أُنِى قُلْ يَا مُحَمَّدُ صَدَقَ اللَّهُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَفِيمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ، ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أُنِى اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِى شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِى لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِى لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلِ مِنْهَا وَلَا أَبْيَنَ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَتَمَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّى هَدَيْتُ رَبِّىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا فِيمَا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾



كَانَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ، فَيَضَعُ فِي عُنُقِهِ صُوفَةً وَيَدْخُلُ الْحَرَمَ، فَيَلْقَاهُ ابْنُ الْمُقْتُولِ فَلَا يَهَيِّجُهُ حَتَّى يَخْرُجَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُحْتَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾... الآية [العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ﴾ الآية [قريش: ٤، ٣] وَحَتَّى إِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ تَحْرِيمِهَا حُرْمَةً اضْطِغَادَ صِدِّهَا، وَتَنْفِيرِهِ عَنْ أَوْكَارِهِ، وَحُرْمَةِ قَطْعِ شَجَرِهَا وَقَلْعِ حَشِيشِهَا، كَمَا ثَبَّتَ الْأَحَادِيثُ وَالْأَنَارُ فِي ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا، فِي الصَّحَابَةِ، فِي الصَّحَابَةِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ: «لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتَفْرَضْتُمْ فَانْفِرُوا» وَقَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمٌ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَجَلِّ الْقِتَالَ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَجَلِّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْقَرُ صِدِّدُهُ، وَلَا يُلْقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِيُوتِبَهُمْ، فَقَالَ: «إِلَّا الْإِذْخِرَ»<sup>(١)</sup>.

وَلَهُمَا، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ أَيْضًا، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ أَحْدِثَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ، سَمِعْتُهُ أَذْنًا، وَوَعَاهُ قَلْبِي، وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، أَنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمٌ لِلَّهِ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَجَلِّ لِأَمْرِي يَوْمَ يَأْتِيهِ الْيَوْمَ الْآخِرُ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يُعْصَدُ بِهَا شَجَرَةٌ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ». فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ: مَا قَالَ لَكَ

حَيْثُ أَدْرَكْتَ الصَّلَاةَ فَصَلِّ، فَكَلَّمَهَا مَسْجِدًا<sup>(٢)</sup> وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

[وَجْهُ تَسْمِيَةِ بَكَّةَ، وَأَسْمَاءُ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِي يَبْكُهُ﴾ بَكَّةَ مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّةَ عَلَى الْمَشْهُورِ، قِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبْكُ أَغْنَاكَ الظَّلَمَةِ وَالْجَبَابِرَةَ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ [يَذْلُونَ] بِهَا، وَيَخْضَعُونَ عِنْدَهَا. وَقِيلَ: لِأَنَّ النَّاسَ يَتَبَاكُونَ فِيهَا، أَيْ يَزْدَحِمُونَ. وَقَدْ ذَكَرُوا لِمَكَّةَ أَسْمَاءَ كَثِيرَةً: مَكَّةُ، وَبَكَّةُ، وَالْبَيْتُ الْعَتِيقُ، وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَالْبَلَدُ الْأَمِينُ، وَالْمَأْمُونُ، وَأُمُّ رَحِمٍ، وَأُمُّ الْقُرَى، وَصَلَاحٌ، وَالْعَرْشُ عَلَى وَزْنِ بَذَرٍ، وَالْقَادِسُ، لِأَنَّهَا تُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمَقْدَسَةُ، وَالنَّاسَةُ بِالْتُونِ، وَبِالْبَاءِ أَيْضًا، وَالْحَاطِمَةُ، وَالنَّسَّاسَةُ، وَالرَّأْسُ، وَكُوْتَى، وَالْبَلْدَةُ، وَالْبَيْتَةُ، وَالْكَعْبَةُ.

[مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أَيْ دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهُ مِنْ بَنَاءِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّ اللَّهَ عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يَعْنِي الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجُدْرَانِ، حَيْثُ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ، وَيَتَاوَلُهُ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ، وَقَدْ كَانَ مُلْتَصِقًا بِجِدَارِ الْبَيْتِ حَتَّى أَخْرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الطَّوَافُ مِنْهُ، وَلَا يُشَوِّشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ بَعْدَ الطَّوَافِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأَقِمُّوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ فِي ذَلِكَ فَاعْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هَهُنَا، وَ اللَّهِ الْحَمْدُ وَالْبُيُوتَةُ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيْ فَمِنْهُنَّ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَشْعَرُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَنْتَرُ قَدَمَيْهِ فِي الْمَقَامِ آيَةَ بَيِّنَةً<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْحَسَنِ وَتَقَادَةَ السُّدِّيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبَّانٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ:

وَمَوْطِيءُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ

عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيَا غَيْرَ نَاعِلٍ

[الْحَرَمُ مَقَامُ أَمْنٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ يَعْنِي حَرَمَ مَكَّةَ إِذَا دَخَلَهُ الْخَائِفُ بِأَمْنٍ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ:

(١) أحمد: ١٥٠/٥ (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦ ومسلم: ١/٣٧٠ (٣) الطبري: ٢٦/٧ (٤) الطبري: ٢٧/٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٤١٢/٢، ٤١٣ (٦) فتح الباري: ٥٦/٤ ومسلم: ٩٨٦/٢

مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ»<sup>(١٠)</sup> وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(١١)</sup>.

### [مُنْكَرُ الْحَجِّ كَافِرًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيُّ وَمَنْ جَحَدَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ فَقَدْ كَفَرَ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ. وَقَدْ رَوَى أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ الْحَافِظُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَنْ أَطَاقَ الْحَجَّ فَلَمْ يَحُجَّ، فَسَوَاءٌ عَلَيْهِ يَهُودِيًّا مَاتَ أَوْ نَصْرَانِيًّا. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١٢)</sup>.

### [بَيَانُ وَجُوبِ الْحَجِّ]

«قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ»<sup>(١٣)</sup> قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ<sup>(١٤)</sup>

[تَغْنِيفُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ]

هَذَا تَغْنِيفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكُفْرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى عِبَادِهِمْ لِلْحَقِّ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ مَنَ أَرَادَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، بِجَهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، مَعَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَالسَّادَةِ الْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمَا بَشَّرُوا بِهِ وَنَوَّهُوا بِهِ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْهَاشِمِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَسُولِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، بِأَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ بِمَا خَالَفُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمُقَابَلَتِهِمُ الرَّسُولَ الْمُبَشِّرَ بِهِ بِالْكَذِبِ وَالْجُحُودِ وَالْعِنَادِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، أَيُّ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ» [الشعراء: ٨٨].

عَمَرُو؟ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ، إِنَّ الْحَرَمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا، وَلَا فَارًا بِدَمٍ، وَلَا فَارًا بِخَرِيَّةٍ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَجِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ»<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْحَمْرَاءِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ، «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَهَذَا لَفْظُهُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَيُّ الْقَيُّومِ» أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا [آل عمران: ٩٧] هَلِوَيْهِ آيَةُ وَجُوبِ الْحَجِّ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدَّةُ بِأَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَدَعَائِمِهِ وَقَوَائِدِهِ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ إِجْمَاعًا ضَرُورِيًّا، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ فِي الْعُمْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً بِالْغَضِّ وَالْإِجْمَاعِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: حَظَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا» فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ» ثُمَّ قَالَ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤْلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»<sup>(٥)</sup>، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ نَحْوَهُ<sup>(٦)</sup>.

### [مَعْنَى الْأَسْتَطَاعَةِ]

وَأَمَّا الْأَسْتَطَاعَةُ فَأَقْسَامٌ: تَارَةً يَكُونُ الشَّخْصُ مُسْتَطِيعًا بِنَفْسِهِ، وَتَارَةً بِغَيْرِهِ كَمَا هُوَ مَقَرَّرٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ، رَوَى أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَامَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ الْحَاجُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الشَّعْتُ الْقَتْلُ»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْعُجُّ وَالشُّجُّ»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: مَا السَّبِيلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرَّادُّ وَالرَّاحِلَةُ»<sup>(٧)</sup>، وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» فَقِيلَ: مَا السَّبِيلُ؟ قَالَ: «الرَّادُّ وَالرَّاحِلَةُ»، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ

(١) مسلم: ٩٨٧/٢ (٢) مسلم: ٩٨٩/٢ (٣) أحمد: ٤/

٣٠٥ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٢٦/١٠ والنسائي في الكبرى: ٢/

٤٧٩ وابن ماجه: ١٠٣٧/٢ (٥) أحمد: ٥٠٨/٢ (٦) مسلم: ٩٧٥/٢

(٧) تحفة الأحوذى: ٣٤٨/٨ (٨) ابن ماجه: ٢/

٩٦ (٩) الحاكم: ٤٤٢/١ (١٠) أحمد: ٢٢٥/١ (١١) أبو

داود: ٣٥٠/٢ (١٢) الحلية: ٢٥٢/٩

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا  
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾  
وَلَنْ تَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ  
وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ  
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ  
فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

[مَا هُوَ حَقُّ تَقَاتِهِ؟]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قَالَ: أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ مَوْقُوفٌ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ<sup>(٢)</sup>. كَذَا قَالَ، وَالْأَطْهَرُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَرَوَى عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَتَّقِي الْعَبْدُ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ حَتَّى يَخْزَنَ لِسَانَهُ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيُّ حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾

[تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ طَاعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]

يُحَذِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يُطِيعُوا طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَمَا مَنَحَهُمْ بِهِ مِنْ إِسْوَإٍ رَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَنًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ... آيَاتِهِ [البقرة: ١٠٩]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: [إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ] [آل عمران: ١٠٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١] يَعْني أَنَّ الْكُفْرَ بَعِيدٌ مِنْكُمْ وَحَاشَاكُمْ مِنْهُ، فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ لَيًّا وَنَهَارًا، وَهُوَ يَتْلُوها عَلَيْكُمْ وَيُتْلِعُها إِلَيْكُمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَالْآيَةُ بَعْدَهَا [الحديد: ٨]. وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟» قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» وَذَكَرُوا الْأَنْبِيَاءَ، قَالَ: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قَالُوا: فَتَحْنُ. قَالَ: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟» قَالُوا: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْجَبُ إِيمَانًا؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَجِئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] أَيُّ وَمَعَ هَذَا فَلَا عِصْامَ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي الْهُدَايَةِ، وَالْعُمْدَةُ فِي مَبَاغِدَةِ الْعَوَاثِيَةِ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرَّشَادِ، وَطَرِيقُ السَّدَادِ وَحُصُولِ الْمُرَادِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(١) الطبراني: ٢٣، ٢٢/٤ نحو هذا المعنى انظر أيضًا مسند الإمام أحمد ١٠٦/٤ وتقدم أيضًا تحت آية البقرة رقم ٣. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٤٦/٢ (٣) الحاكم: ٢٩٤/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢/٤٤٨

عَلَيْهِ، فَعِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَطْلُقُونَ بِالْبَيْتِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ جَالِسٌ، مَعَهُ مَجْنُونٌ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» وَلَوْ أَنَّ فَطْرَةَ مِنَ الرُّقُومِ فَطَرَتْ لَأَمَرَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْسَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الرُّقُومُ؟<sup>(١)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ جَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»<sup>(٥)</sup>.

[الْأَمْرُ بِالْإِعْصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاتَّعَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» قِيلَ: «بِحَبْلِ اللَّهِ» أَيُّ بَعْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُفْعَلُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ» أَيُّ بَعْدِ وَذِمَّةٍ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَفَرَّقُوا» أَمَرُهُمُ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ، وَالْأَمْرُ بِالْإِجْتِمَاعِ وَالْإِثْلَافِ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا»... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَهَذَا السِّيَاقُ فِي شَأْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَإِنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ وَضَعَايُنُ وَإِحْرَنٌ وَذُخُولٌ، طَالَ بِسَبَبِهَا قِتَالُهُمْ وَالْوَقَائِعُ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَدَخَلَ فِيهِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ، صَارُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ، مُتَوَاصِلِينَ فِي ذَاتِ اللَّهِ،

مُتَعَاوِينَ عَلَى الْبُرِّ وَالنَّقَوْرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي أَبْدَكَ يَصْرِفُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ» وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ» [الأنفال: ٦٢، ٦٣] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنْهَا: أَنَّ هَذَا هُمُ الْإِيمَانُ، وَقَدْ ائْتَنَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُتَيْنَ، فَعَبَّتْ مَنْ عَبَّ مِنْهُمْ، لِمَا فَضَّلَ عَلَيْهِمْ فِي الْقِسْمَةِ، بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَعَانَكُمْ اللَّهُ بِي؟» فَكَلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُ<sup>(٧)</sup>.

«وَلَنْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ»<sup>(٨)</sup> يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»<sup>(٩)</sup>

[الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَنْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ» مُتَّصِبَةً لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». قَالَ الضَّحَّاكُ: هُمُ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ وَخَاصَّةُ الرُّوَاةِ، يَعْنِي الْمُجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءَ<sup>(١٠)</sup>. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، أَنْ تَكُونَ فِرْقَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ مُتَّصِدَةً لِهَذَا الشَّانِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسَبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

(١) أحمد: ٣٠٠/١ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٠٧/٧ والنسائي في الكبرى: ٣١٣/٦ وابن ماجه: ١٤٤٦/٢ وابن حبان: ٢٧٨/٩ والحاكم: ٢٩٤/٢ (٣) أحمد: ٣١٥/٣ (٤) مسلم: ٤/٢٢٠٥ (٥) فتح الباري: ٣٩٥/١٣ ومسلم: ٢٠٦١/٤ (٦) مسلم: ١٣٤٠/٣ (٧) صحيح البخاري ٤٣٣٠ وصحيح مسلم ١٠٦١ عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه (٨) الطبري: ٩٢/٧

فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدٍ»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَنْعَتَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُهُنَّ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ<sup>(٣)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ، مَعَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْسِيرُهَا فِي أَمَاكِنِهَا.

### [النَّهْيُ عَنِ التَّشْرِيقِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الْآيَةُ، يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ تَكُونَ كَالْأُمَمِ الْمَاضِينَ فِي تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ وَتَرْكِهِمْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالتَّهْيِي عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لُحَيْيٍ، قَالَ: حَجَجْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَامَ حِينَ صَلَّى الظُّهْرَ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِينَ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ سَتَشْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلِّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً - وَهِيَ الْجَمَاعَةُ - وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تُجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ» وَاللَّهُ يَأْمُرُ الْعَرَبَ، لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ لَعَبْرُكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمُحَمَّدَ ابْنِ يَحْيَى<sup>(٥)</sup>.

### [ثَمَرَاتُ الْأَلْفَةِ وَالْفُرْقَةِ يَوْمَ الْحَشْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا<sup>(٦)</sup>. «فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ» قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَهُمْ الْمُتَنَافِقُونَ<sup>(٧)</sup>. «فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» وَهَذَا الْوَصْفُ يَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ «وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» يَعْنِي الْجَنَّةَ، مَا كُنُوا فِيهَا أَبَدًا، لَا يَبْعُثُونَ عَنْهَا حَوْلًا، وَقَدْ رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي غَالِبٍ،

وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَفْتِكُلُواكُمْ يُولُوكُمْ لِأَذْبَارِكُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَةُ أَنْ مَاتُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَغَضِبَ مِنَ اللَّهِ وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

قَالَ: رَأَى أَبُو أُمَامَةَ رُؤُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجٍ مَسْجِدٍ دِمَشْقَ<sup>(٨)</sup>، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: كِلَابُ النَّارِ، شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ، خَيْرٌ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمِعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا - حَتَّى عَدَّ سَبْعًا - مَا

(١) مسلم: ٧٠، ٦٩/١ (٢) أحمد: ٣٨/٥ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٩٠/٦ (٤) أحمد: ١٠٢/٤ (٥) أبو داود: ٥/٥ (٦) ابن أبي حاتم: ٤٦٤/٢ (٧) ابن أبي حاتم: ٤٦٥/٢ موضوع فيه مجاشع بن عمرو هو أحد الكذابين كما قال ابن معين [ميزان الاعتدال ٣/٣٤٦ قال ابن حبان: كان ممن يضع الحديث على اللغات ويروي الموضوعات عن أقوام ثقات لا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل القدح فيه ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار للخواص [المجروحين ٣/١٨] قال الأزدي: كذاب دامر لا تحل الرواية عنه [الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٣/٣٥] (٨) هم رؤوس الخوارج كما في المعجم الكبير للطبراني ٨/٢٦٧ والازارقة يعني الخوارج كما في مسند أحمد ٥/٢٥٣.

وَيُرَوَّى مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَبِي سَعِيدٍ نَحْوَهُ، وَإِنَّمَا حَارَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بَيْنِهَا مُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرَعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ، لَمْ يُعْطِهِ نَبِيًّا قَبْلَهُ، وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ، فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهْرًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ»<sup>(١)</sup> وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ يُنَاسِبُ ذِكْرُ بَعْضِهَا هَهُنَا.

وَبُكِّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وَجُوهُهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرَفَعُ نَبْرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ»<sup>(٢)</sup>.

نَوْعٌ آخَرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَشَرَفِهَا وَكَرَامَتِهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعَ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثُلُثُ النَّاسِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشُّطْرَ»<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ<sup>(٤)</sup>. وَهُوَ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِنَحْوِهِ<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أَيْدِي اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أَيُّ هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَجُهُ وَبَيِّنَاتُهُ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ نَكْشِفُ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ لَيْسَ بِظَالِمٍ لَهُمْ، بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَخْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الْحَاكِمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٣)</sup> لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا آذَىٌّ وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرَفُونَ<sup>(٤)</sup> ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَةَ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَكَأَوْ بِعَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ<sup>(٥)</sup>

[فَضْلُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَكَوْنُهَا خَيْرَ أُمَّةٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَغْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ<sup>(٧)</sup>. وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَسَنَنِ ابْنِ مَاجَةَ وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ مِنْ رِوَايَةِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٨)</sup>. وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، وَقَدْ حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ،

(١) تحفة الأحوذى: ٣٥١/٨ (٢) ابن ماجه: ٦٢/١ وأحمد: ٢٥٦/٥ فتح الباري: ٧٢/٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٢/٤٧٣، ٤٧٢ أحمد: ٣/٥ و تحفة الأحوذى: ٣٥٢/٨ وابن ماجه: ١٤٣٣/٢ (٦) أحمد: ٩٨/١ (٧) فتح الباري: ١١/٤١٣ ومسلم: ١٩٧/١ (٨) أحمد: ٣٤٦/٣ (٩) أحمد: ٣٨٣

الصَّلَاةَ وَالْكَفْرَ وَالْفُسْقَ وَالْعُصْيَانَ.

[الْإِشَارَةُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ]  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَمُبَشِّرًا لَهُمْ أَنَّ  
النَّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الْكَفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ،  
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ  
الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يُصْرُوكَ﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ، فَإِنَّهُمْ يَوْمَ خَيْرٍ  
أَذَلَّهُمُ اللَّهُ وَأَرْزَعَهُمْ أَنْوَفَهُمْ، وَكَذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ يَهُودِ  
الْمَدِينَةِ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَبَنِي النَّصِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ كُلُّهُمْ أَذَلَّهُمُ  
اللَّهُ، وَكَذَلِكَ النَّصَارَى بِالشَّامِ كَسَرَهُمُ الصَّحَابَةُ فِي غَيْرِ  
مَا مَوْطِنٍ، وَسَلَبُوهُمْ مُلْكَ الشَّامِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ وَدَهَرُ  
الدَّاهِرِينَ، وَلَا تَزَالُ عَصَابَةُ الْإِسْلَامِ قَائِمَةً بِالشَّامِ حَتَّى  
يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ كَذَلِكَ، وَيَحْكُمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، فَيُخَسِرَ  
الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخَنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ. وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا  
الْإِسْلَامَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفُؤُوا إِلَّا يَحْبِلُ  
مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيْ أَلَزَمَهُمُ اللَّهُ الذَّلَّةَ وَالصَّغَارَ أَيْنَمَا  
كَانُوا فَلَا يَأْمَنُونَ إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ أَيْ بِدِمَّةٍ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ  
عَقْدُ الذِّمَّةِ لَهُمْ، وَصَرَّبَ الْجِزْيَةَ عَلَيْهِمْ، وَإِلْزَامَهُمْ أَحْكَامَ  
الْمِلَّةِ ﴿وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيْ أَمَانٍ مِنْهُمْ لَهُمْ، كَمَا فِي  
الْمُهَاذِنِ وَالْمُعَاهِدِ وَالْأَسِيرِ إِذَا أَمِنَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،  
وَلَوْ امْرَأَةً - وَكَذَا عَبْدٌ، عَلَى أَحَدِ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ - قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيْ بِعَهْدٍ مِنَ اللَّهِ  
وَعَهْدٍ مِنَ النَّاسِ<sup>(١)</sup>. هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءٌ  
وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ<sup>(٢)</sup>.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَأْمُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيْ أَلَزِمُوا فَالْتَزَمُوا بِغَضَبٍ  
مِنْ اللَّهِ، وَهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ ﴿وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أَيْ

عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ. وَثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ  
تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ  
أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي  
لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»<sup>(٣)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ: أَنَّ  
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، هَذِهِ  
الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا»<sup>(٤)</sup> وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَنْ طَرِيقِ  
آخَرَ<sup>(٥)</sup>. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٦)</sup>.  
وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ  
النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ  
مِنْ قَبْلِنَا وَأَوْتِنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَذَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ  
مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ  
تَبَعٌ، غَدَاً لِلْيَهُودِ، وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ  
وَمُسْلِمٌ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ<sup>(٨)</sup> - وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي  
هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» وَذَكَرَ تَمَامَ  
الْحَدِيثِ<sup>(٩)</sup>.

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَغَيْرُهَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ  
خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ وَتُقِيمُونَ بِاللَّهِ﴾ فَمَنْ انْتَصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ  
الْصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالْمَدْحِ لَهُمْ،  
كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: بَلَّغْنَا أَنْ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
فِي حَجَّةِ حَجَّهَا، رَأَى مِنَ النَّاسِ سُرْعَةً، فَقَرَأَ هَذِهِ  
الْآيَةَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَرَهُ  
أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ، فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا<sup>(١٠)</sup>. رَوَاهُ

ابْنُ جَرِيرٍ، وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ أَشْبَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ  
الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ  
مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾... الْآيَةُ [المائدة: ٧٩]، وَلِهَذَا لَمَّا  
مَدَحَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ، شَرَعَ فِي ذَمِّ  
أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَأْيِيبِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ هَامَتْ أَهْلُ  
الْكِتَابِ﴾ أَيْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ  
مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيْ قَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ  
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى

(١) فتح الباري: ١١/٣٨٥ ومسلم: ١/٢٠٠ (٢) أحمد: ٥/٣٥٥ (٣) أحمد: ٥/٣٤٧ (٤) تحفة الأحوذى: ٧/٢٥٦ (٥) ابن ماجه: ٢/١٣٤ (٦) البخاري: ٨٩٦، ٣٤٨٦، ٣٤٨٧ ومسلم: ٨٥٥ (٧) مسلم: ٨٥٥ (٨) الطبري: ٧/١٠٢ ضعيف: قتادة عن عمر مرسل قال العلائي: أحد المشهورين بالتدليس وهو أيضا يكثر من الإرسال... ولم يسمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا من أنس رضي الله عنه كما قال الإمام أحمد أنظر [جامع التحصيل رقم ٦٣٣] (٩) الطبري: ٧/١١٢ فيه عطية العوفي وعائلته وتقدم مرارا حاله (١٠) ابن أبي حاتم: ٢/٤٨٠، ٤٨١





حَافِظٌ كَاتِبٌ، فَلَوْ اتَّخَذْتُهُ كَاتِبًا، قَالَ: قَدْ اتَّخَذْتُ إِذَا  
بَطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٥)</sup>. فَفِي هَذَا الْأَثَرِ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ  
دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ  
الَّتِي فِيهَا اسْتِطَالَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَاطَّلَاعٌ عَلَى دَوَاحِلِ  
أُمُورِهِمُ الَّتِي يُخْشَى أَنْ يَفْشَوْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ أَهْلِ  
الْحَرْبِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ حِبَالٌ وَدُودٌ مِمَّا  
عَنِتُّمْ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي  
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أَيُّ قَدْ لَاحَ عَلَى صَفَحَاتِ وُجُوهِهِمْ،  
وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ، مَعَ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ فِي  
صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مَا لَا يَخْفَى مِثْلُهُ  
عَلَى لَبِيبِ عَاقِلٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ  
إِنْ كُنْتُمْ مُعَقِّلُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَآئِنْتُمْ أَوَّلَاءَ حُجُوبَتِهِمْ وَلَا تَجِدُونَ لَكُمْ مِنْ أَهْلِهَا الْمُؤْمِنُونَ تَحِبُّونَ الْمُتَافِقِينَ﴾ بِمَا يُطْهَرُونَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَتَحِبُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَي لَيْسَ عِنْدَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشُّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحَيْرَةُ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَي بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ وَبِمَا مَضَى مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْبَغْضَاءِ لَهُمْ مِنْهُمْ لَكُمْ<sup>(٦)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

﴿وَإِذَا تَقَاسَمْتُمْ بِالْأَنَامِلِ مِنْ  
الْعَيْطِ﴾ وَالْأَنَامِلُ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ. قَالَه قَتَادَةُ<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا  
شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمَوَدَّةَ، وَهُمْ  
فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَظِيمَكُمْ الْأَنَامِلِ مِنَ الْعَيْطِ﴾ وَذَلِكَ أَشَدُّ الْعَيْطِ  
وَالْحَقِّقِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَوْتُوُوا بِعَيْطِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ  
بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ مَهْمَا كُنْتُمْ تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ،  
وَنَعِيطُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُتِمِّ نِعْمَتِهِ عَلَى

وَالضَّحَّاكَ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَطَاءٌ: بَرَدٌ  
وَجَلِيدٌ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا. وَمُجَاهِدٌ: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾  
أَيْ نَارٌ<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ، فَإِنَّ الْبَرَدَ الشَّدِيدَ وَلَا  
سِيمَا الْجَلِيدَ يَحْرِقُ الزَّرُوعَ وَالْثَمَارَ، كَمَا يُحْرِقُ الشَّيْءُ  
بِالنَّارِ ﴿أَصَابَتْ حَرَّتْ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أَيْ  
فَأَحْرَقَتْهُ، يَعْنِي بِذَلِكَ السُّفْعَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرِّ قَدْ آنَ  
جُدَادُهُ أَوْ حَصَادُهُ، فَدَمَرَتْهُ وَأَعْدَمَتْ مَا فِيهِ مِنْ ثَمَرٍ أَوْ  
زَرْعٍ، فَذَهَبَتْ بِهِ وَأَفْسَدَتْهُ، فَقَدِمَتْهُ صَاحِبُهُ أَخْوَجَ مَا كَانَ  
إِلَيْهِ. فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ يَمَحُقُ اللَّهُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ فِي هَذِهِ  
الدُّنْيَا، وَثَمَرَتِهَا، كَمَا أَذْهَبَ ثَمَرَةَ هَذَا الْحَرِّ بِذُنُوبِ  
صَاحِبِهِ. وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ بَنَوْهَا عَلَى غَيْرِ أَصْلٍ وَعَلَى غَيْرِ  
أَسَاسٍ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَةُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَحِصِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ هَٰئِهِمْ أَوْلَاءُ حُبُّهُمْ وَلَا حُبُّكُمْ وَتَوَمَّنُوا بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَاؤُكُمْ عَلَى كُمِ الْآثَامِ مِنَ الْفِتَنِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧٢﴾ إِن تَمْسِكْهُمْ حَسَنَ سَتْرِهِمْ وَإِن تَضِعْهُمْ سَيْتَهُ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٧٣﴾﴾

[النَّهْيُ عَنْ اتِّخَاذِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بَطَانَةً]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ  
الْمُنَافِقِينَ بَطَانَةً، أَيْ يُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَمَا  
يُضْمِرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ، وَالْمُنَافِقُونَ يَجْهَدُهُمْ وَطَاقِيهِمْ لَا  
يَأْلَوْنَ الْمُؤْمِنِينَ خِيَالًا، أَيْ يَسْعَوْنَ فِي مُخَالَفَتِهِمْ وَمَا  
يَضُرُّهُمْ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَبِمَا يَسْتَطِيعُونَهُ مِنَ الْمَكْرِ  
وَالْخَدِيعَةِ، وَيَوَدُّونَ مَا يُغْنِيهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَسْقُ  
عَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَنَحَّضُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾ أَيْ  
مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، وَبَطَانَةُ الرَّجُلِ هُمْ خَاصَّةُ أَهْلِهِ  
الَّذِينَ يَطْلُبُونَ عَلَى دَاخِلِهِ أَمْرَهُ. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ  
وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ  
بِطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ  
بِالشَّرِّ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى  
ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ أَبِي الدُّهْمَانَةِ، قَالَ: قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ  
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَهُنَا غُلَامًا مِنْ أَهْلِ الْحَبِيرَةِ

(١) ابن أبي حاتم: ٢/٤٩٤، ٤٩٥ (٢) ابن أبي حاتم: ٢/

٤٩٦ (٣) ابن أبي حاتم: ٤٩٥/٢ (٤) فتح الباري: ٢٠١/١٣

والنسائي: ١٥٨/٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٥٠٠/٢ ابن أبي شيبة

٤٧٠/٨ (٢٦٣٩٢) ابن أبي الدهقانه أو أبو دهقانه ما وجدت

ترجمته في المراجع والمصادر التي لدي (٦) الطبري: ١٤٩/٧

(٧) الطبري: ١٥٣/٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٦

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ ﴿١٢٣﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرَى لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٥﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ غَلَبًا فَتُقَبِّلُوا مِنْهُمُ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٩﴾

وَرُؤُوسًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ: ارْضُدْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ، فَأَنْفَقُوهَا فِي ذَلِكَ، فَجَمَعُوا الْجُمُوعَ وَالْأَحَابِيشَ، وَأَقْبَلُوا فِي نَحْوِ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ أُحُدٍ بِلِقَاءِ الْمَدِينَةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَلَّى عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي النَّجَارِ يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ ابْنُ عَمْرٍو، وَاسْتَشَارَ النَّاسَ «أَيُّخْرُجَ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ بِالْمَدِينَةِ؟» فَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَالْمَقَامِ بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَحْسِسٍ، وَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي وَجُوهِهِمْ، وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ. وَأَشَارَ آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَيْسَ لَأَمْتِهِ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ نَدِمَ بَعْضُهُمْ وَقَالُوا: لَعَلَّنَا اسْتَكْرَهْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ شِئْتَ أَنْ نَمْكُثَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَيْسَ

عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُكْمَلُ دِينِهِ، وَمُعِلُّ كَلِمَتِهِ، وَمُظْهِرُ دِينِهِ، فَمُوتُوا أَنْتُمْ بَعِظُكُمْ» ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ هُوَ عَلِيمٌ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُكُمْ وَتَكُنْهُ سَرَائِرُكُمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مُجَارِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُرِيَكُمْ خِلَافَ مَا تُؤْمَلُونَ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا، فَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَنُوْهُمُ وَإِنْ تَصِبْتُمْ سِئْتَهُ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ ذَالَةٌ عَلَى شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ خَضْبٌ وَنَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَكَثُرُوا وَعَزَّ أَنْصَارُهُمْ، سَاءَ ذَلِكَ الْمُتَافِقِينَ، وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ سَهٌّ أَيْ جَدْبٌ، أَوْ أُدِيلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ، لِمَا لِلَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ - كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ - فَرِحَ الْمُتَافِقُونَ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا...﴾ الْآيَةُ، يُزِيدُهُمْ تَعَالَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ، وَكَيْدِ الْفُجَّارِ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ. وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَبْقَى فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْإِخْتِبَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَافِقِينَ وَبَيْنَ صَبْرِ الصَّابِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَدْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٢﴾

[بَيَانُ غَرْوَةِ أُحُدٍ]

الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْوَقْفَةِ يَوْمُ أُحُدٍ عِنْدَ الْجَنْهُورِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَتَقَادَةُ وَالشَّدْيُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>. وَكَانَتْ وَقْفَةُ أُحُدٍ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَوْمَ السَّبْتِ لِلنَّصَفِ مِنْ شَوَّالٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ سَبَبُهَا: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَسَلِمَتِ الْعِيرُ بِمَا فِيهَا مِنَ التَّجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي سَفْيَانَ، فَلَمَّا رَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى مَكَّةَ، قَالَ أَبْنَاءُ مَنْ قُتِلَ

لَأَمْتُهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ».

فَسَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانُوا بِالشَّوْطِ، رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فِي ثُلُثِ الْجَيْشِ مُغْضَبًا، لِكُونِهِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى قَوْلِهِ، وَقَالَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ: لَوْ نَعْلَمُ الْيَوْمَ قِتَالًا لَا نَتَّبِعَانَكُمْ، وَلَكِنَّا لَا نَرَاكُمْ تَقَاتِلُونَ الْيَوْمَ. وَاسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِرًا حَتَّى نَزَلَ الشَّعْبُ مِنْ أُحُدٍ فِي غُدُوَةِ الْوَادِي، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ، وَقَالَ: «لَا يَفَاتِلُنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ». وَتَهَيَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْقِتَالِ وَهُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. وَأَمَرَ عَلَى الرِّمَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ. وَالرِّمَاءُ يَوْمَئِذٍ خَمْسُونَ رَجُلًا، فَقَالَ لَهُمْ: «انْضَحُوا الْحَيْلَ عَنَّا وَلَا تُؤْتِنَنَّ مِنْ قِتَالِكُمْ وَالرِّمَاءُ مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ التَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ» وَظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، وَأَعْطَى اللِّوَاءَ مُصْغَبَ بْنَ عَمِيرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ. وَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَوْمَئِذٍ، وَأَرْجَأَ آخَرِينَ، حَتَّى امْضَاهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ بِقَرِيبٍ مِنْ سِتِّينَ. وَتَبَعَاتُ فَرَسٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، وَمَعَهُمْ مِائَتَا فَرَسٍ قَدْ جَنَّبُوهَا، فَجَعَلُوا عَلَى مِمْنَةِ الْحَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَعَلَى الْمَيْسِرَةِ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَدَفَعُوا إِلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ اللَّوَاءَ، ثُمَّ كَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَا سَبَّأَنِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوَاضِعِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ أَيِ تُنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَتَجْعَلُهُمْ مِمْنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيِ سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...﴾ الْآيَةُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...﴾ الْآيَةُ، قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ. وَمَا نَجِبُ - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسْرُبِي أَنَّهَا لَمْ تُنْزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾<sup>(١)</sup> وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ<sup>(٢)</sup>.

[التَّذْكِيرُ بِتَصْرِ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ قَلَّةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ أَيِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَ فِي يَوْمٍ جُمُعَةٍ وَافَقَ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَهُوَ يَوْمُ الْفُرْقَانِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ

الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَدَمَعَ فِيهِ الشَّرْكَ، وَخَرَّبَ مَحَلَّهُ، مَعَ قَلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثِمِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فِيهِمْ فَرَسَانِ وَسَبْعُونَ بَعِيرًا، وَالْبَاقُونَ مَشَاةً، لَيْسَ مِنْهُمْ مِنَ الْعَدَدِ جَمِيعٌ مَا يَخْتَارُونَ إِلَيْهِ. وَكَانَ الْعَدُوُّ يَوْمَئِذٍ مَا بَيْنَ الثَّسْعِمِائَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي سَوَابِغِ الْحَدِيدِ وَالْبَيْضِ، وَالْعُدَّةُ الْكَامِلَةُ، وَالْخُبُولُ الْمُسَوَّمَةُ، وَالْحُلِيِّ الرَّائِدُ، فَأَعَزَّ اللَّهُ رَسُولَهُ، وَأَظْهَرَ وَحْيَهُ وَتَنْزِيلَهُ، وَبَيَّضَ وَجْهَ النَّبِيِّ وَقَبِيلَهُ، وَأَخْزَى الشَّيْطَانَ وَجَبَلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحِزْبِهِ الْمُتَّقِينَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أَيِ قَلِيلٌ عَدَدُكُمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ إِلَى ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧]. وَبَدْرٌ: مَحَلَّةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ تُعْرَفُ بِبِئْرِهَا، مَنْسُوبَةٌ إِلَى رَجُلٍ حَفَرَهَا، يُقَالُ لَهُ: بَدْرُ بْنُ النَّارِينِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أَيِ تَقُومُونَ بِطَاعَتِهِ.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ﴾ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَلِّينَ ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ. وَمَا أَنْصَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْمُرِيرِ الْحَكِيمِ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾

رَحِيمٌ ﴿١٢٤﴾  
[النَّصْرُ بِالْمَلَائِكَةِ]

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْوَعْدِ، هَلْ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ يَوْمَ أُحُدٍ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وَرَوَى هَذَا عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعَامِرِ الشَّعْبِيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٣)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. قَالَ عَبَادُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ﴾ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالَ: هَذَا يَوْمُ بَدْرٍ<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ثُمَّ رَوَى عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ

(١) فتح الباري: ٦٣/٨ (٢) مسلم: ١٩٤٨/٤ (٣) ابن أبي حاتم: ٥١٩-٥٢١ (٤) الطبري: ١٧٤/٧

بَلَّغَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَنَّ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ يُمِدُّ الْمُشْرِكِينَ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ يَكُنْكُمْ أَنْ يُدْخِلَكُمْ رَبُّكُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مُسُومِينَ﴾ قَالَ: فَلَبَّغَتْ كُرْزًا الْهَزِيمَةَ، فَلَمْ يُمِدَّ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يُمِدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْخَمْسَةِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَمَدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِأَلْفٍ، ثُمَّ صَارُوا ثَلَاثَةَ أَلْفٍ، ثُمَّ صَارُوا خَمْسَةَ أَلْفٍ<sup>(٢)</sup>. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَبَيَّنَّ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبُّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ التَّنْصِصَ عَلَى الْأَلْفِ - هَهُنَا - لَا يُتَانِي الثَّلَاثَةَ

الْأَلْفَ فَمَا فَوْقَهَا، لِقَوْلِهِ: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾ بِمَعْنَى يَزِدُّهُمْ غَيْرُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ أَلُوفٌ أُخَرُ مِثْلُهُمْ. وَهَذَا السِّيَاقُ شَبِيهُ بِهَذَا السِّيَاقِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. فَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يَعْنِي: تَصْبِرُوا عَلَى مُصَابَرَةِ عَدُوِّكُمْ، وَتَتَّقُونِي وَتُطِيعُوا أَمْرِي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَا تُوَكَّلُ مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ الرَّبِيعِ وَالسَّدِّيُّ: أَيُّ مِنْ وَجْهِهِمْ هَذَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ سَفَرِهِمْ هَذَا، وَيُقَالُ: مِنْ غَضَبِهِمْ هَذَا<sup>(٤)</sup>.

لَقَوْلِ الثَّانِي (أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْصُلِ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ يَوْمَئِذٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ فَلَمْ يَصْبِرُوا، بَلْ قَرُّوا، فَلَمْ يُمِدُّوا بِمَلِكٍ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسُومِينَ﴾ أَيُّ مُعْلَبِينَ بِالسَّيْمَا، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّيِّعِيُّ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرَّبٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ سَيْمًا الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ بَدْرٍ الصُّوفُ الْأَبْيَضُ<sup>(٥)</sup>. وَكَانَ سَيْمَاهُمْ أَيْضًا فِي نَوَاصِي خَيْلِهِمْ. وَقَالَ مَكْحُولٌ: ﴿مُسُومِينَ﴾ بِالْعَمَائِمِ. وَرَوَى ابْنُ مَرْذُومٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُسُومِينَ﴾ قَالَ: «مُعْلَبِينَ» وَكَانَ سَيْمًا الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَائِمَ سُودَ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ عَمَائِمَ حُمْرَ. وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ حُصَيْنِ بْنِ مَخَارِقٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمْ تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ

لَقَوْلِ الثَّانِي (أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْصُلِ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ يَوْمَئِذٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ فَلَمْ يَصْبِرُوا، بَلْ قَرُّوا، فَلَمْ يُمِدُّوا بِمَلِكٍ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسُومِينَ﴾ أَيُّ مُعْلَبِينَ بِالسَّيْمَا، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّيِّعِيُّ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرَّبٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ سَيْمًا الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ بَدْرٍ الصُّوفُ الْأَبْيَضُ<sup>(٥)</sup>. وَكَانَ سَيْمَاهُمْ أَيْضًا فِي نَوَاصِي خَيْلِهِمْ. وَقَالَ مَكْحُولٌ: ﴿مُسُومِينَ﴾ بِالْعَمَائِمِ. وَرَوَى ابْنُ مَرْذُومٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُسُومِينَ﴾ قَالَ: «مُعْلَبِينَ» وَكَانَ سَيْمًا الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَائِمَ سُودَ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ عَمَائِمَ حُمْرَ. وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ حُصَيْنِ بْنِ مَخَارِقٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمْ تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ

(١) ابن أبي حاتم: ٥٢٠/٢ (٢) الطبري: ١٧٨/٧ (٣) ابن أبي حاتم: ٥٢٣/٢، ٥٢٤ (٤) الطبري: ١٨٢/٧ العوفي تقدم حاله (٥) ابن أبي حاتم: ٥٢٥/٢ أبو إسحاق السبيعي مدلس مختلط كما مر (٦) ابن أبي شيبة: ٣٥٤/١٤ (٧) ابن أبي حاتم: ٥٢٧/٢ (٨) الطبري: ١٩٥/٧

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٧

الْمُحْسِنِينَ

﴿١٣٠﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣١﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ وَالْكُفْرِ وَالظُّلْمِ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَبْرِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٤﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٥﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٨﴾

وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿١٣٩﴾ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٠﴾ وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُوهَا أَتَمَّعْتُمْ بِمُضَاعَفَتِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٤١﴾ وَاللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ وَأَنْتُمْ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤٤﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ وَالْكُفْرِ وَالظُّلْمِ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٧﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَبْرِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٤٨﴾

[حُرْمَةُ الرِّبَا عَلَى الْإِطْلَاقِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تَعَاطِي الرِّبَا،

الْكُفْرَ وَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ﴿١٤٩﴾ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ ﴿١٥٠﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَانْتَهُم ظَالِمُونَ﴾ أَيْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١) ... الْآيَةُ وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا، اللَّهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، اللَّهُمَّ الْعَنِ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ» فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَنْتَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فَتَيَّبَ عَلَيْهِمْ كُلَّهُمْ (٣).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ، أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ، قَتَلَ بَعْدَ الرُّكُوعِ وَرَبَّمَا قَالَ: إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ: اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رِبْعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُصْرٍ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يَوْسُفَ» يَجْهَرُ بِذَلِكَ. وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا وَفُلَانًا» لِأَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ... الْآيَةُ (٤).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ حُمَيْدٌ وَنَابِثٌ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: شَجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحُدٍ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» فَتَرَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، كَسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أَحُدٍ، وَشَجَّ فِي جَبْهَتِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ؟» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَنْتَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٦) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ الْجَمِيعُ مِلْكٌ لَهُ، وَأَهْلُهَا عِبِيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فَلَا مَعْصِيَةَ لِحُكْمِهِ،

(١) فتح الباري: ٧٣/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٣١٤/٦

(٣) أحمد: ٩٣/٢ (٤) البخاري: ٤٥٦٠ (٥) فتح الباري: ٧/

٣٦٥ (٦) أحمد: ٩٩/٣ (٧) مسلم: ١٧٩١

﴿كَرِضَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالنَّارِ فِي أَشْفَلِ سَافِلِينَ، فَلَا تُنَافِي بَيْنَ كَوْنِهَا كَعَرَضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَيْنَ وُجُودِ النَّارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ﴾ أَيُّ فِي الشَّدَةِ وَالرِّخَاءِ وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالصَّحَةِ وَالْمَرَضِ وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، كَمَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤] وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَعْلِفُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنْفَاقِ فِي مَرَاضِيهِ. وَالْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أَيُّ إِذَا نَارَ بِهِمْ الْغَيْظُ كَظَمُوهُ، بِمَعْنَى كَتَمُوهُ، فَلَمْ يَعْمَلُوهُ، وَعَفَوْا مَعَ ذَلِكَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الشَّيْخَانُ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ، وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ بِرَبْوَةٍ - ثَلَاثًا - أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ. وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٌ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ جَوْفَهُ إِيْمَانًا»<sup>(٥)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ لَيْسَ فِيهِ مَجْرُوحٌ، وَمَتْنُهُ حَسَنٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ» وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَرَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٌ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ»<sup>(٧)</sup>.

(١) فتح الباري: ١٤/٦ (٢) كشف الأستار: ٤٣/٣ صحيح ابن حبان ٣٠٦/١ والمستدرک ٣٦/١ (٣) أحمد: ٢٣٦/٢ (٤) فتح الباري: ٥٣٥/١٠ ومسلم: ٢٠١٤/٤ (٥) أحمد: ١/٣٢٧ (٦) أحمد: ٤٣٨/٣، ٤٤٠ وأبو داود: ١٣٧/٥ وتحفة الأحوذی: ١٣٩/٦ وابن ماجه: ١٤٠٠/٢ (٧) أحمد: ١٢٨/٢

وَأَكْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذَا حَلَّ أَجَلَ الدِّينِ: إِمَّا أَنْ يَقْضِيَ وَإِمَّا أَنْ يُرْبِيَ، فَإِنْ قَضَاهُ، وَإِلَّا زَادَهُ فِي الْمُدَّةِ، وَزَادَهُ الْآخِرُ فِي الْقَدْرِ، وَهَكَذَا كُلُّ عَامٍ، فَرُبَّمَا تَضَاعَفَ الْقَلِيلُ حَتَّى يَصِيرَ كَثِيرًا مُضَاعَفًا. وَأَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالتَّقْوَى لَعَلَّهُمْ يُفْلِحُونَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَى، ثُمَّ تَوَعَّدَهُم بِالنَّارِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

### [النَّدْبُ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْجَنَّةِ]

ثُمَّ نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى تَبِيلِ الْقُرْبَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ كَمَا أُعِدَّتِ النَّارُ لِلْكَافِرِينَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ - تَبْيِهَا عَلَى اتِّسَاعِ طُولِهَا - كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ فُرُشِ الْجَنَّةِ: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أَيُّ: فَمَا ظَنُّكَ بِاطِّهَايِرٍ؟ وَقِيلَ: بَلْ عَرْضُهَا كَطُولِهَا، لِأَنَّهَا قُبَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَالشَّيْءُ الْمُقْبَبُ وَالْمُسْتَدِيرُ عَرْضُهُ كَطُولُهُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقَفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»<sup>(١)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ [الحديد: ٢١].

رَوَى الْبَزَّازُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فَأَيْنَ النَّارُ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ النَّهَارُ؟» قَالَ: حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: «وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ (أَحَدُهُمَا): أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ مُشَاهَدَتِنَا اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي مَكَانٍ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. (الثَّانِي) أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّ النَّهَارَ إِذَا تَغَشَّى وَجْهَ الْعَالَمِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ يَكُونُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ، فَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَعَرْضُهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(١)</sup>.  
 فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْكَاذِبِينَ الْعَظِيمَ﴾ أَيُّ لَا يُعْمَلُونَ  
 غَضَبُهُمْ فِي النَّاسِ، بَلْ يَكْفُونَ عَنْهُمْ شَرَّهُمْ، وَيَحْتَسِبُونَ  
 ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمَافِينَ عَنِ  
 النَّاسِ﴾ أَيُّ مَعَ كَفِّ الشَّرِّ يَغْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ فِي  
 أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ مُوجِدَةٌ عَلَى أَحَدٍ، وَهَذَا  
 أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فَهَذَا  
 مِنْ مَقَامَاتِ الْإِحْسَانِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «ثَلَاثُ أَقْسِمَ  
 عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِغَفْوٍ  
 إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا  
 أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيُّ إِذَا صَدَرَ مِنْهُمْ  
 ذَنْبٌ اتَّبَعُوهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي  
 هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ  
 ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاعْفُوهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ  
 وَجَلَّ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَلَعِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ  
 بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي  
 عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفُوهُ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ  
 رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا  
 آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفُوهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ  
 وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ  
 غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ  
 ذَنْبًا فَاعْفُوهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا  
 يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي  
 فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»<sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَهُ فِي الصَّحِيحِ بِنَحْوِهِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،  
 قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ إِبْلِيسَ حِينَ نَزَلَتْ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً  
 أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾... الْآيَةَ،  
 بَكَى<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذَّنْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أَيُّ  
 لَا يَغْفِرُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ.  
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ  
 تَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ عَنِ قَرِيبٍ، وَلَمْ  
 يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْمُعْصِيَةِ وَيَصِرُوا عَلَيْهَا. غَيْرَ مُقْلَعِينَ عَنْهَا،  
 وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ الذَّنْبُ تَابُوا عَنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾  
 قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبِيدِ بْنِ عَمِيرٍ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾  
 أَنَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾

أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وَكَقَوْلِهِ:  
 ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ  
 غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.  
 وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ  
 أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «ارْحَمُوا تَرْحَمُوا، وَاعْفُوا يُعْفَرْ  
 لَكُمْ، وَيُلْ لِقَمَاعِ الْقَوْلِ، وَيُلْ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُونَ  
 عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»<sup>(٦)</sup> تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. ثُمَّ قَالَ  
 تَعَالَى بَعْدَ وَصْفِهِمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ «أَوَلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ  
 رَبِّهِمْ» أَيُّ جَزَاؤُهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ «مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ  
 وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أَيُّ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَاتِ  
 «خَالِدِينَ فِيهَا» أَيُّ مَا كَثُرَتْ فِيهَا «وَيَعْمَرُ جَنَّاتُ الْعِلْمَيْنِ» يَمْدَحُ  
 تَعَالَى الْجَنَّةَ.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ  
 عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾<sup>(٧)</sup> هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ  
 لِلْمُتَّقِينَ<sup>(٨)</sup> وَلَا تَهْمُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ  
 مُؤْمِنِينَ<sup>(٩)</sup> إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ  
 وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ  
 وَتَنَزَّخَ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ<sup>(١٠)</sup> وَلِيَمَجِّصَ اللَّهُ  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ<sup>(١١)</sup> أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ  
 وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ<sup>(١٢)</sup> وَلَقَدْ  
 كُنْتُمْ تَمْنَوْنَ الْوَمُوتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ  
 تَنْظُرُونَ<sup>(١٣)</sup>

[بَيَانُ حِكْمَةِ مَا أُصِيبُوا بِهِ يَوْمَ أُحُدٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطًا بِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أُصِيبُوا يَوْمَ  
 أُحُدٍ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أَيُّ  
 قَدْ جَرَى نَحْوُ هَذَا عَلَى الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ  
 أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ، وَالدَّائِرَةُ عَلَى  
 الْكَافِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا  
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ  
 لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ فِيهِ بَيَانٌ لِلْأُمُورِ عَلَى جَلِيلَتِهَا، وَكَيْفَ  
 كَانَ الْأُمَمُ الْأَقْدَمُونَ مَعَ أَغْدَائِهِمْ ﴿وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ يَعْنِي  
 الْقُرْآنَ، فِيهِ خَيْرٌ مَّا قَبْلَكُمْ. وَ ﴿هَدًى﴾ لِقُلُوبِكُمْ، وَ  
 ﴿مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ زَاجِرٍ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ.

(١) ابن ماجة: ١٤٠١/٢ (٢) أحمد: ٢٣١/٤ (٣) أحمد:  
 ٢٩٦/٢ (٤) فتح الباري: ٤٧٤/١٣ (٥) عبد الرزاق: ١/  
 ١٣٣ (٦) أحمد: ١٦٥/٢

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمِنْ يُرْدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِه مِنْهَا وَمَنْ يُرْدِ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيبِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ أَقْدَامُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

رَأَيْتُمُوهُ ﴿١٤١﴾ يَعْنِي الْمَوْتَ شَاهَدْتُمُوهُ وَقَتَ لَمَعَانِ الشُّبُوفِ، وَحَدَّ الْأَسِنَّةِ، وَاشْتَبَاكَ الرِّمَاحِ، وَصُفُوفِ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ، وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُعْبِرُونَ عَنْ هَذَا بِالتَّخْيِيلِ. وَهُوَ مُشَاهَدَةُ مَا لَيْسَ بِمَحْسُوسٍ كَالْمَحْسُوسِ كَمَا تَتَخَيَّلُ الشَّأْ صَدَاقَةُ الْكَبْشِ، وَعَدَاوَةُ الدُّبِّ.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمِنْ يُرْدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِه مِنْهَا وَمَنْ يُرْدِ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيبِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ أَقْدَامُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أَيْ لَا تَضَعُفُوا بِسَبَبِ مَا جَرَى ﴿وَلَا تَهْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ الْعَافِيَةَ وَالنُّصْرَةَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أَيْ إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ، وَقُتِلَ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ، فَقَدْ أَصَابَ أَغْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِ وَجِرَاحٍ ﴿وَلَكِ الْآيَاتُ نَذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أَيْ نُدْبِلُ عَلَيْكُمْ الْأَغْدَاءَ نَارَةً، وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْعَافِيَةُ، لِمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مِثْلِ هَذَا: لِيَرَى مَنْ يَضُرُّ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَغْدَاءِ وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴿يَعْنِي يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ، وَيَنْدُلُونَ مُهْجَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيْ يُكَمِّرَ عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ. وَإِلَّا رَفَعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا أَصِيبُوا بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفَرُوا بَعَا وَبَطَرُوا، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ دِمَارِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَمَحْقِهِمْ وَفَنَائِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ أَحْسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ تَبْتَلُوا بِالْقِتَالِ وَالشَّدَائِدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِهِمْ أَلَسَاءُ الْفِتْرَةِ وَزُرُوا﴾... [الآيَةُ: الْبَقَرَةُ: ٢١٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُبْزَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾... [الآيَةُ: الْعَنْكَبُوتُ: ٢، ١]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ لَا يَحْصُلُ لَكُمْ دُخُولُ الْجَنَّةِ حَتَّى تَبْتَلُوا، وَيَرَى اللَّهُ مِنْكُمْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مُقَارَاةِ الْأَغْدَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أَيْ قَدْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ تَتَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَتَتَحَرَّقُونَ عَلَيْهِمْ، وَتَوَدُّوْنَ مُنَاجَزَتَهُمْ وَمُصَابَرَتَهُمْ، فَهَا قَدْ حَصَلَ لَكُمْ الَّذِي تَمَنَّيْتُمُوهُ وَطَلَبْتُمُوهُ، فَدُونَكُمْ فَقَاتِلُوا وَصَابِرُوا، وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِبْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّبُوفِ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ



وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

[ذِكْرُ إِشَاعَةِ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ أَحُدٍ، وَبَيَانُ الْمَوْقِفِ الصَّحِيحِ فِي حَالَةِ مَوْتِهِ]

لَمَّا انْهَزَمَ مِنَ انْهَزَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحُدٍ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، نَادَى الشَّيْطَانُ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وَرَجَعَ ابْنُ قَمَيْةٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: قَتَلْتُ مُحَمَّدًا، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ، وَجَوَّزُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، كَمَا قَدْ قَصَّ اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَحَصَلَ ضَعْفٌ وَوَهْنٌ وَتَأَخَّرَ عَنِ الْقِتَالِ، فَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَيْ لَهُ أَسُوءَةٌ بِهِمْ فِي الرِّسَالَةِ وَفِي جَوَازِ الْقَتْلِ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ أَبِيهِ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا فُلَانُ، أَشَعَرْتُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قُتِلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ فَقَدْ بَلَغَ، فَقَاتِلُوا عَنْ دِينِكُمْ، فَتَرَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ النَّيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَكْرِّمًا عَلَى مَنْ حَصَلَ لَهُ ضَعْفٌ ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أَيْ رَجَعْتُمْ الْقَهْقَرَى ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيْ الَّذِينَ قَامُوا بِطَاعَتِهِ، وَقَاتَلُوا عَنْ دِينِهِ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا. وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ الْإِسْلَامِ مِنْ طَرَفٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَفِيدُ الْقَطْعَ، وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي مُسْنَدِي الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الصَّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكِنِهِ بِالسُّنْحِ، حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَبِعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُعْشَى بِثَوْبٍ حَبْرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ وَقَبَّلَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا. وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُحَدِّثُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا

بَعْدُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قَالَ: فَوَ اللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا النَّاسُ مِنْهُ كُلُّهُمْ، فَمَا سَمِعَهَا بَشَرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا تَلَاهَا. وَعَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ عُمَرَ قَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَوَّزْتُ حَتَّى مَا تُقَلِّنِي رَجُلَايَ، وَحَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ أَيْ لَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَحَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُتَّسِقٌ عَبْدُكَ﴾ [الأنعام: ٢] وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ لِلْجَبَنَاءِ، وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ الْإِفْدَامَ وَالْإِحْجَامَ لَا يَنْقُصُ مِنَ الْعُمُرِ وَلَا يَزِيدُ فِيهِ، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حَبِيبِ بْنِ صُهَبَانَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَهُوَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ - مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَعْبُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْعُدُوِّ هَذِهِ النُّطْفَةَ - يَعْنِي دَجَلَةَ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ ثُمَّ أَفْحَمَ فَرَسَهُ دَجَلَةَ، فَلَمَّا أَفْحَمَ، أَفْحَمَ النَّاسُ، فَلَمَّا رَأَاهُمُ الْعُدُوُّ، قَالُوا: دِيْوَانُ! فَهَرَبُوا (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُزِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُزِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أَيْ مَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا فَقَطْ نَالَ مِنْهَا مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ، وَمَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْهَا مَعَ مَا قَسَمَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَمَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (٤) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا

(١) دلائل النبوة: ٢٤٨/٣ (٢) فتح الباري: ٧٥١/٧ (٣) ابن أبي حاتم: ٥٨٤/٢، وديوان جمع ديوان، وهو بالفارسية والهندية: العفريت الكبير.

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٩

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا  
يَرُدُّوْكُمْ عَلٰٓى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿١٤٩﴾  
بَلِ اللّٰهُ مَوْلٰىكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِيْ  
فِيْ قُلُوْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ  
مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَمَا وَّوْنُهُمُ النَّارُ وَيُسْ  
مَوْنٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ  
وَعْدُهُ اِذْ تَحْسُوْنَهُمْ بِاِذْنِهٖ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ  
وَتَنَزَّعْتُمْ فِيْ الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰىكُمْ  
مَّا تَحِبُّوْنَ مِنْكُمْ مِّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ  
مَّنْ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ  
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُوْ فَضْلٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ  
﴿١٥٢﴾ اِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلَا تَكُوْنُوْنَ عَلٰى اَحَدٍ  
وَالرُّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِيْ اٰخِرَتِكُمْ فَاتَّبِعْكُمُ  
عَمَّا يَعْمَرُ لِكَيْلًا تَحَرُّوْا عَلٰى مَا فَاٰتَكُمْ  
وَلَا مَا اَصْبَحَكُمْ وَاللّٰهُ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٥٣﴾

مَوْلٰىكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِيْ فِيْ قُلُوْبِ الَّذِينَ  
كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا  
وَمَا وَّوْنُهُمُ النَّارُ وَيُسْ مَوْنٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ  
اللّٰهُ وَعْدُهُ اِذْ تَحْسُوْنَهُمْ بِاِذْنِهٖ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ  
وَتَنَزَّعْتُمْ فِيْ الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰىكُمْ مَّا تَحِبُّوْنَ  
مِنْكُمْ مِّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ  
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُوْ  
فَضْلٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١٥٢﴾ اِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلَا تَكُوْنُوْنَ عَلٰى  
اَحَدٍ وَالرُّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِيْ اٰخِرَتِكُمْ فَاتَّبِعْكُمُ عَمَّا يَعْمَرُ  
لِكَيْلًا تَحَرُّوْا عَلٰى مَا فَاٰتَكُمْ وَلَا مَا اَصْبَحَكُمْ وَاللّٰهُ  
خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٥٣﴾

[النَّهْيُ عَنْ طَاعَةِ الْكُفَّارِ، وَبَيَانُ اَسْبَابِ مَا حَصَلَ فِيْ

[الإسراء: ١٨، ١٩] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَسَجَرِى  
الْشَّكْرِ﴾ أَيْ سَنُعْطِيهِمْ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَمَّا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ  
يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ﴾ قِيلَ:  
مَعْنَاهُ: كَمْ مِنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ، وَقُتِلَ مَعَهُ رِيشُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَثِيرٌ.  
وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: وَكَمْ مِنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ  
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَصْحَابِهِ رِيشُونَ كَثِيرٌ، وَكَلَامُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي  
السِّيَرَةِ يَقْتَضِي قَوْلًا آخَرَ، قَالَ: أَيْ وَكَأَيْنٍ مِنْ نَّبِيٍّ أَصَابَهُ  
الْقَتْلُ وَمَعَهُ رِيشُونَ، أَيْ جَمَاعَاتٌ، فَمَا وَهَتُوا بَعْدَ نَبِيِّهِمْ،  
وَمَا ضَعُفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ، وَمَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي  
الْجِهَادِ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ دِينِهِمْ، وَذَلِكَ الصَّبْرُ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الصَّابِرِينَ﴾ فَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ﴾ حَالًا، وَقَدْ نَصَرَ  
هَذَا الْقَوْلُ الشَّهْلِيُّ، وَبَالَغَ فِيهِ، وَلَهُ اتِّجَاهٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا  
وَهَتُوا لِمَا أَصَابَهُمْ... الْآيَةُ، وَكَذَلِكَ حَكَاهُ الْأُمَوِيُّ فِي  
مَغَازِيهِ عَنْ كِتَابِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَقُلْ غَيْرَهُ، وَرَوَى  
سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿رِيشُونَ كَثِيرٌ﴾ أَيْ أَلُوفٌ <sup>(١)</sup>.  
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ  
وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: الرِّيشُونَ:  
الْجُمُوعُ الْكَثِيرَةُ <sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الْحَسَنِ ﴿رِيشُونَ كَثِيرٌ﴾  
أَيْ عُلَمَاءُ كَثِيرٌ، وَعَنْهُ أَيْضًا: عُلَمَاءُ صَبَرُوا وَأَقْبِيَاءُ.  
﴿فَمَا وَهَتُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا  
اسْتَكَانُوا﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ يَقْتُلُ  
نَبِيِّهِمْ <sup>(٣)</sup> ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ يَقُولُ: فَمَا ارْتَدُّوا عَنْ بَصِيرَتِهِمْ  
وَلَا عَنْ دِينِهِمْ أَنْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللَّهِ حَتَّى  
لَجَفُوا بِاللَّهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾  
تَخَشَّعُوا، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: وَمَا ذَلُّوا لِعَدُوِّهِمْ،  
﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا  
أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيْ أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى  
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ أَيْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَجِيرَى إِلَّا ذَلِكَ  
﴿فَقَاتَلَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أَيْ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ وَالْعَاقِبَةَ  
﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أَيْ جَمَعَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ هَذَا ﴿وَاللَّهُ  
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا  
يَرُدُّوْكُمْ عَلٰٓى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللّٰهُ

(١) الطبري: ٢٦٦/٧ (٢) ابن أبي حاتم: ٥٨٨، ٥٨٧/٢ (٣)  
ابن أبي حاتم: ٥٩١/٢

## أُحِدِ مِنَ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ  
وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ ثَوْرُ الرَّدَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْخِلُوكُمْ  
عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ  
وَمُؤَالَاتِهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ  
اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيُلْقِي فِي  
قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الْخَوْفَ مِنْهُمْ، وَالذَّلَّةَ لَهُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ  
وَشِرْكِهِمْ، مَعَ مَا آذَرَهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ  
وَالنَّكَالِ، فَقَالَ: ﴿سَيُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ  
بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ  
وَيَبْسُ مَتَوَى الظَّالِمِينَ﴾ وَقَدْ بَيَّنَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ  
جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ  
يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ  
شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُجِلَّتْ لِي  
الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ  
خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أَيُّ أَوَّلِ  
النَّهَارِ ﴿إِذْ تَحْسُبُونَهُمْ﴾ أَيُّ تَقْتُلُونَهُمْ ﴿بِأَذْنِهِ﴾ أَيُّ بِسُلْطَانِهِ  
إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ﴾ وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ  
ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفُشْلُ: الْجُبْنُ<sup>(٢)</sup> ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ  
وَعَصَيْتُمْ﴾ كَمَا وَقَعَ لِلرَّمَاةِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا  
تُحِبُّونَ﴾ وَهُوَ الظَّفَرُ مِنْهُمْ ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْإِسَاءَةَ  
وَهُمُ الَّذِينَ رَغِبُوا فِي الْمَغْنَمِ حِينَ رَأَوْا الْهَزِيمَةَ  
وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ  
لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثُمَّ أَدَالَهُمْ عَلَيْكُمْ لِيَخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ ﴿وَلَقَدْ  
عَفَا عَنْكُمْ﴾ أَيُّ غَفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّنِيعَ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ - لِكَثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ وَعُدُوْدِهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ  
وَعُدُوْدِهِمْ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَقِينَا الْمَشْرِكِينَ  
يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرَّمَاةِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ  
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: «لَا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا  
عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا  
تُعِينُونَا» فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ هَرَبُوا، حَتَّى رَأَيْنَا السَّاءَ يَشْتَدِدُنَّ  
فِي الْجَبَلِ، رَفَعَنَ عَنْ سَوْفِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلَاجِلُهُنَّ،  
فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ:

عَهْدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَا تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا  
صُرِفَ وَجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَبِيلًا، فَأَشْرَفَ أَبُو  
سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لَا تُجِيبُوهُ».  
فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ فَقَالَ: «لَا تُجِيبُوهُ».  
فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنْ هُوَ لَا قَدْ  
قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءَ لَأَجَابُوا. فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ  
فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قَدْ أَبْقَى اللَّهُ لَكَ مَا يُحْزِنُكَ،  
فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اغْلُ هُبْلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ»  
قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَغْلَى وَأَجْلُ». فَقَالَ  
أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَى وَلَا عُزَى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:  
«أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا  
مَوْلَى لَكُمْ». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ يَوْمٍ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ  
سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مِثْلَهُ لَمْ أَمْرٌ بِهَا وَلَمْ تَسْأَلْنِي<sup>(٣)</sup>. تَفَرَّدَ  
بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ الزُّبَيْرَ  
ابْنَ الْعَوَّامِ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنْظُرَ إِلَى خَدَمِ هِنْدَ  
وَصَوَاحِبَاتِهَا مُشْمَرَاتٍ هَوَارِبَ مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ كَثِيرٍ وَلَا  
قَلِيلٍ. وَمَالَتِ الرَّمَاةُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ،  
يُرِيدُونَ النَّهْبَ، وَخَلَّوْا ظَهْرَنَا لِلْحَيْلِ، فَأَتَيْنَا مِنْ أَدْبَارِنَا،  
وَصَرَخَ صَارِخٌ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاثْكَفَانَا، وَانْكَفَأَ  
عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْنَا أَصْحَابَ اللِّوَاءِ، حَتَّى مَا يَذْنُو  
مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمْ يَزَلْ لَوَاءُ  
الْمُشْرِكِينَ صَرِيحًا حَتَّى أَخَذَتْهُ عَمْرَةٌ بِنْتُ عُلْقَمَةَ الْحَارِثِيَّةِ،  
فَدَفَعَتْهُ لِقُرَيْشٍ فَلَاثُوا بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ  
إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَافِعٍ أَحَدُ  
بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ، قَالَ: انْتَهَى أَنَسُ بْنُ النَّصْرِ عَمَّ  
أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَطَلْحَةَ بْنِ عُثَيْدٍ اللَّهِ  
فِي رَجَالٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَدْ أَلْقَوْا مَا بَأْيَدِيهِمْ،  
فَقَالَ: مَا يُخْلِيكُمْ؟ فَقَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ:  
فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قَوْمُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ  
عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمُ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٤)</sup>.  
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَمَّهُ يَعْنِي أَنَسَ

(١) فتح الباري: ١/٥١٩ ومسلم: ١/٣٧٠ (٢) الطبري: ٧/

٢٩١ (٣) فتح الباري: ٧/٤٠٥ (٤) ابن هشام: ٨٨/٣

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَيْضًا قَالَ: رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ يَسَارِهِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضُ، يُقَاتِلَانِ عَنْهُ أَشَدَّ الْقِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَهُ، يَعْنِي جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ أَبِي ابْنُ خَلْفٍ أَخُو بَنِي جُمَحٍ، قَدْ خَلَفَ وَهُوَ بِمَكَّةَ لَيَقْتُلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ حَلْفَتُهُ، قَالَ: «بَلِّ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، أَقْبَلَ أَبِي فِي الْحَدِيدِ مُقْنَعًا وَهُوَ يَقُولُ: لَا نَجُوتُ إِنْ نَجَا مُحَمَّدٌ، فَحَمَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ قَتْلَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ مُضْعَبُ ابْنِ عُمَيْرٍ، أَخُو بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، يَقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ، فَقَتَلَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَأَبْصَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرْقُوتَهُ أَبِي بْنِ خَلْفٍ، مِنْ فُرْجَةٍ بَيْنَ سَابِغَةِ الدَّرْعِ وَالْبَيْضَةِ، وَطَعَنَهُ فِيهَا بِحَرِيَّتِهِ، فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ عَنْ فَرْسِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ طَعْنَتِهِ دَمٌ، فَأَنَاهُ أَصْحَابُهُ فَاحْتَمَلُوهُ، وَهُوَ يَخُورُ خُورَ الثَّوْرِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا أَجَزَعَكَ إِنَّمَا هُوَ خَدَشٌ؟ فَذَكَرَ لَهُمْ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «بَلِّ أَنَا أَقْتُلُ أُبَيًّا». ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي بِي، بِأَهْلِ ذِي الْمَجَازِ لَمَاتُوا أَجْمَعُونَ، فَمَاتَ إِلَى النَّارِ، فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي مَغَازِيهِ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ بِخَوَرِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: جُرْحٌ وَجْهٌ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةً حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ، حَتَّى إِذَا صَارَ رَمَادًا أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَأَنْتَبَهُمْ عَمَّا يُعْمَوْنَ» أَيُّ فَجَازَانُكُمْ عَمَّا عَلَى عَمٍّ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: نَزَلْتُ بَيْنِي فَلَانٌ،

ابْنُ النَّضْرِ، غَابَ عَنْ بَدْرِ فَقَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْتَنِي أَشْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيْنَ اللَّهُ مَا أُجِدُّ، فَلَقِي يَوْمَ أُحُدٍ فَهَزَمَ النَّاسُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بَيْنَهُمَا فَلَقِي سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ، إِنِّي أُجِدُّ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فَقَتِلَ، فَمَا عَرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِنَاتِهِ أَوْ بِشَامَةِ، وَبِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمِيَةٍ بِسَهْمٍ. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ<sup>(١١)</sup>. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثٍ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ بِخَوَرِهِ<sup>(١٢)</sup>.

[ذَكَرَ مَا أَصَابَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْهَزِيمَةِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ» أَيُّ صَرَفَكُمُ عَنْهُمْ «إِذْ تُصْعِدُونَ» أَيُّ فِي الْجَبَلِ هَارِبِينَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ (إِذْ تُصْعِدُونَ) أَيُّ فِي الْجَبَلِ<sup>(٣)</sup>. «وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ» أَيُّ وَأَنْتُمْ لَا تَلُوتُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الدَّهْشِ وَالْخَوْفِ وَالرُّعْبِ «وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ» أَيُّ وَهُوَ قَدْ خَلَفْتُمُوهُ وَرَاءَ طُهُورِكُمْ، يَدْعُوكُمْ إِلَى تَرْكِ الْفِرَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَإِلَى الرَّجْعَةِ وَالْعُودَةِ وَالْكُرَّةِ. قَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا شَدَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُحُدٍ فَهَزَمُوهُمْ، دَخَلَ بَعْضُهُمُ الْمَدِينَةَ، وَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ فَوْقَ الْجَبَلِ إِلَى الصَّخْرَةِ فَقَامُوا عَلَيْهَا. وَجَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ «إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَةُ اللَّهِ» فَذَكَرَ اللَّهُ صُغُودَهُمْ عَلَى الْجَبَلِ، ثُمَّ ذَكَرَ دُعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ»<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٥)</sup>.

### [إِدْفَاعُ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ]

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَاءً وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ، يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ<sup>(٦)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي عُمَانَ النَّهْدِيِّ، قَالَ: لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، غَيْرُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعْدٍ، عَنْ حَدِيثِهِمَا<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: نَتَلَّ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِنَانَتَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَالَ: «إِذَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»، وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٨)</sup>. وَثَبَتَ فِي

(١) فتح الباري: ٤١١/٧ (٢) مسلم: ١٥١٢/٣ (٣) ابن أبي

حاتم: ٦٠٩/٢ (٤) الطبري: ٣٠١/٧ (٥) الطبري: ٣٠٣/٧

(٦) فتح الباري: ٤١٦/٧ (٧) البخاري: ٤٠٦٠ ومسلم:

٢٤١٤ (٨) البخاري: ٤٠٥٥ (٩) البخاري: ٤٠٥٤ ومسلم:

٢٣٠٦ (١٠) البخاري ٢٩١١، ٤٠٧٥، ومسلم ١٧٩٠.

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٧٠

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لَا خَافِيهِمْ إِذَا صَرُّوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَّو كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

وَنَزَّلْتُ عَلَىٰ بَنِي فَلَانٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَأَصْلَيْتُكُمْ فِي جُدُوعِ التَّحْلِ﴾ [طه: ٧١] أَيُّ عَلَى جُدُوعِ التَّحْلِ<sup>(١)</sup>. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ، وَحِينَ قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَالثَّانِي حِينَ عَلَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَوْقَ الْجَبَلِ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغْلِبُونَا» وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ. وَالثَّانِي حِينَ قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ مِنَ الْهَزِيمَةِ. رَوَاهُمَا ابْنُ مَرْدُودٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَتَنَادَ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ سَمَاعُهُمْ قَتْلَ مُحَمَّدٍ، وَالثَّانِي: مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ. وَعَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَكْسُهُ. وَعَنِ السُّدِّيِّ: الْأَوَّلُ مَا فَاتَهُمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ، وَالثَّانِي إِشْرَافُ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أَيُّ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالظَّفَرِ بَعْدُكُمْ ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَالْحَسَنُ وَتَنَادَ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [إِنزَالُ الْأَمْنَةِ، وَهِيَ النَّعَاسُ أَثْنَاءَ الْغَزْوَةِ، عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَذِكْرُ هَلَعِ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُثْنًا عَلَىٰ عِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمْنَةِ، وَهُوَ النَّعَاسُ الَّذِي غَشِيَهُمْ وَهُمْ مُسْتَأَلِمُو السَّلَاحِ فِي حَالِ هَمِّهِمْ وَعَدَمِهِمْ، وَالنَّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ يُضَيِّكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾... الْآيَةُ [الأنفال: ١١] وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ نَعَسَهُ النَّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ

وَأَخَذَهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخَذَهُ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ فِي الْمَغَازِي مُعَلَّقًا. وَفِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مُسْنَدًا<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ، وَجَعَلْتُ أَنْظُرُ، وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النَّعَاسِ. لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: كُنْتُ فِيمَنْ أَلْفَى عَلَيْهِ النَّعَاسُ. الْحَدِيثُ<sup>(٦)</sup>.

قَالَ: وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ، أَجَبَنَ قَوْمٌ وَأَرْعَنَهُ وَأَخَذَهُ لِحَقٍّ ﴿يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا هُمْ كَذِبَةٌ، أَهْلُ شَكٍّ وَرَيْبٍ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ بِغْنِي أَهْلَ الْإِيمَانِ

(١) الطبري: ٣٠٤/٧ (٢) ابن أبي حاتم: ٦١٣/٢ (٣) فتح الباري: ٢٢/٧ (٤) فتح الباري: ٧٦/٨ ونحفة الأحوذى: ٨/٣٥٨ (٥) تحفة الأحوذى: ٣٥٨/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٤٩ والحاكم: ٢٩٧/٢ (٦) النسائي في الكبرى: ٣٤٩/٦

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أَيَّ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أَيُّ يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَحْلُمُ عَنْ حَلْفِهِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: لَقِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَا لِي أَرَاكَ جَفَوْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أُبْلِغُهُ أَنِّي لَمْ أَفِرْ يَوْمَ عَيْنِينَ - قَالَ عَاصِمٌ: يَقُولُ: يَوْمَ أُحُدٍ - وَلَمْ أَنْخَلَفْ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ، قَالَ: فَاذْطَلَقْ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ عُثْمَانَ. قَالَ: فَقَالَ: أَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي لَمْ أَفِرْ يَوْمَ عَيْنِينَ، فَكَيْفَ يُعْزِي بِي ذَنْبٌ قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنِّي كُنْتُ أَمْرَضُ رَفِيقَةَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَتْ، وَقَدْ ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَهْمٍ فَقَدْ شَهِدَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَرَكْتُ سُنَّةَ عُمَرَ فَإِنِّي لَا أَطِيقُهَا وَلَا هُوَ. فَأْتِيَهُ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ <sup>(١)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُبَيِّتُ مَا يَشَاءُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ <sup>(٢)</sup> وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ <sup>(٣)</sup> وَلَكِنْ مَتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَهِ اللَّهِ تَعَالَى <sup>(٤)</sup>.

[النَّهْيُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي تَعْلِيلِ الْمَوْتِ وَأُمُورِ

الْقَدْرِ بِغَيْرِ مَسِيئَةٍ اللَّهِ تَعَالَى]

يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ، الدَّالِّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْأَسْفَارِ وَفِي الْحُرُوبِ: لَوْ كَانُوا تَرَكُوا ذَلِكَ لَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أَيُّ عَنْ إِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَيُّ سَافَرُوا لِلتَّجَارَةِ وَنَحْوِهَا ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾ أَيُّ كَانُوا فِي الْعُرَى ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أَيُّ فِي الْبَلَدِ ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أَيُّ مَا مَاتُوا فِي السَّفَرِ، وَمَا قُتِلُوا فِي الْعُرَى، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي

وَالْيَقِينِ وَالنَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ، وَهُمْ الْجَارِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَيُنْجِزُ لَهُ مَأْمُولَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يَكُنْ فِدَا أَمَتِهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي لَا يَعْشَاهُمُ النَّعَاسُ مِنَ الْفَلَقِ وَالْجَزَعِ وَالْخَوْفِ ﴿يَطْمَئِنُّونَ بِاللَّهِ عِزِّ الْحَقِّ ظَنًّا بِالْجَهْلِيَّةِ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنَا بَقِيَّةُ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الفتح: ١٢]، وَهَكَذَا هُوَ لَا يَعْتَقِدُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةَ أَنَّهَا الْفَيْضَةُ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ وَأَهْلُهُ. وَهَذَا شَأْنُ أَهْلِ الرِّبِّ وَالشُّكِّ، إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْقَطِيعَةِ تَحْصُلُ لَهُمْ هَذِهِ الظُّنُونُ الشَّيْعَةُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَأَمْتُ كُلُّهُمُ اللَّهُ يَخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ مَا أَخْفَوَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا﴾ أَيُّ يُسِرُّونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ عَلَيْنَا، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، فَمَا مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا دَفَنَهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ: فَوَ اللَّهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بْنِ قُسَيْرٍ مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَأَنَّهُمْ يَقُولُ: لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا. فَحَفَظْتُمَا مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا﴾ لِقَوْلِ مُعْتَبِ <sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أَيُّ هَذَا قَدَرٌ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَحُكْمٌ حَتْمٌ لَا زِمَ لَا يُحَادُّ عَنْهُ، وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَتَنَبَّأِ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ يَخْتَبِرُكُمْ بِمَا جَرَى عَلَيْكُمْ، لِيَجِيزَ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَيُظْهِرَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ بِمَا يَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ مِنَ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ.

[ذِكْرُ تَوَلَّى بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ وَبَيَانُ الْعَفْوِ عَنْهُمْ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أَيُّ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنْ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا،

(١) ابن أبي حاتم: ٢/٢٢٠ (٢) أحمد: ١/٦٨

قُلُوبِهِمْ ۖ أُنِيَ خَلْقَ هَذَا الْإِعْتِقَادِ فِي نَفْسِهِمْ لِيُزَادُوا حَسْرَةً عَلَىٰ مُوتِهِمْ وَتَقْلِبُهُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ أُنِيَ بِيَدِهِ الْخَلْقُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يُزَادُ فِي عُمُرٍ أَحَدٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ أُنِيَ وَعِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَعْرِفَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَوْتَ أَيْضًا، وَسَبِيلُهُ إِلَى نَبْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمْعِ حُطَايَاهَا الْفَانِي، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجَعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ مَتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِأَنِّي اللَّهُ مُحْشَرُونَ ۚ﴾

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ لِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكْرِيَّتَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١٦٤﴾ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦٥﴾

بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ۚ وَالْفُظُّ: الْغَلِيظُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا غَلِيظُ الْكَلَامِ، لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أُنِيَ لَوْ كُنْتُ سَيِّئَ الْكَلَامِ، فَاسِيَ الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَأَنْفَضُوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ، وَأَلَانَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأْلِيْقًا لِقُلُوبِهِمْ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّهُ رَأَى صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِنَّهُ لَيْسَ بِفُظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَصْفَحُ. (١)

[الْأَمْرُ بِالشُّورَى وَالْعَمَلُ بِهَا]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ وَلِلَّهِ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي

قُلُوبِهِمْ ۖ أُنِيَ خَلْقَ هَذَا الْإِعْتِقَادِ فِي نَفْسِهِمْ لِيُزَادُوا حَسْرَةً عَلَىٰ مُوتِهِمْ وَتَقْلِبُهُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ أُنِيَ بِيَدِهِ الْخَلْقُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يُزَادُ فِي عُمُرٍ أَحَدٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ أُنِيَ وَعِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَعْرِفَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَوْتَ أَيْضًا، وَسَبِيلُهُ إِلَى نَبْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمْعِ حُطَايَاهَا الْفَانِي، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجَعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ مَتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِأَنِّي اللَّهُ مُحْشَرُونَ ۚ﴾

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ لِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكْرِيَّتَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١٦٤﴾

[مِنْ صِفَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الرَّحْمَةُ وَاللِّينُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِيًا رَسُولَهُ، مُمْتَنًا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبُهُ عَلَى أُمَّتِهِ الْمُتَّبِعِينَ لِأَمْرِهِ، التَّارِكِينَ لِزَجْرِهِ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظُهُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أُنِيَ: أُنِيَ شَيْءٌ جَعَلَكَ لَهُمْ لَيْتًا، لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكَ وَبِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ يَقُولُ فَبِرَحْمَةِ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ، وَ«مَا» صِلَةٌ، وَالْعَرَبُ تَصِلُهَا بِالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِثْقَلَهُمْ﴾ وَبِالنِّكَرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أُنِيَ بِرَحْمَةِ مِنَ اللَّهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَذَا خَلَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ، بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ

الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ نَزَلَتْ فِي قَطِيفَةِ حَمْرَاءَ فَقَدَتْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَعَلَّ رَسُولَ اللَّهِ أَخَذَهَا، قَالَ: فَأَكْتَرُوا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٦)</sup>. وَهَذِهِ تَبَرُّهُ لَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ عَنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الْخِيَانَةِ فِي أَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَقَسَمِ الْغَنِيمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا فِي أَحَادِيثٍ مُتَعَدِّدَةٍ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طَوَّفَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللَّثِيَّةِ، عَلَى الصَّدَقَةِ، فَجَاءَ فَقَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي لِي. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَنَبْرِ فَقَالَ: «مَا بَالُ الْعَامِلِ تَبَعْتَهُ فَيَجِيءُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَهْدِي إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَبْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا غُفْرَةً يُطْفِئُ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ» ثَلَاثًا، وَزَادَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ فَقَالَ أَبُو حُمَيْدٍ: بَصُرَ عَيْنِي، وَسَمِعَ أُذُنِي، وَسَلَوَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. أَخْرَجَاهُ<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ عَنْ مُعَاذِ ابْنِ جَبَلٍ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ، فَلَمَّا

الْأَمْرُ إِذَا حَدَثَ، تَطَيَّبًا لِقُلُوبِهِمْ، لِيَكُونَ أَنْسَطَ لَهُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ، كَمَا شَاوَرَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْعَبِيرِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بَنَا عُرْضَ الْبَحْرِ لَقَطَعْنَاهُ مَعَكَ، وَلَوْ سِرَتْ بَنَاتِي إِلَى بَرِكِ الْغِمَادِ لَسَرْنَا مَعَكَ، وَلَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. وَلَكِنْ نَقُولُ: اذْهَبْ، فَتَحْنُ مَعَكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ مُقَاتِلُونَ. وَشَاوَرَهُمْ أَيْضًا أَيْنَ يَكُونُ الْمَنْزِلُ، حَتَّى أَشَارَ الْمُنِيرُ بْنُ عَمْرٍو - الْمُعَقِّقُ لِيَمُوتَ - بِالتَّقَدُّمِ إِلَى أَمَامِ الْقَوْمِ. وَشَاوَرَهُمْ فِي أَحَدٍ فِي أَنْ يَقْعُدَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ يَخْرُجَ إِلَى الْعَدُوِّ، فَأَشَارَ جُمْهُورُهُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ. وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي مُصَالَحَةِ الْأَحْزَابِ بِثَلَاثِ نِمَارٍ الْمَدِينَةِ عَامِيذٍ، فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ السَّعْدَانِ: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَتَرَكَ ذَلِكَ. وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَنْ يَمِيلَ عَلَى ذَرَارِي الْمُشْرِكِينَ. فَقَالَ لَهُ الصَّدِيقُ: إِنَّا لَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَإِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، فَأَجَابَهُ إِلَى مَا قَالَ. وَقَالَ ﷺ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ أَبْنَاءِ أَهْلِي وَزَمَوْتُمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنَاهُمْ بِمَنْ؟ وَاللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا»<sup>(١)</sup>. وَاسْتَشَارَ عَلَيْهِ وَأَسَامَةَ فِي فِرَاقِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُهُمْ فِي الْخُرُوبِ وَنَحْوَهَا وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»<sup>(٢)</sup> وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَحَسَنَهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

#### [التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بَعْدَ الْمَشُورَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ إِذَا شَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَزَمْتَ عَلَيْهِ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَصْرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصْرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اتَّصَرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَكَلَّ اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

#### [الْغُلُولُ لِسَنِ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ

(١) البخاري: ٤٧٥٧ (٢) ابن ماجه: ١٢٣٣/٢ (٣) أبو داود: ٣٤٥/٥ وتحفة الأحوذى: ١٠٩/٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٧/٢ (٥) الطبري: ٣٤٨/٧ (٦) أبو داود: ٢٨٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٣٥٩/٨ (٧) أحمد: ١٤٠/٤ فيه عبد الله بن محمد بن عقيل أبو محمد المدني في حديثه لين ويقال تغير بآخره. كما في التقريب لابن حجر رحمه الله. (٨) أحمد: ٤٢٣/٥ والبخاري: ٢٥٩٧، ٧١٧٤ ومسلم: ١٨٣٢



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: يَعْنِي: أَهْلُ الْخَيْرِ وَأَهْلُ الشَّرِّ دَرَجَاتٌ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْكَسَائِيُّ: مَنَازِلُ. يَعْنِي مُنَافِئُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، وَدَرَكَاتِهِمْ فِي النَّارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مَنَازِلُهَا﴾... الآية [الأنعام: ١٣٢]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَاللَّهُ بِصِيْرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيَّ وَسْوَفِيهِمْ إِيَّاهَا، لَا يَظْلِمُهُمْ خَيْرًا، وَلَا يَزِيدُهُمْ شَرًّا، بَلْ يَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

[بِعَنَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةً عَظِيمَةً]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيَّ مِنْ جَنَسِهِمْ لِيَتِمَّ كُنُوفُهُمْ مِنْ مُحَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَمُجَالَسَتِهِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] أَيَّ مِنْ جَنَسِكُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾... الآية [الكهف: ١١٠]. وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْعَشِرَ لِحَنٍ وَلَا يُبَالِغُ فِي الْأَمْتَانِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ، بِحَيْثُ يُمَكِّنُهُمْ مُحَاطَبَتُهُ وَمُرَاجَعَتُهُ فِي فَهْمِ الْكَلَامِ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أَيَّ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِيَتَزَكَّوْا نَفُوسُهُمْ، وَتَطْهَرَ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ الَّذِي كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ فِي حَالِ شُرُكِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ، وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، ﴿وَلِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيَّ مِنْ قَبْلِ هَذَا الرَّسُولِ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيَّ لَفِي غَيٍّ وَجَهْلٍ ظَاهِرٍ جَلِيٍّ بَيْنَ لِكُلِّ أَحَدٍ. ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَوْصِيْبَةً﴾ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا فَلَمَّا أَنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَبَكُمْ

سِرْتُ أَرْسَلَ فِي أَثَرِي فَرُدُّتْ، فَقَالَ: «أَتَدْرِي لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ؟ لَا تُصَيِّبَنَّ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِي، فَإِنَّهُ غُلُولٌ» ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لِهَذَا دَعَوْتُكَ فَاْمُضْ لِعَمَلِكَ<sup>(١)</sup>. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بِغَيْرِ لَهْ رُغَاءٍ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَلْبَعْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمَحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَلْبَعْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أَلْبَعْتُكَ»<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: فَلَانٌ شَهِيدٌ وَفَلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فَلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٍ -». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ». قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ السَّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>.

[لَيْسَ الْأَمِينُ وَالْعَالِ سَوَاءٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَقْمِنَ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ يَسْخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيَّ لَا يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ فِيمَا شَرَعَهُ، فَاسْتَحَقَّ رِضْوَانُ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَأَجِيرَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، وَمَنْ اسْتَحَقَّ غَضَبَ اللَّهِ وَأَلَزِمَ بِهِ، فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ، وَمَأْوَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَهَذِهِ لَهَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْمِنَ يَلَهُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَقَدْ كُنْ هُوَ أَعْيَنُ﴾ [الرعد: ١٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَقْمِنَ وَعَدْنَهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَهُ مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾... الآية [القصص: ٦١].

(١) تحفة الأحوذى: ٥٦٤/٤ فيه داود بن يزيد بن عبد الرحمن الأودى ضعيف (تقريب) واستنكر له ابن عدي هذا الحديث بعينه في الكامل ٨٠/٣ ط. دار الفكر بيروت (٢) أحمد: ٤٢٦/٢ (٣) فتح الباري: ٢١٤/٦ ومسلم: ١٤١٦/٣ (٤) أحمد: ١/٣٠ ومسلم: ١١٤ والترمذى: ١٥٧٤ (٥) ابن أبي حاتم: ٢/٦٤٦ والطبري: ٣٦٧/٧

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٥﴾  
 وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ  
 يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٦﴾  
 الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ  
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٧﴾  
 [سَبَبٌ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَحِكْمَتُهُ]  
 يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وَهِيَ مَا  
 أَصَابَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ  
 مِثْلَهَا﴾ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ  
 قِتِيلًا، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ أَسِيرًا، ﴿قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا﴾ أَيُّ مَنْ  
 أَتَى جَرَى عَلَيْنَا هَذَا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ رَوَى ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ  
 أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، غَوِيُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ  
 أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ  
 عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوْ  
 لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ  
 إِسْحَاقَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ ﴿قُلْ هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ سَبَبٍ عَصَيْنَاكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
 حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ، يَعْنِي  
 بِذَلِكَ الرَّمَاةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ﴾ أَيُّ يَفْعَلُ مَا  
 يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ.

بِالدَّعَاءِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: رَابَطُوا. فَتَقَالُوا قَاتِلِينَ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ  
 قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَلْقَوْنَ  
 حَرْبًا لَجِئْنَاكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَلْقَوْنَ قِتَالًا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:  
 ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى  
 أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَنَقَّلَ بِهِ الْأَحْوَالُ، فَيَكُونُ فِي حَالٍ  
 أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ، وَفِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ، لِقَوْلِهِ:  
 ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾  
 يَعْنِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْقِدُونَ صِحَّتَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ  
 هَذَا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا  
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَى  
 الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أَصَابَ مِنْ سَرَاتِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ. وَهُمْ  
 أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ كَاتِبٌ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ لَا مُحَالَةَ. وَلِهَذَا  
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا  
 لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أَيُّ لَوْ سَمِعُوا مِنْ  
 مَشُورَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي التَّعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ

يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٥﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ  
 نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ  
 قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ  
 يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٦﴾  
 الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ  
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٧﴾  
 [سَبَبٌ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَحِكْمَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وَهِيَ مَا  
 أَصَابَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ  
 مِثْلَهَا﴾ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ  
 قِتِيلًا، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ أَسِيرًا، ﴿قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا﴾ أَيُّ مَنْ  
 أَتَى جَرَى عَلَيْنَا هَذَا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ رَوَى ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ  
 أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، غَوِيُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ  
 أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ  
 عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوْ  
 لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ  
 إِسْحَاقَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ ﴿قُلْ هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ سَبَبٍ عَصَيْنَاكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
 حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ، يَعْنِي  
 بِذَلِكَ الرَّمَاةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ﴾ أَيُّ يَفْعَلُ مَا  
 يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ﴾  
 أَيُّ فَرَارِكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَدُوِّكُمْ، وَقَتْلُهُمْ لِحِمَاةِ مِنْكُمْ،  
 وَجَرَّاحَتُهُمْ لِأَخْرِيهِ؛ كَانَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرِهِ، وَلَهُ  
 الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ صَبَرُوا  
 وَتَبَتُّوا وَلَمْ يَتَزَلَّزَلُوا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَيَقْتُلُوا  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ يَعْنِي  
 أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلُولَ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي  
 أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَاتَّبَعَهُمْ مَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،  
 يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِيَابِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ:  
 ﴿أَوْ أَذْفَعُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ  
 وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي كَثُرُوا  
 سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: أَذْفَعُوا

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَابِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى فَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ مُتَقَلِّبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لِكَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ وَمَا بَعْدَهَا<sup>(٤)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَالضَّحَّاكُ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَتْلَى أَحَدٍ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ مُرْدُوَيْهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: نَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا جَابِرُ، مَا لِي أَرَكَ مُهَمِّمًا؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَشْهَدَ أَبِي، وَتَرَكَ ذَنْبًا وَعِيَالًا، فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا»، قَالَ عَلِيٌّ: الْكِفَاحُ الْمُؤَاجَهَةُ فَقَالَ: سَلْنِي أُعْطِكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ أَرُدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ: إِنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ قَابِلُغٍ مِنْ وَرَائِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾... الآية<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهَرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٨)</sup>.

(١) الطبري: ٣٨٣/٧ رواه ابن جريج عن مجاهد وابن جريج ثقة مدلس لم يسمع التفسير من مجاهد. قال عمرو بن علي: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: لم يسمع ابن جريج من مجاهد إلا حديثاً واحداً [تقدمه الجرح والتعديل: ٢٤٥] وقال الدوري عن يحيى بن معين: لم يسمع ابن جريج من مجاهد إلا حرفاً [تاريخ يحيى بن معين برواية الدوري ٣٧٧/٢] والسند إلى ابن جريج ضعيف لأن فيه الحسين بن داود المصيصي الذي كان يلحق شيخه الحجاج انظر تقريب التهذيب (٢٩٢٥). (٢) مسلم: ١٥٠٢/٣ (٣) أحمد: ١٢٦/٣ ومسلم: ١٨٧٧ (٤) أحمد: ٢٦٥/١ (٥) الطبري: ٣٨٩/٧، ٣٩٠ (٦) دلائل النبوة للبيهقي: ٢٩٩/٣ (٧) أحمد: ٢٦٦/١ (٨) الطبري: ٣٨٧/٧

قُبُلٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ إِنْ كَانَ الْقَعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ، فَيَنْبَغِي أَنْكُمْ لَا تَمُوتُونَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَهُمْ أَلْحَقٌ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾<sup>(٣)</sup> الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿وَالَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ الْتَأْسَ إِنْ أَنْتَ إِلَّا الْتَأْسَ الْوَكِيلِ﴾<sup>(٤)</sup> فَاتَّبَعُوا نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضَّلَ لَمْ يَسْتَسْأَلْهُمُ سَوْءَةً وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْحَقُوا بِالشَّيْطَانِ مَخَافَةً فَلَاحِقُهُمْ وَكَافُؤُنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٥)</sup>

### [فَضْلُ الشَّهَدَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الشَّهَدَاءِ بِأَنَّهُمْ وَإِنْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنْ أَرْوَاحُهُمْ حَيَّةٌ مَرْزُوقَةٌ فِي دَارِ الْقَرَارِ. رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ فَقَالَ: أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جُوفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا فَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَسْتَهْوِي؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ، تُرْكُوا<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَى نَحْوُهُ عَنْ أَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسْرُهَا أَنْ تَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

الْمُرْسَلِينَ

٧٣

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

فَاتَّقِلُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَّآ فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيُذَاقُوا عَذَابًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ لِيُدْرِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّفُونَ مَا يَبْخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

وَسُورُوا لِمَا عَايَنُوا مِنْ وَفَاءِ الْمُؤْعَدِّ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَشْلَمَ: هَذِهِ الْآيَةُ جَمَعَتْ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ سِوَاءَ الشَّهَدَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَلَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ فَضْلًا ذَكَرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ، وَتَوَابًا أَعْطَاهُمْ: إِلَّا ذَكَرَ مَا أَعْطَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

[ذَكَرَ غَزْوَةَ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ وَفَضْلُ مَنْ شَهِدَهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هَذَا كَانَ يَوْمُ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَرُّوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا فِي سَبِيلِهِمْ تَنَدَّوْا لِمَ لَا تَمَّمُوا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَجَعَلُوهَا الْفَيْصَلَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَدَّبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الذَّهَابِ وَرَاءَهُمْ، لِيُرْعَبَهُمْ، وَيُرِيَهُمْ أَنَّ بِهِمْ قُوَّةً وَجَلْدًا، وَلَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ

وَهُوَ إِسْنَادٌ جَيِّدٌ. وَكَأَنَّ الشَّهَدَاءَ أَفْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ تَسَرَّحَ أَرْوَاحُهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى هَذَا النَّهْرِ بَيَابِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَتْنُهُ سَبْرَهُمْ إِلَى هَذَا النَّهْرِ، فَيَجْتَمِعُونَ هُنَاكَ، وَيُعْدَى عَلَيْهِمْ بِرِزْقِهِمْ هُنَاكَ وَيُرَاحُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَيْنَا فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ حَدِيثًا فِيهِ الْبَشَارَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِأَنْ رُوحَهُ تَكُونُ فِي الْجَنَّةِ تَسَرَّحَ أَيْضًا فِيهَا، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَتَرَى مَا فِيهَا مِنَ النَّصْرَةِ وَالشُّرُورِ، وَتَشَاهِدُ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهَا مِنَ الْكِرَامَةِ، وَهُوَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَزِيزٍ عَظِيمٍ، اجْتَمَعَ فِيهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْمُتَّبَعَةِ، فَإِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ» (١).

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: «إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ» وَأَمَّا أَرْوَاحُ الشَّهَدَاءِ فَكَمَا تَقَدَّمَ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ، فِيهَا كَالْكَوَاكِبِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَرْوَاحِ غُثُمِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَنَهَا تَطِيرُ بِأَنْفُسِهَا، فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ أَنْ يَنْبِتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، أَيِ الشَّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْيَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِنَى، وَمُسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: أَنَّهُمْ يَقْدُمُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ. نَسَأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ. وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ بَيْرِ مَعُونَةَ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَفَقَّتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ، قَالَ أَنَسٌ: وَنَزَلَ فِيهِمْ قُرْآنُ قِرْآنَاهُ حَتَّى رُفِعَ: «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا» (٢).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: اسْتَبْشَرُوا

(١) أحمد: ٤٥٥/٣ (٢) فتح الباري: ٤٤٥/٧ ومسلم: ١/

السَّيِّئَاتِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قَالَ: النِّعْمَةُ: أَنَّهُمْ سَلِمُوا. وَالْفَضْلُ: أَنَّ عِيرًا مَرَّتْ. وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَوْسِمِ، فَاسْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَبِحَ فِيهَا مَا لَا فَقَسَمَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَيُّ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ، وَيُوْهِمُكُمْ أَنَّهُمْ دَوُوْ بَأْسٍ وَدَوُوْ شِدَّةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ إِذَا سَوَّلَ لَكُمْ وَأَوْهَمَكُمْ فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ، وَالْجَاؤُوا إِلَيَّ، فَإِنِّي كَافِيكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنِي أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَالَ: ﴿وَلَيَضْحَكُنَّ اللَّهُ مِنْ بَضْرُؤِهِ﴾ [الحج: ٤٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَصَرُوا اللَّهَ بِضُرِّهِمْ...﴾ [الآية: محمد: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِیَوْمِ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ] [غافر: ٥١، ٥٢].

﴿وَلَا يَعْزُبُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٢] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ حَيًّا لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ [٣] مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ [٤] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا

سِوَى مَنْ حَضَرَ الْوُفْعَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، سِوَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِمَا سَنَدُكَ - فَاتَّذَبَّ الْمُسْلِمُونَ - عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْجِرَاحِ - وَالْإِثْخَانِ طَاعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ، قَالَ: لَمَّا رَجَعَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ أُحُدٍ، قَالُوا: لَا مَحْمَدًا قَتَلْتُمْ، وَلَا الْكُوَاعِبَ أَرَدَقْتُمْ، بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ، ارْجِعُوا، فَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَتَذَبَّ الْمُسْلِمِينَ، فَاتَّذَبُّوا حَتَّى بَلَغَ حُمْرَاءُ الْأَسَدِ - أَوْ بَنُو أَبِي عَيْيَةَ - الشُّكَّ مِنْ سُفْيَانٍ - فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: نَرْجِعُ مِنْ قَابِلٍ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ نَعْدُ غَزْوَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ [الآية: قُلْتُ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لَمَّا أَصَابَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، فَقَالَ: «مَنْ يَرْجِعُ فِي إِيْرِهِمْ؟» فَاتَّذَبَّ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُتَّفِرِدًا بِهَذَا السِّيَاقِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا...﴾ [الآية: أَيُّ الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ النَّاسُ بِالْجُمُوعِ، وَخَوْفُهُمْ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ، فَمَا أَكْثَرُوا لَذَلِكَ، بَلْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَاسْتَعَانُوا بِهِ. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ]. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْثُودٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ يَوْمَ أُحُدٍ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٤)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ﴾ أَيُّ لَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ كَفَاهُمْ مَا أَهَمَّهُمْ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى بَلَدِهِمْ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ﴾ مِمَّا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وَرَوَى

(١) النسائي في الكبرى: ١١٠٨٣ (٢) البخاري: ٤٠٧٧ (٣) فتح الباري: ٧٧/٨ (٤) فتح الباري ٢٢٩/٨ ط السلفية وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن مردويه وأخرجه الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" ٨٦/١١ فيه أبو بكر بن عياش هو ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وشيخه حميد الطويل مدلس قد عنعن. (٥) دلائل النبوة: ٣١٨/٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٤

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ  
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ  
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٧٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ  
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٧٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ  
اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا تُوَمِّنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ  
تَأْكُلُهُ الْأَنْبَارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ  
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٨﴾  
فَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ نَكْتُبُ لَكُمُ الْيَوْمَ الذِّكْرَ الَّذِي أَنْتُمْ  
تَكْتُبُونَ ﴿١٧٩﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ  
أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ فَمَن زُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا  
إِلَّا لَمَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴿١٨٠﴾ تَتْلُوهُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ  
وَأَنفُسِكُمْ وَلَسْمَعْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا  
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عِزِّ الْأُمُورِ ﴿١٨١﴾

عَبِيدِهِ أَحَدًا ﴿١٧٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ مِّن بَيْنِ  
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿الجن: ٢٦، ٢٧﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:  
﴿فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ﴾ أَي أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَاتَّبِعُوهُ فِيمَا  
شَرَعَ لَكُمْ ﴿وَإِنْ تَوَمَّنْوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

[ذَمُّ الْبُخْلِ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ  
مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أَي لَا يَحْسَبَنَّ  
الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالِ يَنْفَعُهُ، بَلْ هُوَ مُضِرٌّ عَلَيْهِ فِي  
دِينِهِ، وَرَبَّمَا كَانَ فِي دُنْيَاهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَالِ أَمْرِ مَالِهِ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا يَحْمِلُونَ بِهِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ﴾.  
رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ  
شُجَاعًا أَفْرَعًا، لَهُ زَبَيَّتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ

ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ  
مَا يَحْمِلُونَ بِهِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ  
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧٦﴾

[تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي  
الْكُفْرِ﴾ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى النَّاسِ، كَانَ يَحْزَنُهُ  
مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ وَالشَّقَاقِ، فَقَالَ  
تَعَالَى: لَا يَحْزَنُكَ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ  
اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطْلًا فِي الْآخِرَةِ﴾ أَيِ حِكْمَتَهُ فِيهِمْ أَنَّهُ  
يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ  
﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ  
إِخْبَارًا مُّقَرَّرًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَنِ﴾ أَيِ  
اسْتَبَدَّلُوا هَذَا بِهَذَا ﴿لَن يَصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أَيِ وَلَكِنْ يَصْرُونَ  
أَنفُسَهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُنْفِي لَهُمْ حَرًّا لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا تُنْفِي لَهُمْ لِيُزَادُوا  
إِنْسًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ  
مِن مَّالٍ وَنَبِيِّ ﴿٥٥﴾ شَارِعٍ لَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ بَلْ لَا يَتَفَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون:  
٥٥، ٥٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ هَذَا الْخَبِيثُ تَسْتَدْبِرُهُم  
مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٤٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْجَبْ  
أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ  
أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ  
عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أَيِ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعِدَ سَبَبًا  
مِنَ الْبُخْتِ، يَظْهَرُ فِيهِ وَلِيُّهُ، وَيَقْتَضِصُ فِيهِ عَدُوُّهُ، يُعْرِفُ بِهِ  
الْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ، وَالْمُنَافِقُ الْفَاجِرُ، يَعْنِي بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ  
الَّذِي امْتَحَنَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَظَهَرَ بِهِ إِيْمَانُهُمْ وَصَبْرُهُمْ  
وَجَلَدُهُمْ وَتَبَاتُّهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَهَتَكَ بِهِ  
سِتْرَ الْمُنَافِقِينَ. فَظَهَرَ مُخَالَفَتُهُمْ وَكَوْنُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ،  
وَخِيَانَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ  
لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾  
قَالَ مُجَاهِدٌ: مَيَّرَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: مَيَّرَ بَيْنَهُمْ  
بِالْجِهَادِ وَالْهَجْرَةِ <sup>(٢)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ  
عَلَى الْغَيْبِ﴾ أَيِ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّى  
يُمَيِّزَ لَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ  
الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ  
رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمُ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى

لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨١﴾ أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقَرُّبًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَضْغِيرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِتِنَا إِلَّا نُوْتِمَ لِرُسُولِهِ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى تَكْذِيبًا أَيْضًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ، أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِرُسُولِهِ حَتَّى يَكُونَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ أَنْ مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ أَمَّتِهِ، فَقَبِلَتْ مِنْهُ، أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُهَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمَا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَالَيْسَتْ﴾ أَيُّ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أَيُّ وَبِأَنَّ تَأْكُلُ الْقُرْآنَ الْمُتَكَبَّلَةَ، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أَيُّ فَلِمَ قَاتَلْتُمُوهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْمَعَانِدَةِ وَقَتَلْتُمُوهُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنْكُمْ تَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَتَتَّقَادُونَ لِلرُّسُلِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْيَمِينِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيُّ لَا يَهْدِيكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ، فَلَكَ أُسْوَةٌ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مَعَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَهِيَ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ الْمُتَلَفَاةُ مِنَ السَّمَاءِ، كَالصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيُّ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْحَلِيِّ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ رُجِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿لَسُبُّوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَرُّوْا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٨٣﴾

[كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَامًّا يُمْعُ جَمِيعَ الْخَلِيقَةِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿١٨٤﴾ وَيَتَنَبَّأُ بِهِ رَبُّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿[الرحمن: ٢٦، ٢٧] فَهُوَ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَنْفَرُ الْوَاحِدُ الْأَخَذُ الْقَهَّارُ بِالْإِيمَانِ وَالْبَقَاءِ، فَيَكُونُ آخِرًا كَمَا كَانَ

بِلَهْرَمَتِهِ - يَعْنِي بِشِدْقِهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كُنْزُكَ ﴿ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْصِيَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾...﴾ (١) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تَقَرَّدَ بِهِ الْبَخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ (٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعُ يَتَّبِعُهُ، يَمُرُّ مِنْهُ وَهُوَ يَتَّبِعُهُ، فَيَقُولُ: أَنَا كُنْزُكَ» ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ مُصَدِّقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٤) ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴿[الحديد: ٧] فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَدِّمُوا لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ بَيِّنَاتِكُمْ وَصَمَائِرِكُمْ.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاةُ سَكَتْنُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَذَابَ الْخَرْبِ﴾ ﴿١٨٥﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُظْلِمَ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿١٨٦﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِتِنَا إِلَّا نُوْتِمَ لِرُسُولِهِ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَالَيْسَتْ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْيَمِينِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ﴿١٨٨﴾

[وَعِيدُ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قَالَتِ الْيَهُودُ: يَا مُحَمَّدُ، افْتَقَرِ رَبُّكَ، يَسْأَلُ عِبَادَةَ الْقُرْضِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاةُ﴾... الْآيَةَ، رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُودٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَكَتْنُ مَا قَالُوا﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، وَلِهَذَا قرَّنه تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أَيُّ هَذَا قَوْلُهُمْ فِي اللَّهِ، وَهَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ لِرُسُلِ اللَّهِ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَقُولُ دُونُوا عَذَابَ الْخَرْبِ﴾ ﴿١٨٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُظْلِمُ

(١) فتح الباري: ٧٨/٨ (٢) ابن حبان: ١٠٧/٥ (٣) أحمد:

٣٧٧/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٣٩٣/٨ والنسائي في الكبرى:

٣١٧/٦ وابن ماجه: ٥٦٨/٢

مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنْ أَلَدَيْكَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا ﴿١٨١﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمُ الْمَدِينَةَ، قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، مُسْلِمًا لَهُمْ عَمَّا نَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَأَمِيرًا لَهُمْ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ حَتَّى يُفْرَجَ اللَّهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَصْرِفُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَالْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتْ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّائِيَّةِ، حَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وَقَالَ: لَا تُعْبَرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وَقَفَ، فَتَزَلَّ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: أَيُّهَا الْمَرْءُ، إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا. ازْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْضُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَعَشْنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نَحِبُ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى كَادُوا يَتَنَاقَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُقْفَضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ، فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَيَّ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟» يُرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَوَاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، وَلَقَدْ اضْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ عَلَى أَنْ يُتَّجَوْهُ، وَيُعَصَّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ، شَرَقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،

أَوَّلًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفُ لَجَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَتَّى يَمُوتَ، فَإِذَا انْقَضَتْ الْمُدَّةُ وَفَرَعَتِ النُّطْفَةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ وُجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ، وَانْتَهَتْ الْبَرِيَّةُ، أَقَامَ اللَّهُ الْقِيَامَةَ، وَجَارَى الْخَلَائِقَ بِأَعْمَالِهَا جَلِيلَهَا وَخَفِيرَهَا، كَثِيرَهَا وَقَلِيلَهَا، كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا، فَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّا نُوَفِّتُكُمْ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

### [لَمَنِ الْفَوْزُ؟]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ دُحِخَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أَيُّ مَنْ جُنِبَ النَّارُ، وَنَجَا مِنْهَا، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ كُلُّ الْفَوْزِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ دُحِخَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾». هَذَا حَدِيثٌ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ يَدُونُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ يَدُونُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٢)</sup> وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُورُ﴾ تَصْغِيرُ لِشَأْنِ الدُّنْيَا، وَتَحْقِيرُ لِأَمْرِهَا، وَأَنَّهَا دُنْيَاءٌ فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ تُوَفَّرُوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الاعلى: ١٦، ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَرَبَّيْتُمْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى [القصص: ٦٠] وَفِي الْحَدِيثِ: «وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُورُ﴾ هِيَ مَتَاعٌ، هِيَ مَتْرُوكَةٌ، أَوْشَكَتْ - وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - أَنْ تَضْمَحَلَّ عَنْ أَهْلِهَا، فَخُدُوا مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ طَاعَةَ اللَّهِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

### [الْمُؤْمِنُ يُبْتَلَى وَيَسْمَعُ مِنَ الْعَدُوِّ الْأَذَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِئْسَ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرُّثِ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، أَيُّ لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَاحٌ زَيْدٌ فِي الْبَلَاءِ ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) فتح الباري: ١٠٠/٦ (٢) ابن حبان: ٢٥٢/٩ (٣)

الحاكم: ٢٩٩/٢ (٤) مسلم: ٢٨٥٨ والترمذي: ٢٣٢٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٥

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِيمَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْآبَرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

[ذَمُّهُمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ وَحُبُّهُمْ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا

لَمْ يَفْعَلُوا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَرَاتِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ بِمَا لَمْ يُعْطُوا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ ادَّعَى دَعْوَةَ كَاذِبَةٍ لِيَتَكَبَّرَ بِهَا، لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قَلَّةً»<sup>(٣)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا «الْمُسْتَسْعِ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلْبِيسِ ثَوْبِي زُورٍ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ: أَذْهَبَ يَا زَافِعُ - لِيَوَابِهِ - إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: لَيْزَنَ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِمَّا فَرِحَ بِمَا أُتِيَ، وَأَحَبُّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، مُعَذِّبًا، لَتُعَذِّبَنَّ أَجْمَعُونَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَهَذِهِ؟ إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ

وَأَصْحَابُهُ يَغْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَضْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قِبَلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾... الْآيَةُ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَاسًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْحَابُ حَقٍّ بَأَىٰ إِلَى اللَّهِ بِأَمْرِهِ﴾... الْآيَةُ [البقرة: ١٠٩]، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ فِي الْعَفْوِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارٍ قُرَيْشِي. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبْدَةَ الْأَوْتَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَأَسْلَمُوا<sup>(١)</sup>.

فَكُلُّ مَنْ قَامَ بِحَقٍّ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْذَى، فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي اللَّهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِيمَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

[ذَمُّ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى نَبَذِ الْعُهُودِ وَكْتُمَانِ الْحَقِّ]

هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ، لِيَكُونُوا عَلَى أَهْبَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَابِعُوهُ فَكُنْتُمْ ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وَعَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالدُّونِ الطَّيْفِ، وَالْحِظُّ الدُّنْيَوِيُّ السَّخِيفُ، فَبُسَّتِ الصَّفْقَةُ صَفَقَتُهُمْ، وَبُسَّتِ الْبَيْعَةُ بَيْعَتُهُمْ، وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ، فَيُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَيُسْلِكَ بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ. فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا يَأْذِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الدَّلَالِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيُّ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»<sup>(٢)</sup>.

(١) البخاري: ٤٥٦٦ ومسلم: ١٧٩٨ (٢) الطبراني: ٤٠١/٨

(٣) البخاري: ٦١٠٥، ٦٦٥٢ ومسلم: ١٠٤/١ (٤) مسلم:

هَذِهِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُشَاهِدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ كَوَاكِبَ سَيَّارَاتٍ، وَثَوَابِتٍ، وَبَحَارٍ وَجِبَالٍ وَقِفَارٍ، وَأَشْجَارٍ وَبَنَاتٍ، وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ، وَحَيَوَانَ وَمَعَادِنَ، وَمَنَافِعَ مُخْتَلِفَةٍ الْأَلْوَانِ وَالرَّوَائِحِ وَالطُّعُومِ وَالْخَوَاصِ، **﴿وَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾** أَيْ تَعَاوَيْهِمَا وَتَقَارُضِهِمَا الطُّوْلَ وَالْقَصَرَ، فَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ ثُمَّ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا، فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا. وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **﴿لَا يَنْبَغِي لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾** أَيْ الْعُقُولِ الثَّامَّةِ الذِّكْيَةِ الَّتِي تُذَكِّرُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيلَاتِهَا، وَلَيْسُوا كَالصُّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: **﴿وَكَايْنٍ مِنَ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** <sup>(١٥)</sup> وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى أُولَى الْأَلْبَابِ، فَقَالَ: **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾**. كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ» <sup>(١٦)</sup>. أَيْ لَا يَقْطَعُونَ ذِكْرَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِسَرَائِرِهِمْ وَصَمَائِرِهِمْ وَالسِّنِّيَّتِمْ، **﴿وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أَيْ يَتَفَهَمُونَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْحِكْمِ الدَّالِّهِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَتَعَبَّرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ وَقُدْرَتِهِ وَآيَاتِهِ، فَقَالَ: **﴿وَكَايْنٍ مِنَ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** <sup>(١٥)</sup> وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦] وَمَدَحَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** قَائِلِينَ: **﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾** أَيْ مَا خَلَقْتَ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا، بَلْ بِالْحَقِّ، لِيَتَجَرَّى الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَتَجَرَّى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. ثُمَّ

أَتَوْا الْكِتَابَ لِيَتَنَبَّهَ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْثُرَ مَنَافِعُهُمْ فَسَبَّحُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثُمَّ لَا قَلِيلًا مِمَّا يَشْتَرُونَ **﴿وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَقْرُحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجَوِّحُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾** ... الْآيَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بغيرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنَّ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرَحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كَيْفَانِهِمْ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ <sup>(١٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ، وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا <sup>(١٨)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُتَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْعَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَزْوِ اعْتَدُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَتَرَكْتُ: **﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَقْرُحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجَوِّحُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾** ... الْآيَةُ، وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِخَوَرِهِ <sup>(١٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارِفٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾** يُقْرَأُ بِالتَّاءِ عَلَى مُخَاطَبَةِ الْمُفْرَدِ، وَبِالْيَاءِ عَلَى الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ، أَيْ لَا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْعَذَابِ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** أَيْ هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَهَابُوهُ وَلَا تُخَالِفُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ وَنِقْمَتَهُ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، وَالْقَدِيرُ الَّذِي لَا أَقْدَرَ مِنْهُ.

**﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾** <sup>(٢٠)</sup> الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ <sup>(٢١)</sup> رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَحْدِثِ النَّارِ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ <sup>(٢٢)</sup> رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَلْبَارِ <sup>(٢٣)</sup> رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ <sup>(٢٤)</sup> [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ لِأُولَى الْأَلْبَابِ، وَصِفَاتُهُمْ وَقَوْلُهُمْ وَدَعَاؤُهُمْ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أَيْ

(١) أحمد: ٢٩٨/١ (٢) فتح الباري: ٨١/٨ ومسلم: ٤/٢١٤٣ وتحفة الأحوذى: ٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣١٨/٦ (٣) البخاري: ٤٥٦٧ ومسلم: ٢٧٧٧ (٤) فتح الباري: ٢/٦٨٤

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخْلَنَهُمْ جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا نَهْرُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَعْرِفَنَّ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبَرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِكَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

### سُورَةُ النِّسَاءِ

لَيْتَنِي حَتَّى مَسَّ جِلْدُهُ جِلْدِي، ثُمَّ قَالَ: «دَرِسْنِي أَنْعَبْدَ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَعْبُدَ لِرَبِّكَ، فَقَامَ إِلَى الْقُرْبَةِ. فَتَوَضَّأَ وَلَمْ يُكْثِرْ صَبَّ الْمَاءِ، ثُمَّ قَامَ بِصَلَاةٍ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ لِحَيْتِهِ، ثُمَّ سَجَدَ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ فَبَكَى، حَتَّى إِذَا أَتَى بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ. قَالَتْ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُبْكِيكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «وَيْحَكَ: يَا بِلَالُ، وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾» ثُمَّ قَالَ: «وَيْلٌ لِّمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»<sup>(٣)</sup>.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

نَزَّهُوهُ عَنِ الْعُبَى وَخَلَقِ الْبَاطِلِ، فَقَالُوا: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أَيْ عَنْ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿فَقَيْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أَيْ يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، يَا مَنْ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ وَالْعُبَى. قَيْنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقِيضْنَا لِأَعْمَالٍ تَرْضَى بِهَا عَنَّا. وَوَفَّقْنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِينًا بِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتُجِيرُنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْأَلِيمِ. ثُمَّ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ أَيْ أَهْنَتْهُ وَأَظْهَرْتَ خِزْيَهُ لِأَهْلِ الْجَمْعِ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ. وَلَا مُحِيدَ لَهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أَيْ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أَيْ يَقُولُ: آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، أَيْ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَاهُ، ﴿رَبَّنَا فَاعْفُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَيْ بِإِيمَانِنَا وَاتَّبَاعِنَا بِبَيْتِكَ، ﴿فَاعْفُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَيْ اسْتَرْهَا، ﴿وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أَيْ الْجَنَّةِ بِالصَّالِحِينَ، ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ عَلَى الْإِيمَانِ بِرُسُلِكَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ. وَهَذَا أَظْهَرُ - ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أَيْ لَا بُدَّ مِنَ الْمِيعَادِ الَّذِي أَخْبَرْتَ عَنْهُ رُسُلُكَ وَهُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعُشْرَ مِنْ آخِرِ آلِ عِمْرَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَهَجُّدِهِ، فَرَوَى الْبُخَارِيُّ رَجَمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَثُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيِّمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ قَعَدَ، فَظَنَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنْ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَدْنَى بِلَالٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ مَرْثُومٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا، وَبَيْنَمَا وَبَيْنَهَا حِجَابٌ، فَقَالَتْ: يَا عُبَيْدُ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ زِيَارَتِنَا؟ قَالَ: قَوْلُ الشَّاعِرِ: زُرْ غَيًّا تَزْدُدُ حُبًّا. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: ذَرِينَا، أَخْبَرِنَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ: كُلُّ أَمْرِهِ كَانَ عَجَبًا، أَنَانِي فِي

(١) فتح الباري: ٨٣/٨ (٢) مسلم: ٥٣٠/١ (٣) ابن حبان (إِلْحَسَان): ٦٢٠

لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ، لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطَى إِلَّا جَزِيلاً كَثِيراً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ التَّوَابِ﴾ أَيُّ عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا.

﴿لَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلَّذِينَ تَقَوَّوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِيكَ فِيهَا نَزَّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾

[التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِعْتِرَارِ بِأَهْلِ الدُّنْيَا، وَبَيَانُ مَا

لِلصَّالِحِينَ مِنَ الْجَزَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَنْتَظِرُوا إِلَى مَا هُوَ لَكُمْ الْكَفَّارُ مُتَرَفُونَ فِيهِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالْعِبْطَةِ وَالشُّرُورِ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ، وَيُضَيِّحُونَ مُرْتَهِنِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَإِنَّمَا نُؤْمِدُ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ اسْتِزْجَارًا، وَجَمِيعُ مَا هُمْ فِيهِ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي عَائِدَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ [غافر: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِذَلِكَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِثُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَنُعَذِّبَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]... وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَتَيْنَاهُمْ نَارًا﴾ [الطارق: ١٧] أَيُّ قَلِيلًا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمِنْ وَعْدِنَا وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْتَهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١] وَهَكَذَا لَمَّا ذَكَرَ حَالِ الْكَفَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَذَكَرَ مَا لَهُمْ إِلَى النَّارِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِيكَ فِيهَا نَزَّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَيُّ ضِيقًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي الدُّرْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ، وَمَا مِنْ كَافِرٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْنِي فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ وَيَقُولُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِنَفْسِهِمْ إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزِيدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] (٤).

وَأُودُوا فِي سَبِيلِ وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ التَّوَابِ﴾

[استجابة الله لأولي الألباب]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَيُّ فَأَجَابَهُمْ، رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ سَلَمَةَ - رَجُلٍ مِنْ آلِ أُمِّ سَلَمَةَ - قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءِ فِي الْهَجْرَةِ بِشَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَيُّ لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَيْتُ... إِلَى آخِرِ آيَةِ. وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: هِيَ أَوَّلُ طَعْنَةٍ قَدِمَتْ عَلَيْنَا (١). وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى سِرِّ الْبَخَارِيِّ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَيْتُ﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْجَاوِزَةِ، أَيُّ قَالَ لَهُمْ مُجِيبًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا يُضَيِّعُ عَمَلَ عَامِلٍ لَدَيْهِ، بَلْ يُؤْفِي كُلَّ عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَيْتُ، وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أَيُّ جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءً، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أَيُّ تَرَكُوا دَارَ الشُّرْكِ وَأَتَوْا إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ، وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخُلَانِ وَالْجِيرَانَ، ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أَيُّ ضَاقَتْهُمْ الْمُسْكُونُ بِالْأَذَى حَتَّى أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَطْرَافِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَخَدَعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَنَنْتَهِزُنَا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ وَهَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُغْفَرَ جَوَادُهُ، وَيُغْفَرَ وَجْهُهُ بِدَمِهِ وَتُرَابِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، أَيْكَفَرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ قُتِلْتُ؟» فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَا قَالَ، فَقَالَ: «نَعَمْ، إِلَّا الدِّينَ، قَالَ لِي جَبْرِيلُ آمِنًا» (٣). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيُّ تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ

(١) سعيد بن منصور: ١١٣٦/٣ (٢) الحاكم: ٣٠٠/٢ (٣)

مسلم: ١٥٠١/٣ (٤) الطبري: ٤٩٦/٧ فيه فرج بن فضالة التنوخي الشامي قال الإمام البخاري: منكر الحديث [التاريخ

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

### [حَالُ بَغْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَجْرُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، مَعَ مَا هُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنْقَدِمَةِ، وَأَنَّهُمْ خَاشِعُونَ لِلَّهِ، أَيْ مُطِيعُونَ لَهُ، خَاضِعُونَ مُتَذَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أَيْ لَا يَكْتُمُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِشَارَاتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَذَكَرَ صِفَتَهُ وَنَعْيَهُ وَمَعْيَتَهُ، وَصِفَتَهُ أُمِّيَهُ، وَهُوَ لَا يَكُونُ خَيْرَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَصِفَتُهُمْ، سِوَاءَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا بَلَغَ لَيْلُهُمْ قَالَوا ءَمَّا بِهِنَّ إِلَهُ الْحَقِّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِمْ مُسْلِمِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ ... الْآيَةُ [القصاص: ٥٢-٥٤]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ... الْآيَةُ [البقرة: ١٢١]. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَالِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آتِلٍ وَهُمْ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذْقَانِ سَجْدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَيَجْرُونَ لِلآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وَهَذِهِ الصِّفَاتُ تُوجَدُ فِي الْيَهُودِ، وَلَكِنْ قَلِيلًا كَمَا وَجَدَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمثَالِهِ مِمَّنْ آمَنَ مِنْ أَخْبَارِ الْيَهُودِ، وَلَمْ يَلْعَنُوا عَشْرَةَ أَنْفُسٍ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَهْتَدُونَ وَيَتَقَادُونَ لِلْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّتِ يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ... الْآيَةُ [المائدة: ٨٢-٨٥]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ... الْآيَةُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ ﴿كَهْفٍ﴾ [مريم: ١] بِحَضْرَةِ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ وَعِنْدَهُ الْبَطَارِكَةُ وَالْقَسَاوِسَةُ، بَكَى وَبَكَوْا مَعَهُ حَتَّى أَخْضَبُوا لِحَاهُمْ<sup>(١)</sup>. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ لَمَّا مَاتَ نَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ: «إِنَّ أَخَا لَكُمْ بِالْحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ» فَخَرَجَ إِلَى الصَّخْرَاءِ فَصَفَّهُمْ وَصَلَّى عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بِغْنَى مُسْلِمَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ بْنُ مَنْصُورٍ: سَأَلْتُ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ... الْآيَةُ، قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَاتَّبَعُوهُ، وَعَرَفُوا الْإِسْلَامَ، فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَجْرَ اثْنَيْنِ: لِلَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِالَّذِي اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا ﷺ. رَوَاهُمَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ» ...<sup>(٤)</sup> فَذَكَرَ مِنْهُمْ: «وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِهِ»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَيْ لَا يَكْتُمُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ، كَمَا فَعَلَهُ الطَّائِفَةُ الْمُرْذُولَةُ مِنْهُمْ، بَلْ يَتَذَلَّلُونَ ذَلِكَ مَجَانًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: «سَرِيعُ الْحِسَابِ» يَعْنِي سَرِيعُ الْإِحْصَاءِ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ.

### [الْأَمْرُ بِالْمُصَابَرَةِ وَالْمُرَابَطَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أُمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَدْعُوهُ لِسَرَاءٍ وَلَا لِضَرَاءٍ وَلَا لِشِدَّةٍ وَلَا لِرَخَاءٍ، حَتَّى يَمُوتُوا

الصغير ١٧٣/٢ وفي نسخة ١٨٧/٢ التاريخ الكبير ١٣٤/٧ وقال البخاري: كل من قتل فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه [لسان الميزان تحت ترجمة أبان بن جبهه الكوفي ٣٠/١] ورواية لقمان بن عامر الوصابي عن أبي الدرداء مرسله كما قال أبو حاتم الرازي [الجرح والتعديل ١٨٢/٧]. (١) ابن هشام: ٣٥٧/١ (٢) فتح الباري: ٢٣٠/٧ ومسلم: ٦٥٧/٢ (٣) الطبري: ٧/٤٩٩ (٤) فتح الباري: ١٦٩/٦ ومسلم: ١٣٤/١

قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحَرَّاسَةِ كَانَ فِي الْحَرَّاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ<sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ حَبْرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ، وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلُ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مَنْزِلَةٍ شِدَّةً يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَهَا فَرْجًا. وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُرُكُ ؕ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي سُكَيْنَةَ، قَالَ: أَمْلَى عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ هَذِهِ الْآيَاتِ بِطَرَسُوسَ، وَوَدَّعْتُهُ لِلْخُرُوجِ، وَأَشَدَّهَا مَعِيَ إِلَى الْفُضَيْلِ ابْنِ عِيَّاضٍ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِائَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ.

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ أَوْ كَانَ يَتَعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا وَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارِ الْأَطْيَبِ وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ لَا يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا

لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ قَالَ: فَلَقِيتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَّاضٍ بِكِتَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَلَمَّا قَرَأَهُ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: صَدَقَ أَبُو

مُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُصَابِرُوا الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ دِيْنَهُمْ<sup>(١١)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ.

وَأَمَّا الْمُرَابِطَةُ فَهِيَ الْمُدَاوَمَةُ فِي مَكَانٍ الْعِبَادَةِ وَالنَّبَاتِ، وَقِيلَ: انْتَظَرُ الصَّلَاةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَهْلُ ابْنُ حَنْبَلٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُمْ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَهُنَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»<sup>(١٢)</sup>.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُرَابِطَةِ هَهُنَا مُرَابِطَةُ الْعُرُو فِي نُحُورِ الْعُدُوِّ، وَحِفْظُ ثُعُورِ الْإِسْلَامِ، وَصِيَانَتُهَا عَنْ دُخُولِ الْأَعْدَاءِ إِلَى حَوَازَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ بِالتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ، وَذَكَرُ كَثْرَةَ الثَّوَابِ فِيهِ، فَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رِبَاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «رِبَاطٌ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَفِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَانُ»<sup>(١٤)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمُرُ فِتْنَةُ الْقَبْرِ»<sup>(١٥)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٦)</sup>، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا<sup>(١٧)</sup>.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١٨)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكُ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعَيْنَانِ قَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَّتْ رَأْسُهُ، مُعْبَرَةٌ

(١) الطبري: ٥٠٢/٧ (٢) مسلم: ٢١٩/١ والنسائي: ٨٩/١

(٣) البخاري: ٢٨٩٢ (٤) مسلم: ١٩١٣ (٥) أحمد: ٢٠/٦

(٦) أبو داود: ٢٠/٣ وتحفة الأحوذني: ٢٤٩/٥ (٧) ابن حبان:

٦٩/٧ (٨) الترمذي: ١٦٣٩ (٩) البخاري: ٢٨٨٦ (١٠)

الطبري: ٥٠٣/٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٧

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا  
 زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ  
 بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ  
 وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ  
 كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا  
 مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَىٰ وَتِلْكَ وَرُبِعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا  
 فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوِلُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا  
 النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَنَافِسَا فَكُلُوهُ  
 هِنًا حَافِظِينَ ﴿٤﴾ وَلَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ  
 قِيَمًا وَزَوْجُهُمْ فِيهَا وَآسَؤُهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْنُوا  
 الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا  
 إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ  
 غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا  
 دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

سُورَةُ آلِ عَمْرٍاءِ تَبْدِلُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَجِدُ اللَّهَ عَزُورًا  
 رَحِيمًا ﴿١﴾ [النساء: ١١٠] ﴿٢﴾ ثُمَّ قَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ،  
 إِنْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ.

وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَلُونِي عَنْ سُورَةِ  
 النِّسَاءِ فَإِنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا صَغِيرٌ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ  
 صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ﴿٥﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَنَصَحَنِي، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ مِمَّنْ يَكْتُبُ  
 الْحَدِيثَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَانْكُتِبْ هَذَا الْحَدِيثَ،  
 كِرَاءَ حَمْلِكَ كِتَابِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَيْنَا، وَأَمْلَى عَلَيَّ  
 الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ أَبِي  
 صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،  
 عَلَّمَنِي عَمَلًا أَنَالُ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،  
 فَقَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصَلِّيَ فَلَا تَفْتَرُ، وَتَصُومَ فَلَا  
 تُفْطِرُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعَ  
 ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ طَوَّقْتَ  
 ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ  
 فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ، فَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ  
 الْحَسَنَاتُ؟» (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ  
 وَأَحْوَالِكُمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى  
 الْيَمَنِ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ  
 تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» (٢). ﴿لَعَلَّكُمْ  
 تَفْلِحُونَ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ  
 عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ  
 عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
 فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ غَدًا إِذَا لَقِيتُمُونِي (٣).  
 انْتَهَى تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ،  
 نَسْأَلُهُ الْمَوْتَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، آمِينَ.

## [تفسير] سُورَةِ النِّسَاءِ

[مَدِينَةُ، وَبَعْضُ مَا لِهَذِهِ السُّورَةِ مِنْ فَضَائِلَ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ  
 بِالْمَدِينَةِ. وَكَذَا رَوَى ابْنُ مَرْدُودٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ  
 وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ. وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
 مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ لِحَمْسٍ  
 آيَاتٍ مَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ  
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٤٠]، وَ ﴿إِنْ تَجَبَّبُوا  
 كِبَارًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٣١]، وَ ﴿إِنَّ  
 اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾  
 [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾  
 ... الْآيَةُ [النساء: ٦٤] [وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ

(١) تاريخ دمشق ٣٤/٣٠٧ ط. دار إحياء التراث العربي وسير  
 اعلام النبلاء ٨/٤١٢ إسناده واه والمتهم به واحد من اثنين. ١-  
 محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة قال أبو حاتم أحاديثه باطلة تدل  
 على كذبه [لسان الميزان ١/١٩٥] وقال الذهبي: "كذاب"  
 [ديوان الضعفاء] ١/٢٠٠ - محمد بن عبدالله بن المطلب أبو  
 المفضل الشيباني كذاب دجال وكان يضع الأحاديث للرافضة  
 [لسان الميزان ٦/٢٤٨] أحمد: ٥/٢٣٦ (٢) تحفة الأحوزي:  
 ١٢٣/٦ (٣) الطبري: ٧/٥١٠ (٤) الحاكم: ٢/٣٠٥ (٥)  
 الحاكم: ٢/٣٠١

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَا۟هُۤ اَلَّذِیۤ سَا۟ءَ لُوۡنٌ بِهٖ  
وَالۡاَرۡحَامُ اِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلَیۡكُمۡ رَقِیۡبًا ﴿١﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالتَّذْكِيرُ بِالْخَلْقِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا خَلَقَهُ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَخَلَقَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُنْبَهَا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُمْ بِهَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وَهِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ، خُلِقَتْ مِنْ ضُلْعِهِ الْأَيْسَرِ، مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ نَائِمٌ، فَاسْتَبَقَ فَرَاَهَا فَأَعْجَبَتْهُ، فَأَنْسَ إِلَيْهَا وَأَنْسَتْ إِلَيْهِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيْمُهُ كَسَرَتْهُ، وَإِنْ اسْتَمْتَعَتْ بِهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَا۟هُۤ» أَيُّ وَذَرَا مِنْهُمَا أَيُّ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَنَسَرَهُمْ فِي أَفْطَارِ الْعَالَمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعَادُ وَالْمَحْشَرُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ مِنْهُ نَفْسَكُمْ وَرِجَالَكُمْ﴾ أَيُّ وَاتَّقُوا اللَّهَ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ مِنْهُ﴾ أَيُّ كَمَا يُقَالُ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ وَبِالرَّحِمِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي بِهِ تُعَاقِدُونَ وَتُعَاهِدُونَ<sup>(٣)</sup>. وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوَهَا، وَلَكِنْ بَرُّوَهَا وَصِلُّوَهَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (وَالْأَرْحَامُ) بِالْخَفْضِ عَلَى الْعُطْفِ عَلَى الضَّمِيرِ فِي بِهِ، أَيُّ تَسَاءَلُونَ بِاللَّهِ وَبِالْأَرْحَامِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَیۡكُمۡ رَقِیۡبًا﴾ أَيُّ هُوَ مُرَاقِبٌ لِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ كَمَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا إِرْشَادٌ وَأَمْرٌ بِمُرَاقَبَةِ الرَّقِيبِ. وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنْ أَصْلَ الْخَلْقِ مِنْ أَبِي وَاحِدٍ وَأُمِّ وَاحِدَةٍ، لِيَعُطِفَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَحْتَنَنَهُمْ عَلَى ضِعْفَانِهِمْ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ مُضَرَ، وَهُمْ مُجْتَابُوا النَّمَارِ - أَيُّ مِنْ عَرَبِهِمْ وَتَقَرَّبَهُمْ - قَامَ فَحَطَبَ النَّاسَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ. وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِ﴾ [الحشر: ٥٩]، ثُمَّ حَضَّهُمْ عَلَى الصَّدَقَةِ فَقَالَ: «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»<sup>(٧)</sup>. وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشَّيْخَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي خُطْبَةِ الْحَاجَةِ<sup>(٨)</sup>. وَفِيهَا: ثُمَّ يقرأ ثَلَاثَ آيَاتٍ هَذِهِ مِنْهَا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾... الْآيَةَ.

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيٰثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَّا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَعَهُ وَتَزَوَّجُوا خِفْتُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ فَوْجِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَقُ أَلَّا تَعُولُوا﴾ وَمَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا

مَرِيئًا ﴿١﴾

[الْأَمْرُ بِحِفْظِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِدَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى إِلَيْهِمْ إِذَا بَلَغُوا النُّحْلَ كَامِلَةً مُوفَّرَةً، وَيَنْهَى عَنْ أَكْلِهَا وَضَمِّهَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيٰثَ بِالطَّيِّبِ﴾ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ وَالزُّهْرِيُّ: لَا تُعْطِ مَهْزُولًا وَتَأْخُذَ سَمِيئًا<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّحْجِيُّ وَالضَّحَّاكُ: لَا تُعْطِ زَانِفًا وَتَأْخُذَ جَيِّدًا<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ أَحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِيئَةَ مِنْ غَنَمِ الْيَتِيمِ، وَيَجْعَلُ فِيهَا مَكَانَهَا الشَّاةَ الْمَهْزُولَةَ، وَيَقُولُ: شَاةُ بَشَاةٍ، وَيَأْخُذُ الدَّرْهَمَ الْجَيِّدَ، وَيَطْرَحُ مَكَانَهُ الرَّيْفَ، وَيَقُولُ: دِرْهَمٌ بِدِرْهَمٍ<sup>(١١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِانٍ وَالسُّدِّيُّ وَشُفَيَّانُ بْنُ حُسَيْنٍ: أَيُّ لَا تَخْطُوهَا فَتَأْكُلُوهَا جَمِيعًا<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ إِنَّمَا كَبِيرًا عَظِيمًا<sup>(١٣)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ وَقَتَادَةَ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبِانٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَأَبِي سَيَّانٍ مِثْلَ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١٤)</sup> وَالْمَعْنَى: إِنَّ أَكْلَكُمْ أَمْوَالَهُمْ مَعَ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ عَظِيمٌ وَخَطَأٌ

(١) فتح الباري: ٤١٨/٦ (٢) الطبري: ٥١٩/٧ (٣) الطبري: ٥١٨/٧

(٤) الطبري: ٥٢٢، ٥٢١/٧ (٥) الطبري: ٥١٩/٧

(٦) فتح الباري: ١٤٠/١ (٧) مسلم: ٧٠٥/٢ (٨) أحمد: ٣٥٨/٤

والنسائي: ٧٥/٥ وابن ماجه: ٧٤/١ (٩) الطبري: ٧/٥٢٥

(١٠) الطبري: ٥٢٥/٧ (١١) الطبري: ٥٢٦/٧ (١٢)

الطبري: ٥٢٨/٧ (١٣) الطبري: ٥٣٠/٧ (١٤) الطبري: ٧/٥٣٠



كَبِيرٌ فَاجْتَنِبُوهُ.

## [الْهَيْءُ عَنْ نِكَاحِ الْيَتِيمَةِ بِصَدَاقٍ دُونَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً﴾، أَيُّ إِذَا كَانَ تَحْتَ حِجْرِ أَحَدِكُمْ يَتِيمَةً، وَخَافَ أَنْ لَا يُعْطِيَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا، فَلْيُعِدِلْ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ كَثِيرٌ، وَلَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا، وَكَانَ لَهَا عَذْقٌ، وَكَانَ يُمْسِكُهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ، فَزَلَّتْ فِيهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أَخْبِسَهُ قَالَ: كَانَتْ شَرِيكَتُهُ فِي ذَلِكَ الْعَذْقِ وَفِي مَالِهِ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾، قَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي، هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حِجْرِ وَلِيِّهَا، تَشْرُكُهُ فِي مَالِهِ، وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيِّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَتُهْوَأُ أَنْ يَنْكِحُوهَا إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا. وَيَتْلَعُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ، وَأَمُرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ. قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَإِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللَّهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَتَرْتَبِئُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ إِذَا كَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَتُهْوَأُ أَنْ يَنْكِحُوا مِنْ رَغْبَا فِي مَالِهِ وَجَمَالِهِ مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُمْ إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ<sup>(٢)</sup>.

## [قَصْرُ الزَّوْجِ عَلَى أَرْبَعٍ مِنَ النِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ أَيُّ انكِحُوا مَا شِئْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ، إِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ ثِنْتَيْنِ، وَإِنْ شَاءَ ثَلَاثًا، وَإِنْ شَاءَ أَرْبَعًا. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿جَاوِلْ الْمَلَكَةَ رُفُلًا أَوَّلِيَّ أَخِيحَ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [فاطر: ١] أَيُّ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ، وَلَا يَبْقَى مَا عَدَا ذَلِكَ فِي الْمَلَائِكَةِ لِذِلَالَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ قَصْرِ الرِّجَالِ عَلَى أَرْبَعٍ، فَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ، لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ امْتِنَانٍ وَإِبَاحَةٍ، فَلَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ لَذَكَرَهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ غَيْلَانَ بْنَ

سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا» فَلَمَّا كَانَ فِي عَهْدِ عُمَرَ طَلَّقَ نِسَاءَهُ، وَقَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَطْلُقُ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ فَقَدَفَهُ فِي نَفْسِكَ، وَلَعَلَّكَ لَا تَمُكُّ إِلَّا قَلِيلًا. وَإِنَّمَا اللَّهُ لَتَرَا جَعَلَ نِسَاءَكَ، وَلَتَرَجِعَنَّ فِي مَالِكَ، أَوْ لَا وَرَثَتُنَّ مِنْكَ، وَلَا مَرَدَّ بِقَبْرِكَ فَيَرْجِمَ كَمَا رَجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُمْ، إِلَى قَوْلِهِ: «اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا» وَبَاقِي الْحَدِيثِ فِي قِصَّةِ عُمَرَ مِنْ أَفْرَادِ أَحْمَدَ<sup>(٣)</sup>.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ لَسَوَّغَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِرُهُنَّ فِي بَقَاءِ الْعِشْرَةِ، وَقَدْ أَسْلَمْنَ مَعَهُ، فَلَمَّا أَمَرَهُ بِإِمْسَاكِ أَرْبَعٍ، وَفَرَاقِ سَائِرُهُنَّ، ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ بِحَالٍ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الدَّوَامِ، فَفِي الْإِسْتِثْنَاءِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

## [الْإِكْتِفَاءُ بِالْوَاحِدَةِ عِنْدَ خَشْيَةِ عَدَمِ الْعَدْلِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، أَيُّ فَإِنْ خَشِيتُمْ مِنْ تَعْدَادِ النِّسَاءِ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقْتَصِرْ عَلَى وَاحِدَةٍ، أَوْ عَلَى الْجَوَارِي السَّرَّارِي، فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ قِسْمُ بَيْنَهُنَّ، وَلَكِنْ يُسْتَحَبُّ، فَمَنْ فَعَلَ فَحَسَنَ، وَمَنْ لَا فَلَا حَرَجَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ أَتَىكَ الْأَتْعَمُولُ﴾ أَيُّ أَنْ لَا تَجُورُوا. يُقَالُ: عَالَ فِي الْحُكْمِ إِذَا قَسَطَ وَظَلَمَ وَجَارَ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مُرْدُوَيْهِ وَأَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ذَلِكَ أَتَىكَ الْأَتْعَمُولُ﴾ قَالَ: «لَا تَجُورُوا»<sup>(٤)</sup>. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: قَالَ أَبِي: هَذَا حَدِيثٌ خَطَأً. وَالصَّحِيحُ: عَنْ عَائِشَةَ مَوْقُوفٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَأَبِي مَالِكٍ وَأَبِي رَزِينٍ وَالتَّحِييَ وَالتَّحِييَ وَالشَّعْبِيَّ وَالضُّحَّاكَ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيَّ وَقَتَادَةَ وَالسَّيِّدِيَّ وَمُقَاتِلَ بْنَ

(١) فتح الباري: ٨/٨٧ (٢) فتح الباري: ٨/٨٧ (٣) أحمد:

١٤/٢ والألم: ٥/٤٩ والترمذي: ١١٢٨ وابن ماجه: ١٩٥٣

وسنن الدارقطني: ٣/٢٧١ والبيهقي: ٧/١٨٢ (٤) ابن حبان:

حَيَّانَ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا تَمِيلُوا<sup>(١)</sup>. هُمُ الْيَتَامَى<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: هُمُ النِّسَاءُ<sup>(٣)</sup>.

### [إِعْطَاءُ الصَّدَاقِ وَاجِبٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: النِّحْلَةُ: الْمَهْرُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ: «نِحْلَةٌ»: فَرِيضَةٌ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: «نِحْلَةٌ» أَيُّ فَرِيضَةٍ. زَادَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مُسْمَاءٌ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: النِّحْلَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْوَاجِبُ، يَقُولُ: لَا تَنْكِحَهَا إِلَّا بِشَيْءٍ وَاجِبٍ لَهَا، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَنْكِحَ امْرَأَةً إِلَّا بِصَدَاقٍ وَاجِبٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَسْمِيَةُ الصَّدَاقِ كَذِبًا بِغَيْرِ حَقٍّ<sup>(٦)</sup>. وَمَضْمُونُ كَلَامِهِمْ: أَنَّ الرَّجُلَ يَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الصَّدَاقِ إِلَى الْمَرْأَةِ حَتْمًا، وَأَنْ يَكُونَ طَيِّبَ النَّفْسِ بِذَلِكَ، كَمَا يَمْنَعُ الْمَنِيحَةَ وَيُعْطِي النِّحْلَةَ طَيِّبًا بِهَا، كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يُعْطِيَ الْمَرْأَةَ صَدَاقَهَا طَيِّبًا بِذَلِكَ، فَإِنْ طَابَتْ هِيَ لَهُ بِهِ بَعْدَ تَسْمِيَتِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلَيْسَ كُلُّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وَابْلَاؤُا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ اسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا<sup>(٧)</sup>.

### [الْحَجَرُ عَلَى الشُّفَهَاءِ]

يَنْهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَمْكِينِ الشُّفَهَاءِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا، أَيُّ تَقْوَمُ بِهَا مَعَاشُهُمْ مِنَ التَّجَارَاتِ وَغَيْرِهَا، وَمِنْ هَهُنَا يُؤْخَذُ الْحَجَرُ عَلَى الشُّفَهَاءِ، وَهُمْ أَفْسَامٌ، فَتَارَةً يَكُونُ الْحَجَرُ لِلصَّغِيرِ، فَإِنَّ الصَّغِيرَ مَسْلُوبُ الْعِبَارَةِ. وَتَارَةً يَكُونُ الْحَجَرُ لِلْمَجْنُونِ. وَتَارَةً لِسُوءِ التَّصَرُّفِ لِنَقْصِ الْعَقْلِ أَوْ الدِّينِ. وَتَارَةً يَكُونُ الْحَجَرُ لِلْفُلَّسِ. وَهُوَ مَا إِذَا أَحَاطَ الذُّيُونُ بِرَجُلٍ، وَضَاقَ مَالُهُ عَنْ وَقَائِهَا، فَإِذَا سَأَلَ الْعُرَمَاءُ الْحَاكِمَ الْحَجَرَ عَلَيْهِ، حَجَرَ عَلَيْهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قَالَ: هُمُ بَنُوكَ وَالنِّسَاءُ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالْحَكَمُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ: هُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:

(١) الطبري: ٥٤٩/٧-٥٥١ (٢) الطبري: ٥٥٣/٧ (٣) الطبري: ٥٥٣/٧ (٤) الطبري: ٥٥٣/٧ (٥) الطبري: ٥٦٢ (٦) الطبري: ٥٦٢/٧ (٧) الطبري: ٥٦٣/٧ (٨) الطبري: ٥٦٤/٧ (٩) الطبري: ٥٧٠/٧ (١٠) الطبري: ٥٧٤ (١١) الطبري: ٥٧٥/٧ (١٢) أبو داود: ٢٩٣/٣ إسناده ضعيف: فيه خالد بن سعيد بن أبي مريم مجهول، لا يتابع عليه [تحرير تقريب التهذيب ١٦٤] وبغني عنه حديث حنظلة مرفوعاً: لا يتم بعد احتلام ولا يتم على جارية إذا هي حاضت [المعجم الكبير (٣٥٠٢) ١٤/٤] (١٣) أبو داود: ٥٥٨-٥٦٠

الْبَيْتِ

٧٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ  
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا  
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا  
﴿٨﴾ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا  
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾  
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي  
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ  
فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْوِثْقَةِ لِلْأُنثَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً  
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا  
النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ  
كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ  
فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي  
بِهَا أَوْ دِينَ عَآبَاءُكُمْ وَأَبَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ  
نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

إِلَيْهِمْ أَمْوَالُهُمْ لِثَلَايِعٍ مِنْ بَعْضِهِمْ جُحُودٌ وَإِنكَّارٌ لِّمَا قَبِضَهُ  
وَسَلَّمَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أَيُّ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ  
مُحَاسِبًا وَشَهِيدًا وَرَقِيبًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ فِي حَالِ نَظَرِهِمْ  
لِلْأَيْتَامِ، وَحَالِ تَسْلِيمِهِمْ لِلْأَمْوَالِ، هَلْ هِيَ كَامِلَةٌ مُّوَفَّرَةٌ أَوْ  
مُنْقُوصَةٌ مَبْخُوسَةٌ مُدْخَلَةٌ، مُرُوجٌ حِسَابُهَا، مُدْلَسٌ أَمْوَرُهَا؟  
اللَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي  
أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَلِيَنَّ  
مَالَ يَتِيمٍ»<sup>(٨)</sup>.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ  
الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿٧﴾ وَإِذَا

الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمرَ، قَالَ:  
عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعٍ عَشْرَةَ فَلَمْ  
يُجِزْنِي، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخُدَّاقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسٍ عَشْرَةَ  
فَأَجَازْنِي، فَقَالَ عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا  
الْحَدِيثُ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ<sup>(١)</sup>.

وَاخْتَلَفُوا فِي إِنْثَابِ الشَّعْرِ الْحَثِينِ حَوْلَ الْفَرْجِ، وَهِيَ  
الشَّعْرَةُ، وَالصَّحِيجُ أَنَّهَا بُلُوعٌ، وَقَدْ ذَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ  
فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإمامُ أَحْمَدُ عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ،  
فَكَانَ مَنْ أَتَيْتَ قِتْلًا، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّي سَبِيلُهُ، فَكُنْتُ  
فِي مَنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِّي سَبِيلِي<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَهْلُ السُّنَنِ  
الْأَرْبَعَةُ بِنَحْوِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ عَاسَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ  
أَمْوَالَهُمْ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْني صَلَاحًا فِي دِينِهِمْ،  
وَحِفْظًا لِأَمْوَالِهِمْ. وَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ  
الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ:  
مَتَى بَلَغَ الْغُلَامُ مُصْلِحًا لِدِينِهِ وَمَالِهِ أَنْفَكَ الْحَجْرُ عَنْهُ،  
فَيَسْلَمُ إِلَيْهِ مَالُهُ الَّذِي تَحْتَ يَدِهِ وَلِيَّهُ بِطَرِيقِهِ.

[جَوَازُ الْأَكْلِ لِلْفُقَرَاءِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِقَدْرِ قِيَامِهِمْ عَلَيْهِ]  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ يَنْهَى  
تَعَالَى عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ  
﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ أَيُّ مُبَادَرَةً قَبْلَ بُلُوغِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ مَنْ كَانَ فِي غَنِيَّةٍ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ  
فَلْيَسْتَعْفِفْ عَنْهُ، وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ  
بِالْمَعْرُوفِ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَنْزَلَتْ  
هَذِهِ الْآيَةُ فِي وَالِي الْيَتِيمِ ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وَمَنْ كَانَ  
فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ بِقَدْرِ قِيَامِهِ عَلَيْهِ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ  
الْبُخَارِيُّ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عُمرِ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ،  
عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَيْسَ لِي  
مَالٌ وَلِي يَتِيمٌ؟ فَقَالَ: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا  
مُبْذِرٍ وَلَا مُتَأَثِّلٍ مَالًا، وَمَنْ غَيْرُ أَنْ تَقِيَّ مَالَكَ - أَوْ قَالَ:  
تَقْدِيَّ مَالَكَ - بِمَالِهِ شَكَّ حُسَيْنٌ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يَعْني بَعْدَ بُلُوغِهِمْ  
الْحُلُمَ، وَإِيْناسَ الرُّشْدِ، فَحِينَئِذٍ سَلَّمُوا أَمْوَالَهُمْ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ  
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿فَاشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ وَهَذَا أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى  
لِلْأَوْلِيَاءِ أَنْ يُشْهَدُوا عَلَى الْأَيْتَامِ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ، وَسَلَّمُوا

(١) البخاري: ٢٦٦٤ ومسلم: ١٨٦٨ (٢) أحمد: ٣١٠/٤

(٣) أبو داود: ٥٦١/٤ وتحفة الأحوذني: ٢٠٧/٥ والنسائي في

الكبرى: ١٨٥/٥ وابن ماجه: ٨٤٩/٢ (٤) الطبري: ٥٧٦/٧

(٥) الطبري: ٥٩٣/٧ (٦) فتح الباري: ٨٩/٨ (٧) مسند

أحمد: ٢١٦٠٢١٥/٢ (٨) مسلم: ١٤٥٨/٣

يَرْتُونَ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ قِسْمَةً مَالٍ جَزِيلٍ، فَإِنْ أَنْفُسُهُمْ تَنَفَّقُوا إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ إِذَا رَأَوْا هَذَا يَأْخُذْ وَهَذَا يَأْخُذْ، وَهُمْ يَأْسُونَ لَا شَيْءَ يُعْطُونَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ، أَنْ يُرْضَخَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَسْطِ، يَكُونُ بَرًّا بِهِمْ وَصَدَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ وَجَبْرًا لِكَسْرِهِمْ.

### [الْعَدْلُ فِي الْوَصِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ...﴾ الآية. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ، فَيَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُوصِي بِوَصِيَّةٍ تَضُرُّ بَوْرَتِيهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَسْمَعُهُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ وَيُوقِفَهُ وَيُسَدِّدَهُ لِلصَّوَابِ. وَلْيَنْظُرْ لِبَوْرَتِيهِ، كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَصْنَعَ بِبَوْرَتِيهِ إِذَا خَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٨)</sup>. وَبُتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَعُودُهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ذُو مَالٍ وَلَا يَرْتِنِي إِلَّا ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: فَالْثُّلُثُ؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: فَالْثُّلُثُ؟ قَالَ: «الْثُّلُثُ، وَالْثُّلُثُ كَثِيرٌ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»<sup>(٩)</sup>.

### [الْوَعْدُ لِمَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ]

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْآيَةِ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فِي مُبَاشَرَةِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١٠)</sup>. وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ يَتَأَيَّدُ بِمَا بَعْدَهُ مِنَ التَّهْدِيدِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا، أَيْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ تُعَامَلَ ذُرِّيَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَعَامِلِ النَّاسَ فِي ذُرِّيَّاتِهِمْ إِذَا وَلِيَتْهُمْ. ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَنْ أَكَلَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أَيُّ إِذَا أَكَلُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى بِلا سَبَبٍ فَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ نَارًا تَتَّجَّجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

حَصَرَ الْقِسْمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿١٠﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٢﴾

### [الْأَمْرُ بِالتَّوَرِثِ وَالرَّضْخِ لِحَاضِرِي الْقِسْمَةِ مِنْ غَيْرِ الْوَرَثَةِ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْعَلُونَ الْمَالَ لِلرِّجَالِ الْكِبَارِ، وَلَا يورثون النساء ولا الأطفال شيئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾... الآية، أَيِ الْجَمِيعِ فِيهِ سَوَاءٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، يَسْتَوُونَ فِي أَصْلِ الْوَرَاثَةِ، وَإِنْ تَفَاوَتُوا بِحَسَبِ مَا فَرَضَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْهُمْ بِمَا يَذِلِّي بِهِ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ قَرَابَةٍ، أَوْ زَوْجِيَّةٍ، أَوْ وَلَاءٍ، فَإِنَّهُ لُحْمَةٌ كُلُّحْمَةٍ النَّسَبِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: جَاءَتْ أُمُّ كُحَّةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ابْنَتَيْنِ، وَقَدْ مَاتَ أَبُوهُمَا، وَلَيْسَ لَهُمَا شَيْءٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾... الآية، وَسَيَأْتِي هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَ آيَةِ الْمِيرَاثِ بِسِيَاقٍ آخَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية، قِيلَ: الْمُرَادُ وَإِذَا حَصَرَ قِسْمَةَ الْمِيرَاثِ ذُوو الْقُرْبَى مِمَّنْ لَيْسَ يُوَارِثُ ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾ فَلْيَرْضَخْ لَهُمْ مِنَ التَّرَكَةِ نَصِيبٌ<sup>(١)</sup>. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup>: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾. قَالَ: هِيَ مُحْكَمَةٌ وَلَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هِيَ قَائِمَةٌ يُعْمَلُ بِهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: هِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى أَهْلِ الْمِيرَاثِ مَا طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مُوسَى وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالشَّعْبِيِّ وَالْحَسَنُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَكْحُولٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَالزُّهْرِيُّ وَبَنِي بَنٍ يَعْمَرُ: أَنَّهَا وَاجِبَةٌ. وَقِيلَ: هَذَا بِالْوَصِيَّةِ يُوصِي بِهِ الْمَيِّتُ. وَقِيلَ: بَلْ هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ<sup>(٦)</sup> عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ﴾ وَهِيَ قِسْمَةُ الْمِيرَاثِ، وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا، إِذَا حَصَرَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا

(١) أبو داود: ٣١٤/٣ (٢) فتح الباري: ٩٠/٨ (٣) الطبري:

٨/٨ (٤) الطبري: ٨/٨ (٥) الطبري: ٨/٨ (٦) فيه عائلة

العوفي الضعفاء (٧) الطبري: ١٩/٨ (٨) الطبري: ٢١/٨

(٩) فتح الباري: ٤٢٧/٥ ومسلم: ١٢٥٣/٤ (١٠) الطبري:

٢٣/٨ أفته. العوفي وعائلته

وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٦)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ حَدِيثَ جَابِرِ الْأَوَّلِ إِنَّمَا نَزَلَ بِسَبَبِهِ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ كَمَا سَيَأْتِي، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ لَهُ إِذْ ذَاكَ أَخَوَاتٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَنَاتٌ، وَإِنَّمَا كَانَ يُورَثُ كَلَالَةً، وَلَكِنْ ذَكَرْنَا الْحَدِيثَ هَهُنَا تَبَعًا لِلْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ ذَكَرَهُ هَهُنَا، وَالْحَدِيثَ الثَّانِي عَنْ جَابِرٍ أَشْبَهَ بِزُورٍ هَذِهِ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَوْلَادُ يَرِثُونَ بِحِسَابٍ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أَيُّ يَأْمُرُكُمْ بِالْعَدْلِ فِيهِمْ، فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَجْعَلُونَ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ لِلذَّكَوَرِ دُونَ الْإِنَاثِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، وَفَاوَتْ بَيْنَ الصَّنَفَيْنِ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، وَذَلِكَ لِاحْتِيَاجِ الرَّجُلِ إِلَى مَوْنَةِ التَّقَةِ وَالْكُلْفَةِ، وَمُعَانَاةِ التَّجَارَةِ وَالتَّكْسِبِ، وَتَجَسُّمِ الْمَشَقَّةِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعْطَى ضِعْفُ مَا تَأْخُذُهُ الْأُنْثَى، وَقَدْ اسْتَنْبَطَ بَعْضُ الْأَذْكِيَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أَنَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدِ بَوْلَدِهِ، حَيْثُ أَوْصَى الْوَالِدَيْنِ بِأَوْلَادِهِمْ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَقَدْ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ تَدُورُ عَلَى وَلَدِهَا، فَلَمَّا وَجَدَتْهُ مِنَ السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِصَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «اتْرُكُوا هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَوَاللَّهِ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ هَهُنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الْمَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتِ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ، فَتَسَخَّ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ وَالثَّلْثَ، وَجَعَلَ لِلزَّوْجَةِ الثُّمَنَ وَالرُّبْعَ، وَلِلزَّوْجِ الشُّطْرَ وَالرُّبْعَ<sup>(٨)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُفَوِّقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْبِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»<sup>(١)</sup>.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

[الْأَمْرُ بِالْمَوَارِيثِ وَالْحِصَصِ عَلَى تَعْلُمِهَا]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَالَّتِي بَعْدَهَا، وَالْآيَةُ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ هَذِهِ السُّورَةِ هُنَّ آيَاتُ عِلْمِ الْفَرَائِضِ، وَهُوَ مُسْتَنْبَطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ، وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ مِمَّا هُوَ كَالْتَفْسِيرِ لِلذَّكَرِ مِنْهَا مَا هُوَ مُتَمَلِّقٌ بِتَفْسِيرِ ذَلِكَ. وَقَدْ وَرَدَ التَّرْغِيبُ فِي تَعْلُمِ الْفَرَائِضِ، وَهَذِهِ الْفَرَائِضُ الْخَاصَّةُ مِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَرَائِضُ بِصِفِّ الْعِلْمِ، لِأَنَّهُ يُتَنَلَّى بِهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ.

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلَمَةَ مَاشِيَيْنَ، فَوَجَدَنِي النَّبِيَّ ﷺ لَا أَقْعِلُ شَيْئًا، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ، فَأَقْفَتُ فَقُلْتُ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَتَزَلْتُ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾<sup>(٢)</sup> وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>، وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ<sup>(٤)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ عَنْ جَابِرٍ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ) رَوَى أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ فِي أُحُدٍ شَهِيدًا، وَإِنْ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا، وَلَا يُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ، قَالَ: فَقَالَ: «يُقْضَى اللَّهُ فِي ذَلِكَ» قَالَ: فَتَزَلْتُ آيَةَ الْمِيرَاثِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَمَّهُمَا فَقَالَ: «أَعْطِ ابْنَتِي سَعْدِ الثَّلَاثَيْنِ، وَأَمَّهُمَا الثُّمَنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ»<sup>(٥)</sup>.

(١) فتح الباري: ٤٦٢/٥ ومسلم: ٩٢/١ (٢) فتح الباري: ٨/٩١

٩١ (٣) مسلم: ١٢٣٥/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٢٠/٦ (٤)

فتح الباري: ١١٨/١ ومسلم: ١٢٣٤/٣ وأبو داود: ٣٠٨/٣

وتحفة الأحوذى: ٣٦٨/٨ والنسائي: ٧٧/١ وابن ماجه: ٢/٩١١

(٥) أحمد: ٣٥٢/٣ (٦) أبو داود: ٣١٤/٣ وتحفة

الأحوذى: ٢٦٧/٦ وابن ماجه: ٩٠٨/٢ (٧) مسلم: ٤/٢١٠٩

(٨) فتح الباري: ٩٣/٨

## [مِيرَاثُ الْبَنَاتِ إِذَا انْفَرَدْنَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: قَوْلُهُ: ﴿فَوْقَ﴾ زَائِدَةٌ، وَتَقْدِيرُهُ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْيَانِ﴾ [الأنفال: ١٢] وَهَذَا غَيْرُ مُسْلَمٍ لَا هُنَا وَلَا هُنَاكَ. فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ، ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ: فَلَهُمَا ثُلُثَا مَا تَرَكَ، وَإِنَّمَا اسْتَفِيدَ كَوْنُ الثَّلَثَيْنِ لِلْبَنَتَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأَخْتَيْنِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ فِيهَا لِلأَخْتَيْنِ بِالثَّلَثَيْنِ. وَإِذَا وَرَثَ الْأَخْتَانِ الثَّلَثَيْنِ فَلَأَنْ يَرثَ ابْنَتَانِ الثَّلَثَيْنِ بِطَرِيقِ الْأُولَى. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، حَكَمَ لِابْنَتَيْ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالثَّلَثَيْنِ، فَدَلَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فَلَوْ كَانَ لِلْبَنَتَيْنِ النِّصْفُ لَنَصَّ عَلَيْهِ أَيْضًا، فَلَمَّا حَكَمَ بِهِ لِلوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا، دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَنَتَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## [مِيرَاثُ الْوَالِدَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلْوَالِدَيْنِ لِلْكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ﴾ إِلَى آخِرِهِ، الْأَبَوَانِ لَهُمَا فِي الْمِيرَاثِ أَحْوَالٌ:

(أَحَدُهَا) أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الْأَوْلَادِ فَيُفْرَضُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا ابْنَتٌ وَاحِدَةٌ، فُورَضَ لَهَا النِّصْفُ، وَلِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ، وَأَخَذَ الْأَبُ الشُّدُسَ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ، فَيُجْمَعُ لَهُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ بَيْنَ الْفَرَضِ وَالتَّعْصِيبِ.

(الْحَالُ الثَّانِي) أَنْ يَنْفَرِدَ الْأَبَوَانِ بِالْمِيرَاثِ، فَيُفْرَضُ لِلأُمِّ - وَالْحَالَةُ - الثُّلُثُ، وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِيَّ بِالتَّعْصِيبِ الْمَحْضِ، وَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضِعْفِي مَا فُرِضَ لِلأُمِّ، وَهُوَ الثُّلُثَانِ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمَا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَخَذَ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرُّبْعَ. ثُمَّ تَأْخُذُ الْأُمُّ بَعْدَ فَرَضِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ، ثُلُثَ الْبَاقِي فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ، لِأَنَّ الْبَاقِي كَانَتْهُ جَمِيعُ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلأَبِ. فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي وَيَأْخُذُ الْأَبُ ثُلُثَيْهِ.

(وَالْحَالُ الثَّلَاثُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَبَوَيْنِ) وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الْإِخْوَةِ، سَوَاءً كَانُوا مِنَ الْأَبَوَيْنِ أَوْ مِنَ الْأَبِ أَوْ مِنَ الْأُمِّ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتُونَ مَعَ الْأَبِ شَيْئًا، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ

يَحْجُبُونَ الْأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إِلَى الشُّدُسِ، فَيُفْرَضُ لَهَا مَعَ وُجُودِهِمُ الشُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسِوَى الْأَبِ، أَخَذَ الْأَبُ الْبَاقِيَّ. وَحُكْمُ الْأَخَوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الْإِخْوَةِ عِنْدَ الْجُمُهورِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلأُمِّ الشُّدُسُ﴾ أَصْرُوا بِالْأُمِّ وَلَا يَرْتُونَ، وَلَا يَحْجُبُهَا الْأَخُ الْوَاحِدُ مِنَ الثُّلُثِ وَيَحْجُبُهَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَرَوْنَ أَنََّّهُمْ إِنَّمَا حَجَبُوا أُمَّهُمْ عَنِ الثُّلُثِ: أَنَّ آبَاءَهُمْ يَلِي إِنْكَاحَهُمْ وَنَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ دُونَ أُمَّهُمْ، وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ.

## [تَقْدِيمُ الدِّينِ ثُمَّ الْوَصِيَّةِ عَلَى الْمِيرَاثِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ سَلَفًا وَخَلَفًا أَنَّ الدِّينَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَذَلِكَ عِنْدَ امْتِعَانِ النَّظَرِ يُفْهِمُ مِنْ فَحْوَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أَيْ إِنَّمَا فَرَضْنَا لِلآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الْكُلِّ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، مِنْ كَوْنِ الْمَالِ لِلْوَلَدِ، وَلِلوَالِدَيْنِ الْوَصِيَّةُ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، إِنَّمَا نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا، فَفَرَضَ لَهُوْلَاءِ وَلَهُوْلَاءِ بِحَسَبِهِمْ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَأْتِيهِ النَّفْعُ الدُّنْيَوِيُّ أَوْ الْآخِرِيُّ أَوْ هُمَا مِنْ أَبِيهِ مَا لَا يَأْتِيهِ مِنْ ابْنِهِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْعَكْسِ، وَلِذَا قَالَ: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أَيْ كَأَنَّ النَّفْعَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنْ هَذَا، كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنَ الْآخَرِ، فَلِهَذَا فَرَضْنَا لِهَذَا وَلِهَذَا، وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْصِيلِ الْمِيرَاثِ وَإِعْطَاءِ بَعْضِ الْوَرَثَةِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ، هُوَ فَرَضٌ مِنَ اللَّهِ، حَكَمَ بِهِ وَقَضَاهُ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا، وَيُعْطِي كُلَّ مَا يَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوَاحُكُمْ إِنْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ وَمِمَّا تَرَكَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ وَلَهُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُمُ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ وَإِنْ

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّيَكُنْ لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لهنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

[حُكْمُ أَوْلَادِ الْأُمِّ مِنْ غَيْرِ أَبِيهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾ أَيُّ مِنْ أُمِّ كَمَا هُوَ فِي قِرَاءَةِ بَعْضِ السَّلَفِ، مِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَكَذَا فَسَّرَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِيمَا رَوَاهُ قَتَادَةُ عَنْهُ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ وَإِخْوَةُ الْأُمِّ يُخَالِفُونَ بَقِيَّةَ الْوَرِثَةِ مِنْ وَجْهِ: أَحَدُهَا أَنَّهُمْ يَرِثُونَ مَعَ مَنْ أَذَلُّوا بِهِ، وَهِيَ الْأُمُّ. الثَّانِي: أَنَّ ذُكُورَهُمْ وَإِنَّا نَهُمْ فِي الْوِثَارَةِ سَوَاءٌ. الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ إِلَّا إِذَا كَانَ مِثْلُهُمْ يُورِثُ كَلَالَةً، فَلَا يَرِثُونَ مَعَ أَبٍ وَلَا جَدٍّ وَلَا وَلَدٍ وَلَا ابْنٍ. الرَّابِعُ: أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ عَلَى الثُّلُثِ، وَإِن كَثُرَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَّا نَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ أَيُّ لَتَكُونُ وَصِيَّتُهُ عَلَى الْعَدْلِ، لَا عَلَى الْإِضْرَارِ وَالْجَوْرِ

كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

[مِيرَاثُ الرُّوَجَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَكُمْ أَثْمَانُ الرِّجَالِ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِذَا مِتَّ عَنْ غَيْرِ وَلَدٍ، فَإِن كَانَ لهنَّ وَلَدٌ، فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الدَّيْنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَبَعْدَهُ الْوَصِيَّةُ ثُمَّ الْوِثَارَةُ، وَهَذَا أَمْرٌ مُّجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَحُكْمُ أَوْلَادِ الْبَنِينَ وَإِن سَفَلُوا حُكْمُ أَوْلَادِ الصُّلْبِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ ... إِلَى آخِرِهِ، وَسَوَاءٌ فِي الرُّبْعِ أَوْ الثُّمُنِ الزَّوْجَةُ وَالزَّوْجَتَانِ الْأَتْنَانِ وَالثَّلَاثُ وَالْأَرْبَعُ يَشْتَرِكْنَ فِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ ... إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ.

[تَعْرِيفُ الْكَلَالَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً﴾ الْكَلَالَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْإِكْلِيلِ، وَهُوَ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِيهِ، وَالْمُرَادُ هُنَا مِنْ يَرِثُهُ مِنْ حَوَاشِيهِ، لَا أَصُولُهُ وَلَا قُرُوعُهُ. كَمَا رَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْكَلَالَةِ، فَقَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِن يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ اللَّهِ، وَإِن يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِئَانِ مِنْهُ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ قَالَ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَخَالَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي رَأْيٍ رَأَاهُ<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ آخِرَ النَّاسِ عَهْدًا بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَلْقُولُ مَا قُلْتُ، فَقُلْتُ: وَمَا قُلْتُ؟ قَالَ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَصَحَّ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَبِهِ يَقُولُ الشَّعْبِيُّ وَالنَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَالْحَكَمُ<sup>(٣)</sup>. وَبِهِ يَقُولُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، بَلْ جَمِيعِهِمْ، وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ وَاحِدٍ.

(١) الطبري: ٥٣/٨ هذه الرواية من مراسيل الشعبي لأن عامر

الشعبي عن أبي بكر وعمر مرسل [جامع التحصيل ٣٢٢] (٢)

الطبري: ٥٩/٨ (٣) الطبري: ٥٥-٥٧

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَسَيِّقُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ أَيْمٌ وَأَكْمَلُ.

﴿وَأَلَيْكَ يَا أَيُّهَا الْفَجْشَةُ مِنْ يَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ أَزْوَاجَهُمْ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا<sup>(٥)</sup>﴾ وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَتَادُوهُنَّ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا<sup>(٦)</sup>﴾

[الْأَمْرُ بِحَبْسِ الزَّانِيَةِ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ نَسَخَ هَذَا الْأَمْرَ] كَانَ الْحُكْمُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَنَتْ، فَكَبَتْ زَنَاهَا بِالْبَيْتَةِ الْعَادِلَةِ، حُبِسَتْ فِي بَيْتِ، فَلَا تُمْكِنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَلَيْكَ يَا أَيُّهَا الْفَجْشَةُ﴾ يَعْنِي الزَّانَا ﴿مِنْ يَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ أَزْوَاجَهُمْ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فَالسَّبِيلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ هُوَ النَّاسِخُ لِذَلِكَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ الثَّوْرِ، فَنَسَخَهَا بِالْجُلْدِ أَوْ الرَّجْمِ، وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ، وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَأَبِي صَالِحٍ وَقَتَادَةَ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالضَّحَّاكَ، أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، أَثَّرَ عَلَيْهِ، وَكُرِبَ لَذَلِكَ، وَتَرَدَّدَ وَجْهُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ، قَالَ: «خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الثَّيْبُ بِالثَّيْبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيْبُ جُلْدٌ مِائَةً وَرَجْمٌ بِالْحَجَارَةِ، وَالْبِكْرُ جُلْدٌ مِائَةً ثُمَّ نَفِي سَنَةً<sup>(٥)</sup>». وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَفْظُهُ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جُلْدٌ مِائَةً وَتَغْرِيبٌ عَامٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جُلْدٌ مِائَةً وَالرَّجْمُ<sup>(٦)</sup>»

وَالْحَيْفُ بِأَنْ يَحْرِمَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ أَوْ يَنْقُصَهُ، أَوْ يَزِيدَهُ عَلَى مَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْفَرِيشَةِ، فَمَتَى سَعَى فِي ذَلِكَ، كَانَ كَمَنْ ضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِيهِ وَقِسْمَتِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِرَاثٍ<sup>(١)</sup>».

﴿بِذَلِكَ حُدُّوا اللَّهَ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ<sup>(٢)</sup>﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ<sup>(٣)</sup>﴾

[الْوَعْدُ عَلَى تَعَدِّي الْحُدُودِ فِي الْمَوَارِيثِ]

أَيُّ هَذِهِ الْفَرَائِضُ وَالْمَقَادِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْوَرَثَةِ بِحَسَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ الْمَيِّتِ، وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ، وَفَقْدِهِمْ لَهُ عِنْدَ عَدَمِهِ، هِيَ حُدُودُ اللَّهِ، فَلَا تَعْتَدُوهَا وَلَا تَجَاوِزُوهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ فِيهَا، فَلَمْ يَزِدْ بَعْضُ الْوَرَثَةِ وَلَمْ يَنْقُصْ بَعْضًا بِحِيلَةٍ وَوَسِيلَةٍ، بَلْ تَرَكَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَفَرِيشَتِهِ وَقِسْمَتِهِ ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ<sup>(٢)</sup> وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ<sup>(٣)</sup> أَيُّ لِكُوزِهِ غَيْرَ مَا حَكَّمَ اللَّهُ بِهِ، وَضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَصُدُّرُ عَنْ عَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ، وَحَكَمَ بِهِ، وَلِهَذَا يُجَازِيهِ بِالْإِهَانَةِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُقِيمِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى خَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ» قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ، أَفَرَأَوْا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿بِذَلِكَ حُدُّوا اللَّهَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي بَابِ الْإِضْرَارِ فِي الْوَصِيَّةِ مِنْ سُنَنِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ، أَوْ الْمَرْأَةُ، بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَخْضُرُهُمَا الْمَوْتُ، فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ» وَقَالَ: قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ هَئِنَا: ﴿مَنْ بَعَدَ وَصِيَّةَ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَنِيَ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا

(١) أبو داود: ٢٨٧٠، والترمذي: ٢١٢١، والنسائي: ٣٦٧٣ وابن ماجه: ٢٧١٢، ٢٧١٣ (٢) أحمد: ٢٧٨/٢ (٣) أبو داود: ٢٨٨/٣ (٤) تحفة الأحوذى: ٣٠٤/٦ وابن ماجه: ٩٠٢/٢ (٥) أحمد: ٣١٧/٥ (٦) مسلم: ١٣١٦/٣ وأبو داود: ٥٧٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٧٠٥/٤ والنسائي في الكبرى: ٢٧٠/٤ وابن ماجه: ٨٥٢/٢



الْبُيُوتِ

٨٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَأَلَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكَمْ فَاسْتَشْهِدُوا  
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي  
الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا  
(١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا  
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا  
(١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ  
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ  
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ  
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ  
قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَلَنْ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ  
أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) يَأْتِيهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ  
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ اتِّبَتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَدْحَشَةٍ  
مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى  
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعل الله فيه خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)

عمل السوء (٩).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «ثُمَّ يَتُوبُونَ  
مِنْ قَرِيبٍ» قَالَ: مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَلِكِ  
الْمَوْتِ (١١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَا كَانَ دُونَ الْمَوْتِ فَهُوَ  
قَرِيبٌ (١١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ  
قَرِيبٍ»، مَا لَمْ يُعْرِغْ (١٢). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الدُّنْيَا كُلُّهَا  
قَرِيبٌ (١٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ  
النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُعْرِغْ» (١٤).  
رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.  
وَوَقَعَ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَهُوَ

(١) الطبري: ٨٥/٨ (٢) الطبري: ٨٢/٨ (٣) أبو داود: ٤/٦٠٧  
وتحفة الأحوذى: ٢١/٥ والنسائي في الكبرى: ٤/٣٢٢  
وابن ماجه: ٨٥٦/٢ (٤) فتح الباري: ٤/٤٩١ ومسلم: ٣/١٣٣٨  
(٥) الطبري: ٨٩/٨ (٦) الطبري: ٨٩/٨ (٧) عبد  
الرزاق: ١٥١/١ (٨) الطبري: ٩٠/٨ (٩) الطبري: ٩٠/٨  
(١٠) الطبري: ٩٤/٨ (١١) الطبري: ٩٤/٨ (١٢) الطبري: ٩٤/٨  
(١٣) الطبري: ٩٦/٨ (١٤) أحمد: ١٣٢/٢

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا» أَيِ  
وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِ الْفَاحِشَةَ فَتَاذُوهُمَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمَا: أَيِ بِالشَّتْمِ  
وَالْتَعْيِيرِ وَالضَّرْبِ بِالتَّعَالِ (١). وَكَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ،  
حَتَّى نَسَخَهُ اللَّهُ بِالْجَلْدِ أَوْ الرَّجْمِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ  
فِي الرَّجُلَيْنِ إِذَا فَعَلَا - لَا يَكْنِي - (٢). وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ  
اللُّوَاطَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ رَوَى أَهْلُ السُّنَنِ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَعْمَلُ  
عَمَلِ قَوْمٍ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (٣).

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا» أَيِ أَقْلَعَا وَتَزَعَا عَمَّا  
كَانَا عَلَيْهِ، وَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمَا وَحَسِنَتْ، «فَاعْرِضُوا  
عَنْهُمَا» أَيِ لَا تَعْتَقُوهُمَا بِكَلَامٍ قَبِيحٍ بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّ  
التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ «إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا  
رَحِيمًا». وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ إِذَا زَنَتْ أُمَةٌ أَحَدَكُمْ  
فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يَتْرَبْ عَلَيْهَا (٤) أَيِ ثَمَّ لَا يُعِيرُهَا  
بِمَا صَنَعَتْ بَعْدَ الْحَدِّ الَّذِي هُوَ كَفَّارَةٌ لِمَا صَنَعَتْ.

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ  
يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ  
حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَلَنْ وَلَا الَّذِينَ  
يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)»  
[قَبُولُ تَوْبَةِ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ]

يَقُولُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ عَمِلَ  
السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَوْ قَبْلَ مُعَايِنَةِ الْمَلِكِ الَّذِي يَقْبِضُ  
رُوحَهُ، أَيِ قَبْلَ الْغُرْعَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: كُلُّ مَنْ  
عَصَى اللَّهَ خَطَأً أَوْ عَمْدًا فَهُوَ جَاهِلٌ، حَتَّى يَنْزِعَ عَنِ  
الذَّنْبِ (٥). وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ  
أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يَقُولُونَ: كُلُّ ذَنْبٍ أَصَابَهُ  
عَبْدٌ فَهُوَ بِجَهَالَةٍ (٦). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ:  
أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: اجْتَمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ فَرَأَوْا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَصِي بِهِ فَهُوَ جَهَالَةٌ، عَمْدًا كَانَ  
أَوْ غَيْرَهُ (٧). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ عَنْ  
مُجَاهِدٍ، قَالَ: كُلُّ غَامِلٍ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ جَاهِلٌ حِينَ  
عَمِلَهَا. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَقَالَ لِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ  
نَحْوَهُ (٨). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ جَهَالَتِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨١

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢١﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾

وَأِنْ شَاءُوا زَوْجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يَرْجُوْهَا، فَهَمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾ (٣).

[النَّهْيُ عَنِ الْإِضْرَارِ بِالنِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْضُوا لَهُمْ لِنْدَهُمْ بِعِضٍ مَا ءَاتَيْتُمُوهُمْ﴾ أَيُّ لَا تَضَارُّوهُمْ فِي الْعِشْرَةِ، لِتَتْرَكَ لَكَ مَا أَصْدَقْتَهَا، أَوْ بَعْضَهُ، أَوْ حَقًّا مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْكَ، أَوْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْقَهْرِ لَهَا وَالْإِضْطِهَادِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، وَسَعِيدُ ابْنُ جَبْرِ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو قِلَابَةَ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ

وَهُمْ، إِنَّمَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فَأَمَّا مَتَى وَقَعَ الْإِبَاسُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَعَايَنَ الْمَلِكُ، وَحَشَرَ جَبَ الرُّوحِ فِي الْحَلْقِ، وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ، وَبَلَّغَتْ الْحُلُقُومُ، وَغَرَّغَتْ النَّفْسُ صَاعِدَةً فِي الْغَلَاصِمِ، فَلَا تَوْبَةَ مُقْبِلَةً جَنِيذًا، وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْقَتْلَ﴾ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ...﴾ [الْآيَتِينَ: غافر: ٨٤، ٨٥]، وَكَمَا حَكَمَ تَعَالَى بِعَدَمِ تَوْبَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذَا عَابَتُوا الشَّمْسَ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾... [الْآيَةُ: الأنعام: ١٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يَعْنِي أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ لَا يَنْفَعُهُ نَدْمُهُ وَلَا تَوْبَتُهُ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدْيَةٌ وَلَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ. ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قَالُوا: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ سَلْمَانَ: أَنَّ أَبَا ذَرٍّ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ، أَوْ يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ، مَا لَمْ يَقَعِ الْحِجَابُ». قِيلَ: وَمَا وَفُوعُ الْحِجَابِ؟ قَالَ: «أَنْ تَخْرُجَ النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ» (٢). وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيُّ مُوجِعًا شَدِيدًا مُقِيمًا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَقْضُوا لَهُمْ لِنْدَهُمْ بِعِضٍ مَا ءَاتَيْتُمُوهُمْ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَايَرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَتَسَوَّى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢١﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾

[مَعْنَى إِرْثِ النِّسَاءِ كَرَاهًا]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾ قَالَ: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَائِهِ أَحَقَّ بِأَمْرَائِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزْوِجَهَا،

(١) تحفة الأحوذى: ٥٢١/٩ وابن ماجه: ١٤٢٠/٢ (٢) أحمد: ١٧٤/٥ إسناده ضعيف لجهالة ابن نعيم وأسماء بن سلمان مجهول أيضًا ويُعني عنه حديث ابن عمر الذي تقدم "إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغفر" (٣) فتح الباري: ٩٣/٨

مُؤْمِنَةٍ، إِنْ سَخَطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرٌ<sup>(٥)</sup>.

[النَّهْيُ عَنْ اسْتِزْدَادِ الصَّدَاقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَمَاتَيْتَهُمْ إِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَتِكُمْ وَلِأَنَّمْ مَيِّتًا﴾ أَيُّ إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَةً، وَيَسْتَبْدِلَ مَكَانَهَا غَيْرَهَا، فَلَا يَأْخُذَنَّ مِمَّا كَانَ أَصْدَقَ الْأُولَى شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ قِنطَارًا مِنْ مَالٍ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الْإِصْدَاقِ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ نَهَى عَنْ كَثْرَةِ الْإِصْدَاقِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: أَلَا لَا تَغْلُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرَمَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ، كَانَ أَوْلَاكُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، مَا أَصْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَصْدَقَتْ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَسْتَكِلِي بِصَدَقَةِ امْرَأَتِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهَا عَدَاوَةٌ فِي نَفْسِهِ، وَحَتَّى يَقُولَ: كُلُّتُ إِلَيْكَ عِلْقَ الْقُرْبَى<sup>(٦)</sup>. ثُمَّ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: رَكِبَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ مِثْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَا إِكْتَارُكُمْ فِي صُدُقِ النِّسَاءِ؟ وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَالصَّدَقَاتُ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ ذَرَاهِمَ، فَمَا دُونَ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ الْإِكْتَارُ فِي ذَلِكَ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ أَوْ كَرَامَةً لَمْ تَسْقُوهُمْ إِلَيْهَا. فَلَا أَعْرِفُ مَا زَادَ رَجُلٌ فِي صَدَاقِ امْرَأَةٍ عَلَى أَرْبَعُمِائَةٍ ذَرَاهِمَ. قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ، فَاعْتَرَضَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَهَيْتَ النَّاسَ أَنْ يَزِيدُوا النِّسَاءَ صَدَاقَهُمْ عَلَى أَرْبَعُمِائَةٍ ذَرَاهِمَ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: وَأَيُّ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَاتَيْتَهُمْ إِنْطَارًا﴾... الْآيَةِ؟ قَالَ: فَقَالَ: اللَّهُمَّ غَفْرًا، كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ. ثُمَّ رَجَعَ فَرَكِبَ الْمِثْرَ فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ

أَسْلَمَ، وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي هَلَالٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الزَّانَا. يَعْنِي إِذَا زَنَتْ فَلَكَ أَنْ تَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِي أُعْطَيْتَهَا، وَتُضَاجِرَهَا حَتَّى تَتْرُكَهَا لَكَ، وَتُخَالِعَهَا<sup>(١)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ... الْآيَةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَالصَّحَّاحُ: الْفَاحِشَةُ الْمُبَيَّنَّةُ النُّشُورُ وَالْعُضْيَانُ<sup>(٢)</sup>. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ يُعْمُ ذَلِكَ كُلُّهُ: الزَّانَا وَالْعُضْيَانِ، وَالنُّشُورُ وَبَدَاءُ اللِّسَانِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ. يَعْنِي أَنَّ هَذَا كُلُّهُ يُبَيِّحُ مَضَاجِرَهَا حَتَّى تُبْرِئَهُ مِنْ حَقِّهَا أَوْ بَعْضِهِ. وَيُفَارِقُهَا، وَهَذَا جَيِّدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَمْرُ بِحُسْنِ عَشْرَةِ النِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ طَيَّبُوا أَقْوَالَكُمْ لَهُنَّ، وَحَسَّنُوا أَفْعَالَكُمْ وَهَيْئَاتِكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ، كَمَا تُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا، فَافْعَلْ أَلْتَ بِهَا مِثْلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»<sup>(٣)</sup> وَكَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ ﷺ أَنَّهُ جَمِيلُ الْعِشْرَةِ، دَائِمُ الْبِشْرِ، يُدَاعِبُ أَهْلَهُ، وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ، وَيُوسِّعُهُمْ نَفَقَتَهُ، وَيُضَاحِكُ نِسَاءَهُ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُسَابِقُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا بِذَلِكَ، قَالَتْ: سَابَقَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَفَقْتُهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أَحْمِلَ اللَّحْمَ، ثُمَّ سَابَقْتُهُ بَعْدَ مَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: «هَذِهِ بَيْتُكَ»<sup>(٤)</sup>.

وَيَجْمَعُ نِسَاؤُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْكُلُ مَعَهُنَّ الْعِشَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، ثُمَّ تَتَصَرَّفُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَنَزِلِهَا، وَكَانَ يَتَامُ مَعَ الْمَرْأَةِ مِنْ نِسَائِهِ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ، يَضَعُ عَنْ كَتِفِهِ الرِّدَاءَ وَيَتَامُ بِالْإِزَارِ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ يَدْخُلُ مَنَزِلَهُ، يَسْمُرُ مَعَ أَهْلِهِ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَتَامَ، يُؤَانِسُهُمْ بِذَلِكَ ﷺ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أَيُّ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَبْرُكُمْ مَعَ إِسْمَاحِكُمْ لَهُنَّ وَكَرَاهَتِهِنَّ، فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ أَنْ يَغْطَفَ عَلَيْهَا فَيُزَوِّقَ مِنْهَا وَلَدًا، وَيَكُونَ فِي ذَلِكَ الْوَلَدِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا يَفْرُقُ مُؤْمِنٌ

(١) الطبري: ١١٥-١١٧/٨ (٢) الطبري: ١١٧/٨ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٩٤/١٠ (٤) أبو داود: ٦٦/٣ (٥) مسلم: ١/ ١٠٩١ (٦) أحمد: ٤٠/١ (٧) أبو داود: ٥٨٢/٢ وتحفة الأحوذى: ٢٥٥/٤ والنسائي: ١١٧/٦ وابن ماجه: ٦٠١/١

نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَزِيدُوا النِّسَاءَ فِي صَدَاقِهِنَّ عَلَى أَرْبَعِيَّةٍ دَرَاهِمَ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَ مِنْ مَالِهِ مَا أَحَبَّ. قَالَ أَبُو يَعْلَى: وَأَظْهَرُهُ قَالَ: فَمَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ فَلْيَفْعَلْ، إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أَيْ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَ الصَّدَاقَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَقَدْ أَفْضَيْتَ إِلَيْهَا وَأَفْضَتْ إِلَيْكَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَمَاعَ<sup>(١)</sup>. - وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لِلْمُتَلَاعِنَيْنِ بَعْدَ فِرَاقِهِمَا مِنْ تَلَاُعِهِمَا: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ. فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» ثَلَاثًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَالِي؟ - يَعْنِي مَا أَصْدَقَهَا - قَالَ: «لَا مَالَ لَكَ. إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهَوَّ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهَوَّ أَبْعَدَ لَكَ مِنْهَا»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: الْعَقْدَ<sup>(٣)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ فِي خُطْبَةٍ حَجَّةَ الْوَدَاعِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِيهَا: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانٍ مِنَ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ»<sup>(٤)</sup>.

تَحْرِيمُ زَوَاجَاتِ الْأَبِّ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَحُكْمُ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ الْآيَةُ، يُحَرِّمُ اللَّهُ تَعَالَى زَوَاجَاتِ الْأَبَاءِ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا أَنْ تَوَطَّأَ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى إِنَّهَا لَتَحَرِّمُ عَلَى الْإِبْنِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا أَمْرًا الْأَبِ وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ»<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٦)</sup>.

فَهُوَ حَرَامٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، مُبْتَسَعٌ غَايَةَ التَّبَسُّعِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَجِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَاجِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١] وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَجِشَةً

وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فَرَزَادَ هَهُنَا ﴿وَمَقْتًا﴾ أَيْ بُغْضًا أَيْ هُوَ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهِ، وَيُؤَدِّي إِلَى مَقْتِ الْإِبْنِ أَبَاهُ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِأَمْرَأَتِهِ، فَإِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ بِأَمْرَأَةٍ يُبْغِضُ مَنْ كَانَ زَوْجَهَا قَبْلَهُ، وَلِهَذَا حُرِّمَتْ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْأُمَّةِ، لِأَنَّهُنَّ أُمَّهَاتُ لِكُونِهِنَّ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ. وَهُوَ كَالْأَبِ، بَلْ حَقُّهُ أَكْثَرُ مِنْ حَقِّ الْأَبَاءِ بِالْإِجْمَاعِ، بَلْ حُبُّهُ مُقَدَّمٌ عَلَى حُبِّ النَّفْسِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَقْتًا﴾ أَيْ يَمْقُتُ اللَّهُ عَلَيْهِ، «وَسَاءَ سَبِيلًا» أَيْ وَبُئْسَ طَرِيقًا لِمَنْ سَلَكَهُ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَعَاطَا بَعْدَ هَذَا فَقَدْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، فَيُقْتَلُ، وَيَصِيرُ مَالُهُ فَيْئًا لِسَيِّئِ الْمَالِ. كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ طَرِيقٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عَنْ خَالِهِ أَبِي بُرْدَةَ - وَفِي رِوَايَةٍ: ابْنُ عُمَرَ، وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ عَمِّهِ - أَنَّهُ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ أَمْرَأَةً أَبِيهِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَقْتُلَهُ وَيَأْخُذَ مَالَهُ<sup>(٧)</sup>.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَكَهَنَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأَهْنُوكُمْ الَّتِي أَزْوَجْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسِيغِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَفَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمُنَّ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٢٤﴾

[بَيَانُ الْمُحَرَّمَاتِ الْأَبَدِيَّةِ وَغَيْرِ الْأَبَدِيَّةِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ تَحْرِيمِ الْمُحَارِمِ مِنَ النَّسَبِ، وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الرِّضَاعِ، وَالْمُحَارِمِ بِالْصُّهْرِ، كَمَا رَوَى ابْنُ

(١) الطبري: ١٢٦/٨ (٢) فتح الباري: ٣٦٦/٩ ومسلم: ٢/

١١٣١ (٣) الطبري: ١٢٩/٨ (٤) مسلم: ٨٨٩/٢ (٥)

الطبري: ١٣٢/٨ (٦) الطبري: ١٣٢-١٣٤ (٧) أحمد:

٢٩٠/٤ وأبو داود: ٦٠٩/٤ وتحفة الأحوذى: ٥٩٨/٤ والنسائي

في الكبرى: ٢٩٦/٤ وابن ماجه: ٨٦٩/٢

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِحْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَتَغَوَّ بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٣﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مَتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْ تَبْنَى بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْنَّ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي حَجَرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ [وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّبِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ فَجُمُوهُورُ الْأَيْمَةِ عَلَى أَنَّ الرِّبِّيَّةَ حَرَامٌ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي حَجَرِ الرَّجُلِ، أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حَجَرِهِ، قَالُوا: وَهَذَا الْخَطَابُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْهِلُوا بَيْنَكُمُ عَلَى الْبَيْلَةِ إِنْ أُرِدْنَ تَحْصَاةٌ﴾ [النور: ٣٣]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْكِحْ أُخْتِي بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ. وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: عَزَّةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: «أَوْ تُحْبِبِينَ ذَلِكَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيةٍ، وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرِ أُخْتِي، قَالَ: «فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لِي». قَالَتْ: فَإِنَّا نَحْدُثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: «بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «إِنِّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رِبِّيَّةً فِي حَجَرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنِّهَا لَبِنْتُ أُخْتِي

أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ سَبْعُ نَسَبٍ وَسَبْعُ صِهْرٍ، وَقَرَأَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ...﴾ الْآيَةَ <sup>(١)</sup>. وَرَوَى الطَّبْرِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ سَبْعٌ، وَمِنَ الصَّهْرِ سَبْعٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ <sup>(٢)</sup> فَهِنَّ النَّسَبُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَهْلُتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْتُمْ وَأَخُوتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ أَيْ كَمَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ، كَذَلِكَ يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي أَرْضَعْتُكَ، وَلِهَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّضَاعَةَ تُحْرِمُ مَا تُحْرِمُ الْوِلَادَةُ»، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» <sup>(٣)</sup>.

[قَدَّرَ مَا يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَمَدَّتْهَا]

وَلَا يَحْرُمُ أَقْلٌ مِنْ خَمْسٍ رَضَعَاتٍ، لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُتْرِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يَحْرُمْنَ، ثُمَّ نُسِخَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ <sup>(٤)</sup>. وَفِي حَدِيثٍ سَهْلَةٌ بِنْتُ سَهْلٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا أَنْ تُرْضِعَ سَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ خَمْسَ رَضَعَاتٍ <sup>(٥)</sup>.

ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ الرِّضَاعَةُ فِي سِنِّ الصَّغَرِ دُونَ الْحَوْلَيْنِ. كَمَا قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿يُضَعْنَ بَنَاتُهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَتَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنكِحَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

[حُرْمَةُ أُمَّهَاتِ الزَّوْجَاتِ وَبَنَاتِهِنَّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، أَمَّا أُمُّ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهَا تُحْرَمُ بِمَجَرَّدِ الْعُقْدِ عَلَى ابْتِنَائِهَا، سَوَاءٌ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ، وَأَمَّا الرِّبِّيَّةُ، وَهِيَ بِنْتُ الْمَرْأَةِ، فَلَا تُحْرَمُ بِمَجَرَّدِ الْعُقْدِ عَلَى أُمِّهَا حَتَّى يَدْخُلَ بِهَا، فَإِنْ طَلَّقَ الْأُمَّ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا جَازَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنَتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِي تَزْوِيجِهِنَّ، فَهَذَا خَاصٌّ بِالرَّبَائِثِ وَخَدَهِنَّ.

(١) الطبري: ١٤٢/٨ (٢) الطبري: ١٤١/٨ (٣) فتح الباري:

٤٣/٩ ومسلم: ١٠٦٨/٢ (٤) مسلم: ١٠٧٥/٢ (٥) أبو

داود: ٥٥٠/٢

سَلَفٌ... الْآيَةُ. أَيُّ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ  
مَعَ فِي التَّرْوِيجِ، وَكَذَا فِي مِلْكِ الْيَمِينِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْكُمْ  
فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ فَقَدْ عَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَفَرْنَاهُ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ  
لَا مَثْوِيَّةٌ فِيهَا يُسْتَقْبَلُ وَلَا اسْتِثْنَاءٌ فِيهَا سَلَفٌ، كَمَا قَالَ:

﴿لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى﴾ [الدخان:

٥٦] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ أَبَدًا، وَقَدْ

أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ قَدِيمًا

وَحَدِيثًا عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ،

وَمَنْ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ أُخْتَانِ خَيْرٌ، فَيُمْسِكُ إِحْدَاهُمَا وَيُطَلِّقُ

الْأُخْرَى لَا مَحَالَةَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ

فَيْرُوزٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَسْلَمْتُ وَعِنْدِي امْرَأَتَانِ أُخْتَانِ،

فَأَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أُطَلِّقَ إِحْدَاهُمَا<sup>(٧)</sup>.

[تَحْرِيمُ الْمُحْصَنَاتِ إِلَّا إِذَا صِرَ مِلْكُ الْيَمِينِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ﴾ أَيُّ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمُ مِنَ الْأَجْنِيَّاتِ الْمُحْصَنَاتِ،

وَهُنَّ الْمُزَوَّجَاتُ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، يَعْنِي إِلَّا مَا

مَلَكَتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ فَإِنَّهُ يَحِلُّ لَكُمْ وَطُوهُنَّ إِذَا

اسْتَبْرَأْتُمُوهُنَّ، فَإِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ. وَرَوَى الْإِمَامُ

أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: أَصَبْنَا نِسَاءً مِنْ سَبْيِ

أَوْطَاسٍ، وَلَهُنَّ أَزْوَاجٌ، فَكَرِهْنَا أَنْ نَقَعَ عَلَيْهِنَّ وَلَهُنَّ

أَزْوَاجٌ، فَسَأَلْنَا النَّبِيَّ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ

مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فَاسْتَحْلَلْنَا بِهَا

فُرُوجَهُنَّ<sup>(٨)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(٩)</sup>، وَرَوَاهُ

النَّسَائِيُّ<sup>(١٠)</sup>، وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١١)</sup>، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي

صَحِيحِهِ<sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ﴾ أَيُّ هَذَا التَّحْرِيمُ

كِتَابُ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَالزُّمُوا كِتَابَهُ، وَلَا تَخْرُجُوا عَنْ

حُدُودِهِ، وَالزُّمُوا شَرْعَهُ وَمَا فَرَضَهُ.

[إِخْلَالُ نِكَاحٍ غَيْرٍ مِمَّنْ ذُكِرْنَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أَيُّ مَا عَدَا

مِنَ الرِّضَاعَةِ، أَرَضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثَوْبِيَّةً، فَلَا تَرْضَعَنَّ عَلَيَّ  
بَنَاتِكَ وَلَا أَخَوَاتِكَ<sup>(١)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «إِنِّي لَوْ  
لَمْ أَتَزَوَّجْ أُمَّ سَلَمَةَ مَا حَلَّتْ لِي»<sup>(٢)</sup>. فَجَعَلَ الْمَنَاطَ فِي  
التَّحْرِيمِ مُجَرَّدَ تَزْوِيجِهِ أُمَّ سَلَمَةَ، وَحَكَمَ بِالتَّحْرِيمِ لِذَلِكَ.

[تَفْسِيرُ الدُّخُولِ]

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أَيُّ نَكَحْتُمُوهُنَّ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ

عَطَاءٍ: هُوَ أَنْ تُهْدَى إِلَيْهِ فَيَكْشِفَ وَيُقَشِّشَ وَيَجْلِسَ بَيْنَ

رَجُلَيْهَا. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ أَهْلِهَا؟ قَالَ:

هُوَ سَوَاءٌ، وَحَسْبُهُ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ابْتِنَاهُ<sup>(٤)</sup>.

[تَحْرِيمُ زَوَاجَاتِ الْأَبْنَاءِ دُونَ زَوَاجَاتِ الْمُتَبَنَّى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾

أَيُّ وَحَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ زَوَاجَاتِ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ وَلَدْتُمُوهُنَّ مِنْ

أَصْلَابِكُمْ، يَخْتَرُ بِذَلِكَ عَنِ الْأَدْعِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَبَنُّوهُنَّ

فِي الْجَاهِلِيَّةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَ

زَوْجَهَا لَكُمْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ

أَدْعِيَاهُمْ... الْآيَةُ [الْأَحْزَابُ: ٣٧]، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:

سَأَلْتُ عَطَاءً عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ

أَصْلَابِكُمْ﴾. قَالَ: كُنَّا نَحَدِّثُ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

لَمَّا نَكَحَ امْرَأَةً زَيْدًا، قَالَ الْمُشْرِكُونَ بِمَكَّةَ فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾

وَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٤]،

وَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾

[الْأَحْزَابُ: ٤٠]<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ

مُحَمَّدٍ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مُبْهَمَاتٌ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾،

﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ طَاوُسٍ وَإِبْرَاهِيمَ

وَالزُّهْرِيِّ وَمَكْحُولٍ، نَحْوَ ذَلِكَ.

(قُلْتُ) مَعْنَى مُبْهَمَاتٍ أَيُّ عَامَّةٌ فِي الْمَدْخُولِ بِهَا وَغَيْرِ

الْمَدْخُولِ، فَتَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[شُبْهَةٌ وَجَوَائِزُهَا]

(فَإِنْ قِيلَ): فَمِنْ أَيْنَ تَحْرُمُ امْرَأَةُ ابْنِهِ مِنَ الرِّضَاعَةِ كَمَا هُوَ

قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْكِيهِ إِجْمَاعًا وَلَيْسَ مِنْ صُلْبِهِ،

(فَالْجَوَابُ) مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ

النِّسَبِ»<sup>(٦)</sup>.

[تَحْرِيمُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ

(١) فتح الباري: ٦٤/٩ ومسلم: ١٠٧٣/٢ (٢) فتح الباري:

٦٢/٩ (٣) الطبري: ١٤٨/٨ (٤) الطبري: ١٤٨/٨ (٥)

الطبري: ١٤٩/٨ (٦) مسلم: ١٠٧٢/٢ (٧) أحمد: ٤/

٢٣٢ (٨) أحمد: ٧٢/٣ (٩) تحفة الأحوذى: ٢٨٢/٤ (١٠)

النسائي في الكبرى: ٣٠٨/٣ (١١) الطبري: ١٥٣/٨ (١٢)

مسلم: ١٠٨٠/٢

بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّكُمْ كَوْنُكُمْ بِإِذْنِ أَهْلِيهِمْ وَآئِهِمْ  
أَجُورَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخَذَ  
فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِكَفٍّ فَحَسْبُ عَقَلَيْنِ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ  
مِنْ الْعَدَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَمَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ  
لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾

[جَوَازُ نِكَاحِ الْإِمَاءِ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ نِكَاحُ الْحَرَائِرِ]  
يَقُولُ تَعَالَى: وَمَنْ لَمْ يَجِدْ «مِنْكُمْ طَوْلًا» أَيُّ سَعَةٍ  
وَقُدْرَةٍ «أَنْ يَسْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» أَيُّ الْحَرَائِرِ  
الْعَفَائِفِ الْمُؤْمِنَاتِ «فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ  
الْمُؤْمِنَاتِ» أَيُّ فَتَرَوُجُوا مِنَ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّاتِي  
يَمْلِكُهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ  
بَعْضٍ» أَيُّ هُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَسَرَائِرِهَا، وَإِنَّمَا لَكُمْ  
أَيُّهَا النَّاسُ الظَّاهِرُ مِنَ الْأُمُورِ، ثُمَّ قَالَ: «فَأَنْكُحُوهُمْ بِإِذْنِ  
أَهْلِهِمْ» فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السَّيِّدَ هُوَ وَلِيُّ أُمِّهِ، لَا تَزُوجُ إِلَّا  
بِإِذْنِهِ، وَكَذَلِكَ هُوَ وَلِيُّ عَبْدِهِ، لَيْسَ لِعَبْدِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ  
إِذْنِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ  
مَوْلَاهُ فَهُوَ عَاهَرٌ»<sup>(١)</sup>، أَيُّ زَانٍ. فَإِنْ كَانَ مَالِكُ الْأُمَةِ امْرَأَةً  
زَوَّجَهَا مِنْ يَزُوجُ الْمَرْأَةَ، بِإِذْنِهَا؛ لِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:  
«لَا تَزُوجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ  
الَّتِي تَزُوجُ نَفْسَهَا»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَتَوْهُمْ أَجُورَهُمْ  
بِالْمَعْرُوفِ» أَيُّ وَادْفَعُوا مَهْرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، أَيُّ عَنْ طِيبِ  
نَفْسٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَبْخَسُوا مِنْهُ شَيْئًا اسْتِثْنَانَهُ بِهِمْ لِكُرْبِهِمْ  
إِمَاءَ مَمْلُوكَاتٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مُحْصَنَاتٍ» أَيُّ عَفَائِفَ عَنِ  
الزَّانَا، لَا يَتَعَاطِيهِنَّ، وَلِهَذَا قَالَ: «غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ» وَهُنَّ  
الزَّوَانِي اللَّاتِي لَا يَمْنَعْنَ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ - وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: «وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخَذْنَ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:  
الْمُسَافِحَاتُ هُنَّ الزَّوَانِي الْمُغْلَبَاتُ<sup>(٣)</sup>. يَعْنِي الزَّوَانِي  
الَّتِي لَا يَمْنَعْنَ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ وَمُنْجَذَبَاتٍ «أَخَذْنَ»  
يَعْنِي أَخْلَاءَ. وَكَذَا رُويَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمُجَاهِدٍ  
وَالشَّعْبِيِّ، وَالضَّحَّاكِ، وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَيَحْيَى بْنِ أَبِي  
كَثِيرٍ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيَّ، قَالُوا: أَخْلَاءُ<sup>(٤)</sup>.

(١) الطبري: ١٧٢/٨ (٢) الطبري: ١٧٦/٨-١٧٨ (٣)  
الطبري: ١٧٦/٨ (٤) فتح الباري: ٥٩٠/٩ ومسلم: ١٠٢٧/٢  
(٥) مسلم: ١٠٢٥/٢ (٦) الطبري: ١٨٠/٨ (٧) أبو داود:  
٥٦٣/٢ (٨) ابن ماجه: ٦٠٦/١ (٩) الطبري: ١٩٣/٨  
(١٠) الطبري: ١٩٤/٨

مَنْ ذُكِرَ مِنَ الْمَحَارِمِ، هُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ، قَالَهُ عَطَاءٌ  
وغيره<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ تَسْتَأْذِنُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنِينَ غَيْرَ  
مُسْفَحِينَ» أَيُّ تَحْصِلُوا بِأَمْوَالِكُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ إِلَى أَرْبَعِ،  
أَوْ السَّرَّارِي مَا شِئْتُمْ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ:  
«مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ  
مِنْهُنَّ فَاَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» أَيُّ كَمَا تَسْتَمْتَعُونَ بِهِنَّ  
فَاتَوْهُنَّ مَهْرَهُنَّ فِي مَقَابَلَةِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
«وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ»  
[النساء: ٢١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتٍ خُلَّةً»  
[النساء: ٤]، وَكَقَوْلِهِ: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا  
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا» [البقرة: ٢٢٩].

#### [بَيَانُ مَنَعَةِ النِّسَاءِ وَحُرْمَتِهَا]

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبِي بَنُ كَعْبٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ  
وَالسُّدِّيُّ يَقْرَءُونَ: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى  
فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً)<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي  
نِكَاحِ الْمُتَنَعَةِ<sup>(٣)</sup>. وَالْعُمْدَةُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ  
الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: قَالَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
عَنْ نِكَاحِ الْمُتَنَعَةِ، وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْبَرَ<sup>(٤)</sup>.  
وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ بْنِ مَعْبُدٍ الْجُهَنِيِّ،  
عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ:  
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي كُنْتُ أَذُنْتُ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ مِنَ  
النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ  
عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخْلِ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ  
شَيْئًا»<sup>(٥)</sup> وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَّيْتُمْ بِهِ  
مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» مَعْنَاهُ كَقَوْلِهِ: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتٍ  
خُلَّةً»... الْآيَةُ [النساء: ٤]، أَيُّ إِذَا فَرَضْتَ لَهَا صَدَاقًا  
فَأَبْرَأْتَكَ مِنْهُ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ وَلَا عَلَيْهَا  
فِي ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ، قَالَ: زَعَمَ الْحَضَرَمِيُّ: أَنَّ  
رَجُلًا كَانُوا يَقْرِضُونَ الْمَهْرَ، ثُمَّ عَسَى أَنْ يَذْرَكَ أَحَدُهُمُ  
الْعُسْرَةَ، فَقَالَ: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَتُّيَا النَّاسَ، فِيمَا  
تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ<sup>(٦)</sup>. يَعْنِي إِنْ وَضَعْتَ لَكَ مِنْهُ  
شَيْئًا فَهُوَ لَكَ سَائِعٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا  
حَكِيمًا» مُتَّاسِبٌ ذِكْرُ هَذَيْنِ الْوُضُفَيْنِ بَعْدَ شَرْعِ هَذِهِ  
الْمُحَرَّمَاتِ.

«وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ  
فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

[عَلَى الْأَمَةِ إِذَا رَزَتْ نِصْفَ عَذَابِ الْحُرَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتَ فَإِنَّ أَتَيْتَ بِفَحْشَى فَعَلَيْتَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِحْصَانِ هَهُنَا التَّرْوِيجُ، لِأَنَّ سِبَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَتِ الْمُؤْمِنَتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَتِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ سِبَاقُهَا كُلُّهَا فِي الْفَتَيَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتَ﴾ أَيْ تَرَوَّجْنِ، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَنْ تَبِعَهُ <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يُمكنُ تَنْصِيفُهُ، وَهُوَ: الْجُلْدُ لَا الرَّجْمُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أَيْ إِنَّمَا يُبَاحُ نِكَاحُ الْإِمَاءِ بِالشُّرُوطِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْوُفُوعَ فِي الزَّنا، وَشَقَّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَنِ الْجَمَاعِ، وَعَنَتَ بِسَبَبِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَحِينَئِذٍ يَتَزَوَّجُ بِالْأَمَةِ، وَإِنْ تَرَكَ تَزَوُّجَهَا وَجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي الْكُفِّ عَنِ الزَّنا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا جَاءَ أَوْلَادُهُ أَرْقَاءً لِسَيِّدِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُخَيِّرَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

ضَعِيفًا ﴿٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يَعْنِي طَرِيقَهُمْ الْحَمِيدَةَ وَاتِّبَاعَ شَرَائِعِهِ الَّتِي يُجِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ مِنَ الْإِثْمِ وَالْمَحَارِمِ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ أَيْ يُرِيدُ اتِّبَاعُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالزَّانَا أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ مِيلًا عَظِيمًا ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أَيْ فِي شَرَائِعِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَا يَقْدَرُهُ لَكُمْ، وَلِهَذَا أَبَاحَ الْإِمَاءَ بِشُرُوطِهِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ <sup>(٢)</sup>. ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ فَتَأَسَّ بِالتَّخْفِيفِ لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ وَضَعْفِ عَزْمِهِ وَهَمَّتِهِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ طَاوُسٍ، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠﴾ إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿١١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿١٣﴾

ضَعِيفًا﴾ أَيْ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ وَكِيعٌ: يَذْهَبُ عَقْلُهُ عِنْدَهُنَّ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠﴾ إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿١١﴾

[النَّهْيُ عَنِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ]

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْبَاطِلِ، أَيْ بِأَنْوَاعِ الْمَكْسَبِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ كَأَنْوَاعِ الرِّبَا وَالْقِمَارِ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ صُنُوفِ الْحِيلِ، وَإِنْ ظَهَرَتْ فِي غَالِبِ الْحُكْمِ

(١) الطبري: ٢٠٢/٨ (٢) الطبري: ٢١٥/٨ (٣) الطبري: ٨/٨



بِأَصْحَابِي صَلَاةَ الصُّبْحِ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ «يَا عَمْرُو، صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي اخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرْدِ، فَاشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ، فَصَحَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٦)</sup>. وَأُورِدَ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسِمْسَمٍ فَسِمْسَمُهُ فِي يَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ مُتَرَدٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»، وَهَذَا الْحَدِيثُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذَّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا أُنِى وَمَنْ يَتَعَاطَى مَا نَهَا اللَّهُ عَنْهُ مُعْتَدِيًا فِيهِ ظَالِمًا فِي تَعَاتِيهِ أُنِى عَالِمًا بِتَحْرِيمِهِ مُتَجَاسِرًا عَلَى انْتِهَاكِهِ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا... الْآيَةَ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، فَلْيَحْذَرِ مِنْهُ كُلُّ عَاقِلٍ لِيَبِىَّ مِمَّنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

### [تُكَفَّرُ الصَّغَائِرُ إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نَنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفَّرُ عَنْكُمْ سَغَائِرُكُمْ... الْآيَةَ، أُنِى إِذَا اجْتَنَبْتُمْ كَبَائِرَ الْأَنَامِ الَّتِي نَهَيْتُمْ عَنْهَا، كَفَرْنَا عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ وَأَدْخَلْنَاكُمْ الْجَنَّةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَلَنَذْكُرْ بَعْضًا مِنْهَا، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَدْرِي مَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ؟»

(١) الطبري: ٢١٧/٨ (٢) الطبري: ٢٢١/٨ (٣) فتح الباري: ٣٨٥/٤ ومسلم: ١١٦٣/٣ (٤) فتح الباري: ٣٩٠/٤ (٥) أحمد: ٢٠٣/٤، ٢٠٤ (٦) أبو داود: ٣٣٤ (٧) البخاري: ٥٧٧٨ ومسلم: ١٠٩ (٨) أحمد: ٣٣/٤

الشَّرْعِي مِمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّ مُتَعَاطِيَهَا إِنَّمَا يُرِيدُ الْحِيلَةَ عَلَى الرِّبَا، حَتَّى رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الرَّجُلِ يَشْتَرِي مِنَ الرَّجُلِ الثُّوبَ فَيَقُولُ: إِنْ رَضِيْتُهُ أَخَذْتُهُ، وَإِلَّا رَدَدْتُهُ وَرَدَدْتُ مَعَهُ دِرْهَمًا، قَالَ: هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَالطَّعَامُ هُوَ أَفْضَلُ أَمْوَالِنَا، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنَّا أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَكَيْفَ لِلنَّاسِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿لَيْسَ عَلَى الْآعْمَى حَرَجٌ... الْآيَةَ [النور: ٦١]، وَكَذَا قَالَ قِتَادَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ فَرِىءَ تِجَارَةً بِالرَّفْعِ وَبِالنَّصْبِ وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَتَعَاطَوْا الْأَسْبَابَ الْمُحَرَّمََةَ فِي اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ، وَلَكِنَّ الْمَتَاجِرَ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي تَكُونُ عَنْ تَرَاضٍ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَافْعَلُوهَا، وَتَسَبَّوْا بِهَا فِي تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ بَيْعًا أَوْ عَطَاءً يُعْطِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

### [خِيَارُ الْمَجْلِسِ فِي الْبَيْعِ مِنْ تَمَامِ التَّرَاضِي فِي التِّجَارَةِ]

وَمِنْ تَمَامِ التَّرَاضِي إِثْبَاتُ خِيَارِ الْمَجْلِسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَالٌ يَتَفَرَّقَا»<sup>(٣)</sup> وَفِي لَفْظِ الْبُخَارِيِّ: «إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَالٌ يَتَفَرَّقَا»<sup>(٤)</sup>.

### [النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أُنِى بِإِزْكَابِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَتَعَاتِيِ مَعَاصِيهِ، وَأَكْلِ أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أُنِى فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ، عَامَ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: اخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرْدِ، فَاشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ

النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، - أَوْ قَتْلُ النَّفْسِ، شُعْبَةُ الشَّاكِّ - وَالْيَمِينُ الْعَمُوسُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٧)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي السَّبَبِ إِلَى شَمِّ الْوَالِدَيْنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يُلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قَالُوا: وَكَيْفَ يُلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ» وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: صَحِيحٌ، وَبُتِيَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقَتَالُهُ كُفْرٌ»<sup>(٩)</sup>.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾<sup>(١٠)</sup>  
[التَّهْنِئَةُ عَنْ تَمَنِّي مَا فَضَّلَ بِهِ غَيْرُهُ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَارَسُولَ اللَّهِ، يَغْزَوُ الرِّجَالُ وَلَا نَغْزُو، وَلَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾<sup>(١١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أَيُّ كُلِّ لَهُ جِزَاءٌ عَلَى عَمَلِهِ بِحَسَبِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ فِي الْمِيرَاثِ، أَيُّ كُلِّ يَرِثُ بِحَسَبِهِ، رَوَاهُ الْوَالِئِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيُّ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَحْتُومٌ، وَالتَّمَنِّي لَا يُجْعِلُ شَيْئًا، وَلَكِنْ سُلُوبِي مِنْ فَضْلِي أُعْطِيكُمْ، فَإِنِّي كَرِيمٌ وَهَابٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الدُّنْيَا فَيُعْطِيهِ مِنْهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ فَيَقْفِرُهُ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْآخِرَةَ فَيَقْبِضُهَا لِعَمَالِهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَذْلَانَ فَيَخْذُلُهُ عَنْ تَعَاطِي الْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ،

(١) أحمد: ٤٣٩/٥ (٢) فتح الباري: ٤٦٢/٥ ومسلم: ١/٩٢ (٣) أحمد: ١٣١/٣ (٤) فتح الباري: ٤١٩/١٠ ومسلم: ٩١/١ (٥) فتح الباري: ٣٠٩/٥ ومسلم: ٩١/١ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١ (٧) أحمد: ٢٠١/٢ والبخاري: ٦٦٧٥ وتحفة الأحوذني: ٣٠٢١ والنسائي: ٦٣/٨ (٨) مسلم: ٩٠ (٩) البخاري: ٥٩٧٣ ومسلم: ٦٤ (١٠) أحمد: ٣٢٢/٦ (١١) تحفة الأحوذني: ٣٧٧، ٣٧٥/٨

قُلْتُ: هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ آبَاكُمْ، قَالَ: «لَكِنِّي أَذْرِي مَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ، لَا يَبْطَهُرُ الرَّجُلُ فَيُحْسِنُ طَهْرَهُ، ثُمَّ يَأْتِي الْجُمُعَةَ فَيَنْصِبُ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ صَلَاتَهُ إِلَّا كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، مَا اجْتَنِبْتَ الْمَقْتَلَةَ»<sup>(١٣)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ نَحْوَهُ.

### [السَّبَبُ الْمَوْبِقَاتُ]

(تَفْسِيرُ هَذِهِ السَّبَبِ) وَذَلِكَ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبَبَ الْمَوْبِقَاتِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْمَةِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»<sup>(١٤)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ، فِيهِ ذِكْرُ شَهَادَةِ الزُّورِ): رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكَبَائِرَ، أَوْ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ، فَقَالَ: «الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَقَالَ: «أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ - أَوْ شَهَادَةُ الزُّورِ -» قَالَ شُعْبَةُ: أَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ: «شَهَادَةُ الزُّورِ»<sup>(١٥)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ<sup>(١٦)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَارَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَكِنًا، فَجَلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ» فَمَارَالَ يَكْرَرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ<sup>(١٧)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ فِيهِ ذِكْرُ قَتْلِ الْوَلَدِ) وَهُوَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ - وَفِي رِوَايَةٍ -: أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ»<sup>(١٨)</sup> ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

(حَدِيثٌ آخَرُ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَفِيهِ ذِكْرُ الْيَمِينِ الْعَمُوسِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ وَغَيْرُهُمْ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ أَيَّ وَرَثَةٍ (١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ: أَيُّ عَصَبَةٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ تَسْمِي ابْنَ الْعَمِّ مَوْلَىٰ.

قَالَ: وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، مِنْ تَرِكَةِ الْوَالِدِيَّةِ وَأَقْرَبِيَّةِ مِنَ الْمِيرَاثِ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَلِكُلِّكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - جَعَلْنَا عَصَبَةَ يَرِثُونَهُ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَاءُ وَأَقْرَبُوهُ مِنْ مِيرَاثِهِمْ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أَيُّ وَالَّذِينَ تَحَالَفْتُمْ بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ أَنْتُمْ وَهُمْ، فَاتُّوهُمْ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ، كَمَا وَعَدْتُمُوهُمْ فِي الْإِيمَانِ الْمُعْلَظَةِ، إِنْ اللَّهُ شَهِدَ بَيْنَكُمْ فِي تِلْكَ الْعُهُودِ وَالْمُعَاقِدَاتِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأُمِرُوا أَنْ يُوفُوا لِمَنْ عَاقَدُوا، وَلَا يُنْشِئُوا بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مُعَاقِدَةً. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ قَالَ: وَرَثَتُهُ، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرِيُّ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ، لِأَخْوَةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ نُسِخَتْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالرَّقَادَةِ وَالنَّصِيْبَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ، وَيُوصَىٰ لَهُ (٢).

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَاقْنَبْتُ قَيْنَتُكَ حَفِظْتُكَ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ شَوْهَرَهُمْ يَفْعَلُوهُمْ وَهَاجِرُهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَاصْرُبُوهُمْ فَإِنْ أَعْطَاكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَ سَبِيلًا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَيَا كَبِيرًا﴾ (٣٤)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أَيُّ الرَّجُلُ قِيمٌ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَهُوَ رَئِيسُهَا وَكَبِيرُهَا وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا وَمُؤَدِّبُهَا إِذَا اغْوَجَتْ، ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أَيُّ لِأَنَّ الرِّجَالَ أَفْضَلُ مِنَ النِّسَاءِ، وَالرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ. وَلِهَذَا كَانَتِ النُّبُوَّةُ مُخْتَصَّةً بِالرِّجَالِ، وَكَذَلِكَ

الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ لِقَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يُفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣). وَكَذَا مَنْصِبُ الْقَضَاءِ وَغَيْرُ ذَلِكَ، «وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» أَيُّ مِنَ الْمُهْرِ وَالنِّقَاقَاتِ وَالْكَلْفِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَهُنَّ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَالرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهِ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَيْهَا وَالْإِفْضَالُ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ قِيمًا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَ دَرَجَةً﴾ ... الْآيَةُ [البقرة: ٢٢٨].

### [عَلَامَةُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ أَيُّ مِنَ النِّسَاءِ «قَيْنَتُكَ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي: مُطِيعَاتُ الْأَزْوَاجِ (٤). «حَفِظْتُكَ لِلْغَيْبِ» وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: أَيُّ تَحْفَظُ زَوْجَهَا فِي غَيْبِهِ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أَيُّ الْمَحْفُوظُ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ (٥). رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ إِذَا تَنَظَّرَتْ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرَتْهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَبَتْ عَنْهَا حَفِظْتَكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكَ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إِلَى آخِرِهَا (٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الْأَبْوَابِ شِئْتَ» (٧).

### [النُّشُورُ وَعِلَاجُهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ شَوْهَرَهُمْ﴾ أَيُّ وَالنِّسَاءُ اللَّاتِي تَتَخَوَّفُونَ أَنْ يَنْشُرْنَ عَلَى الْأَزْوَاجِ، وَالنُّشُورُ هُوَ الْإِزْتِفَاعُ، فَالْمَرْأَةُ النَّاشِرُ هِيَ الْمُزْتَفِعَةُ عَلَى زَوْجِهَا، التَّارِكَةُ لِأَمْرِهِ، الْمُعْرِضَةُ عَنْهُ، الْمُبْعِضَةُ لَهُ، فَتَمَّتْ ظَهَرَ لَهُ مِنْهَا أَمَارَاتُ النُّشُورِ فَلْيَعِظْهَا وَلْيَخَوْفْهَا عِقَابَ اللَّهِ فِي

(١) الطبري: ٢٧١، ٢٧٠/٨ (٢) فتح الباري: ٩٦/٨ (٣) فتح الباري: ٧٣٢/٧ (٤) الطبري: ٢٩٤/٨ (٥) الطبري: ٨/٢٩٥ (٦) الطبري: ٢٩٥/٨ إسناده ضعيف: فيه أبو معشر نجيع ابن عبد الرحمن المدني مولى بني هاشم قال البخاري: منكر الحديث [التاريخ الكبير ١١٤/٨] وكان يحدث عن نافع والمقبري بأحاديث منكورة وله طريق آخر عند أحمد ٥١/٢ والسنن الكبرى للنسائي (٨٩٦١) والمستدرک للحاكم ٣/١٦٢، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. (٧) أحمد: ١٩١/١ قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده منقطع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٤

سُورَةُ النِّسَاءِ

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ  
عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَصْرَبَتْ  
قَلِيلٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ  
شُرُوهُنَّ فِعْظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ  
وَأَصْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٢٥﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ  
بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ  
يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا  
﴿٢٥﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ  
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ  
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ  
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ  
كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ  
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ  
مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٢٧﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ  
أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا  
حَكِيمًا﴾ ﴿٢٥﴾

[تَحْكِيمُ حَكَمَيْنِ عِنْدَ خَوْفِ الشَّقَاقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ]  
ذَكَرَ الْحَالِ الْأَوَّلَ وَهُوَ إِذَا كَانَ التُّقُورُ وَالتُّشُورُ مِنْ  
الزَّوْجَةِ. ثُمَّ ذَكَرَ الْحَالِ الثَّانِيَّ وَهُوَ إِذَا كَانَ التُّقُورُ مِنْ  
الزَّوْجَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا  
حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وَقَالَ الْفَقْهَاءُ: إِذَا وَقَعَ  
الشَّقَاقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أَسْكَنَهُمَا الْحَاكِمُ إِلَى جَنْبِ ثِقَّةٍ يَنْظُرُ  
فِي أَمْرِهِمَا، وَيَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنْهُمَا مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنْ تَقَامَ  
أَمْرُهُمَا وَطَالَتْ حُضُورَتُهُمَا، بَعَثَ الْحَاكِمُ ثِقَّةً مِنْ أَهْلِ

عِصْيَانِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ حَقَّ الزَّوْجِ عَلَيْهَا وَطَاعَتَهُ،  
وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَعْصِيَتَهُ، لِمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَضْلِ  
وَالْإِفْضَالِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا  
أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا  
مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَعَا  
الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ  
حَتَّى تُصْبِحَ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَلَفْظُهُ: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ  
هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»<sup>(٣)</sup>.  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ شُرُوهُنَّ فِعْظُوهُنَّ  
وَقُولُهُنَّ﴾ «وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْهَجْرُ هُوَ أَنْ لَا يُجَامِعَهَا. وَيُضَاجِعُهَا  
عَلَى فِرَاشِهَا وَيُؤَلِّقُهَا ظَهْرَهُ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ.  
وَرَادَ آخَرُونَ مِنْهُمْ السَّدْيُ وَالضَّحَاكُ وَعَكْرَمَةُ وَابْنُ  
عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ: وَلَا يُكَلِّمَهَا مَعَ ذَلِكَ وَلَا يُحْدِثُهَا<sup>(٥)</sup>.  
وَفِي الشُّنَنِ وَالْمُسْنَدِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَنْدَةَ الْقُشَيْرِيِّ أَنَّهُ  
قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ امْرَأَةٍ أَحَدِنَا؟ قَالَ: «أَنْ  
تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تُضْرِبَ  
الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ:  
﴿وَأَصْرِبُوهُنَّ﴾، أَيُّ إِذَا لَمْ يَزِدْنَ بِالْمَوْعِظَةِ وَلَا  
بِالْهَجْرَانِ، فَلَكُمْ أَنْ تُضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، كَمَا  
ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ  
فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ  
عَوَانٍ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا  
تَكْرَهُنَّ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ،  
وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ  
ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ<sup>(٨)</sup>. قَالَ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي غَيْرَ مُؤَثِّرٍ<sup>(٩)</sup>.

[لَا سَبِيلَ عَلَى الْمَرْأَةِ إِذَا أَطَاعَتْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ  
سَبِيلًا﴾ أَيُّ إِذَا أَطَاعَتِ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي جَمِيعِ مَا  
يُرِيدُ مِنْهَا مِمَّا أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْهَا، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا  
بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُ ضَرْبُهَا وَلَا هَجْرَانُهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ  
اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تَهْدِيدٌ لِلرِّجَالِ إِذَا بَغَوْا عَلَى  
النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، فَإِنَّ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْكَبِيرَ وَلِيَّهُنَّ،  
وَهُوَ يَنْتَقِمُ مِمَّنْ ظَلَمَهُنَّ وَبَغَى عَلَيْهِنَّ.

(١) تحفة الأحوذى: ٣٢٣/٤ (٢) فتح الباري: ٢٠٥/٩ (٣)  
مسلم: ١٠٥٩/٢ (٤) الطبري: ٣٠٢/٨ (٥) الطبري: ٨/  
٣٠٢-٣٠٤ (٦) أبو داود: ٦٠٦/٢ والنسائي في الكبرى: ٥/  
٣٧٥ وابن ماجه: ٥٩٣/١ وأحمد: ٣/٥ (٧) مسلم: ٨٨٦/٨  
(٨) الطبري: ٣١٤/٨ (٩) الطبري: ٣١٦/٨

[١٤]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَفَضَىٰ رُبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقُرَابَاتِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمُسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّجْمِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ»<sup>(٣)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْيَسْتَعَىٰ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا مَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ، وَمَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْحَنُوءِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْمُسْكِينِ﴾ وَهُمْ الْمُحَاطِبُ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَقُومُ بِكَفَايَتِهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمُسَاعَدَتِهِمْ بِمَا تَنَبَّهَ بِهِ كِفَايَتُهُمْ، وَتَرَوُلُ بِهِ ضُرُورَتُهُمْ، وَسَيَّاتِي الْكَلَامِ عَلَى الْفَقِيرِ وَالْمُسْكِينِ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ.

### [حَقُّ الْجَارِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ»، يَعْنِي الَّذِي يَتَنَكَّ وَيَتَنَبَّهُ قَرَابَةً<sup>(٤)</sup>. «وَالْجَارِ الْجُنُبِ» الَّذِي لَيْسَ يَتَنَكَّ وَيَتَنَبَّهُ قَرَابَةً<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَمَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ وَالضَّحَّاكِ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ وَقَتَادَةَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: «وَالْجَارِ الْجُنُبِ» يَعْنِي الرَّفِيقَ فِي السَّفَرِ<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالْوَصَايَا بِالْجَارِ، فَتَذَكَّرْ بَعْضًا مِنْهَا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَارَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُثُهُ»<sup>(٨)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٩)</sup>.

(الْحَدِيثُ الثَّانِي) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَارَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُثُهُ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ<sup>(١١)</sup>.

(الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ) رَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

الْمَرْأَةِ، وَثِقَةً مِنْ قَوْمِ الرَّجُلِ، لِيَجْتَمِعَا، فَيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا، وَيَقْعَلَا مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ مِمَّا يَرَيَانِهِ مِنَ التَّفْرِيقِ أَوْ التَّوْفِيقِ، وَتَشَوُّفِ الشَّارِعِ إِلَى التَّوْفِيقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثُوا رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَهْلِ الرَّجُلِ، وَرَجُلًا مِثْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ، فَيَنْظُرَا فِيهِمَا الْمُسِيءَ، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ هُوَ الْمُسِيءَ حَجَبُوا عَنْهُ امْرَأَتَهُ، وَفَضَرُوهُ عَلَى النَّفَقَةِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ هِيَ الْمُسِيءَةَ، فَضَرَوْهَا عَلَى زَوْجِهَا، وَمَنْعَوْهَا النَّفَقَةَ، فَإِنْ اجْتَمَعَ رَأْيُهُمَا عَلَى أَنْ يُفَرَّقَا أَوْ يَجْمَعَا، فَأَمَرُهُمَا بِجَائِزٍ، فَإِنْ رَأَيَا أَنْ يَجْمَعَا فَرَضِي أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ وَكَرِهَ ذَلِكَ الْآخَرُ، ثُمَّ مَاتَ أَحَدُهُمَا، فَإِنَّ الَّذِي رَضِيَ يَرِثُ الَّذِي كَرِهَ وَلَا يَرِثُ الْكَارِهَ الرَّاضِي<sup>(١٢)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْحَكَمَيْنِ إِذَا اخْتَلَفَ قَوْلُهُمَا فَلَا غَيْرَ بِقَوْلِ الْآخِرِ. وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ قَوْلَهُمَا نَافِذٌ فِي الْجَمْعِ وَإِنْ لَمْ يُوَكِّلْهُمَا الزَّوْجَانِ. وَاخْتَلَفُوا هَلْ يَنْفَذُ قَوْلُهُمَا فِي التَّفْرِيقِ، ثُمَّ حَكَى عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يَنْفَذُ قَوْلُهُمَا فِيهَا أَيْضًا مِنْ غَيْرِ تَوْكِيلٍ.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَيَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمُسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

[الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَغَيْرِهِمْ]

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ الْأَنَابِ وَالْحَالَاتِ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوحِّدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»<sup>(١٣)</sup> ثُمَّ أَوْصَى بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَهُمَا سَبَبًا لِخُرُوجِكَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الوجودِ وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ عِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان:

(١) الطبري: ٣٢٥/٨ (٢) فتح الباري: ٣٥٩/١٣ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٢٤/٣ (٤) الطبري: ٣٣٥/٨ (٥) الطبري: ٨/٣٣٨ (٦) الطبري: ٣٣٦، ٣٣٥/٨ (٧) الطبري: ٨/٣٤١ (٨) أحمد: ٨٥/٢ (٩) فتح الباري: ٤٥٥/١٠ ومسلم: ٢٠٢٥/٤ (١٠) أحمد: ١٦٠/٢ (١١) أبو داود: ٣٥٧/٥ وتحفة الأحوذى: ٧٣، ٧٢/٦

النَّسَائِيَّ<sup>(٨)</sup>، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ لِقَهْرْمَانَ لَهُ: هَلْ أُعْطِيتَ الرَّفِيقَ قُوتَهُمْ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَأَنْطَلِقُ فَأُعْطِيَهُمْ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْسِبَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُمْ»<sup>(٩)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ، وَلَا يَكْلَفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ»<sup>(١٠)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيَأْوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيَّ حَرِّهِ وَعِلَاجُهُ»<sup>(١١)</sup>. وَلَفْظُهُ لِلْبَخَارِيِّ.

[إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، أَيْ مُخْتَالًا فِي نَفْسِهِ، مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا فَخُورًا عَلَى النَّاسِ، يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ قَلِيلٌ، وَعِنْدَ النَّاسِ بَعْضٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ يَغْنِي مُتَكَبِّرًا ﴿فَخُورًا﴾ يَغْنِي يَعُدُّ مَا أُعْطِيَ، وَهُوَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى<sup>(١٢)</sup>. يَغْنِي يَقْفِرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نِعَمِهِ، وَهُوَ قَلِيلُ الشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَقِيدِ أَبِي رَجَاءٍ الْهَرَوِيِّ، قَالَ: لَا تَجِدُ سَيِّئَ الْمَلَكَةِ إِلَّا وَجَدْتُهُ مُخْتَالًا فَخُورًا، وَتَلَا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ... الْآيَةَ، وَلَا عَاقًا إِلَّا وَجَدْتُهُ جَبَّارًا شَقِيًّا، وَتَلَا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ [بَلْهَجِيمَ]، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ»<sup>(١٣)</sup>.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا

عَمَرُوا بَيْنَ الْعَاصِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِحَارِهِ»<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(١٥)</sup>.

(الْحَدِيثُ الرَّابِعُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزَّانَا؟» قَالُوا: حَرَامٌ، حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرٍ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةٍ جَارِهِ»، قَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي السَّرْقَةِ؟» قَالُوا: حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ آيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»<sup>(١٦)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»<sup>(١٧)</sup>.

(الْحَدِيثُ الْخَامِسُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنْ لِي جَارَتَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أَهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا»، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(١٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ قَالَا: هِيَ الْمَرْأَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ: هُوَ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الرَّفِيقُ الصَّالِحُ. وَأَمَّا ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ: هُوَ الضَّيْفُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَالْحَسَنُ، وَالضُّحَّاكُ وَمُقَاتِلٌ: هُوَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْكَ مُجْتَازًا فِي السَّفَرِ وَهَذَا أَظْهَرُ. وَبِاللَّهِ التَّوَكُّلُ.

[الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَمْلُوكِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وَصِيَّةٌ بِالْأَرْقَاءِ، لِأَنَّ الرَّفِيقَ ضَعِيفَ الْحِيلَةِ، أَسِيرٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَلِهَذَا ثَبِتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ بُوصِي أُمَّتِهِ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ، يَقُولُ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فَجَعَلَ يَرُدُّهَا حَتَّى مَا يَقْبِضُ بِهَا لِسَانَهُ<sup>(١٩)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ»<sup>(٢٠)</sup> وَرَوَاهُ

(١) أحمد: ١٦٧/٢ (٢) تحفة الأحوذى: ٧٥/٦ (٣) أحمد:

٨/٦ (٤) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١ (٥) أحمد:

١٧٥/٦ والبخاري: ٦٠٢٠ (٦) النسائي في الكبرى: ٢٥٨/٤

فيه تدليس قتادة ولم يصرح (٧) أحمد: ١٣١/٤ (٨) النسائي

في الكبرى: ٣٧٦/٥ (٩) مسلم: ٦٩٢/٢ (١٠) مسلم: ٣/

١٢٨٤ (١١) فتح الباري: ٢١٤/٥ ومسلم: ١٢٨٤/٣ (١٢)

الطبري: ٣٥٠/٨ (١٣) أحمد: ٦٤/٥ ابن أبي حاتم (٥٣١٤)

٩٥١/٣

سُورَةُ النِّسَاءِ

٨٥

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ  
بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ  
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا  
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنْ اللهُ لَا يَظْلِمُ  
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ  
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ  
وَجِئْنَاكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ  
كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ  
اللهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ  
وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي  
سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرِحَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ  
أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمْ تَجِدُوا مَاءً فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً  
فَتَمَسَّمُوا أَوْ لَطَمُوا أَوْ فَمَسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ  
اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ  
الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

وَالْغَايَةِ، وَالْمُتَّقِ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ: «يَقُولُ صَاحِبُ  
الْمَالِ: مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِي  
سَبِيلِكَ، يَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ: جَوَادٌ،  
فَقَدْ قِيلَ: أَيْ فَقَدْ أَخَذْتَ جَزَاءَكَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي  
أَرَدْتُ بِفِعْلِكَ» (٤). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا  
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»... الآية، أَيْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ  
هَذَا الْقَبِيحَ، وَعُدُولِهِمْ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ عَلَى وَجْهِهَا  
الشَّيْطَانُ، فَإِنَّهُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، وَقَارَنَهُمْ، فَحَسَنَ  
لَهُمُ الْقَبَائِحَ: «وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا»  
[النساء: ٣٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ» الآية، أَيْ وَآيُ شَيْءٍ يَضُرُّهُمْ لَوْ  
آمَنُوا بِاللهِ وَسَلَكُوا الطَّرِيقَ الْحَمِيدَةَ، وَعَدَلُوا عَنِ الرِّيَاءِ إِلَى

ءَاتَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾  
وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا  
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا  
عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ  
اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

[دَمُّ الْبُخْلِ]

يَقُولُ تَعَالَى دَامًا الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ أَنْ يُنْفِقُوهَا  
فِيمَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى  
الْأَقَارِبِ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى،  
وَالْجَارِ الْجُنُبِ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا  
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْأَرْقَاءِ، وَلَا يَذْفَعُونَ حَقَّ اللهِ فِيهَا،  
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ أَيْضًا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:  
«وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ» (١). وَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ، فَإِنَّهُ  
أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَلْبُكُمْ، أَمَرَهُمُ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَّعُوا، وَأَمَرَهُمُ  
بِالْفَجْرِ فَحَجَّرُوا» (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ»  
فَالْبُخْلُ جُحُودٌ لِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ، لَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ وَلَا تَبِينُ، لَا  
فِي مَأْكَلِهِ وَلَا فِي مَلْبَسِهِ وَلَا فِي إِعْطَائِهِ وَبَذْلِهِ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ» (١) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لِشَهِيدٌ  
أَيُّ بِحَالِهِ وَسَمَائِلِهِ «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» [العاديات:  
٦-٨] وَقَالَ هَهُنَا: «وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ»  
وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: «وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا»  
وَالْكَفَرُ هُوَ السُّتْرُ وَالتَّعَطُّيَةُ، فَالْبُخْلُ يَسْتُرُ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ  
وَيَكْتُمُهَا وَيَجْحَدُهَا، فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعْمِ اللهِ عَلَيْهِ، وَفِي  
الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ  
أَثَرُهَا عَلَيْهِ» (٣). وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى  
بُخْلِ الْيَهُودِ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ الَّذِي عِنْدَهُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ  
وَكِتْمَانِهِمْ ذَلِكَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ مُحْتَمِلَةٌ لِذَلِكَ،  
وَالظَّاهِرُ أَنَّ السِّيَاقَ فِي الْبُخْلِ بِالْمَالِ، وَإِنْ كَانَ الْبُخْلُ  
بِالْعِلْمِ دَاخِلًا فِي ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى، فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ  
فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الْأَقَارِبِ وَالضَّعَفَاءِ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي  
بَعْدَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: «وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ»  
فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُؤْمِسِّينَ الْمَذْمُومِينَ وَهُمْ الْبُخْلَاءُ، ثُمَّ ذَكَرَ  
الْبَازِلِينَ الْمُرَائِينَ الَّذِينَ يَقْصِدُونَ بِإِعْطَائِهِمُ السَّمْعَةَ وَأَنْ  
يُمدَّحُوا بِالْكَرَمِ، وَلَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ. وَفِي حَدِيثِ  
الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ وَهُمْ: الْعَالِمُ،

(١) الأدب المفرد: ٨٣ (٢) أبو داود: ٣٢٤/٢ (٣) الطبراني  
الكبير: ١٣٥/١٨ الصحيحة ١٣٢٠، ١٢٩٠/٣. (٤) النسائي: ٢٤/٦

الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَاصًّا بِأَبِي طَالِبٍ مِنْ دُونِ الْكُفَّارِ بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يَنَابُ عَلَيْهِ الرِّزْقُ فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ»<sup>(٣)</sup>.

### [مَعْنَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ]

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَعِزْرَةُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: «وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا»: يَعْنِي الْجَنَّةَ، نَسَأَلَ اللَّهُ رِضَاهُ وَالْجَنَّةَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ مُجَالَسَةً مِنِّي لِأَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَدِمَ قَبْلِي حَاجًّا وَقَدِمْتُ بَعْدَهُ، فَإِذَا أَهْلُ الْبَصْرَةِ يَأْتِرُونَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الْحَسَنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ» فَقُلْتُ: وَيَحْكُمُ مَا كَانَ أَحَدٌ أَكْثَرَ مُجَالَسَةً مِنِّي لِأَبِي هُرَيْرَةَ، وَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَلْحَقَهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ انْطَلَقَ حَاجًّا، فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى الْحَجِّ أَنْ أَلْقَاهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، سَمِعْتُ إِخْوَانِي بِالْبَصْرَةِ يُزْعَمُونَ أَنَّكَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللَّهِ بَلْ سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفِي أَلْفِ حَسَنَةٍ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: «فَمَا مَتَّعَ الْحِكْمَةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» [التوبة: ٣٨].

[شَهَادَةُ نَبِيَّنَا ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَمْنِي الْكُفَّارِ

### الْمَوْتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ وَالْحَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشَّهَادَةِ»... [الزمر: ٦٩]؛ وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ

الْإِخْلَاصِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَجَاءِ مَوْعُودِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِمَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا، وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا» أَيُّ وَهُوَ عَلِيمٌ بِشَيَاتِهِمُ الصَّالِحَةِ وَالْفَاسِدَةِ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّوْفِيقَ مِنْهُمْ فَيُوفِّقُهُ، وَبِلَهْمِهِ رُشْدَهُ، وَيَقِيضُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ يَرْضَى بِهِ عَنْهُ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخُذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنِ الْجَنَابِ الْأَعْظَمِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَنْ طُرِدَ عَنْ بَابِهِ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾<sup>(٤)</sup> فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا<sup>(٥)</sup> يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ

### حَدِيثًا<sup>(٦)</sup>]

### [لَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ: لَا يَظْلِمُ عَدَدًا مِنْ عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، بَلْ يُؤْفِقُهَا لَهُ، وَيُضَاعِفُهَا لَهُ إِنْ كَانَتْ حَسَنَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ...» [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ لُقْمَانَ أَنَّهُ قَالَ: «يَبْنَىٰ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ»... [الآية: لقمان: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: «يَوْمَئِذٍ يُصَدِّرُ النَّاسَ أَشْنَانًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ<sup>(٧)</sup>» فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ<sup>(٨)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٩)</sup> [الزلزلة: ٦-٨] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ، وَفِيهِ: «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ» وَفِي لَفْظٍ: «أَذْنَىٰ أَذْنَىٰ أَذْنَىٰ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو سَعِيدٍ: إِفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»... [الآية: ١].

### [هَلْ يُخَفِّفُ الْعَذَابَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ]

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: «وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا» فَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيُخَفَّفُ عَنْهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ أَبَدًا. وَقَدْ اسْتَدِلَّ لَهُ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ الْعَبَّاسَ قَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَمَكَ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْصُرُكَ، فَهَلْ نَفَعْتُهُ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ هُوَ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ

(١) فتح الباري: ٤١٣/١٣ ومسلم: ١٦٧/١ (٢) البخاري:

٣٨٨٣ و٦٢٠٨ ومسلم: ٢٠٩ (٣) مسند الطيالسي: ٤٧ ومسلم:



أَنْفُسِهِمْ... الآية [النحل: ٨٩] وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، افْرَأْ عَلَيَّ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» فَقَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا أَيُّ لَوْ أَنْشَقْتُ وَبَلَعْتُهُمْ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ أَهْوَالِ الْمُؤَقِفِ وَمَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْفُضِيحَةِ وَالتَّوْبِيخِ، كَقَوْلِهِ: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ»... الآية [النبا: ٤٠]، وَقَوْلُهُ: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَغْتَرِفُونَ بِجَمِيعِ مَا فَعَلُوهُ، وَلَا يَكْتُمُونَ مِنْهُ شَيْئًا. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: أَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: مَا هُوَ؟ أَشْكُ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: لَيْسَ هُوَ بِالشُّكِّ، وَلَكِنْ اخْتِلَافٌ قَالَ: فَهَاتِ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: أَسْمَعُ اللَّهَ يَقُولُ: «ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣] وَقَالَ: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» فَقَدْ كَتَمُوا. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَّا قَوْلُهُ: «ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣] فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَلَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَلَا يَغْفِرُ شِرْكًَا جَحَدَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالُوا: «وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣] رَجَاءً أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، فَحَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتَكَلَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ: «يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا»<sup>(٢)</sup>.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْجِعًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا»<sup>(٣)</sup>

فُرْبَانٍ وَمَحَالَّهَا - الَّتِي هِيَ الْمَسَاجِدُ - لِلْجُنُبِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مُكْثٍ، وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَسْتَلْزِمُكَ عَرَبُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ»... الآية [البقرة: ٢١٩] فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَاهَا عَلَى عُمَرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَلَاهَا عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا. فَكَانُوا لَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْكَامُ يَجِسُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ» [المائدة: ٩٠، ٩١] فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا<sup>(٤)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: فَتَزَلَّتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» فَكَانَ مُتَاوِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَتِ الصَّلَاةُ يُتَادِي: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سُكَرَانُ<sup>(٥)</sup>. لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ. وَذَكَرُوا فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ سَعِيدٍ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ، صَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا فَدَعَا أَنَسًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَأَنَسًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَأَكَلْنَا وَشَرَبْنَا حَتَّى سَكَرْنَا، ثُمَّ افْتَحَرْنَا، فَرَفَعَ رَجُلٌ لَحْيَ بَعِيرٍ فَفَزَرَ بِهِ أَنْفَ سَعِيدٍ، فَكَانَ سَعِيدٌ مَفْرُورَ الْأَنْفِ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، فَتَزَلَّتْ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى»<sup>(٦)</sup>. الآية، وَالْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ عِنْدَ مُسْلِمٍ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ<sup>(٨)</sup>.

(سَبَبُ آخَرٍ) رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ، فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُوا فَلَانَا، قَالَ: فَقَرَأَ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَتَحَنَّنْتُ تَعَبُّدًا مَا تَعْبُدُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ»<sup>(٩)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَكَذَا رَوَاهُ

(١) فتح الباري: ٧١٢/٨ (٢) عبد الرزاق: ١٦٠/١ (٣) أحمد: ٥٣/١ (٤) أبو داود: ٨٠/٤ (٥) مسند الطيالسي: ٢٨ (٦) مسلم: ١٨٧٨/٤ (٧) أبو داود: ١٧٧٣ وتحفة الأحوذني: ٤٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦ (٨) الطبري: ٣٧٨/٨

النَّهْيُ عَنْ اقْتِرَابِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ وَالْجَنَابَةِ  
يُنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِي  
حَالِ السُّكْرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ الْمُصَلِّي مَا يَقُولُ، وَعَنْ

وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

### [بَيَانُ التَّيْمُمِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاطِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أَمَّا الْمَرَضُ الْمُسَبِّحُ لِلتَّيْمُمِ، فَهُوَ الَّذِي يُخَافُ مَعَهُ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، فَوَاتَ غُضْبٌ أَوْ شَيْئُهُ أَوْ تَطْوِيلُ الْبُرَّةِ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ جَوَّزَ التَّيْمُمَ بِمَجَرَّدِ الْمَرَضِ، لِعُمُومِ الْآيَةِ. وَالسَّفَرُ مَعْرُوفٌ، وَلَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الطَّوِيلِ وَالْقَصِيرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاطِطِ﴾ الْغَائِطُ: هُوَ الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ، كُنِيَ بِذَلِكَ عَنِ التَّغَوُّطِ، وَهُوَ الْحَدَثُ الْأَصْغَرُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فَقَرِئَ (لَمَسْتُمْ) وَ(لَا مَسْتُمْ)، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْنَ مَا وَلَّيْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قَالَ: الْجَمَاعُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ وَالْحَسَنِ وَعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيِّ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلَ بْنَ حَبَّانٍ، نَحْوُ ذَلِكَ<sup>(١٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا مُعْتَزِلًا لَمْ يُصَلِّ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ، أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؟» قَالَ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَلَكِنْ أَصَابَنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ»<sup>(١٤)</sup>. وَالتَّيْمُمُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْقَصْدُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَيَمَّمَكَ اللَّهُ بِحِفْظِهِ، أَيْ قَصَدَكَ. وَالصَّعِيدُ هُوَ التُّرَابُ فَقَطْ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠] أَيْ تُرَابًا أَمْلَسَ طَيِّبًا، وَلَمَّا ثَبَّتَ فِي

التُّرْمُذِيِّ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هَذَا أَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي حَدِّ السَّكَرَانِ أَنَّهُ الَّذِي لَا يَذَرِي مَا يَقُولُ، فَإِنَّ الْمَخْمُورَ فِيهِ تَخْلِيطٌ فِي الْفِرَاقَةِ وَعَدَمٌ تَذَبُّرُهُ وَخُشُوعِهِ فِيهَا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَنْصَرِفْ فَلْيَنْمَ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ»<sup>(٢)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ هُوَ وَالسَّائِي<sup>(٤)</sup>. وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ: «فَلَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَنْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قَالَ: لَا تَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ وَأَنْتُمْ جُنُبٌ، إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ، قَالَ: تَمُرُّ بِهِ مَرًّا، وَلَا تَحِلُّسٍ<sup>(٦)</sup>. ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَأَبِي الضُّحَى، وَعَطَاءٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَمَسْرُوقٍ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَالْحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ، وَعِكْرَمَةَ، وَالْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ، وَابْنُ شِهَابٍ، وَقَتَادَةُ نَحْوُ ذَلِكَ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ أَبْوَابُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ، فَكَانَتْ تُصِيبُهُمْ جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ عِنْدَهُمْ، فَيَرِيدُونَ الْمَاءَ وَلَا يَجِدُونَ مَرًّا إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾<sup>(٨)</sup> وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ مَا قَالَهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، مَا ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سُدُّوا كُلَّ خَوْخَةٍ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا قَالَهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ﷺ، عَلِمًا مِنْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَبَلِي الْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَبَحْتِاجَ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْمَسْجِدِ كَثِيرًا لِلْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ فِيمَا يَصْلُحُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ بِسَدِّ الْأَبْوَابِ الشَّارِعَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَّا بَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ رَوَى: «إِلَّا بَابَ عَلِيٍّ»، كَمَا وَقَعَ فِي بَعْضِ السَّنَنِ فَهُوَ خَطَأٌ، وَالصَّوَابُ مَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ. وَقَدْ ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَاوِلْنِي الْخُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ» فَقُلْتُ: إِنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ: «إِنَّ حَيْضَتَكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ»<sup>(١٠)</sup>. وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلُهُ<sup>(١١)</sup>. فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ مُرُورِ الْحَائِضِ فِي الْمَسْجِدِ، وَالنِّسَاءِ فِي مَعْنَاهَا،

(١) تحفة الأحوذى: ٣٨٠/٨ (٢) أحمد: ١٤٢/٣ (٣) فتح الباري: ٣٧٧/١ (٤) السائي: ٢١٥/١ (٥) فتح الباري: ١/٣٧٥ (٦) الطبري: ٣٨٢/٨ (٧) الطبري: ٣٨١-٣٨٤/٨ (٨) الطبري: ٣٨٤/٨ (٩) فتح الباري: ١/٦٦٥ (١٠) مسلم: ١/٢٤٥ (١١) مسلم: ١/٢٤٥ (١٢) الطبري: ٨/٣٩٢ (١٣) الطبري: ٨/٣٩٢، ٣٩٣ (١٤) فتح الباري: ١/٥٤٥ ومسلم: ٤٧٤/١

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾  
 مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ  
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَا لِسِنِّهِمْ  
 وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا  
 لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ  
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا  
 مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهًا فَرَدَّهَا  
 عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ  
 اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ  
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا  
 ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ  
 وَلَا يَظْلُمُونَ قِتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَقَعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ  
 وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا  
 مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ  
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

الصَّلَاةِ، أَنْ تَفْعَلَ عَلَىٰ هَيْئَةٍ نَاقِصَةٍ، مِنْ سُكْرِ حَتَّى يَبْصُرَ  
 الْمَكْلَفُ وَيَعْقِلَ مَا يَقُولُ، أَوْ جَنَانَةٍ حَتَّى يَغْتَسِلَ، أَوْ حَدَثٍ  
 حَتَّى يَتَوَضَّأَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَرِيضًا أَوْ عَادِمًا لِلْمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ  
 عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرْخَصَ فِي التَّيْمُمِ، وَالْحَالَةَ هَذِهِ، رَحْمَةً بِعِبَادِهِ  
 وَرَأْفَةً بِهِمْ، وَتَوْسِيعَةً عَلَيْهِمْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(ذَكَرَ سَبَبَ نَزُولِ مَشْرُوعِيَةِ التَّيْمُمِ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ  
 عَائِشَةَ، قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَشْفَارِهِ  
 حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْحِجْشِ، انْقَطَعَ عَقْدُ لِي،  
 فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّيْمَامِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ  
 وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ  
 فَقَالُوا: أَلَا تَرَىٰ إِلَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ، أَقَامَتْ بِرَسُولِ  
 اللَّهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ فَجَاءَ

صَحِیح مُسْلِم عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ: «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا  
 كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا،  
 وَجُعِلَتْ تَرَبُّتُهَا لَنَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ» <sup>(١)</sup> فَخَصَّصَ  
 الطُّهُورِيَّةَ بِالتُّرَابِ، فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ، فَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ يَقُومُ  
 مَقَامَهُ لَذَكَرَهُ مَعَهُ، وَالطَّبِيبُ هَهُنَا قِيلَ: الْحَلَالُ، وَقِيلَ:  
 الَّذِي لَيْسَ بِنَجَسٍ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، إِلَّا  
 ابْنُ مَاجَه عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الصَّبِيعُ  
 الطَّبِيبُ طَهُورٌ الْمُسْلِمِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ، فَإِذَا  
 وَجَدَهُ فَلْيُوسِّسْهُ بِشَرَّتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ» <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ:  
 حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُهُ: «فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ» التَّيْمُمُ  
 بَدَلٌ عَنِ الْوُضُوءِ فِي التَّطَهُّرِ بِهِ، لَا أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ فِي جَمِيعِ  
 أَعْضَائِهِ، بَلْ يَكْفِي مَسْحَ الْوُجْهِ وَالْيَدَيْنِ فَقَطْ بِالْإِجْمَاعِ،  
 وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَكْفِي لَهُ مَسْحُ الْوُجْهِ وَالْكَفَيْنِ بِضَرِيَّةٍ وَاحِدَةٍ.  
 رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِيزَى: أَنَّ رَجُلًا أَتَى  
 عُمَرَ، فَقَالَ: إِنِّي أَجَنَّبْتُ فَلَمْ أَجِدْ مَاءً، فَقَالَ عُمَرُ: لَا  
 تُصَلِّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا تَذْكُرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ أَنَا وَأَنْتَ  
 فِي سَرِيَّةٍ فَأَجَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ مَاءً، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ، وَأَمَّا  
 أَنَا فَتَمَعَكْتُ فِي التُّرَابِ فَصَلَّيْتُ، فَلَمَّا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرْتُ  
 ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ» وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ  
 الْأَرْضَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا وَمَسَحَ بِهَا وَجْهَهُ وَكَفَيْهِ <sup>(٣)</sup>. وَهَذِهِ  
 الْأُمَّةُ مُخْتَصَّةٌ بِمَشْرُوعِيَةِ التَّيْمُمِ، دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ، كَمَا ثَبَتَ  
 فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،  
 قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ  
 قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ  
 مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةُ  
 فَلْيُصَلِّ» وَفِي لَفْظٍ: «فَعِنْدَهُ طَهُورُهُ وَمَسْجِدُهُ، وَأُحِلَّتْ لِي  
 الْعَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشُّفَاعَةَ، وَكَانَ  
 النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» <sup>(٤)</sup>. وَتَقَدَّمَ  
 فِي حَدِيثِ حُدَيْفَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ،  
 جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ  
 مَسْجِدًا، وَتَرَبُّتُهَا طَهُورًا إِذَا لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ» <sup>(٥)</sup> وَقَالَ تَعَالَى  
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ  
 كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا» أَيُّ وَمِنْ عَفْوِهِ عَنْكُمْ وَغُفْرَانِهِ لَكُمْ أَنْ شَرَعَ  
 التَّيْمُمَ، وَأَبَاحَ لَكُمْ فِعْلَ الصَّلَاةِ بِهِ إِذَا فَقَدْتُمُ الْمَاءَ، تَوْسِيعَةً  
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً لَكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِيهَا تَنْزِيهُ

(١) مسلم: ٣٧١/١ (٢) أحمد: ١٨٠/٥ وأبو داود: ٢٣٥/١  
 وتحفة الأحوزي: ٣٨٨/١ والنسائي: ١٧١/١ (٣) أحمد: ٤/  
 ٢٦٥ فتح الباري: ٥١٩/١ ومسلم: ٣٧٠/١ (٥) مسلم:

وَالْعُقُوبَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاسْمَعْ عَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أَيْ اسْمَعْ مَا نَقُولُ، لَا سَمِعْتَ. رَوَاهُ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ وَاسْتِهْزَاءٌ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ، ﴿وَرَاعِنَا لِيَا يَأْسِنَهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ أَيْ يُوْهِمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَاعِنَا سَمِعَكَ يَقُولُهُمْ: رَاعِنَا، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الرُّغُونَةَ بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِكَلَامِهِمْ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَهُ: ﴿لِيَا يَأْسِنَهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾، يَعْنِي بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ قُلُوبُهُمْ مَطْرُودَةٌ عَنِ الْخَيْرِ مُبْعَدَةٌ مِنْهُ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ نَافِعٌ لَهُمْ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِيْمَانًا نَافِعًا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وَجُوهًا فَزَرَدَهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾<sup>(٥)</sup> إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغَيِّرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا<sup>(٦)</sup>

### [دَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ مَعَ التَّهْدِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِنَا أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِيمَانِ بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ [وَأَرْسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ تَصْدِيقُ الْأَخْبَارِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ، وَتَهْدِيدًا لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْغَسَ وَجُوهًا فَزَرَدَهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا﴾: قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَطَمَسَهَا: أَنْ تَعْمَى. ﴿فَزَرَدَهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا﴾ يَقُولُ: نَجْعَلُ وَجُوهَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَفْقِيَّتِهِمْ، فَيَمْسُونَ الْقَهْقَرَى، وَنَجْعَلُ لِأَحْدِهِمْ عَيْنَيْنِ مِنْ قَفَاهُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَهُوَ مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لَهُمْ فِي صَرْفِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَرَدِّهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ، وَرُجُوعِهِمْ عَنِ الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ إِلَى سُبُلِ الضَّلَالَةِ، يُهْرَعُونَ وَيَمْسُونَ الْقَهْقَرَى عَلَى

أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضِعَ رَأْسَهُ عَلَىٰ فَخْذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَىٰ مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعَنُ يَدَهُ فِي خَاصِرَتِي، وَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ فَخْذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ عَلَىٰ غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التِّيْمَمِ، فَتَيَمَّمُوا. فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَعَبَّعْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُشْرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتْلُوا السَّيْلَ﴾<sup>(٣)</sup> وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا<sup>(٤)</sup> مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَا يَأْسِنَهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٥)</sup> [دَمَ الْيَهُودَ عَلَىٰ اخْتِيَارِهِمُ الضَّلَاةَ وَتَحْرِيفَ الْكَلِمِ وَالْعُصْيَانَ، وَلَيَّ الْأَلْسُنَ وَالطَّعْنَ فِي الدِّينِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - أَنَّهُمْ يَشْرُونَ الضَّلَاةَ بِالْهَدَى، وَيَعْرِضُونَ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَيَتْرَكُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتْلُوا السَّيْلَ﴾ أَيْ يَوْدُونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَتَاهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَتَتْرَكُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أَيْ هُوَ يَعْلَمُ بِهِمْ وَيَحْذَرُكُمْ مِنْهُمْ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أَيْ كَفَى بِهِ وَلِيًّا لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ وَنَصِيرًا لِمَنْ اسْتَنْصَرَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [مِنْ] فِي هَذَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أَيْ يَتَأَوَّلُونَ الْكَلَامَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيُقَسِّرُونَهُ بِغَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَصْدًا مِنْهُمْ وَافْتِرَاءً ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أَيْ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا مَا قُلْتُمْ يَا مُحَمَّدٌ وَلَا نَطِيعُكَ فِيهِ. هَكَذَا فَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ الْمُرَادُ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ بَعْدَمَا عَقَلُوهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِثْمِ

(١) فتح الباري: ١/٥١٤ (٢) فتح الباري: ٧/٢٤ و ١٢/١٨٠  
ومسلم: ١/٢٧٩ (٣) الطبري: ٨/٤٣٣ (٤) الطبري: ٨/٤٣٤  
ضعيف كما مر (٥) الطبري: ٨/٤٤٠ تقدم حكم العوفي وعائلته  
(٦) الطبري: ٨/٤٤١

«عَلَى رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»، قَالَ: فَخَرَجَ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَجُرُّ إِزَارَهُ وَهُوَ يَقُولُ: وَإِنْ رَغَمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ بِهَذَا بَعْدَ، وَيَقُولُ: وَإِنْ رَغَمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ<sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ حُسَيْنٍ بِهِ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْبَزَّازُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: قَالَ: كُنَّا نُمْسِكُ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ حَتَّى سَمِعْنَا نَبِيَّنَا ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» وَقَالَ: «أَخَّرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ مِنْ أَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا» كَقَوْلِهِ: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣] وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ<sup>(٦)</sup>.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ شَيْئًا»<sup>(٧)</sup> أَنْظَرَ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ وَكَيْفَ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا<sup>(٨)</sup> أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا<sup>(٩)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا<sup>(١٠)</sup>

[ذَمُّ الْيَهُودِ وَلَعْنُهُمْ عَلَى تَزْكِيَّتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِيمَانِهِمْ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَقَلْبِهِمُ الْهَدَايَةُ وَالْإِيمَانُ] قَالَ الْحَسَنُ وَقَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى جِئْنَا قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجِبَاؤُهُ<sup>(١١)</sup> وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَزَلَتْ فِي قَوْلِهِمْ: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ» [المائدة: ١٨]، وَفِي قَوْلِهِمْ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى»<sup>(١٢)</sup>

[البقرة: ١١١]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ» أَيِ الْمَرْجِعِ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَا يَظْلُمُونَ شَيْئًا» أَيِ وَلَا يُشْرِكُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُؤَاوِزُ مَقْدَارَ الْقِتْلِ. قَالَ

أَدْبَارِهِمْ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَغْلًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ»<sup>(١٣)</sup> وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا... الْآيَةُ [يس: ٨، ٩]. إِنَّ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَمَعْنِيهِمْ عَنِ الْهُدَى.

[إِسْلَامُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ سَمَاعِهِ هَذِهِ الْآيَةُ] وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ كَعْبَ الْأَخْبَارِ أَسْلَمَ حِينَ سَمِعَ هَذِهِ الْآيَةَ. رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عِيسَى بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ: تَذَكَّرْنَا عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ إِسْلَامَ كَعْبٍ، فَقَالَ: أَسْلَمَ كَعْبٌ زَمَانَ عُمَرَ، أَقْبَلَ وَهُوَ يُرِيدُ بَيْتَ الْمُقَدِّسِ، فَمَرَّ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا كَعْبُ، أَسْلِمْتَ. فَقَالَ: أَلَسْتُ تَقْرَأُونَ فِي كِتَابِكُمْ «مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ» إِلَى «أَسْفَارًا» [الجمعة: ٥] وَأَنَا قَدْ خُمِلْتُ الثَّورَةَ، قَالَ: فَتَرَكَهُ عُمَرُ. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى حِمَصٍ، فَسَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهَا حَزِينًا وَهُوَ يَقُولُ: «يَتَابِعُنَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنًا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْلُسَ وُجُوهًا فَتَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا»... الْآيَةُ، قَالَ كَعْبٌ: [يَا رَبِّ أَمَنْتُ] يَا رَبِّ أَسْلَمْتُ مَخَافَةَ أَنْ تُصِيبَهُ هَذِهِ الْآيَةُ، ثُمَّ رَجَعَ فَاتَى أَهْلَهُ فِي الْيَمَنِ، ثُمَّ جَاءَ بِهِمْ مُسْلِمِينَ<sup>(١٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: «أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ» يَعْنِي الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي سَبْتِهِمْ بِالْحِيلَةِ عَلَى الْأَصْطِيَادِ، وَقَدْ مَسَحُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ. وَسَيَأْتِي بَسْطُ قِصَّتِهِمْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ. وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» أَيِ إِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ فَإِنَّهُ لَا يَخَالَفُ وَلَا يَمَانَعُ.

[لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ أَبَدًا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ «لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» أَيِ: لَا يَغْفِرُ لِعَبْدٍ لِقَبِيْهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِهِ، «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ»، أَيِ مِنَ الذُّنُوبِ «لِمَنْ يَشَاءُ»، أَيِ مِنْ عِبَادِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: يَا عَبْدِي مَا عَبْدَتَنِي وَرَجَوْتَنِي، فَإِنِّي غَافِرٌ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، يَا عَبْدِي إِنَّكَ إِنْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي، لَقِيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»<sup>(١٥)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ -ثَلَاثًا-». ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ:

(١) الطبري: ٤٤٦/٨ ضعيف: فيه عيسى بن المغيرة التميمي مجهول الحال [تقريب] وجابر بن نوح بن جابر ضعيف الحديث [الجرح والتعديل ٥٠٠/٢] (٢) أحمد: ١٥٤/٥ (٣) أحمد: ١٥٢/٥ (٤) فتح الباري: ٢٩٤/١٠ ومسلم: ٩٥/١ (٥) كشف الأستار: ٨٤/٤ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ١/٩٠ (٧) الطبري: ٤٥٢/٨ (٨) الطبري: ٤٥٣/٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

٨٧

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجْعَلَهُ نَصِيرًا ﴿٥٣﴾  
 أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٤﴾  
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا  
 آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾  
 فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا  
 ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصْلِي  
 جُلُودَهُمْ بَدَلًا لَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ  
 كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
 لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٨﴾ إِنَّ  
 اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُوَدُّوا إِلَى الْأَمْنَتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ  
 النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا  
 بَصِيرًا ﴿٥٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى  
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ  
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٠﴾

[لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ لِاسْتِنصَارِهِم بِالْمُشْرِكِينَ]  
 وَهَذَا لَعْنُ لَهُمْ وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُمْ لَا نَاصِرَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا  
 فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا ذَهَبُوا يَسْتَنْصِرُونَ بِالْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا  
 قَالُوا لَهُمْ ذَلِكَ، لِيَسْتَمِيلُوهُمْ إِلَى نُصْرَتِهِمْ، وَقَدْ أَجَابُوهُمْ  
 وَجَاءُوا مَعَهُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، حَتَّى حَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ  
 وَأَصْحَابُهُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ الْخَنْدَقِ، فَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُمْ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِظَتِهِمْ لَمْ يَبَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ  
 وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٤﴾  
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ

(١) الطبري: ٤٥٨/٨، ٤٥٩ (٢) محمد بن إسحاق هنا وهم أو خطأ من الناسخ الفخبر معروف من رواية أبي إسحاق السبيعي عن حسان بن فاقد. كما ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم وابن حجر في "تغليق التعليق" ١٩٦/٤ ط. المكتب الإسلامي من طرق عن أبي إسحاق. وقد ذكره المصنف بالصواب في سورة البقرة تحت آية رقم ٢٥٦ (٣) الطبري: ٤٦٢/٨ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٣/ ٩٩٤ (٥) الطبري: ٤٦٢/٨

إِبْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ  
 وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: هُوَ مَا يَكُونُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ:  
 ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ﴾ أَيِ فِي تَرْكِيبِهِمْ أَنْفُسَهُمْ  
 وَدَعَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجْبَاؤُهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ  
 الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١]،  
 وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [آل عمران: ٢٤]  
 وَاتِّكَالِهِمْ عَلَى أَعْمَالِ آبَائِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ  
 أَنَّ أَعْمَالَ الْآبَاءِ لَا تَجْزِي عَنِ الْبَنَاءِ شَيْئًا فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ  
 أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ [البقرة: ١٣٤]،  
 ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَفَى بِهِ إِيمًا مُبِينًا﴾ أَيِ وَكَفَى  
 بِصُنْعِهِمْ هَذَا كَذِبًا وَافْتِرَاءً ظَاهِرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى  
 الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ  
 أَمَّا الْجِبْتُ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ<sup>(٢)</sup>، عَنْ حَسَّانَ بْنِ  
 فَائِدٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: الْجِبْتُ: السَّحَرُ،  
 وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْعَلَامَةُ أَبُو نَصْرِ إِسْمَاعِيلُ  
 ابْنُ حَمَادٍ الْجَوْهَرِيُّ فِي كِتَابِهِ «الصَّحَاحُ»: الْجِبْتُ كَلِمَةٌ  
 تَقَعُ عَلَى الصَّنَمِ وَالْكَاهِنِ وَالسَّاحِرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الطَّاغُوتِ،  
 فَقَالَ: هُمْ كُفَّانُ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ:  
 الطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ  
 صَاحِبُ أَمْرِهِمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: الطَّاغُوتُ هُوَ كُلُّ  
 مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[لَا فَضْلَ لِلْكَفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُولَاءُ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ  
 آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أَيِ يُفَضِّلُونَ الْكَفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِجَهْلِهِمْ،  
 وَقِلَّةِ دِينِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ بِأَيْدِيهِمْ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: جَاءَ حَيْثُ بُنِيَ أَخْطَبُ وَكَعْبُ  
 ابْنُ الْأَشْرَفِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ  
 وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَأَخْبِرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ  
 وَمَا مُحَمَّدٌ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ نَصِلُ الْأَرْحَامَ، وَنَنْحَرُ الْكُؤَمَاءَ،  
 وَنَسْقِي الْمَاءَ عَلَى اللَّبَنِ، وَنَفُكُ الْعَنَاءَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ،  
 وَمُحَمَّدٌ صُبُورٌ قَطَعَ أَرْحَامَنَا، وَاتَّبَعَهُ سُرَاقُ الْحَجِيجِ بَنُو  
 غِفَارٍ، فَتَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ فَقَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلًا،  
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا...﴾ [الآية]، وَقَدْ  
 رُوِيَ هَذَا مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ  
 السَّلَفِ.

عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ  
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ  
مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

[بَيَانُ عَذَابٍ مَنْ يَكْفُرُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ]

يُنْخِرُ تَعَالَى عَمَّا يَعَاقِبُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ  
وَصَدَّ عَنْ رُسُلِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا...  
الآيَةِ، أَيْ نُدْخِلُهُمْ نَارًا دُخُولًا يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِمْ  
وَأَجْزَائِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ دَوَامِ عِقَابِهِمْ وَنَكَالِهِمْ، فَقَالَ:  
﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قَالَ  
الْأَعْمَشُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: إِذَا اخْتَرَقَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلُوا جُلُودًا  
غَيْرَهَا بَيْضَاءُ أَمْثَالُ الْقَرَاطِيسِ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.  
وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ قَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ  
جُلُودُهُمْ... الْآيَةِ، قَالَ: تَنْضِجُهُمْ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ أَلْفَ  
مَرَّةٍ. قَالَ حُسَيْنٌ: وَزَادَ فِيهِ فَضْلٌ عَنْ هِشَامٍ عَنِ الْحَسَنِ  
﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ كُلَّمَا أَنْضَجْتَهُمْ فَأَكَلَتْ لَحُومُهُمْ قِيلَ  
لَهُمْ: عُدُّوا فَعَادُوا<sup>(٤)</sup>.

[بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَهُوَ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ  
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هَذَا إِنْخِبَارٌ عَنْ مَالِ  
السَّعْدَاءِ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي تَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارُ فِي جَمِيعِ  
فَجَاجِهَا، وَمَحَالِّهَا وَأَرْجَائِهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ ارْتَدُّوا،  
وَهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَزُولُونَ وَلَا يَبْغُونَ  
عَنْهَا حَوْلًا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أَيْ مِنَ  
الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَالْأَذَى وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَالصِّفَاتِ  
النَّاقِصَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَقْدَارِ  
وَالْأَذَى<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالنَّخَعِيُّ  
وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةٌ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ  
الْبَوْلِ وَالْحَيْضِ وَالنَّخَامِ وَالْبُرَاقِ وَالْمَنِيِّ وَالْوَلَدِ. وَقَوْلُهُ:  
﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أَيْ ظِلًّا عَمِيقًا كَثِيرًا غَزِيرًا طَيِّبًا  
أَيْضًا. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:  
«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا  
يَقْطَعُهَا: شَجَرَةُ الْخُلْدِ»<sup>(٧)</sup>.

إِزْهِيمَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَمَا تَنْتَهُمُ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٦﴾ فَيَنْتَهُمُ مَنْ آمَنَ  
بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِهِمْ سَعِيرًا ﴿٥٧﴾  
[بُخْلُ الْيَهُودِ وَحَسَدُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ نُنْصِبْ مِنَ الْمُلْكِ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ  
إِنْكَارِيٌّ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ  
بِالْبُخْلِ، فَقَالَ: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾، أَيْ لَا تَنْتَهُمُ لَوْ  
كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا  
مِنَ النَّاسِ - وَلَا سِوَمَا مُحَمَّدًا ﷺ - شَيْئًا، وَلَا مَا  
يَمْلَأُ «النَّقِيرَ» وَهُوَ النُّقْطَةُ الَّتِي فِي النَّوَاةِ فِي قَوْلِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ وَالْأَكْثَرِينَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ  
تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا أَنْتُمْ كَاثِرُونَ﴾ أَيْ  
خَوْفُ أَنْ يَذْهَبَ مَا بِيَدَيْكُمْ مَعَ أَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ نَفَادَهُ، وَإِنَّمَا  
هُوَ مِنْ يُخْلِكُكُمْ وَشُحْكُكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ  
قَتُورًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٠٠] أَيْ بِخَيْلٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ  
النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ حَسَدَهُمْ  
النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَنْعَهُمْ  
مِنْ تَصْدِيقِهِمْ إِيَّاهُ حَسَدَهُمْ لَهُ، لِكُذُوبِهِ مِنَ الْعَرَبِ وَلَيْسَ  
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي  
قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ... الْآيَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:  
نَحْنُ النَّاسُ دُونَ النَّاسِ<sup>(١)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا  
عَالِ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَمَا تَنْتَهُمُ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أَيْ فَقَدْ  
جَعَلْنَا فِي أَشْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ  
إِبْرَاهِيمَ، النُّبُوَّةَ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ، وَحَكَمُوا فِيهِمْ  
بِالسَّنَنِ، وَهِيَ الْحِكْمَةُ، وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ الْمُلُوكَ وَمَعَ هَذَا  
﴿فَيَنْتَهُمُ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾، أَيْ بِهَذَا الْإِتْيَاءِ وَهَذَا الْإِنْعَامِ،  
﴿وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أَيْ كَفَرَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَسَعَى فِي  
صَدِّ النَّاسِ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْهُمْ وَمِنْ جَنْسِهِمْ مِنْ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ. فَقَدْ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِمْ، فَكَيْفَ بِكَ يَا مُحَمَّدٌ  
وَلَسْتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَيَنْتَهُمُ مَنْ آمَنَ  
بِهِ﴾، أَيْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾<sup>(٢)</sup>. فَالْكَفَرَةُ  
مِنْهُمْ أَشَدُّ تَكْذِيبًا لَكَ، وَأَبْعَدُ عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى،  
وَالْحَقُّ الْمُبِينُ، وَلِهَذَا قَالَ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ: ﴿وَكَفَى بِهِمْ  
سَعِيرًا﴾ أَيْ وَكَفَى بِالنَّارِ عِقُوبَةً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ  
وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ كُتُبَ اللَّهِ وَرُسُلَهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ  
جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

(١) الطبراني: ١٤٦/١١ (٢) الطبري: ٤٨٢/٨ (٣) الطبري:

٤٨٤/٨ (٤) الطبري: ٤٨٥/٨ (٥) الطبري: ٣٩٥/١ (٦)

ابن أبي حاتم: ٩٢/١ (٧) الطبري: ٤٨٩/٨ إسناده ضعيف فيه

أبو الضحاك مجهول ولكن أخرجه البخاري (٤٨٨١) ومسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ  
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ  
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ  
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْتَفِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ  
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا  
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا  
إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا  
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي  
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا  
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ  
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ  
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ  
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا  
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾

سَنَةً<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْهَا عِبَادَهُمْ﴾ أَيُّ يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنْ  
أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ  
أَوَامِرِهِ وَنَهْيَاتِهِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ الشَّامِلَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ أَيُّ سَمِيمًا لِأَقْوَالِكُمْ، بَصِيرًا  
بِأَفْعَالِكُمْ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ  
لَنَنْزَعَنَّ مِنْ شَيْءٍ فَرْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿٦٥﴾

(٢٨٣٦) وغيرهما ولفظه: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في  
ظلها مائة عام لا يقطعها وأقروا إن شئتم "وظل ممدود" وليس فيه  
"شجرة الخلد". (١) أحمد: ٤١٤/٣ وأبو داود: ٨٠٥/٣  
وتحفة الأحوذى: ٤٧٩/٤ (٢) مسلم: ١٩٩٧/٤ (٣)  
الطبري: ٩٢/٨ إسناده ضعيف فيه: الحسين بن داود المصيصي  
الذي كان يلقن شيخه الحجاج. قد تقدم ذكره (٤) الطبري: ٨/  
٤٩٠ (٥) ابن ماجه: ٧٧٥/٢ وعند ابن ماجه لفظ "القاضي"  
بدل "الحاكم" (٦) ما وجدته بهذا اللفظ والرواية ضعيفة انظر  
[ضعيف الترغيب للألباني ٧١، ٧/٢] الكنز: ١٢/٦

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ  
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأُ عِبَادِكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا  
بَصِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾

### [الْأَمْرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا. وَفِي  
حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ سَمُرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَدَّ  
الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّعَمَكَ، وَلَا تَخْزَنْ مِنْ خَانَكَ» رَوَاهُ  
الإمام أحمد وأهل السنن<sup>(١)</sup>. وَهَذَا يُعْمُ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ  
الْوَاجِبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ  
مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ وَالصِّيَامِ وَالْكَفَّارَاتِ وَالتَّدْوِيرِ  
وغير ذلك مِمَّا هُوَ مُؤْتَمَنٌ عَلَيْهِ، وَلَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ الْعِبَادُ،  
وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِ  
ذَلِكَ مِمَّا يَأْتُمُونُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ إِطْلَاعٍ  
بَيِّنَةٍ عَلَى ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَدَائِهَا، فَمَنْ لَمْ  
يَفْعَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أَخَذَ مِنْهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا  
ثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:  
«لَتُؤَدَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُفْتَصَّرَ لِلنَّسَاءِ الْجَمَاءُ مِنْ  
الْقُرَّانِ»<sup>(٢)</sup>. رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي الْآيَةِ،  
قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُمَانَ بْنِ طَلْحَةَ، قَبَضَ مِنْهُ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ مِفْتَاحَ الْكُعْبَةِ، فَدَخَلَ فِي النَّبْتِ يَوْمَ الْفَتْحِ،  
فَخَرَجَ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا  
الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا... الْآيَةِ، فَدَعَا عُمَانَ إِلَيْهِ فَدَفَعَ إِلَيْهِ  
الْمِفْتَاحَ. قَالَ: وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكُعْبَةِ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ  
تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا - فَذَاهُ أَبِي وَأُمِّي مَا سَمِعْتُهُ  
يَتْلُوهَا قَبْلَ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا مِنْ الْمَشْهُورَاتِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ  
نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ أَوْ لَا،  
فَحُكْمُهَا عَامٌّ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ ابْنُ الْحَقِيقَةِ:  
هِيَ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، أَيُّ هِيَ أَمْرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ.

### [الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أَمْرٌ  
مِنْهُ تَعَالَى بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ  
كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا  
نَزَلَتْ فِي الْأُمَرَاءِ<sup>(٤)</sup>. يَعْنِي الْحُكَّامَ بَيْنَ النَّاسِ، وَفِي  
الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْحَاكِمِ مَا لَمْ يَجُرْ، فَإِذَا جَارَ وَكَلَهُ  
اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ»<sup>(٥)</sup>. وَفِي الْأَثَرِ: «عَدْلُ يَوْمٍ كَعِبَادَةِ أَرْبَعِينَ



## [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الْأَمِيرِ فِي الْمَعْرُوفِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» قَالَ: تَزَلَّتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا خَرَجُوا وَجَدَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ، قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطْبًا، ثُمَّ دَعَا بِنَارٍ فَأَصْرَمَهَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَتَدْخُلْنَهَا، قَالَ: فَهَمَّ الْقَوْمُ أَنْ يَدْخُلُوهَا قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ شَأْبٌ مِنْهُمْ: إِنَّمَا فَرَزْتُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنَ النَّارِ، فَلَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَلْقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوهَا. قَالَ: فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»<sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ». وَأَخْرَجَاهُ<sup>(٥)</sup>. وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا. وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ»<sup>(٦)</sup>. أَخْرَجَاهُ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيَّةٌ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ أُمِّ الْخَضَنِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: «وَلَوْ اسْتَعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، اسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>. وَفِي لَفْظٍ لَهُ: «عَبْدًا حَبَشِيًّا مَجْدُوعًا» وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»<sup>(٩)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَطِيعُوا اللَّهَ» أَيِ اتَّبِعُوا كِتَابَهُ «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» أَيِ خُذُوا بِسُنَّتِهِ «وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» أَيِ فِيمَا أَمَرُوكُمْ

بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»<sup>(١٠)</sup>.

## [الْأَمْرُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِنْدَ التَّنَازُعِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَيِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ<sup>(١١)</sup>. وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ كُلُّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يَرُدَّ التَّنَازُعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» [الشورى: ١٠] فَمَا حَكَمَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَشَهِدَا لَهُ بِالصَّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» أَيِ رُتُّوا الْخُصُومَاتِ وَالْجَهَالَاتِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَتَحَاكُمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ» «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» فَذَلَّ عَلَى أَنْ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَحَلِّ التَّنَازُعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَرْجِعْ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ خَيْرٌ» أَيِ التَّحَاكُمِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِمَا فِي فَضْلِ التَّنَازُعِ خَيْرٌ «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أَيِ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَالًا. كَمَا قَالَهُ الشُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «وَأَحْسَنُ جَزَاءٍ»<sup>(١٣)</sup> وَهُوَ قَرِيبٌ.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَتُهُمْ قَوْلًا

(١) فتح الباري: ١٠١/٨ (٢) مسلم: ١٤٦٥/٣ وأبو داود: ٩٢ وتحفة الأحوذى: ٣٦٤/٥ والنسائي: ١٥٤/٧ (٣) أحمد: ٨٢/١ (٤) فتح الباري: ٦٥٥/٧ ومسلم: ١٤٦٩/٣ (٥) أبو داود: ٢٦٢٦ والبخاري: ٧١٤٤ ومسلم: ١٨٣٩ (٦) فتح الباري: ٢٠٤/١٣ ومسلم: ٤٧٠/٣ (٧) فتح الباري: ١٣/١٣ (٨) مسلم: ١٨٣٨ (٩) فتح الباري: ١١٩/١٣ ومسلم: ١٤٦٦/٣ (١٠) فتح الباري: ١٣/١٣ (١١) الطبري: ٨/٥٠٤ (١٢) الطبري: ٥٠٦/٨ (١٣) الطبري: ٥٠٦/٨

بَلِيغًا ﴿١٣﴾

[مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحَاكَمَ إِلَى مَا سِوَاهُمَا فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ]

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَضْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا ذَكَرَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ تَخَاصُّمًا، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ، وَذَلِكَ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ. وَقِيلَ: فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، أَرَادُوا أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى حُكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا ذَاتُهُ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ الْمَرَادُ بِالطَّاعُوتِ هَهُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: «يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ... إِلَى آخِرِهَا. وَقَوْلُهُ: «يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» أَيُّ يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا كَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: «وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نُنَبِّئُكَ مَا هُوَ حَقُّهُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا» [لقمان: ٢١] وَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»... [الآية [النور: ٥١].

[ذَمُّ الْمُنَافِقِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ: «فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ» أَيُّ فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا سَاقَتْهُمْ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبَ تَطْرُقُهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَاحْتَاجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ: «ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا» أَيُّ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ، وَيَخْلِفُونَ مَا أَرَدْنَا بِذَهَابِنَا إِلَى غَيْرِكَ، وَتَحَاكَمْنَا إِلَى عَدَاكَ إِلَّا بِالْإِحْسَانِ وَالتَّوْفِيقِ، أَيُّ الْمُدَارَاةِ وَالْمُضَانَعَةِ، لَا اعْتِقَادًا مِنَّا صِحَّةَ تِلْكَ الْحُكُومَةِ، كَمَا أَخْبَرَنَا تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى إِلَى قَوْلِهِ: «فَيَضْحِكُوا عَلَى مَا آسَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَذِمِينَ» [المائدة: ٥٢]. وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَفْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ فِيهِ، فَتَنَافَرَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ

وَجَلَّ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ» إِلَى قَوْلِهِ: «وَنُودُوا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» هَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَاتَّكَفَى بِهِ يَا مُحَمَّدٌ فِيهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِينِهِمْ. وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: «فَاعْرِضْ عَنْهُمْ» أَيُّ لَا تُعْنِثُهُمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ «وَعِظْهُمْ» أَيُّ وَانْهَهُمْ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ التَّفَاقِ وَسَرَائِرِ الشَّرِّ، «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» أَيُّ وَانْصَحْهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ رَادِعٍ لَهُمْ.

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا»<sup>(٢)</sup> فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»<sup>(٣)</sup>

[طَاعَةُ الرَّسُولِ وَاجِبَةٌ حَتْمًا]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ» أَيُّ فَرَضْتُ طَاعَتَهُ عَلَى مَنْ أَرْسَلُهُ إِلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: «بِإِذْنِ اللَّهِ» قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ لَا يُطِيعُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِي<sup>(٢)</sup>. يَغْنِي لَا يُطِيعُهُمْ إِلَّا مَنْ وَفَّقْتَهُ لَذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ» [آل عمران: ١٥٢] أَيُّ عَنِ أَمْرِهِ وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَسْلِيطِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» الْآيَةُ، يُرِيدُ تَعَالَى الْعِصَاةَ وَالْمُذْنِبِينَ إِذَا وَقَعَ مِنْهُمْ الْخَطَأُ وَالْعِصْيَانُ أَنْ يَأْتُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَيَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ عِنْدَهُ وَيَسْأَلُوهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا».

[لَا يَكُونُ الْمَرْءُ مُؤْمِنًا حَتَّى يُحَكِّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي

خُصُومَاتِهِ وَيَرْضَى بِهِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ]

وَقَوْلُهُ: «فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ» يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَمَا

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيهًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ لَا تَتَذَكَّرُ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ تَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيَقْتُلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

عِلِيمًا ﴿٧٠﴾

[أَكْثَرُ النَّاسِ يُعَانِدُونَ لِمَا يُؤْمَرُونَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُوهُ مِنَ الْمَنَاحِي لَمَّا فَعَلُوهُ، لِأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةُ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِمَا لَمْ يَكُنْ أَوْ كَانَ، فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾... الآية، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أَيُّ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ، وَتَرَكُوا مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَيُّ مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ ﴿وَأَشَدَّ تَنبِيهًا﴾. قَالَ السُّدِّيُّ: أَيُّ وَأَشَدَّ تَضَدُّيقًا ﴿وَإِذَا لَا تَتَذَكَّرُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أَيُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَيُّ فِي

حَكَمٍ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الْإِقْبَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أَيُّ إِذَا حَكَمُوكَ طَبِيعُونَكَ فِي بَوَاطِينِهِمْ فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتَ بِهِ، وَيَتَقَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَيُسَلِّمُونَ لَذَلِكَ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ وَلَا مَدَافَعَةٍ وَلَا مُتَارَعَةٍ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا فِي شَرِيحٍ مِنَ الْحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ» فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ اخْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَذْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ». وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَكَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا ﷺ بِأَمْرِ لُهُمَا فِيهِ سَعَةٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَخْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (١)... الآية.

(سَبَبُ آخِر) - رَوَى الْحَافِظُ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ دُحَيْمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ضَمْرَةٍ: أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى لِلْمُحَقِّ عَلَى الْمُبْطِلِ، فَقَالَ الْمُقْضِي عَلَيْهِ: لَا أَرْضَى، فَقَالَ صَاحِبُهُ: فَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أَنْ نَذْهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَذَهَبَا إِلَيْهِ، فَقَالَ الَّذِي قَضَى لَهُ: قَدْ اخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى لِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَأَنْتُمَا عَلَى مَا قَضَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى صَاحِبُهُ أَنْ يَرْضَى، قَالَ: نَأْتِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَأَتِيَاهُ فَقَالَ الْمُقْضِي لَهُ: قَدْ اخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَضَى لِي عَلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَرْضَى، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: كَذَلِكَ. فَدَخَلَ عُمَرُ مَنْزِلَهُ وَخَرَجَ وَالسَّيْفُ فِي يَدِهِ قَدْ سَلَّهُ، فَضَرَبَ بِهِ رَأْسَ الَّذِي أَبَى أَنْ يَرْضَى فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾... الآية (٢).

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيهًا﴾ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَتَذَكَّرُ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) الدر المنثور: ٣٢٢/٢ إسناده ضعيف ضمرة لم يدرك عمر رضي الله عنه فهو مرسل.

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

النَّبِيِّ، وَإِنْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَكَ، فَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَدِّسِيُّ فِي كِتَابِهِ "صِفَةُ الْجَنَّةِ" ثُمَّ قَالَ: لَا أَرَى بِإِسْنَادِهِ بَأْسًا<sup>(٥)</sup>، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَبُكِّتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَبِيثَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوءِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «سَلْ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَةَ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّيْتُ الْخُمْسَ، وَأَدَيْتُ زَكَاةَ مَالِي. وَصُمْتُ شَهْرَ رَمَضَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا - وَنَصَبَ أَصْبُعِهِ - مَا لَمْ يَمُتْ وَالِدِيهِ»<sup>(٧)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَأَعْظَمَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ بِشَارَةً مَا ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ طُرُقٍ مُتَوَاتِرَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، فَقَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرَحَ الْمُسْلِمُونَ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ. وَفِي رَوَايَةٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأُحِبُّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَرْجُو أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثَنِي مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ كَعَمَلِهِمْ<sup>(٨)</sup>. قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ بِرَحْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَهْلَهُمْ لِذَلِكَ لَا بِأَعْمَالِهِمْ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثَابِتًا أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾<sup>(٩)</sup> وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا<sup>(١٠)</sup> وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ

[مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَهُوَ مَعَ الْمُكَرَّمِينَ عِنْدَ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أَيُّ مَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسَكِّنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ، وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ وَهُمْ الصِّدِّيقُونَ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ، ثُمَّ أَنْتَى عَلَيْهِمْ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خَيْرُ بَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا فَأَخَذَتْهُ بَحَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ<sup>(١١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٢)</sup>. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «اللَّهُمَّ [فِي] الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»<sup>(١٣)</sup> - ثَلَاثًا - ثُمَّ قَضَى عَلَيْهِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ.

#### ذَكَرَ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مَحْزُونٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا فُلَانُ، مَا لِي أَرَكَ مَحْزُونًا؟» قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، شَيْءٌ فَكَّرْتُ فِيهِ، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: نَحْنُ نَعُدُّو عَلَيْكَ وَتَرْوَحُ، نَنْظُرُ إِلَى وَجْهِكَ وَنُجَالِسُكَ، وَغَدَا تَرْفَعَ مَعَ النَّبِيِّينَ، فَلَا نَصِلُ إِلَيْكَ، فَلَمْ يَرِدْ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾ الْآيَةِ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَشَّرَهُ<sup>(١٤)</sup>. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْأَثَرُ مُرْسَلًا عَنْ مَسْرُوقٍ، وَعِكْرَمَةَ، وَغَامِرِ الشَّعْبِيِّ وَقَتَادَةَ، وَعَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِهَا سَنَدًا، وَقَدْ رَوَى مَرْفُوعًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ، رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْذُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ فَانْظُرْ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) مسلم: ١٨٩٣/٤ (٣) مسلم: ١٨٩٤/٤ (٤) الطبري: ٥٣٤/٨ (٥) الطبراني: ٣٣٠٨ ومن طريق أبي نعيم في الحلية ١٢٥/٨ (٦) مسلم: ٤٨٩ (٧) جامع المسانيد والسنن: ٧٧/١٠ (٨) فتح الباري: ٥١/٧

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ  
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ  
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ  
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ  
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ  
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ  
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ  
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِغَ الدُّنْيَا  
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَلَيْسَ  
تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ  
حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا  
هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ فَإِذَا هُم بِالنَّارِ لَا يَكَادُونَ  
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ  
سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

وَعَدَمَ إِيمَانِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
يُقَاتِلْ أَوْ يُغَلَبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيُّ كُلِّ مَنْ قَاتَلَ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ - سَوَاءً قُتِلَ أَوْ غَلِبَ وَسَلِبَ - فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَثُوبَةٌ  
عَظِيمَةٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «وَتَكْفُلُ  
اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ  
إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»<sup>(٤)</sup>.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ  
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا  
وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ الَّذِينَ  
آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ  
الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ

ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

[الْحَضْرُ عَلَى الْقِتَالِ لِإِنْقَاذِ الْمُسْتَضْعَفِينَ]

يُحَرِّصُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ،  
(١) الطبري: ٥٣٧/٨ (٢) الطبري: ٥٣٨، ٥٣٧/٨ (٣)  
الطبري: ٥٣٨/٨ (٤) فتح الباري: ٢٥٣/٦ ومسلم: ١٤٩٦/٣

فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ  
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
يُقَاتِلْ أَوْ يُغَلَبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٨﴾  
[الْأَمْرُ بِأَخِذِ الْحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخِذِ الْحَذَرِ مِنْ  
عَدُوِّهِمْ، وَهَذَا يَشْتَلِرُهُمُ التَّائِبُ لَهُمْ بِإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ  
وَالْعَدُوِّ، وَتَكْثِيرِ الْعَدَدِ بِالْبَقِيرِ فِي سَبِيلِهِ ﴿ثَبَاتٌ﴾ أَيُّ  
جَمَاعَةٍ بَعْدَ جَمَاعَةٍ وَفِرْقَةٍ بَعْدَ فِرْقَةٍ وَسَرِيَّةٍ بَعْدَ سَرِيَّةٍ.  
وَالثَّبَاتُ جَمْعُ ثُبَةٍ، وَقَدْ تَجَمَّعَ الثُّبَةُ عَلَى ثُبَيْنٍ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ  
أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أَيُّ عَصَبًا  
يَعْنِي، سَرَايَا مُتَفَرِّقِينَ ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ يَعْنِي كُلُّكُمْ<sup>(١)</sup>.  
وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَالسُّدِّيَّ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ  
وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيَّ وَمُقَاتِلَ بْنِ حَبَّانٍ وَخُصَيْفَ الْجَزْرِيَّ<sup>(٢)</sup>.

[مِنْ عَلَامَاتِ الْمُنَافِقِينَ التَّخَلُّفُ عَنِ الْجِهَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن يُؤَلِّفُ النَّاسَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ  
وَاحِدٍ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ:  
﴿يُؤَلِّفُ﴾ أَيُّ لِيَتَخَلَّفَنَّ عَنِ الْجِهَادِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ  
الْمُرَادُ أَنَّهُ يَتَبَاطَأُ هُوَ فِي نَفْسِهِ، وَيَطْغَى غَيْرُهُ عَنِ الْجِهَادِ  
كَمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ سَلُولٌ - فَجَّهَهُ اللَّهُ - يَفْعَلُ،  
يَتَأَخَّرُ عَنِ الْجِهَادِ وَيَبْطِئُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ فِيهِ. وَهَذَا  
قَوْلُ ابْنِ جُرَيْجٍ وَابْنِ جَرِيرٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ  
الْمُنَافِقِ أَنَّهُ يَقُولُ: إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْجِهَادِ ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ  
مُصِيبَةٌ﴾ أَيُّ قَتْلٌ وَشَهَادَةٌ وَغَلَبَ الْعَدُوُّ لَكُمْ لِمَا لِلَّهِ فِي  
ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ قَالَ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ  
شَهِيدًا﴾ أَيُّ إِذْ لَمْ أَحْضَرْ مَعَهُمْ وَقَعَةَ الْقِتَالِ، بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ  
نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ أَوْ  
الشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ.

﴿وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ نَصْرٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ  
﴿لَيَقُولَنَّ كَانَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أَيُّ كَانَتْ لَيْسَ مِنْ  
أَهْلِ دِينِكُمْ ﴿يَلْتَمِصْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أَيُّ  
بِأَنْ يُضْرَبَ لِي بِسَهْمٍ مَعَهُمْ، فَأَحْصَلَ عَلَيْهِ. وَهُوَ أَكْبَرُ  
قَصْدِهِ وَغَايَةُ مَرَادِهِ.

[الْتَرَعِيبُ فِي الْجِهَادِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أَيُّ الْمُؤْمِنُ النَّافِرُ ﴿فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ  
يَبْعَثُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكُفْرِهِمْ

وَعَلَى السَّعْيِ فِي اسْتِثْقَاذِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ الْمُتَبَرِّينَ مِنَ الْمَقَامِ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بِغَيْرِ مَكَّةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أَيُّ سَحَرٍ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا وَنَاصِرًا. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أَيُّ الْمُؤْمِنُونَ يَقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَالْكَافِرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ هَمَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَغْدَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا﴾

وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا

وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا

وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا

وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا

#### [لَا مَفْرَءَ مِنَ الْمَوْتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أَيُّ أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ، وَلَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الْآيَةُ [الرحمن: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وَالْمَقْصُودُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ صَائِرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، سِوَاءٍ جَاهَدَ أَوْ لَمْ يُجَاهِدْ، فَإِنَّ لَهُ أَجَلًا مَحْتُمًا، وَمَقَامًا مَقْصُومًا، كَمَا قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حِينَ جَاءَهُ الْمَوْتُ عَلَى فَرَّاشِهِ: لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مَوْفَقًا، وَمَا مِنْ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ جُرْحٌ مِنْ طَعْنَةٍ أَوْ رَمِيَةٍ، وَهَذَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى فَرَّاشِي، فَلَا تَأْمَتُ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أَيُّ حَصِينَةٍ مَنِيعَةٍ عَالِيَةِ رَفِيعَةٍ، أَيْ لَا يُغْنِي حَدَرٌ وَتَحْصُنٌ مِنَ الْمَوْتِ.

#### [طَبِيرَةُ الْمُنَافِقِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أَيُّ حِصْبٌ وَرِزْقٌ مِنْ ثَمَارِ

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتُ النُّصَبِ، لَكِنْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمُوَسَّاسَةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَالصَّبْرِ إِلَى جَيْنِ، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ، وَيَوَدُّونَ لَوْ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ لِيَسْتَفْتُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ الْحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِبًا لِأَسْبَابِ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا: قِلَّةُ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ. وَمِنْهَا: كَوْنُهُمْ كَانُوا فِي بَلَدِهِمْ، وَهُوَ بَلَدٌ حَرَامٌ، وَأَشْرَفُ بَقَاعِ الْأَرْضِ، فَلَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ فِيهِ ابْتِدَاءً، [لَا تَقَا] فَلِهَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ لَمَّا صَارَتْ لَهُمْ دَارٌ وَمَنْعَةٌ وَأَنْصَارٌ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا أُمِرُوا بِمَا كَانُوا يُودُّونَهُ، جَزَعَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ، وَخَافُوا مُوَاجَهَةَ النَّاسِ

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أَيُّ الْمُؤْمِنُونَ يَقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَالْكَافِرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ هَمَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَغْدَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا﴾

وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا

وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا

وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا

وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلًا

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ

بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتُ النُّصَبِ، لَكِنْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمُوَسَّاسَةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَالصَّبْرِ إِلَى جَيْنِ، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ، وَيَوَدُّونَ لَوْ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ لِيَسْتَفْتُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ الْحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِبًا لِأَسْبَابِ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا: قِلَّةُ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ. وَمِنْهَا: كَوْنُهُمْ كَانُوا فِي بَلَدِهِمْ، وَهُوَ بَلَدٌ حَرَامٌ، وَأَشْرَفُ بَقَاعِ الْأَرْضِ، فَلَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ فِيهِ ابْتِدَاءً، [لَا تَقَا] فَلِهَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ لَمَّا صَارَتْ لَهُمْ دَارٌ وَمَنْعَةٌ وَأَنْصَارٌ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا أُمِرُوا بِمَا كَانُوا يُودُّونَهُ، جَزَعَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ، وَخَافُوا مُوَاجَهَةَ النَّاسِ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) الطبري: ٥٤٩/٨ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٢٥/٦ والحاكم: ٣٠٧/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩١

سُورَةُ النِّسَاءِ

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ آخِذًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقُنِيزٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُلُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِبِخْتٍ فَجُودُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» أَيُّ مَا عَلَيْكَ مِنْهُ، إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ فَمَنْ اتَّبَعَكَ سَعِدَ وَنَجَا، وَكَانَ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ نَظِيرٌ مَا حَصَلَ لَهُ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنْكَ خَابَ وَخَسِرَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ إِلَّا نَفْسُهُ»<sup>(٣)</sup>.

[بَيَانُ سَفَاهَةِ الْمُتَنَافِقِينَ]

وَقَوْلُهُ: «وَيَقُولُوا طَاعَةٌ» يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يَظْهَرُونَ الْمَوَاقِفَةَ وَالطَّاعَةَ «فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ» أَيُّ خَرَجُوا وَتَوَارَوْا عَنْكَ «بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ»

وَزُرُوعَ وَأَوْلَادَ وَنَحْوَ ذَلِكَ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيِّ «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سَيِّئَةً» أَيُّ قَطَعُ وَجَدْتُ وَنَقُصَّ فِي الثَّمَارِ وَالزَّرْعِ، أَوْ مَوْتِ أَوْلَادٍ أَوْ نَتَاجِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» أَيُّ مِنْ قِبَلِكَ وَيَسْبَبُ اتِّبَاعَنَا لَكَ وَاقْتِدَائَنَا بِدِينِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سَيِّئَةً يَبْغُوا بِمُؤَسَى وَمِنْ مَعَهُ» [الأعراف: ١٣١] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ»... [الآية: الحج: ١١] وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُتَنَافِقُونَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا، وَهُمْ كَارِهُونَ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلِهَذَا إِذَا أَصَابَهُمْ شَرٌّ إِنَّمَا يُسَيِّدُونَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» فَقَوْلُهُ: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، أَيُّ الْجَمِيعِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَهُوَ نَافِذٌ فِي الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُرَادُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ لِيَحْضِلَ الْجَوَابُ «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ» أَيُّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمِنْهُ وَلَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ «وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» أَيُّ فِيمِنْ قِبَلِكَ، وَمِنْ عَمَلِكَ أَنْتَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْرِفُونَ عَنْ كَثِيرٍ» [الشورى: ٣٠] قَالَ السُّدِّيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ «فَمِنْ نَفْسِكَ» أَيُّ بِذَنْبِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي الْآيَةِ: «فَمِنْ نَفْسِكَ» عَقُوبَةُ لَكَ. يَا ابْنَ آدَمَ بِذَنْبِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا» أَيُّ تُبَلِّغُهُمْ شَرَائِعَ اللَّهِ وَمَا يُجِبُهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَنْهَاهُ «وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا» أَيُّ عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلْنَاكَ، وَهُوَ شَهِيدٌ أَيْضًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَعَالِمٌ بِمَا تُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ، وَبِمَا يَرُدُّونَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ كُفْرًا وَعِنَادًا.

«مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

[طَاعَةُ الرَّسُولِ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ

(١) أحمد: ٢٥٢/١ (٢) فتح الباري: ١٣٥/٦ ومسلم: ٣/

١٤٦٦ (٣) مسلم: ٥٩٤/٢

وَأَخِي، وَإِذَا مَسِيحَةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فْتَمَارُوا فِيهَا حَتَّى ارْتَقَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغَضَّبًا، حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْهَهُ، يَرْمِيهِمْ بِالْثَرَابِ وَيَقُولُ: «مَهْلًا يَا قَوْمَ، بِهِذَا أَهْلَكْتَ الْأُمَّمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكِتَابَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكْذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، إِنَّمَا يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَإِنَّا لَجُلُوسٌ إِذْ اخْتَلَفَ اثْنَانِ فِي آيَةٍ، فَارْتَقَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكْتَ الْأُمَّمُ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

### [الَّتَنَهَى عَنْ إِشَاعَةِ الْخَبَرِ دُونَ تَحْقِيقِ]

وَقَوْلُهُ: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ»، إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يَبَادِرُ إِلَى الْأُمُورِ قَبْلَ تَحْقِيقِهَا، فَيُخْبِرُ بِهَا وَيُنَشِّئُهَا وَيَنْشُرُهَا، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ مِنْ سُنَنِهِ<sup>(٥)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ<sup>(٦)</sup>. أَيُّ الَّذِي يُكْثِرُ مِنَ الْحَدِيثِ عَمَّا يَقُولُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ، وَلَا تَدْبِيرٍ، وَلَا تَبَيَّنٍ. وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبَيْنِ»<sup>(٧)</sup>. وَلَنَذْكُرَ هَهُنَا حَدِيثَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الْمُتَّفَقَ عَلَى صِحَّتِهِ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، طَلَّقَ نِسَاءَهُ، فَجَاءَ مِنْ مَنْزِلِهِ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَضِرَّ حَتَّى اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَفْهَمَهُ أَطْلَقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَقَالَ: «لَا» فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ. وَعِنْدَ مُسْلِمٍ قُلْتُ: أَطْلَقْتَهُنَّ؟ فَقَالَ: «لَا» فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي، لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ

أَيَّ اسْتَسْرُوا لَيْلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ مَا أَظْهَرُوهُ لَكَ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ» أَيُّ يَعْلَمُهُ وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفَظَتُهُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ، يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا التَّهْدِيدِ أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَضْمُرُونَهُ وَيُسِرُّونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَمَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْلًا مِنْ مُحَاَلَفَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَعِصْيَانِهِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَالْمُوَافَقَةَ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا...» الْآيَةَ [النور: ٤٧]، وَقَوْلُهُ: «فَاعْرِضْ عَنْهُمْ» أَيُّ اصْفَحْ عَنْهُمْ، وَاحْلُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ، وَلَا تُكْشِفْ أُمُورَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ أَيْضًا «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» أَيُّ: كَفَى بِهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا، لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَتَانَا بِهِ.

«أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»<sup>(٨)</sup> وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»<sup>(٩)</sup> [الْقُرْآنُ حَقٌّ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لَهُمْ بِتَذَكُّرِ الْقُرْآنِ وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَعَنْ تَفَهُمِ مَعَانِيهِ الْمُحْكَمَةِ وَالْأَفَاطِلِهِ الْبَلِيغَةِ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا اضْطِرَابَ، وَلَا تَضَادَّ وَلَا تَعَارُضَ لِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ حَقٍّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالًا» [محمد: ٢٤]، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ» أَيُّ لَوْ كَانَ مُفْتَعَلًا مُخْتَلَفًا، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ مِنْ جَهْلَةٍ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَوَاطِينِهِمْ «لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا»، أَيُّ اضْطِرَابًا وَتَضَادًا «كَثِيرًا»، أَيُّ وَهَذَا سَالِمٌ مِنَ الْإِخْتِلَافِ، فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ حَيْثُ قَالُوا: «ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» [آل عمران: ٧] أَيُّ مُحْكَمُهُ وَمُتَشَابِهُهُ حَقٌّ، فَلِهَذَا رَدُّوا الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ فَاهْتَدَوْا، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رِيعٌ رَدُّوا الْمُحْكَمَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ فَعَوَّوْا، وَلِهَذَا مَدَحَ تَعَالَى الرَّاسِخِينَ وَدَمَّ الرَّافِعِينَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا

(١) أحمد: ١٨١/٢ (٢) أحمد: ١٩٢/٢ (٣) مسلم: ٤/

٢٠٥٣ والنسائي في الكبرى: ٣٣/٥ (٤) مسلم: ١٠/١ (٥)

أبو داود: ٢٢٦/٥ (٦) مسلم: ٥ وأبو داود: ٤٩٩٢ (٧)

مسلم: ٩/١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٢

سُورَةُ النِّسَاءِ

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ  
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ  
فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ  
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا أَنْ  
تَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ  
حَتَّى يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ  
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾  
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ  
حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ  
اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْتُلُوكُمْ فَإِنْ عَذَّرُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا  
وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾  
سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ  
مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعِزُّوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ  
السَّلَامَ وَيَكْفُمُوا أَيْدِيَهُمْ فَاخْذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ  
تَقْبَضْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

الَّتِي وُلِدَ فِيهَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُبَشِّرُ النَّاسَ  
بِذَلِكَ؟ فَقَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ  
لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ  
وَسْطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ  
تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ  
وَمَعَاذٍ<sup>(٧)</sup> وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، نَحْوَ ذَلِكَ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ  
الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ  
بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا وَنَبِيًّا،  
وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، قَالَ: فَحَبَّبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ:  
أَعِدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَا مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي

الْآيَةِ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ، وَلَوْ  
رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ  
مِنْهُمْ﴾ فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ<sup>(١)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ:  
يَسْتَنْبِطُونَهُ أَيْ يَسْتَخْرِجُونَهُ [وَيَسْتَعْمِلُونَهُ] مِنْ مَعَادِينِهِ،  
يُقَالُ: اسْتَنْبَطَ الرَّجُلُ الْعَيْنَ إِذَا حَفَرَهَا وَاسْتَخْرَجَهَا مِنْ  
فُجُورِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قَالَ عَلِيُّ  
ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup>.

﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى  
اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسْ أُولَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ  
تَنْكِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ  
يَنْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
مُقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِخِطَابٍ فَاخْرَجُوا بِحَسَنِ مِنْهَا أَوْ رَدُّوْهَا إِنْ  
اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

[أَمْرُ اللَّهِ رَسُولُهُ بِأَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ  
بِنَفْسِهِ، وَمَنْ نَكَلَ عَنْهُ فَلَا عَلَيْهِ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا  
تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،  
قَالَ: سَأَلْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ عَنِ الرَّجُلِ يَلْقَى مِائَةً مِنَ  
الْعَدُوِّ فَيُقَاتِلُ أَبْيَكُونَ مِمَّنْ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى  
الْهَلَكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؟ قَالَ: قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّ ﷺ:  
﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.  
وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ  
عِيَّاشٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: قُلْتُ لِلْبَرَاءِ: الرَّجُلُ يَحْمِلُ  
عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أَهُوَ مِمَّنْ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟ قَالَ:  
لَا، لِأَنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولَهُ ﷺ وَقَالَ: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا  
تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾. إِنَّمَا ذَلِكَ فِي التَّفَقُّةِ<sup>(٣)</sup>.

[تَحْرِيزُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ عَلَى الْقِتَالِ، وَرَغَبُهُمْ  
فِيهِ، وَشَجْعُهُمْ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ لَهُمْ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ  
يُسَوِّي الصُّفُوفَ: «قُومُوا إِلَى جَنَّتِهِ عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ  
وَالْأَرْضُ»<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي التَّرغِيبِ فِي  
ذَلِكَ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ  
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ  
أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ

(١) فتح الباري: ١٨٧/٩ ومسلم: ١١٠٥/٢ (٢) الطبري: ٨/٥٧٥ (٣) أحمد: ٢٨١/٤ (٤) مسلم: ١٥١٠/٣ (٥) فتح  
الباري: ١٤/٦ (٦) تحفة الأحوي: ٢٣٧/٧ (٧) ابن ماجه: ١٤٤٨/٢

فَأَمَّا أَهْلُ الذِّمَّةِ فَلَا يُّدُّونَ بِالسَّلَامِ وَلَا يُرَادُونَ، بَلْ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْيَهُودُ فَلِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقُلْ: وَعَلَيْكَ»<sup>(٨)</sup>. وفي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاصْطَرُّوهُمْ إِلَى أَصِيْقِهِ»<sup>(٩)</sup>.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَذَلَّكُمْ عَلَى أَمْرِ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» إِبْخَارٌ بِتَوْحِيدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَنَصَمَنَ قَسَمًا لِقَوْلِهِ: «لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» وَهَذِهِ اللَّامُ مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، فَقَوْلُهُ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» خَبَرٌ وَقَسَمٌ أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» أَيُّ لَا أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَدِيثِهِ وَخَبَرِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي اللَّتَائِفِينَ فَتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) وَدَوَّ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَحِّدُوا مِنْهُمْ وَبَلَا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَهُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتْلُوكُمْ فَلِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمَّ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْتُمْ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ الْعَرَبِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا

الْجَنَّةَ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١١)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلُهُ: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» أَيُّ بِتَحْرِيفِكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى الْقِتَالِ تَنْبَعُ هِمُّهُمْ عَلَى مُنَاجَرَةِ الْأَعْدَاءِ. وَمُدَافَعَتِهِمْ عَنْ حَوَازَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ وَمُصَابِرَتِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّلًا» أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ»... الآية [محمد: ٤].

### [الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ]

وَقَوْلُهُ: «مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا» أَيُّ مَنْ سَعَى فِي أَمْرِ، فَيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، «وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا» أَيُّ يَكُونُ عَلَيْهِ وَزْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الَّذِي تَرَتَّبَ عَلَى سَعْيِهِ وَيَنْتَبِهَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ»<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي شَفَاعَاتِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ<sup>(١٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ وَعَطِيَّةٌ وَقَتَادَةُ وَمَطَرُ الْوَرَّاقِ: «مُقِيمًا» أَيُّ حَافِظًا<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَهِيدًا، وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: حَاسِبًا<sup>(١٥)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِرَدِّ السَّلَامِ بِأَحْسَنِ مِنْهُ]

وَقَوْلُهُ: «وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَجَهِدُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا» أَيُّ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْمُسْلِمُ فَرُدُّوا عَلَيْهِ أَفْضَلَ مِمَّا سَلَّمَ، أَوْ رُدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمَ، فَالزِّيَادَةُ مَذْبُوحَةٌ، وَالْمِثَالُ مَفْرُوضَةٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «عَشْرًا»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ»<sup>(١٦)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ وَابْنُ أَبِي عَرِيبٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَعَلِيِّ وَسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ<sup>(١٧)</sup>. فَإِنْ بَلَغَ الْمُسْلِمُ غَايَةَ مَا شَرَعَ فِي السَّلَامِ، رَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا قَالَ.

(١) مسلم: ١٥٠١/٣ (٢) فتح الباري: ٣٥١/٣ (٣) الطبري:

٥٨١/٨ (٤) الطبري: ٥٨٣/٨ (٥) الطبري: ٥٨٣/٨ (٦)

أحمد: ٤٣٩/٤ (٧) أبو داود: ٣٧٩/٥ وتحفة الأحوذى: ٧/

٤٦٣ وكشف الأستار: ٤١٨/٢ (٨) فتح الباري: ٢٩٣/١٢

ومسلم: ١٧٠٦/٤ (٩) مسلم: ١٧٠٧/٤ (١٠) أبو داود: ٥/

قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ  
وَلَا يَقُولُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ  
حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا  
مُبِينًا ﴿٩١﴾

[التَّكْبِيرُ عَلَى اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ فِيمَنْ رَجَعَ مِنْ أُحُدٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَكَبِّرًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي اخْتِلَافِهِمْ فِي  
الْمُتَافِقِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ: وَاخْتَلَفَ فِي سَبَبِ ذَلِكَ فَرَوَى  
الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ  
إِلَى أُحُدٍ فَرَجَعَ نَاسٌ خَرَجُوا مَعَهُ، فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ يَقُولُ: نَقْتُلُهُمْ، وَفِرْقَةٌ يَقُولُ:  
لَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾. فَقَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا طَبِئَةٌ وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الْكِبْرُ  
خَبَثَ الْحَدِيدِ»<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ  
العوفي عن ابن عباس: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا بِمَكَّةَ قَدْ  
تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، وَكَانُوا يُظَاهِرُونَ الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجُوا  
مِنْ مَكَّةَ يَطْلُبُونَ حَاجَةً لَهُمْ فَقَالُوا: إِنْ لَقِينَا أَصْحَابَ  
مُحَمَّدٍ فَلَيْسَ عَلَيْنَا مِنْهُمْ بَأْسٌ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا أُخْبِرُوا  
أَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ، قَالَتْ فِتْنَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: أُرْكَبُوا  
إِلَى الْجُبْنَاءِ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُظَاهِرُونَ عَلَيْكُمْ عَدُوَّكُمْ،  
وَقَالَتْ فِتْنَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: سُبْحَانَ اللَّهِ - أَوْ كَمَا  
قَالُوا - أَتَقْتُلُونَ قَوْمًا قَدْ تَكَلَّمُوا بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُمْ بِهِ؟

[أ] مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُهَاجِرُوا وَلَمْ يَتْرَكُوا دِيَارَهُمْ، تُسْتَحَلُّ  
دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ؟ فَكَانُوا كَذَلِكَ فِتْنَتَيْنِ، وَالرُّسُولُ عَنْدهُمْ  
لَا يَنْهَى وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنْ شَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَمَا  
لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أَيَّ رَدَّهُمْ  
وَأَوْقَعَهُمْ فِي الْخَطِإِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أَيَّ  
أَوْقَعَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أَيَّ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ  
وَمُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا  
مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أَيَّ لَا طَرِيقَ  
لَهُ إِلَى الْهُدَى وَلَا مَخْلَصَ لَهُ إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ  
كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أَيَّ هُمْ يَوَدُّونَ لَكُمْ الضَّلَالَةَ  
لِتَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ  
وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى  
يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيَّ تَرَكُوا الْهَجْرَةَ. قَالَهُ  
العوفي عن ابن عباس<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ.

وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ  
مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى  
أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ  
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ  
مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ  
إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ  
فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ  
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا  
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَأْتِيهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتِلُوا وَلَا تَقُولُوا  
لِمَنْ أَلْفَحَ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ  
عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَارِمُ كَثِيرَةٌ  
كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ  
فَتَقَاتِلُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

[مَنْ يُقَاتِلُ وَمَنْ لَا يُقَاتِلُ؟]

ثُمَّ اسْتَنْتَى اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى  
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ إِلَى الَّذِينَ لَجَأُوا وَتَحَيَّرُوا إِلَى  
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَهَادَنَةٌ، أَوْ عَقْدَ ذِمَّةٍ فَاجْعَلُوا حُكْمَهُمْ  
كَحُكْمِهِمْ. وَهَذَا قَوْلُ السُّدِّيِّ وَابْنِ زَيْدٍ وَابْنِ جَرِيرٍ<sup>(٦)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي قِصَّةِ ضَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ: فَكَانَ  
مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي ضَلْحِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ... وَمَنْ  
أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي ضَلْحِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ  
وَعَهْدِهِمْ...<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:  
نَسَخَهَا قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَكْثَرُ الْأَقْثَرُ فَأَقْبَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ  
وَجَدْتُمُوهُمْ﴾<sup>(٨)</sup>... الْآيَةُ [التوبة: ٥].

(١) أحمد: ١٨٤/٥ (٢) فتح الباري: ١١٥/٤ ومسلم: ٢/١٠٠٧ (٣) الطبري: ١٠/٩ ضعيف العوفي وعائلته كلهم  
ضعفاء (٤) الطبري: ١٥/٩ (٥) الطبري: ١٧/٩ (٦)  
الطبري: ١٩/٩ (٧) فتح الباري: ٣٨٨/٥ وأحمد: ٣٢٥/٤  
(٨) الطبري: ١٨/٩

يَجِدُ قَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُكَاتِبَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَاتَ اللَّهُ  
عَلَيْهَا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَدًّا  
فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ  
وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾  
[حُكْمُ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ خَطَا]

يَقُولُ تَعَالَى: لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِرَجْوَةٍ  
مِّنَ الرُّجُوعِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا  
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّيَ رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ  
بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ  
لِلْجَمَاعَةِ»<sup>(٣)</sup>. ثُمَّ إِذَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ، فَلَيْسَ  
لِأَحَدٍ مِنْ أَحَادِ الرِّعْيَةِ أَنْ يَقْتُلَهُ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ أَوْ  
نَائِبِهِ. وَقَوْلُهُ: «إِلَّا خَطَا» قَالُوا: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُّتَقَطِعٌ،  
وَاخْتِلَفَ فِي سَبَبِ تَرْوِيلِ هَذِهِ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ:  
نَزَلَتْ فِي عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَيْعَةَ أَخِي أَبِي جَهْلٍ لِأُمِّهِ، وَهِيَ  
أَسْمَاءُ بِنْتُ مُحَرَّبَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا يُعَذِّبُهُ مَعَ أَخِيهِ  
عَلَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الْخَارِثُ بْنُ يَزِيدَ الْعَامِرِيُّ، فَأَصْمَرَ لَهُ  
عِيَّاشُ السُّوءَ، فَأَسْلَمَ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَهَاجَرَ، وَعِيَّاشُ لَا  
يَشْعُرُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ رَأَى فَظْرًا أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ فَحَمَلَ  
عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٤)</sup>. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ  
زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي الدَّرْدَاءِ لِأَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا وَقَدْ  
قَالَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ حِينَ رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ، فَأَهْوَى بِهِ إِلَيْهِ  
فَقَالَ كَلِمَتَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِنَّمَا قَالَهَا  
مُتَعَوِّذًا فَقَالَ لَهُ: «هَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟»<sup>(٥)</sup>. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ  
فِي الصَّحِيحِ لِغَيْرِ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

وَقَوْلُهُ: «وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ  
وَدِيَّةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» هَذَانِ وَاجِبَانِ فِي قَتْلِ الْخَطَا،  
أَحَدُهُمَا: الْكُفَّارَةُ لِمَا ارْتَكَبَهُ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَإِنْ كَانَ  
خَطَا، وَمِنْ شَرْطِهَا أَنْ تَكُونَ عِنْتُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَلَا تَجْزِيءُ  
الْكَافِرَةُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَّهُ  
جَاءَ بِأَمَةٍ سَوْدَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَلَيَّ عِنْتُ رَقَبَةٍ  
مُّؤْمِنَةٍ، فَإِنْ كُنْتُ تَرَى هَذِهِ مُؤْمِنَةً أَعْتَقْتُهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ  
اللَّهِ: «أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ:

وَقَوْلُهُ: «أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ»... الْآيَةُ،  
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ آخَرُونَ مِنَ الْمُشْكِنِينَ عَنِ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ،  
وَهُمُ الَّذِينَ يَجِيئُونَ إِلَى الْمَصَافِّ وَهُمْ حَصْرَةٌ صُدُورُهُمْ،  
أَيُّ ضَبَقَتْ صُدُورُهُمْ، مُبْغِضِينَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ، وَلَا يَهْوُونَ  
عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ مَعَكُمْ، بَلْ هُمْ لَا لَكُمْ  
وَلَا عَلَيْكُمْ «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتَلُوكُمْ» أَيُّ مِنْ  
لُطْفِهِ بِكُمْ أَنْ كَفَّهُمْ عَنْكُمْ «فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْفَوْا  
إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ» أَيُّ الْمُسَالَمَةِ «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ  
سَبِيلًا» أَيُّ فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ مَا دَامَتْ حَالُهُمْ  
كَذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ كَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ بَنِي  
هَاشِمٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَحَضَرُوا الْقِتَالَ وَهُمْ كَارِهُونَ،  
كَالْعَبَّاسِ وَنَحْوِهِ وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَتْلِ  
الْعَبَّاسِ وَأَمَرَ بِأَسْرِهِ، وَقَوْلُهُ: «سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ  
يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ» الْآيَةُ، هَؤُلَاءِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ  
كَمَنْ تَقَدَّمَهُمْ، وَلَكِنْ نِيَّةُ هَؤُلَاءِ غَيْرُ نِيَّةِ أَوْلَيْكَ، فَإِنَّ  
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّنَافِقُونَ: يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَاَصِحَابِهِ  
الْإِسْلَامَ، لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ  
وَذَرَارِيِّهِمْ، وَيُضَافِعُونَ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ، فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ  
مَا يَعْبُدُونَ، لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مَعَ  
أَوْلَيْكَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا  
مَعَكُمْ»... الْآيَةُ [البقرة: ١٤]، وَقَالَ هَهُنَا: «كُلُّ مَا رَدُّوا  
إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا» أَيُّ انْهَمَكُوا فِيهَا. وَقَالَ السُّدِّيُّ:  
الْفِتْنَةُ - هَهُنَا - الشُّرْكُ<sup>(١)</sup>. وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا  
نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيُسَلِّمُونَ  
رَبَّاءَ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قُرَيْشٍ فَيَرْتَكِبُونَ فِي الْأَوْتَانِ، يَنْتَعُونَ  
بِذَلِكَ أَنْ يَأْمَنُوا هَهُنَا وَهَهُنَا، فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ إِنْ لَمْ يَغْتَرِلُوا  
وَيُضْلِحُوا<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَإِنْ لَمْ يَغْتَرِلُوا وَتَلَفُوا إِلَيْكُمْ  
أَسْلَمَ» الْمُهَادَنَةُ وَالصُّلْحُ، «وَيَكُونُوا أَيْدِيَهُمْ» أَيُّ عَنِ  
الْقِتَالِ، «فَحَذُّوهُمْ» أُسْرَاءُ، «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ يَفْقَهُوهُمْ» أَيُّ  
أَيْنَ لَقِيتُمُوهُمْ، «وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا» أَيُّ  
بَيِّنًا وَاضِحًا.

«وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا  
خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» إِلَّا أَنْ  
يَصْكَفُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ  
رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّبْرَئٌ  
فَدِيَّةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ

(١) الطبري: ٢٨/٩ (٢) الطبري: ٢٧/٩ (٣) فتح الباري:

٢٠٩/١٢ ومسلم: ١٣٠٢/٣ (٤) الطبري: ٣٢/٩ (٥)

الطبري: ٣٤/٩

مَرَضٍ أَوْ حَيْضٍ أَوْ نَفَاسٍ اسْتَأْنَفَ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَوَكَّبَهُ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيُّ هَذِهِ تَوَكُّبُهُ الْقَاتِلُ خَطَا إِذَا لَمْ يَجِدِ الْعِنَقَ صَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ.

### [الْوَعْدُ عَلَى قَتْلِ الْعَمْدِ]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حُكْمَ الْقَتْلِ الْخَطِئِ شَرَعَ فِي بَيَانِ حُكْمِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا... آيَاتِهِ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعْدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَعَالَى هَذَا الذَّنْبَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ مَقْرُونٌ بِالْشَّرِكِ بِاللَّهِ فِي غَيْرِ مَا آتَى فِي كِتَابِ اللَّهِ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾... آيَاتِهِ [الفرقان: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ قَاتِلُوا أَوْلَادَكُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾... آيَاتِهِ [الأنعام: ١٥١]، وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْقَتْلِ كَثِيرَةٌ جِدًّا: فَمِنْ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»<sup>(٥)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنَقًا (مُسْرَعًا فِي الطَّاعَةِ) صَالِحًا مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَغَ»<sup>(٦)</sup> (وَقَعَ فِي الْهَلَكَةِ). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»<sup>(٧)</sup>.

### [هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَةُ قَاتِلِ الْعَمْدِ؟]

وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَرَى أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لِقَاتِلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: اخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الْكُوفَةِ، فَوَحَلْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ، وَمَا نَسَخَهَا شَيْءٌ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٩)</sup>. وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ

«أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَتُؤْمِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَغْنَيْهَا»<sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَجَهَالَةٌ الصَّحَابِيِّ لَا تَضُرُّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ هُوَ الْوَاجِبُ الثَّانِي فِيمَا بَيْنَ الْقَاتِلِ وَأَهْلِ الْقَتِيلِ عَوَضًا لَهُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ قَرِيبِهِمْ، وَهَذِهِ الدِّيَّةُ إِنَّمَا تَجِبُ أَخْمَاسًا، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشُّنَنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دِيَةِ الْخَطِئِ عَشْرِينَ بَنَتَ مَخَاضٍ، وَعَشْرِينَ بَنَى مَخَاضٍ ذُكُورًا، وَعَشْرِينَ بَنَتَ لَبُونٍ، وَعَشْرِينَ جَذَعَةً، وَعَشْرِينَ حَقَّةً، لَفْظُ النَّسَائِيِّ<sup>(٢)</sup>. وَهَذِهِ الدِّيَّةُ إِنَّمَا تَجِبُ عَلَى عَاقِلَةٍ الْقَاتِلِ لَا فِي مَالِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: اقْتَتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هَذِلٍ فَرَمَتِ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَضَى أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ عَبْدًا أَوْ أَمَةً، وَقَضَى بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا يَقْضِي أَنَّ حُكْمَ عَمْدِ الْخَطِئِ حُكْمُ الْخَطِئِ الْمُخْضِ فِي وُجُوبِ الدِّيَةِ، لَكِنْ هَذَا تَجِبُ فِيهِ الدِّيَةُ أَثْلَانًا كَالْعَمْدِ لِشَبْهَةِ الْعَمْدِ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَانًا صَبَانًا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُهُمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ»<sup>(٤)</sup>. وَبَعَثَ عَلِيًّا فَوَدَى قَتْلَاهُمْ وَمَا أَتَّفَقَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى مِيلَعَةِ الْكَلْبِ. وَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ خَطَا الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ يَكُونُ فِي نَيْبِ الْمَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ أَيُّ فَتَجِبُ فِيهِ الدِّيَةُ مُسْلَمَةً إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقُوا بِهَا، فَلَا تَجِبُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أَيُّ إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ مُؤْمِنًا، وَلَكِنْ أَوْلِيَاؤُهُ مِنَ الْكُفَّارِ أَهْلُ حَرْبٍ، فَلَا دِيَةَ لَهُمْ، وَعَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا غَيْرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حِمٌّ﴾... آيَاتِهِ، أَيُّ فَإِنْ كَانَ الْقَتِيلُ أَوْلِيَاؤُهُ أَهْلُ دِمَّةٍ أَوْ هُدْنَةٍ، فَلَهُمْ دِيَةٌ قَتِيلِهِمْ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا فِدِيَةٌ كَامِلَةٌ، وَجِبَتْ أَيْضًا عَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أَيُّ لَا إِفْطَارَ بَيْنَهُمَا بَلْ يَسْرُدُ صَوْمَهُمَا إِلَى آخِرِهِمَا، فَإِنْ أَفْطَرَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ مِنْ

(١) أحمد: ٤٥١/٣ (٢) النسائي: ٤٧٩٩ وأحمد ٣٨٤/١ وأبو داود: ٤٥٤٥ والترمذي: ١٣٨٦ وابن ماجه: ٢٦٣١ (٣) فتح الباري: ١٢/٢٦٣ ومسلم: ١٣٠٩/٣ (٤) فتح الباري: ٧/٦٥٣ (٥) فتح الباري: ١١/٤٠٢ ومسلم: ١٣٠٤/٣ (٦) جامع المسانيد والسنن: ٧/١٤٣ (٧) تحفة الأحوذى: ٤/٦٥٢ (٨) فتح الباري: ٨/١٠٦ (٩) مسلم: ٤/٢٣١٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٢٦

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»<sup>(٢)</sup>.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا صَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقْتُلُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبْتَعُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

[السلام من علامات الإسلام]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَزْعَى غَنَمًا لَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْنَا إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنَّا، فَعَمَدُوا إِلَيْهِ فَقَتَلُوهُ، وَأَتَوْا بِغَنَمِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾<sup>(٣)</sup> إِلَى آخِرِهَا، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي التَّفْسِيرِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ رَجُلٌ فِي غَنِمَةٍ لَهُ فَلَجَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا غَنِيمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَرَضُ الدُّنْيَا تِلْكَ الْغَنِيمَةُ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿الْسَلَامُ﴾<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي حَذَرْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، [عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَذَرْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِصْمَ فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ، وَمُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ بْنِ قَيْسٍ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِصْمَ، مَرَّ بِنَا عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قُعُودٍ لَهُ، مَعَهُ مُتَبَعٌ (تصغير متاع وهو السلعة وأثاث البيت) لَهُ وَوَطْبٌ (سقاء اللبن) مِنْ لَبَنٍ، فَلَمَّا مَرَّ بِنَا سَلَّمَ عَلَيْنَا، فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ فَقَتَلَهُ، بِسَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمُتَبِعَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ

سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا: أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ تَوْبَةٌ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ تَابَ وَأَتَابَ، وَخَشَعَ وَخَضَعَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَعَوَّضَ الْمَقْتُولَ مِنْ ظُلَامَتِهِ وَأَرْضَاهُ عَنْ [طَلَابَتِهِ] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾... الْآيَةُ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وَهَذَا خَبَرٌ لَا يَجُوزُ نَسْخُهُ وَحَمْلُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَحَمْلُهُ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ خِلَافُ الظَّاهِرِ، وَيَحْتَاجُ حَمْلُهُ إِلَى دَلِيلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾... الْآيَةُ [الزمر: ٥٣]، وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مِنْ كُفْرٍ وَشُرْكَ وَنِفَاقٍ وَقَتْلٍ وَفُسْقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كُلٌّ مِنْ تَابَ أَيْ مِنْ أَى ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْيِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عَدَا الشُّرْكَ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ وَقِيلَهَا لِتَقْوِيَةِ الرَّجَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَبُتِيَ فِي الصَّحِيحَيْنِ خَبَرُ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ ثُمَّ أَرْشَدَهُ إِلَى بَلَدٍ يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ، فَهَاجَرَ إِلَيْهِ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ<sup>(١)</sup>. كَمَا ذَكَرْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَإِنْ كَانَ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَا أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، لِأَنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنَّا الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ وَبَعَثَ نَبِيَّنَا بِالْخَفِيفَةِ السَّمْحَةِ.

فَأَمَّا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾... الْآيَةُ، فَقَدْ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ: هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جَازَاهُ، وَمَعْنَى هَذِهِ الصَّيغَةِ: أَنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جُوزِيَ عَلَيْهِ، وَكَذَا كُلُّ وَعِيدٍ عَلَى ذَنْبٍ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ لِذَلِكَ مُعَارِضٌ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تَمْنَعُ وَصُولَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ إِلَيْهِ عَلَى قَوْلِي أَصْحَابِ الْمُوَازَنَةِ وَالْإِحْبَاطِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا يُسَلِّكُ فِي بَابِ الْوَعِيدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْصَّوَابِ. وَبِتَقْدِيرِ دُخُولِ الْقَاتِلِ إِلَى النَّارِ، إِمَّا عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَنْ وَافَقَهُ: أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لَهُ، أَوْ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ حَيْثُ لَا عَمَلٌ لَهُ صَالِحًا يَنْجُو بِهِ، فَلَيْسَ بِمُخْلَدٍ فِيهَا أَبَدًا، بَلِ الْخُلُودُ هُوَ الْمَكْتُ الطَّوِيلُ،

(١) فتح الباري: ٥٩١/٦ ومسلم: ٢١١٨/٤ (٢) البخاري: ٤٤، ٧٥٠٩ والترمذي: ٢٥٩٨ (٣) أحمد: ٢٧٢/١ (٤) تحفة الأحوذني: ٣٨٦/٨ (٥) الحاكم: ٢٣٥/٢ (٦) فتح الباري: ١٠٧/٨

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِئَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٩٥ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٩٦

### [لَا يَسْتَوِي الْمُجَاهِدُونَ وَالْقَاعِدُونَ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ ٩٥. رَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ رَأَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ فِي الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْلَى عَلَيَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمِيلُهَا عَلَيَّ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ، وَكَانَ أَعْمَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَكَانَ فَخْذُهُ عَلَى فَخْذِي، فَتَقَلَّتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرْضَى فَخْذِي، ثُمَّ شَرَّيْتُ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ ٩٦.

إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ عَنْ بَدْرِ وَالْحَارِثِ إِلَى بَدْرِ، وَلَمَّا نَزَلَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ، قَالَ [أَبُو أَحْمَدُ بْنُ جَحْشٍ] وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ: إِنَّا أَعْمَيَانِ يَارَسُولَ اللَّهِ، فَهَلْ لَنَا رُخْصَةٌ؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، فَهَؤُلَاءِ الْقَاعِدُونَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ٩٥ دَرَجَتٍ مِنْهُ عَلَى الْقَاعِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ. هَذَا لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ٩٧. فَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَانَ مُطْلَقًا، فَلَمَّا نَزَلَ بِوَحْيٍ سَرِيعٍ ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾، صَارَ ذَلِكَ مَخْرَجًا لِدَوَى الْأَعْدَارِ الْمُسِيحَةِ لِتَرْكِ

اللَّهِ ﷻ وَأَخْبَرَنَاهُ الْخَبَرَ نَزَلَ فِيْنَا [الْقُرْآنُ] ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿خَيْرًا﴾ تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ ٩٨.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُقَدَّادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَقَتَلْتُهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتُ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلِ». هَكَذَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ ٩٩. هَذَا الْحَدِيثُ مُعَلَّقًا مُخْتَصَرًا. وَقَدْ رَوَى مُطَوَّلًا مُؤْصَلًا، فَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبُرَّاءُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فِيهَا الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، فَلَمَّا أَتَوْا الْقَوْمَ وَجَدُوهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا. وَبَقِيَ رَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لَمْ يَبْرَحْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَهْوَى إِلَيْهِ الْمُقَدَّادُ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: أَقَتَلْتَ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ وَاللَّهِ لَا ذِكْرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَتَلْتَهُ الْمُقَدَّادُ. فَقَالَ: «ادْعُوا لِي الْمُقَدَّادَ، يَا مُقَدَّادُ، أَقَتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَيْفَ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَدًا؟» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ اسَلِّمْ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَلُونَا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَكَانُهُ كَثِيرٌ ٩٥﴾ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ٩٦، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُقَدَّادِ: «كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَقَتَلْتُهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتُ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلِ» ٩٧. وَقَوْلُهُ: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَكَانُهُ كَثِيرٌ﴾ أَيُّ خَيْرٍ مِمَّا رَغِبْتُمْ فِيهِ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ مِثْلِ هَذَا الَّذِي أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ، وَأَظْهَرَ إِلَيْكُمْ الْإِيْمَانَ، فَتَغَافَلْتُمْ عَنْهُ، وَاتَّهَمْتُمُوهُ بِالْمُضَانَعَةِ وَالتَّبَيُّهِ، لِيَتَبَيَّنُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرُّزْقِ الْحَلَالِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ مَالِ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ قَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالِ كَهَذَا الَّذِي يُسِرُّ إِيْمَانَهُ وَيُخْفِيهِ مِنْ قَوْمِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ أَنَا، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾ [الأنفال: ٢٦]، وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تَسْتَحْفُونَ بِإِيْمَانِكُمْ كَمَا اسْتَحْفَى هَذَا الرَّاعِي بِإِيْمَانِهِ ٩٨.

(١) أحمد: ١١/٦ (٢) البخاري: ٦٨٦٦ (٣) مجمع الزوائد:

٩/٧ (٤) عبد الرزاق: ١٧٠/١ (٥) فتح الباري: ١٠٨/٨

(٦) فتح الباري: ١٠٨/٨ (٧) تحفة الأحودى: ٣٨٨/٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٤

سُورَةُ النِّسَاءِ

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفوَّ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

الْمُتَافِقِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، وَخَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَصِيبُوا فِيمَنْ أَصِيبَ، فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ (٤) غَامَّةً فِي كُلِّ مَنْ أَقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمُشْرِكِينَ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْهَجْرَةِ، وَلَيْسَ مُتَمَكِّنًا مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ، فَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، مُرْتَكِبٌ حَرَامًا، بِالْإِجْمَاعِ وَبِنَصِّ هَذِهِ الْآيَةِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيِ بَتْرِكَ الْهَجْرَةِ ﴿قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ﴾ أَيِ لِمَ مَكَّنْتُمْ هَا هُنَا وَتَرَكْتُمُ الْهَجْرَةَ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ لَا نَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْبَلَدِ، وَلَا الدَّهَابِ فِي الْأَرْضِ ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾... الْآيَةُ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، أَمَّا بَعْدُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ» (٥).

(١) فتح الباري: ٧/٧٣٢ (٢) مسلم: ١٥٠١/٣ (٣) فتح الباري: ٨/١١١ (٤) الطبري: ٩/١٠٨ (٥) أبو داود: ٣/٢٢٤ إسناده ضعيف فيه جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب قال ابن حجر: ليس بالقوي. [تقريب التهذيب].

الْجِهَادِ مِنَ الْعَمَى وَالْعَرَجِ وَالْمَرَضِ، عَنْ مُسَاوَاتِهِمْ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا يَسِرُّهُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ» قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ» (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أَيِ الْجَنَّةِ وَالْجَزَاءِ الْجَزِيلِ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضٍ عَيْنٍ، بَلْ هُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ، فِي غَرْفِ الْجَنَانِ الْعَالِيَاتِ، وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ، وَخُلُولِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ، إِحْسَانًا مِنْهُ وَتَكْرِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفوَّ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

[الْتَّهْيِي عَنْ الْمُكْتَبِ فِي الْمُشْرِكِينَ لِلْقَادِرِينَ عَلَى

الْهَجْرَةِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ، قَالَ: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثُ، فَاتَّخِذْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَهَاجِرًا عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكْثِرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ، فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرِبُ عَنْقَهُ فَيَقْتُلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٣). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي نَاسٍ مِنْ



الْأَعْمَالِ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، ثُمَّ أَكْمَلَ بِذَلِكَ الْعَابِدِ الْمِائَةَ ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ ثُمَّ أَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ. فَلَمَّا ارْتَحَلَ مِنْ بَلَدِهِ مُهَاجِرًا إِلَى الْبَلَدِ الْآخَرِ أَذْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَانْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَ هُوَ لَاءٍ: إِنَّهُ جَاءَ تَائِبًا، وَقَالَ هُوَ لَاءٍ: إِنَّهُ لَمْ يُصَلِّ بَعْدُ، فَأَمَرُوا أَنْ يُقَيِّمُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَقْرَبَ فَهُوَ مِنْهَا، فَأَمَرَ اللَّهُ هَذِهِ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْ هَذِهِ، وَهَذِهِ أَنْ تَبْعُدَ، فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا بِشِيرٍ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ. وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ لَمَّا جَاءَهُ الْمَوْتُ نَاءً بِصَدْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا<sup>(٨)</sup>.

﴿وَإِذَا ضَرَأْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾<sup>(٩)</sup>  
[صَلَاةُ الْقَصْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَأْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي سَافَرْتُمْ فِي الْبِلَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَضًى وَآخَرُونَ يَضُرُّونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...﴾<sup>(١٠)</sup> الْآيَةَ. [المزمل: ٢٠] وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أَي تُخَفِّفُوا فِيهَا مِنْ كَمِّيَّتِهَا بِأَنْ تُجْعَلَ الرُّبَاعِيَّةُ ثُنَائِيَّةً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجِ الْغَالِبِ حَالِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ كَانَ غَالِبُ أَصْفَارِهِمْ مَخُوفَةً، بَلْ مَا كَانُوا يَنْهَضُونَ إِلَّا إِلَى غَزْوٍ عَامٍّ، أَوْ فِي سَرِيَّةٍ خَاصَّةٍ. وَسَائِرُ [الْأَحْيَاءِ] حَزْبٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَالْمَنْطُوقُ إِذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ أَوْ عَلَى حَادِثَةٍ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَهِكُمْ إِنَّ أَرْدَنَ نَحْوَكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا السُّفَهَاءَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، هَذَا عَذْرٌ مِنَ اللَّهِ لَهُوْلَاءٍ فِي تَرْكِ الْهَجْرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ قَدَرُوا مَا عَرَفُوا يَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي طَرِيقًا<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْتَوْهُمْ عَنْهُ﴾ أَي يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ بِتَرْكِ الْهَجْرَةِ. وَعَسَى مِنَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَمُوًّا عَفُوًّا﴾. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الْعِشَاءَ إِذْ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِينَى يُوسُفَ»<sup>(١٢)</sup>.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: أَتَبْنَا أَبُو النُّعْمَانِ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا السُّفَهَاءَ﴾ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنْ عَذْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(١٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، هَذَا تَحْرِيطٌ عَلَى الْهَجْرَةِ وَتَرْغِيبٌ فِي مُفَارَقَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَجَدَ عَنْهُمْ مَدْوَحَةً وَمَلْجَأً يَتَحَصَّنُ فِيهِ، وَالْمُرَاعَمُ مُصَدَّرٌ تَقُولُ الْعَرَبُ: رَاعِمٌ فَلَانٌ قَوْمُهُ مُرَاعِمًا وَمُرَاعِمَةً. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُرَاعَمُ: التَّحْوُلُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ<sup>(١٤)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنِ الصَّحَّاحِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَالتَّوْرِيِّ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُرْعَمًا كَثِيرًا﴾ يَعْنِي مُتَزَحِّحًا عَمَّا يَكْرَهُ. قَوْلُهُ: ﴿سَعَةً﴾ يَعْنِي الرِّزْقَ. قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ قِتَادَةٌ حَيْثُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ إِي [وَاللَّهُ] مِنَ الصَّلَاةِ إِلَى الْهَدْيِ، وَمِنْ الْقِلَّةِ إِلَى الْغِنَى<sup>(١٦)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي وَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَنَزَلِهِ بِنِيَّةِ الْهَجْرَةِ فَمَاتَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَنْ هَاجَرَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَّاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالشُّنَنِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»<sup>(١٧)</sup>. وَهَذَا عَامٌّ فِي الْهَجْرَةِ وَفِي جَمِيعِ

(١) الطبري: ١١١/٩ (٢) فتح الباري: ١١٣/٨ (٣) فتح الباري: ١١٣/٨ (٤) الطبري: ١١٩/٨ (٥) الطبري: ٨/١١٩، ١٢٠ (٦) الطبري: ١٢١/٩ (٧) فتح الباري: ١٦٤/١ (٨) ومسلم: ١٥١٥/٣ وأبو داود: ٦٥١/٢ وتحفة الأحوذ: ٥/٢٨٣ والنسائي: ٧١٣/٧ وابن ماجه: ١٤١٣/٢ وأحمد: ٢٥/١ (٩) فتح الباري: ٥٩١/٦ ومسلم: ٢١١٨/٤

فَرَادَى مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا وَرَجَالًا وَرُكْبَانًا، وَلَهُمْ أَنْ يَمْشُوا وَالْحَالَةَ هَذِهِ وَيَضْرِبُوا الضَّرْبَ الْمُتَّبَاعَ فِي مَتْنِ الصَّلَاةِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: يُصَلُّونَ وَالْحَالَةَ هَذِهِ رُكْعَةً وَاحِدَةً لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رُكْعَةً. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٩)</sup>. وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ. قَالَ الْمُنْذِرِيُّ فِي الْحَوَاشِي: وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ وَجَابِرٌ وَالْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَكَمُ وَقَتَادَةُ وَحَمَّادٌ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ طَاوُسٌ وَالضَّحَّاكُ، وَقَدْ حَكَى أَبُو عَاصِمٍ الْعَبَادِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ نَصْرِ الْمَرْوَزِيِّ: أَنَّهُ يَرَى رَدَّ الصُّبْحِ إِلَى رُكْعَةٍ فِي الْخَوْفِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ حَزْمٍ أَيْضًا. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ: أَمَّا عِنْدَ الْمُسَايِقَةِ فَيُجْزَلُ رُكْعَةً وَاحِدَةً تُؤْمَى بِهَا إِيْمَاءً، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَسَجْدَةً وَاحِدَةً لِأَنَّهَا ذُكِرَ اللَّهُ.

وَلَنَذْكُرَ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَوَّلًا قَبْلَ ذِكْرِ صِفَتِهَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عِيَّاشٍ الزُّرَقِيُّ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغُسْفَانَ، فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ، عَلَيْهِمُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ، فَقَالُوا: لَقَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غَرَّتَهُمْ، ثُمَّ قَالُوا: تَأْتِي عَلَيْهِمُ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، قَالَ: فَتَنَزَّلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قَالَ: فَحَضَرْتُ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذُوا السَّلَاحَ، فَصَفَّنَا خَلْفَهُ صَفَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَكَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامًا يَحْرِسُونَهُمْ، فَلَمَّا سَجَدُوا وَقَامُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا فِي مَكَانِهِمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ هَؤُلَاءِ، وَجَاءَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ

الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ إِسَاءِكُمْ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٢٣]، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَقَدْ آمَنَ [اللَّهُ] النَّاسُ؟ فَقَالَ لِي عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَجِبْتُ وَمَا عَجِبْتُ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»<sup>(١٠)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ، وَلَا يُحْفَظُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوُجُوهِ وَرَجَالِهِ مَعْرُوفُونَ. وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ أَبِي حَنْظَلَةَ الْحَدَّاءِ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنْ صَلَاةِ السَّفَرِ، فَقَالَ: رَكْعَتَانِ، فَقُلْتُ: أَيْنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَنَحْنُ آمِنُونَ؟ فَقَالَ: سُنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١٢)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، قُلْتُ: أَقَمْتُمْ بِمَكَّةَ شَيْئًا؟ قَالَ: أَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا<sup>(١٣)</sup>. وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ الْخَزَاعِيِّ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ بِمِنَى أَكْثَرَ مَا كَانَ النَّاسُ، وَآمَنَهُ رَكْعَتَيْنِ<sup>(١٥)</sup>. وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى ابْنِ مَاجَةَ<sup>(١٦)</sup>. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آمَنَ مَا كَانَ بِمِنَى رَكْعَتَيْنِ<sup>(١٧)</sup>.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنُفِيقَنَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَهُمْ وَالدِّينَ كَفَرُوا لَوْ تَفَلَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

### [بَيَانُ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَأَنْوَاعِهَا]

صَلَاةُ الْخَوْفِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، فَإِنَّ الْعُدُوَّ تَارَةً يَكُونُ تَجَاهَ الْقِبْلَةَ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي غَيْرِ صَوْبِهَا، وَالصَّلَاةُ تَارَةً تَكُونُ رُبَاعِيَّةً، وَتَارَةً ثَلَاثِيَّةً كَالْمَغْرِبِ، وَتَارَةً تَكُونُ ثَنَائِيَّةً كَالصُّبْحِ وَصَلَاةِ السَّفَرِ، ثُمَّ تَارَةً يُصَلُّونَ جَمَاعَةً، وَتَارَةً يَلْتَجِمُ الْحَرْبُ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَمَاعَةِ، بَلْ يُصَلُّونَ

(١) أحمد: ٢٥/١ (٢) مسلم: ٤٧٨/١ وأبو داود: ٧/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٩٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٢٧/٦ وابن ماجه: ٣٣٩/١ (٣) ابن أبي شيبة: ٤٤٧/٢ (٤) فتح الباري: ٢/٢٥٣ (٥) مسلم: ٤٨١/١ وأبو داود: ٢٥/٢ وتحفة الأحوذى: ١١٠/٣ والنسائي: ١٢١/٣ وابن ماجه: ٣٤٢/١ (٦) أحمد: ٣٠٦/٤ (٧) فتح الباري: ٦٥٥/٢ ومسلم: ٤٨٤/١ وأبو داود: ٤٩٣/٢ وتحفة الأحوذى: ٦٢١/٣ والنسائي: ١١٩/٣ (٨) فتح الباري: ٦٥٥/٢ (٩) مسلم: ٦٨٧ وأبو داود: ١٢٤٧ والنسائي: ١٦٩/٣ وابن ماجه: ١٠٦٨

وَاِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ فَاذْأَسْجِدُوا فَلَيْصَلُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٣﴾ فَاِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٥﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٦﴾

لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٦﴾.

﴿فَاِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٥﴾

[الْأَمْرُ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ، وَإِنْ كَانَ مَشْرُوعًا مُرَعَّبًا فِيهِ أَيْضًا -بَعْدَ- غَيْرِهَا، وَلَكِنْ هَهُنَا أَكْثَرُ، لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّخْفِيفِ فِي أَرْكَانِهَا، وَمِنْ الرُّخْصَةِ فِي الدَّهَابِ فِيهَا وَالْإِتَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْأَشْهُرِ

هَؤُلَاءِ، ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَالصَّفُّ الَّذِي بِلَيْهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامَ يَحْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا جَلَسُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ، قَالَ: فَصَلَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً يُعْسِفَانِ، وَمَرَّةً بِأَرْضِ بَنِي سُلَيْمٍ <sup>(١)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ <sup>(٢)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَلَهُ شَوَاهِدٌ كَثِيرَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، فَكَبَّرَ وَكَبَّرُوا مَعَهُ، وَرَكَعَ وَرَكَعَ نَاسٌ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدُوا مَعَهُ، ثُمَّ قَامَ الثَّانِيَةَ، فَقَامَ الَّذِينَ سَجَدُوا وَحَرَسُوا إِخْوَانَهُمْ، وَأَتَتْ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا مَعَهُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ يَحْرُسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا <sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، صَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَقَامَ صَفٌّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَصَفٌّ خَلْفَهُ، فَصَلَّى بِالَّذِي خَلْفَهُ رُكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ حَتَّى قَامُوا فِي مَقَامِ أَصْحَابِهِمْ، وَجَاءَ أُولَئِكَ حَتَّى قَامُوا فِي مَقَامِ هَؤُلَاءِ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، فَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ رُكْعَتَيْنِ، وَلَهُمْ رُكْعَةٌ <sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَهُوَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ بِلَفْظٍ آخَرَ، وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ جَابِرٍ جَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ فِي الصَّحِيحِ وَالسَّنَنِ وَالْمُسَانِيدِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: ﴿وَإِذَا كُنْتُ فِيهِمْ فَأَقَمْتُ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قَالَ: هِيَ صَلَاةُ الْخَوْفِ، صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ رُكْعَةً، وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى مُقْبِلَةً عَلَى الْعُدُوِّ، وَأَقْبَلَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى النَّبِيَّ كَانَتْ مُقْبِلَةً عَلَى الْعُدُوِّ فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكْعَةً أُخْرَى، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ، ثُمَّ قَامَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَصَلَّتْ رُكْعَةً رُكْعَةً <sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرِ بْنِ. وَلِهَذَا الْحَدِيثُ طَرِيقٌ كَثِيرَةٌ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ أَجَادَ الْخَافِظُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ مَرْذُودِيهِ فِي سَرْدِ طَرَفِهِ وَالْفَاطِظِ، وَكَذَا ابْنُ جَرِيرٍ. وَأَمَّا الْأَمْرُ بِحِمْلِ السِّلَاحِ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ فَمَحْمُولٌ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْوُجُوبِ لِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَيَذَلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أَيْ بَحِثْ تَكُونُونَ عَلَى أَهْبَةٍ إِذَا احْتَجَجْتُمْ إِلَيْهَا لَيْسْتُمْوهَا بِلَا كُلْفَةٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ

(١) أحمد: ٦٠، ٥٩/٤ (٢) أبو داود: ٢٨/٢ والنسائي: ٣/ ١٧٧، ١٧٦ (٣) فتح الباري: ٥٠٢/٢ (٤) أحمد: ٢٩٨/٣ والنسائي: ١٧٤/٣ ومسلم: ٨٤٠ (٥) الدر المنثور: ٣٧٥/٢

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ  
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ  
خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ  
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ  
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَآؤُنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ  
عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ  
الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ  
سُوءًا أَوْ يَطْلُبْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا  
رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ  
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا  
ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا  
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ  
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ  
شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ  
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ

يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

[الْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّهُوَ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْحَقَّ فِي  
خَبَرِهِ وَطَلَبِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بَيَّنَّ  
فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، سَمِعَ جَلْبَةَ خَضَمِ بَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ  
إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِمَا  
أَسْمَعُ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ يَحُجِّجُهُ مِنْ بَعْضِ  
فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ  
نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرْهَا»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ  
سَلَمَةَ، قَالَتْ: جَاءَ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ يَخْتَصِمَانِ إِلَى

الْحُرْمِ: ﴿فَلَا تَطْلُبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] وَإِنْ  
كَانَ هَذَا مِنْهَا عَنْهُ فِي غَيْرِهَا، وَلَكِنْ فِيهَا أَكْثَرُ، لِشِدَّةِ  
حُرْمَتِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ  
فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ﴾ أَيُّ فِي سَائِرِ  
أَحْوَالِكُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾  
أَيُّ فَإِذَا أَمِنْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ، وَحَصَلَتِ الطَّمَأْنِينَةُ  
﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيُّ فَأَتِمُّوْهَا وَأَقِيمُوهَا كَمَا أُمِرْتُمْ  
بِحُدُودِهَا، وَخُشُوعِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، وَجَمِيعِ  
شُرُونِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا  
مَوْقُوتًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ مَفْرُوضًا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّ  
لِلصَّلَاةِ وَقْتًا كَوَقْتُ الْحَجِّ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ  
مُجَاهِدٍ وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ  
وَالْحَسَنِ وَمُقَاتِلِ بْنِ السُّدِّيِّ وَعَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ<sup>(٤)</sup>.

[الْحَضُّ عَلَى مُطَارَدَةِ الْعَدُوِّ رَغْمَ الْجِرَاحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهَيَّؤْا فِي بَيْتِغَاةِ الْقَوْمِ﴾ أَيُّ لَا تَضَعُوا  
فِي طَلَبِ عَدُوِّكُمْ، بَلْ جِدُّوا فِيهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ، وَأَقْعُدُوا لَهُمْ  
كُلَّ مَرَصِدٍ ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾  
أَيُّ كَمَا يُصِيبُكُمْ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ كَذَلِكَ يَخْصُلُ لَهُمْ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾  
[آل عمران: ١٤٠].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَجُوعَ مَنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أَيُّ أَنْتُمْ  
وَأَيَّاهُمْ سُوءًا فِيمَا يُصِيبُكُمْ وَإَيَّاهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْآلَامِ،  
وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ الْمُتَوَبَّةَ وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ، كَمَا  
وَعَدَكُمْ إِيَّاهُ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَهُوَ وَعْدٌ  
حَقٌّ، وَخَيْرٌ صِدْقٍ، وَهُمْ لَا يَرْجُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْتُمْ  
أَوْلَى بِالْجِهَادِ مِنْهُمْ، وَأَشَدُّ رَغْبَةً فِي إِقَامَةِ كَلِمَةِ اللَّهِ  
وِإِعْلَانِهَا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيُّ هُوَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ  
فِيمَا يَقْدَرُهُ وَيَقْضِيهِ وَيَقْدُرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنْ أَحْكَامِهِ الْكُوفِيَّةِ  
وَالشَّرْعِيَّةِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ  
اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَافِينَ خَصِيمًا﴾<sup>(٥)</sup> وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ  
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٤﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ  
اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١١٥﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا  
يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ  
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١١٦﴾ هَآؤُنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ

(١) الطبري: ١٦٩/٩ (٢) الطبري: ١٦٩/٩ (٣) الطبري: ٩/٩  
١٦٧، ١٦٨ (٤) فتح الباري: ١٢٨/٥ ومسلم: ٣/٣٣٧

وَكَيْلًا.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَهَا يَريَا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (٤)

[الترغيب في التوبة والاستغفار والوعيد لمن يكسب الإثم أو يرمي به البريء]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَى تَابَ عَلَيْهِ، مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَخْبَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِعَفْوِهِ وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ فَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَعْظَمَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ (٣). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا تَفَعَّنِي اللَّهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَفَعَّنِي مِنْهُ. وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ - وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدَٰلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ» وَفَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾ الْآيَةِ، «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجْسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...» (٤). الْآيَةِ [آل عمران: ١٣٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ...﴾ الْآيَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وَزَدَ أُخْرَىٰ الْآيَةِ [فاطر: ١٨]، يَغْنِي أَنَّهُ لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ لَا يَحْمِلُ عَنْهَا غَيْرَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيُّ مِنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ كَانَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَوَارِيثَ بَيْنَهُمَا قَدْ دَرَسَتْ، لَيْسَ عِنْدَهُمَا بَيِّنَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِشْطَامًا (الحديدة التي تحرك بها النار) فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ مِنْهُمَا: حَقِّي لِأَخِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِذَا قُلْتُمَا قَاذِبًا قَاذِبًا فَاتَّقِسِمَا، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَسِمَا، ثُمَّ لِيُخْلِلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ» (١).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْذُوقٍ، مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنْ نَفَرَا مِنَ الْأَنْصَارِ غَزَاً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ، فَسَرَقَتْ دِرْعٌ لِأَحَدِهِمْ، فَأُطْلِفَ بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَى صَاحِبَ الدَّرْعِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ طُعْمَةَ بَنِ أُبَيْرِقٍ سَرَقَ دِرْعِي، فَلَمَّا رَأَى السَّارِقَ ذَلِكَ عَمَدَ إِلَيْهَا فَأَلْقَاهَا فِي بَيْتِ رَجُلٍ بَرِيءٍ، وَقَالَ لِنَفَرٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ: إِنِّي غَيَّبْتُ الدَّرْعَ وَأَلْقَيْتُهَا فِي بَيْتِ فُلَانٍ، وَسَتُوجَدُ عِنْدَهُ. فَاظْلُقُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ لِيَلَّا يَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنْ صَاحِبَنَا بَرِيءٌ. وَإِنَّ صَاحِبَ الدَّرْعِ فُلَانٌ، وَقَدْ أَحْطَنَّا بِذَلِكَ عِلْمًا، فَاغْدُرْ صَاحِبَنَا عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ وَجَادِلْ عَنْهُ. فَإِنَّهُ إِنْ لَا يَعْصِمُهُ اللَّهُ بِكَ يَهْلِكُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ فَبَرَّاهُ، وَعَذَرَهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ...﴾ الْآيَةِ، هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْمُتَنَافِقِينَ فِي كُذُوبِهِمْ يَسْتَخْفُونَ بِقَبَائِحِهِمْ مِنَ النَّاسِ لِيَلَّا يُنْكَرُوا عَلَيْهِمْ؛ وَيُجَاهِرُونَ اللَّهَ بِهَا، لِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَعَالِمٌ بِمَا فِي صُمَائِرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الْآيَةِ، أَيُّ هَبْ أَنْ هُوَ لَا يَنْصُرُوا فِي الدُّنْيَا بِمَا أَبَدُوهُ أَوْ أَبَدِي لَهُمْ عِنْدَ الْحُكَّامِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالظَّاهِرِ، وَهُمْ مُتَعَبِدُونَ بِذَلِكَ، فَمَاذَا يَكُونُ صَنِيعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَوَكَّلُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي تَرْوِيجِ دَعْوَاهُمْ؟ أَيُّ لَا أَحَدٌ يَكُونُ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ وَكِيلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ

(١) أحمد: ٣٢٠/٦ (٢) ابن جرير (١٠٤٣٥) ورواه الترمذي:

٣٠٣٦، وحسنه الألباني رحمه الله (٣) الطبري: ١٩٥/٩ (٤)

أحمد: ٨/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٧

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدَّنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْتَهُمْ فَلْيَغِيرَتِ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَحِذُونَ عَنْهَا حِصًّا ﴿١٢١﴾

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُضْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيُنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»، وَقَالَتْ: لَمْ أَسْمَعْهُ يُرْخَصُ فِي شَيْءٍ مِّمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: فِي الْحَرْبِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا، قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ اللَّاتِي بَايَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى ابْنِ مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَّامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ»، قَالَ: «وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَلِهَذَا قَالَ: «وَمَن يَفْعَلْ

يَكْسِبُ خَطِيئَةً أَوْ إِنَّمَا تَدْرِي بِهَا، بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بِهِنَّ وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ بِغَيْرِي: كَمَا أَنَّهُمْ بَنُو أُبَيْرِقٍ بِضَعِيحِهِمُ الْقَبِيحَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ لَبِيدُ بْنُ سَهْلٍ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ، أَوْ زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ الْيَهُودِيُّ عَلَى مَا قَالَهُ الْآخَرُونَ، وَقَدْ كَانَ بَرِيئًا وَهُمْ الظَّالِمَةُ الْخَوَنَةُ، كَمَا أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولُهُ ﷺ. ثُمَّ هَذَا التَّقْرِيعُ وَهَذَا التَّوْبِيخُ عَامٌّ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ وَمِمَّنْ انْصَفَ مِثْلَ صِفَتِهِمْ، وَارْتَكَبَ مِثْلَ خَطِيئَتِهِمْ فَعَلَنِيهِ مِثْلَ عُثُوبَتِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ - وَذَكَرَ قِصَّةَ بَنِي أُبَيْرِقٍ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ بِغَيْرِي: أُسِّرَ بَنُ عُرْوَةَ وَأَصْحَابُهُ. بِغَيْرِي بِذَلِكَ لَمَّا أَتَوْا عَلَى بَنِي أُبَيْرِقٍ وَلَا مَوَا قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ فِي كُوزِهِ أَتَاهُمْ، وَهُمْ صَلَحَاءُ بَرَاءَةٍ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا أَتَاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَضْلَ الْقَضِيَّةِ وَجَلَاءَهَا لِرَسُولِهِ ﷺ.

ثُمَّ آمَنَ عَلَيْهِ بِتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَعِظْمَتِهِ لَهُ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَالْحِكْمَةُ، وَهِيَ السُّنَّةُ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أَيَّ قَبْلَ نُزُولِ ذَلِكَ عَلَيْكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، [الشورى: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

### [نَجْوَى الْخَيْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ بِغَيْرِي كَلَامُ النَّاسِ ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أَيَّ إِلَّا نَجْوَى مَنْ قَالَ ذَلِكَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ

(١) أحمد: ٤٠٣/٦ (٢) فتح الباري: ٣٥٣/٥ ومسلم: ٤/ ٢٠١١ وأبو داود: ٢١٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٧٠/٦ والنسائي في الكبرى: ١٩٣/٥ (٣) أحمد: ٤٤٤/٦ وأبو داود: ٤٩١٩ والترمذي: ٢٥٠٩

ذَلِكَ آتِيغَاءَ مَرَصَاتِ اللَّهِ ﴿ أَيْ مُخْلِصًا فِي ذَلِكَ مُحْتَسِبًا  
تَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ  
تَوَابًا جَزِيلًا كَثِيرًا وَاسِعًا .

[جَزَاءٌ مِّنْ شَأْنِ الرَّسُولِ وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أَيْ وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ، فَصَارَ فِي شِقِّ، وَالشَّرْعُ فِي شِقِّ، وَذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ مِنْهُ بَعْدَ مَا ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ وَبَيَّنَّ لَهُ وَاتَّضَعَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَسَّعَ غَدِرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا مَلَا زِمٌ لِلصَّفَةِ الْأُولَى، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْمُخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ، وَقَدْ تَكُونُ لِمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِيمَا عُلِمَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا، فَإِنَّهُ قَدْ ضَمَّنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةَ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْخَطَا، تَشْرِيفًا لَهُمْ وَعَظِيمًا لِنَبِيِّهِمْ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ صَحِيحَةٌ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ نَوَّعَدُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿تُولَاهُ مَا تَوَلَّى وَتُضْلِيهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أَيْ إِذَا سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ جَازَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ نُحَسِّنَهَا فِي صَدْرِهِ وَنُزَيِّنَهَا لَهُ اسْتِدْرَاجًا لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ رَفَى وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْكَلِمِ سَتَدْرِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

[الأنعام: ١١٠] وَجَعَلَ النَّارَ مَصِيرَهُ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ مَنْ  
 خَرَجَ عَنِ الْهُدَى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا إِلَى النَّارِ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَخْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ...  
 الْآيَةِ [الصافات: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَمَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ  
 فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ  
 وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٧١) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ  
 دُونِهِ: إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١٧٢) لَعَنَهُ  
 اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١٧٣) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ  
 وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأُمَرِّئَنَّهُمْ فَلَيُبَيِّضَنَّ أَعْيُنَهُمْ وَلَأُمَرِّئَنَّهُمْ  
 فَلَيُبَيِّضَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ  
 اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١٧٤) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيَنَّهُمْ وَمَا  
 يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٧٥) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا  
 يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٧٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ  
 اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٧٧)

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ  
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ  
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ  
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ  
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ  
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ  
فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ  
أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ  
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا  
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَیَسْأَلُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ  
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ  
الَّتِي لَا تَوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعْبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ  
وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْأَوْلَادِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ  
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

[الشِّرْكُ لَا يُغْفَرُ وَالْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ فِي

[الْحَقِيقَةُ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ...﴾ الْآيَةُ. وَذَكَرْنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيْ فَقَدْ سَلَكَ غَيْرَ الطَّرِيقِ الْحَقِّ، وَصَلَّ عَنِ الْهُدَى وَوَعَدَ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَهْلَكَ نَفْسَهُ وَخَسِرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفَاتَنَتْهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) الطيرى : ٢٠٩/٩

نَعْبُدُهُ، يَعْتَوْنَ الْمَلَائِكَةَ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ شَبِيهُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾... الآيات [النجم: ١٩-٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْسًا﴾... الآية [الزخرف: ١٩]، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجًّا﴾... الآيتين [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَدْعُواكَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وَحَسَنَهُ وَزَيَّنَهُ لَهُمْ، وَهُمْ إِنَّمَا يَعْتَدُونَ إِبْلِيسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾... الآية [يس: ٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْمُسْرِكِينَ الَّذِينَ ادَّعَوْا عِبَادَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أَيُّ طَرْدَهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جَوَارِهِ، وَقَالَ: ﴿لَا تَأْخُذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أَيُّ مُعَيَّنًا مُقَدَّرًا مَعْلُومًا. قَالَ مُقَابِلُ بْنُ حَبَّانٍ: مِنْ

كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ﴾ أَيُّ عَنِ الْحَقِّ، ﴿وَلَا مَيِّتَتُهُمْ﴾ أَيُّ أُرِيزَ لَهُمْ تَرْكُ التَّوْبَةِ، وَأَعِدَّهُمُ الْأَمَانِي، وَأَمَرَهُمُ بِالتَّسْوِيفِ وَالتَّأْخِيرِ، وَأَعَزَّهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَمْرُهُمْ فَلْيَبْتَكَرْ﴾ عَادَاتِ الْأَقْصَرِ. قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: يَغْنِي تَشْقِيقُهَا وَجَعْلُهَا سِمَةً وَعَلَامَةً لِلْحَبِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ<sup>(١)</sup>. ﴿وَلَا مَرِيضَتُهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقُ اللَّهِ﴾، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ: يَغْنِي بِذَلِكَ الْوَشْمُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، النَّهْيُ عَنِ الْوَشْمِ فِي الْوَجْهِ، وَفِي لَفْظٍ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْوَأْشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُنْتَمِصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغْيِرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَغْنِي قَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَتِلْكَ خَسَارَةٌ لَا تَجْبِرُ لَهَا، وَلَا إِسْتِزْدَاكَ لِفَاتِيهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُعْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ أَوْلِيَاءَهُ وَيُعْنِيهِمْ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ كَذَبَ

(١) الطبري: ٢١٤/٩ (٢) مسلم: ١٦١٨/٣ وفتح الباري: ٣٩٢/١٠ (٣) فتح الباري: ٤٩٨/٨



## [النَّجَاحُ لَيْسَ بِالْأَمَانِيِّ بَلْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ]

قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ افْتَحَرُوا، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبَيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكُتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَخَنُّ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَنَبِيُّنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَكُتَابُنَا يَقْضِي عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾ الْآيَةِ، ثُمَّ أَفْلَحَ اللَّهُ حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنِ الشَّدِيِّ وَمَسْرُوقٍ وَالصَّحَّاحِ وَأَبِي صَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: تَخَاصَمَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ، فَقَالَ أَهْلُ التَّوْرَةِ: كِتَابُنَا خَيْرُ الْكُتُبِ، وَنَبِيُّنَا خَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ: لَا دِينَ إِلَّا الْإِسْلَامُ، وَكُتَابُنَا نَسَخَ كُلَّ كِتَابٍ، وَنَبِيُّنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَمِرْتُمْ وَأَمَرْنَا أَنْ تُؤْمِنَ بِكِتَابِكُمْ وَتَعْمَلَ بِكِتَابِنَا، فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ...﴾ الْآيَةِ<sup>(٣)</sup>.

وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحْلِي وَلَا بِالتَّمْنِي، وَلَكِنْ مَا وَفَّرَ فِي الْقُلُوبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ هُوَ الْمُحِقُّ سَمِعَ قَوْلُهُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَكُمْ وَلَا لَهُمْ النَّجَاحُ بِمُجَرَّدِ التَّمْنِي بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَاتَّبَاعَ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٧، ٨] وَقَدْ رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَأَعْلَمُ أَشَدَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «مَا هِيَ يَا عَائِشَةُ؟» قُلْتُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، فَقَالَ: «هُوَ مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ حَتَّى التَّكْبَةُ يُنَكَّبُهَا»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو دَاوُدَ<sup>(٥)</sup>.

رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُّهَا، وَالتَّكْبَةُ يُنَكَّبُهَا»<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ<sup>(٧)</sup>. وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَجِدُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِلَّا أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ<sup>(٩)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الْآيَةِ، لَمَّا ذَكَرَ الْجَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ مُسْتَحِقُّهَا مِنَ الْعَبْدِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْأَجُودُ لَهُ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - وَسَأَلَهُ الْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالصَّفْحُ وَالْعَفْوُ وَالْمُسَامَحَةُ - شَرَعَ فِي بَيَانِ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادِهِ، ذَكَرَانِهِمْ وَإِنَانِهِمْ بِشَرْطِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ سَيَذْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلِمُهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا مِقْدَارَ النَّقِيرِ، وَهُوَ: الثَّقَرَةُ الَّتِي فِي طَهْرٍ نَوَافِ الثَّمَرَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْفَتِيلِ وَهُوَ: الْخَيْطُ الَّذِي فِي شَقِّ النَّوَاةِ، وَهَذَا النَّقِيرُ، وَهُمَا فِي نَوَافِ الثَّمَرَةِ. وَكَذَا الْقَطْمِيرُ وَهُوَ: اللَّفَافَةُ الَّتِي عَلَى نَوَافِ الثَّمَرَةِ. وَالثَّلَاثَةُ فِي الْقُرْآنِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَعَمِلَ إِيمَانًا وَاحِسَابًا، وَهُوَ مُحْسِنٌ أَيُّ اتَّبَعَ فِي عَمَلِهِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، وَمَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ لَا يَصِحُّ عَمَلٌ عَامِلٍ بِدُونِهِمَا، أَيُّ يَكُونُ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِلشَّرِيعَةِ، فَيَصِحُّ ظَاهِرُهُ بِالْمُتَابَعَةِ، وَبَاطِنُهُ بِالْإِخْلَاصِ. فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ أَحَدَ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ، فَمَنْ فَقَدَ الْإِخْلَاصَ كَانَ مُنَافِقًا، وَهُمْ الَّذِينَ يُرَاءَوْنَ النَّاسَ، وَمَنْ فَقَدَ الْمُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا، وَمَتَى جَمَعَهُمَا فَهُوَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ

(١) الطبري: ٢٢٩/٩ (٢) الطبري: ٢٢٩/٩-٢٣١ (٣)

الطبري: ٢٣٠/٩ (٤) الطبري: ٢٤٤/٩ (٥) الطبري: ٩/٩

٢٤٦ وأبو داود: ٤٧١/٣ (٦) سعيد بن منصور: ١٣٧٨/٤

(٧) أحمد: ٢٤٨/٢ (٨) مسلم: ١٩٩٣/٤ وتحفة الأحوذ:

٤٠٠ والنسائي في الكبرى: ٣٢٨/٦ (٩) الطبري: ٢٣٩/٩

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ ذَرَّةٌ لِمَا تَرَاهِ لِلنَّاطِرِينَ وَمَا تَوَارَى.

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمُّ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كَتَبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ وَالْمُسْتَفْتِينَ مِنْ أُولَئِكَ وَأَنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ

عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

### [حُكْمُ النِّسَاءِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ النِّسَاءُ، هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا، قَدْ شَرِكْتُهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعَدَنِ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا، وَيَكْرَهُ أَنْ يُرَوِّجَهَا رَجُلًا فَيَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرِكْتُهُ، فَيُفْضِلُهَا، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الْآيَةَ، قَالَتْ: وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ، الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ اللَّهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]<sup>(٦)</sup>. وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ﴾ رَغَبَهُ أَحَدُكُمْ عَنْ يَتِمُّهُنَّ الَّتِي تَكُونُ فِي حِجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةً الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَتُفْهِمُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ. وَأَصْلُهُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ فِي حِجْرِهِ نِسَاءً يَحِلُّ لَهُ تَزْوِجُهَا، فَتَارَةً يَرْغَبُ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَمَهَّرَهَا أُسْوَةً أَمْثَالِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُعِدِلْ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى الَّتِي فِي أَوَّلِ

سَيِّئَاتِهِمْ - الْآيَةُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَأَتْبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ...﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وَالْحَنِيفُ هُوَ الْمَائِلُ عَنِ الشُّرْكِ قَصْدًا، أَيْ تَارِكًا لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ وَمُقْبِلٌ عَلَى الْحَقِّ بِكُلِّيَّتِهِ، لَا يَصُدُّهُ عَنْهُ صَادٌّ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادٌّ.

### [إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّرْغِيبِ فِي اتِّبَاعِهِ، لِأَنَّهُ إِمَامٌ يُفْتَدَى بِهِ، حَيْثُ وَصَلَ إِلَى غَايَةِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعِبَادُ لَهُ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْخَلَّةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِكثَرَةِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ، كَمَا وَصَفَهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾ الْآيَةُ [البقرة: ١٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمُّهُ قَاتِلًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾ الْآيَةُ وَالْآيَةُ بَعْدَهَا [النحل: ١٢٠، ١٢١]، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: إِنَّ مُعَاذًا لَمَّا قَدِمَ الْيَمَنَ صَلَّى بِهِمْ الصُّبْحَ، فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: لَقَدْ قَرَأْتُ عَيْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ<sup>(٨)</sup>. وَإِنَّمَا سَمِيَ خَلِيلَ اللَّهِ لِشِدَّةِ مَحَبَّةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، لِمَا قَامَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي يُجِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَطَبَهُمْ فِي آخِرِ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا، قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»<sup>(٩)</sup>.

وَجَاءَ مِنْ طَرِيقٍ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجَلِّيِّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ الْجَمِيعِ مُلْكُهُ وَعَيْدُهُ وَخَلْقُهُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، لَا رَادَّ لِمَا قَضَى، وَلَا مُعَقِّبٌ لِمَا حَكَمَ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ وَلَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِي كُلَّ شَيْءٍ مُخِطًا﴾ أَيِ عِلْمُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ حَافِيَةٌ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا يَغْرُبُ عَنْ عِلْمِهِ

(١) فتح الباري: ٦٦٢/٧ (٢) فتح الباري: ١٥/٧ ومسلم: ٤/

١٨٥٤ (٣) مسلم: ٣٧٧/١ وابن ماجه: ٥٠/١ ومسلم: ٤/

١٨٥٥ (٤) فتح الباري: ١١٤/٨ (٥) مسلم: ٣٠١٨ (٦)

الطبري: ٢٥٨/٩ (٧) فتح الباري: ٦/٩ ومسلم: ٢٣١٣/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِيًا خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِيًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَكَانِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أَيُّ مِنَ الْفِرَاقِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أَيُّ الصُّلْحِ عِنْدَ الْمُشَاحَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يُطْلَقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تُطْلِقْنِي، وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ فَعَلَّ، وَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾... الْآيَةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا اضْطَلَحَا عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ جَائِزٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٥)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا كَبُرْتُ سَوْدَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ

السُّورَةِ. وَتَارَةً لَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِيهَا رَغْبَةٌ لِدِمَامَتِهَا عِنْدَهُ أَوْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَهَآءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْضَلَهَا عَنْ الْأَزْوَاجِ خَشْيَةً أَنْ يَشْرُكُوهُ فِي مَالِهِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿فِي يَتَمَتَّى النِّسَاءَ﴾... الْآيَةَ، كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِمَةُ فَيُلْقِي عَلَيْهَا ثَوْبَهُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا أَبَدًا، فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً وَهَوِيَهَا تَزَوَّجَهَا، وَأَكَلَ مَالَهَا، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً مَنَعَهَا الرِّجَالُ أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ، فَإِذَا مَاتَتْ وَرِثَهَا. فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَنَهَى عَنْهُ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالنِّسَاءُ يَتَمَتَّى مِنْ أَوْلَادِنَ﴾ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُورَثُونَ الصَّغَارَ وَلَا الْبَنَاتِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تُؤْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَبَيَّنَ لِكُلِّ ذِي سَهْمٍ سَهْمَهُ، فَقَالَ: ﴿لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ<sup>(٢)</sup> وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِيَتَمَتَّى بِالْقِسْطِ﴾ كَمَا إِذَا كَانَتْ ذَاتُ جَمَالٍ وَمَالٍ نَكَحَتْهَا وَاسْتَأْثَرَتْ بِهَا، كَذَلِكَ إِذَا لَمْ تَكُنْ ذَاتُ مَالٍ وَلَا جَمَالٍ فَانْكِحْهَا وَاسْتَأْثِرْ بِهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تَهْيِيجًا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَامْتِنَالِ الْأَمْرِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرُ الْجَزَاءِ وَأَتَمُّهُ.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِيًا خَبِيرًا﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِيًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

### [أَحْكَامُ نُشُورِ الزَّوْجِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَمُشَرِّعًا عَنْ حَالِ الزَّوْجَيْنِ، تَارَةً فِي حَالِ نُفُورِ الرَّجُلِ عَنِ الْمَرْأَةِ، وَتَارَةً فِي حَالِ اتِّفَاقِهِ مَعَهَا، وَتَارَةً فِي حَالِ فِرَاقِهِ لَهَا، فَالْحَالَةُ الْأُولَى مَا إِذَا خَافَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَنْفِرَ عَنْهَا أَوْ يُعْرِضَ عَنْهَا، فَلَهَا أَنْ تُسْقِطَ عَنْهُ حَقَّهَا أَوْ بَعْضَهُ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ كِسْفَةٍ أَوْ مَسِيَّتٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ، وَلَهُ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهَا، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا ذَلِكَ لَهُ، وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ٩/ ٢٦٤ (٢) الطبري: ٩/ ٢٥٥ (٣) الطبري: ٩/ ٢٥٥ (٤) مسند الطيالسي: ٣٤٩ إسناده ضعيف لأن رواية سماك ابن حرب عن عكرمة مضطربة قال ابن حجر: صدوق وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة وقد تغير بآخره فكان ربما يلقن [تقريب التهذيب] لكن أصل الحديث في الصحيحين أنظر ما بعده. (٥) تحفة الأحوذى: ٨/ ٤٠٣

وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْسِمُ لَهَا يَوْمَ سَوْدَةَ<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ نَحْوَهُ<sup>(٢)</sup>.  
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ «وَلَمَّا أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا وَاعْتَصَمَ بِهَا، قَالَتْ: الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْمُسِنَّةَ لَيْسَ بِمُسْتَكْبِرٍ مِنْهَا يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا فَتَقُولُ: أَجْعَلْكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(٣)</sup>».

[مَعْنَى «وَالصُّلْحُ حَيْرٌ»]

وَقَوْلُهُ: «وَالصُّلْحُ حَيْرٌ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني التَّخْيِيرَ: أَنْ يُخَيَّرَ الزَّوْجُ لَهَا بَيْنَ الْإِفَاقَةِ وَالْفِرَاقِ خَيْرٌ مِنْ تَمَادِي الزَّوْجِ عَلَى أَثَرِ غَيْرِهَا عَلَيْهَا<sup>(٤)</sup>. وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ صُلْحَهُمَا عَلَى تَرْكِ بَعْضِ حَقِّهَا لِلزَّوْجِ وَقَبُولِ الزَّوْجِ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْمَفَارَقَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ عَلَى أَنْ تَرَكَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَلَمْ يُفَارِقْهَا، بَلْ تَرَكَهَا مِنْ جُمْلَةِ نِسَائِهِ، وَفَعَلَهُ ذَلِكَ لِتَنَاسَى بِهِ أُمَّتَهُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ وَجَوَازِهِ، فَهُوَ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلَمَّا كَانَ الْوِفَاقُ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْفِرَاقِ قَالَ: «وَالصُّلْحُ حَيْرٌ» بَلِ الطَّلَاقُ بَعْضُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: «وَلَمَّا تَحَسَّنُوا وَتَقَفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا» وَإِنْ تَتَجَشَّعُوا مَشَقَّةَ الصَّبْرِ عَلَى مَنْ تَكْرَهُونَ مِنْهُمْ، وَتَفْسِمُوا لَهُمْ أَسْوَأَ أَمْثَالِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ» أَيْ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَتُهَا النَّاسُ أَنْ تَسَاوُوا بَيْنَ النِّسَاءِ مِنْ جَمِيعِ النُّجُوهِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ وَقَعَ الْقِسْمُ الصُّورِيُّ لَيْلَةً وَلَيْلَةً، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْمَحَبَّةِ وَالشُّهُورَةِ وَالْجَمَاعِ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدَةُ السَّلْمَانِي وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاجِمٍ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشَّيْخَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَفْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْمِني فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ» يَعْنِي الْقَلْبَ، هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ: «فَلَا تَوَيْلُوا كَلَّ الْمَيْلِ» أَيْ فَإِذَا مِلْتُمْ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ فَلَا تَبَالِغُوا فِي الْمَيْلِ بِالْكُلِّيَّةِ «فَتَدْرُوهَا كَالْمَمْلُوقَةِ» أَيْ فَتَقْبِضْ هَذِهِ الْأُخْرَى مُعَلَّقَةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ

(١) فتح الباري: ٢٢٣/٩ ومسلم: ١٠٨٥/٢ (٢) فتح الباري: ٢٥٧/٥ (٣) البخاري: ٤٦٠١ (٤) الطبري: ٢٧٢/٩ (٥) الطبري: ٢٨٥-٢٨٧ (٦) أبو داود: ٢١٣٤ وتحفة الأحوذ: ١١٤٠ وابن ماجه: ١٩٧١ والنسائي: ٦٣/٧ (٧) الطبري: ٩/٢٩٢-٢٩٣ (٨) مسند الطيالسي: ٣٢٢

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ يَافِقُطُ شَهَادَةَ لِلَّهِ  
وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوَّلَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا  
أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ  
تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَلْيَنْزِلُوا اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَتَأْتِيهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ  
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ  
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ  
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا  
ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَادَدُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ  
سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ  
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوا  
عِنْدَهُمُ الْغَزَا فِانِ الْعَزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي  
الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفِرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا  
تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا أَنْتُمْ  
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

فَلَا تُرَاعِهِمْ فِيهَا، بَلِ اشْهَدَ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَادَ ضَرَرَهَا عَلَيْهِمْ،  
فَإِنَّ الْحَقَّ حَاجِمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ [وَهُوَ مُقَدِّمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ].  
وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أَيُّ لَا  
تُرْعَاهُ لِعَنَاهُ، وَلَا تُشْفِقْ عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ، اللَّهُ يَتَوَلَّاهُمَا، بَلْ هُوَ  
أَوْلَىٰ بِهِمَا مِنْكَ، وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا  
تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أَيُّ فَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ الْهَوَىٰ وَالْعَصِيَّةُ  
وَبُغْضُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أُمُورِكُمْ  
وَشُؤْنِكُمْ، بَلِ الزُّمُوا الْعَدْلَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا  
هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُصُ عَلَى أَهْلِ  
خَبِيرٍ يَمَارَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ لِيَرْفُقَ بِهِمْ،  
فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وَلَا أَتُكُمْ  
أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ أَعْدَادِكُمْ مِنَ الْفُورَةِ وَالْحَنَازِيرِ وَمَا يَحْمِلُنِي  
حُبِّي إِيَّاهُ، وَبُغْضِي لَكُمْ عَلَى أَنْ لَا أَعْدِلَ فِيكُمْ، فَقَالُوا:  
بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَسَيَأْتِي الْحَدِيثُ مُسْتَدًا

يَقْدَرُهُ وَيَسْرِعُهُ، قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ  
بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَيُّ هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الرَّقِيبُ  
الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ  
وَيَأْتِ بِخَاصِرٍ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ  
إِذْهَابِكُمْ وَتَبْدِيلِكُمْ بِغَيْرِكُمْ إِذَا عَصَيْتُمُوهُ، وَكَمَا قَالَ: ﴿وَلَيْتَ  
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا عَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]  
وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ يَأْتِي مَنْ لَيْسَ هَمُّهُ إِلَّا الدُّنْيَا، إِعْلَمُ أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ  
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِذَا سَأَلْتَهُ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَغْنَاكَ  
وَأَعْطَاكَ وَأَفْثَاكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَلْبَسَ النَّاسَ مِنْ  
يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَمْ يَفِ الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ ﴿١٣٦﴾  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ  
حَسَنَةً وَفِي عَذَابِ النَّارِ ﴿١٣٧﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا  
كَسَبُوا... الآية [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَّلَ لَمْ فِي حَرْثِهِ﴾... الآية  
[الشورى: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا  
لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ  
عَلَىٰ بَعْضٍ﴾... الآية [الإسراء: ٢١]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ  
سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ يَافِقُطُ شَهَادَةَ لِلَّهِ وَلَوْ  
عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوَّلَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ  
أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَلْيَنْزِلُوا  
اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١٣٥﴾

#### [الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالْعَدْلِ وَبِإِدَاءِ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ]

يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ  
أَيُّ بِالْعَدْلِ، فَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَلَا تَأْخُذْهُمْ  
فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَآئِمٌ وَلَا يَصْرِفُهُمْ عَنْهُ صَارِفٌ، وَأَنْ يَكُونُوا  
مُتَعَاوِنِينَ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَايِدِينَ مُتَنَاصِرِينَ فِيهِ، وَقَوْلُهُ:  
﴿شَهَادَةَ لِلَّهِ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]  
أَيُّ لَيْكُنْ أَدَاؤُهَا إِيْتِغَاءُ وَجْهِ اللَّهِ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ صَحِيحَةً  
عَادِلَةً حَقًّا خَالِيَةً مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّكْثِمَانِ، وَلِهَذَا  
قَالَ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ اشْهَدَ بِالْحَقِّ وَلَوْ عَادَ ضَرَرَهَا  
عَلَيْكَ، وَإِذَا سُئِلْتَ عَنِ الْأَمْرِ فَقُلِ الْحَقُّ فِيهِ وَلَوْ عَادَتْ  
مَضَرَّتُهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَرجًا،  
وَمَخْرَجًا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضِيقُ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَّلَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ  
وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أَيُّ وَإِنْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ عَلَىٰ وَالِدَيْكَ وَقَرَاتِكَ

اللَّهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٣٦﴾

[أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ وَمَصِيرُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ، ثُمَّ عَادَ فِيهِ، ثُمَّ رَجَعَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى ضَلَالِهِ وَازْدَادَ حَتَّى مَاتَ، فَإِنَّهُ لَا تَوْبَةَ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَلَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ، وَلَا يَجْعَلُ لَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ فَرْجًا وَلَا مَخْرَجًا وَلَا طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَدِيهِمْ سَبِيلًا﴾. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ قَالَ: تَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ حَتَّى مَاتُوا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ<sup>(١)</sup>: ﴿ثُمَّ قَالَ: «يَتَّبِعُ الْمُنَافِقِينَ يَأْنِ لَهُمْ عَذَابُ الْيَمِينِ»

يَغْنِي أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنْ [أَهْلِ] هَذِهِ الصَّفَةِ: فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، يُؤَلِّقُونَهُمْ وَيُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ إِذَا خَلَوْا بِهِمْ: إِنَّمَا نَحْنُ مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، أَيْ بِالْمُؤْمِنِينَ، فِي إِظْهَارِنَا لَهُمْ الْمَوَاقِفَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَلَكَوهُ مِنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ ﴿أَيَبْنَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا لَهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِمَنْ جَعَلَهَا لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةَ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: التَّهْيِيجُ عَلَى طَلَبِ الْعِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللَّهِ، وَالِاقْتِبَالُ عَلَى عُيُوبِهِ، وَالْإِنْتِظَامُ فِي جُمْلَةِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ النُّصْرَةُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ إِذَا مَثَلُهُمْ﴾ أَيْ: إِنَّكُمْ إِذَا ارْتَكَبْتُمُ النَّهْيَ بَعْدَ وَضُوعِهِ إِلَيْكُمْ، وَرَضِيْتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَضُ بِهَا، وَأَقْرَبَتْهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ إِذَا مَثَلُهُمْ﴾ فِي الْمَأْتَمِ،

فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تَعْرَضُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: ﴿تَلَّوْا﴾، أَيْ تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ وَتُغَيِّرُوهَا<sup>(٢)</sup>. وَاللَّيْ: هُوَ التَّحْرِيفُ وَتَعَمُّدُ الْكُذِبِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُوفُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾... الْآيَةُ [آل عمران: ٧٨]، وَالْإِعْرَاضُ هُوَ: كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ وَتَرْكُهَا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ فَإِنَّهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُ الشَّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ»<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَالِئِنَّ اللَّهَ كَانِ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أَيْ وَسَيَجَازِيكُمْ بِذَلِكَ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٣٧﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ الْإِيمَانِ]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْدُخُولِ فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَشُعْبِهِ وَأَرْكَانِهِ وَدَعَائِمِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ، بَلْ مِنْ بَابِ تَكْمِيلِ الْكَامِلِ وَتَقْرِيرِهِ وَتَثْبِيْتِهِ وَالْإِسْتِمْرَارَ عَلَيْهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أَيْ بَصُرْنَا فِيهِ وَرَدَّنَا هُدًى وَتَبَيَّنَّا عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُمُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يَغْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وَهَذَا جَنْسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿نَزَلَ﴾ لِأَنَّهُ نَزَلَ مُفَرَّقًا مُتَّجِمًا عَلَى الْوَقَائِعِ بِحَسَبِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَأَمَّا الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ، فَكَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً<sup>(٤)</sup>. [وَإِلَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيْ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَبَعُدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلِّ الْبُعْدِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿١٣٨﴾ يَتَّبِعُ الْمُنَافِقِينَ يَأْنِ لَهُمْ عَذَابُ الْيَمِينِ ﴿١٣٩﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَبَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ

(١) الطبري: ٣٠٨/٩ (٢) مسلم: ١٣٤٤/٣ (٣) التعبير بالإنزال في حق القرآن أكثر من التعبير بالتنزيل (٤) الطبري: ٩/٣١٥ إنساده ضعيف فيه حفص بن جميع وهو ضعيف [تقريب] وأيضاً رواية سماك عن عكرمة مضطربة كما مر قريباً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠١

سُورَةُ النِّسَاءِ

الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مَذْذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن يَهْدِيَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَنَتَّخِذُوا لَكُمُ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَن يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن يَجِدَ لَهُم نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

عَبْدُ الرَّزَاقِ عَنِ يُسْعَى الْكِنْدِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: كَيْفَ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَذُنُهُ أَذُنُهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قَالَ: ذَاكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَى السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿سَبِيلًا﴾ أَيُّ حُجَّةٍ<sup>(٤)</sup>. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا بَأْنَ يُسَلِّطُوا عَلَيْهِمْ اسْتِثْلَاءً اسْتِثْصَالًا بِالْكُلِّيَّةِ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ ظَفَرٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ

وَالَّذِي أُحِيلَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ النَّهْيِ فِي ذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ﴿وَإِنَّا رَأَيْنَا الَّذِينَ يَبْغُضُونَ فِيءًا بَيْنَنَا فَانْقَضَ عَنْهُمْ﴾... الآية [الأنعام: ٦٨]، قَالَ مُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانَ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، يَعْنِي نُسِخَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا إِذَا مَثَلَهُمْ﴾ لِقَوْلِهِ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن جَسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أَيُّ كَمَا أَشْرَكُوهُمْ فِي الْكُفْرِ كَذَلِكَ يُشَارِكُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا، وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ وَالْقَيْدِ وَالْأَغْلَالِ، وَشَرَابِ الْحَوِيمِ - وَالْعُسَلِينَ لَا الزَّلَالَ.

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤١﴾  
[تَرْبِصُ الْمُنَافِقِينَ بِالْمُسْلِمِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ: أَنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ السَّوَاءِ، بِمَعْنَى يَنْتَظِرُونَ زَوَالَ دَوْلَتِهِمْ وَظُهُورَ الْكُفْرِ عَلَيْهِمْ وَذَهَابَ مِلَّتِهِمْ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ نَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيْمَةٌ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أَيُّ يَتَوَدَّدُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أَيُّ إِدَالَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَمَا وَقَعَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَإِنَّ الرُّسُلَ تُبْتَلَى ثُمَّ يَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ سَاعَدْنَاكُمْ فِي الْبَاطِنِ، وَمَا أَلُونَاهُمْ خَبَالًا وَتَخْذِيلًا حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ: نَغْلِبْ عَلَيْكُمْ<sup>(١)</sup>. كَقَوْلِهِ: ﴿اسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: ١٩] وَهَذَا أَيْضًا تَوَدَّدَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَايِعُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، لِيَحْظُوا عِنْدَهُمْ وَيَأْمَنُوا كَيْدَهُمْ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ وَقِلَّةِ إِيقَانِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَيُّ بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْكُمْ أَنَّهَا الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْبَوَاطِنِ الرَّدِيَّةِ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِجَرَائِنِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَيْكُمْ ظَاهِرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُكُمْ ظَوَاهِرُكُمْ بَلْ هُوَ يَوْمٌ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَيَحْصُلُ مَا فِي الصُّدُورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ رَوَى

(١) الطبري: ٣٢٥/٩ (٢) عبد الرزاق: ١٧٥/١ (٣) الطبري:

٣٢٨/٩ (٤) الطبري: ٣٢٨/٩ (٥) الطبري: ٣٢٨/٩

﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أَي لَا إِخْلَاصَ لَهُمْ وَلَا مُعَامَلَةً مَعَ اللَّهِ، بَلْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ النَّاسَ نَقِيَّةً لَهُمْ وَمُضَانَعَةً، وَلِهَذَا يَتَخَلَّفُونَ كَثِيرًا عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا يُرَوْنَ فِيهَا غَالِيًا: كَصَلَاةِ الْعِشَاءِ فِي وَقْتِ الْعَمَةِ، وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِ الْغَلَسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَثْقَلَ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُتَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ بِالصَّلَاةِ فَتَقَامَ، ثُمَّ أَمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بَيُوتَهُمْ بِالنَّارِ»<sup>(١)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرَقًا سَمِيمًا أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ الصَّلَاةَ، وَلَوْ لَا مَا فِي الْبُيُوتِ مِنَ النَّسَاءِ وَالذَّرِيَّةِ لَحَرَقْتُ عَلَيْهِمْ بَيُوتَهُمْ بِالنَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي فِي صَلَاتِهِمْ لَا يَخْشَعُونَ، وَلَا يَذَرُونَ مَا يَقُولُونَ، بَلْ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ لَاهُونَ، وَعَمَّا يُرَادُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مُعْرَضُونَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَتَنَرَ أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ -بِعْنَى الْمُتَافِقِينَ- مُحِيرِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرِبُ الشُّكَّ، فَتَارَةً يَبِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ وَتَارَةً يَبِيلُ إِلَى أُولَئِكَ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَسْأَوْفَةٌ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾... الْآيَةُ [البقرة: ٢٠]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ بَعْضُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ بَعْضُ الْيَهُودِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ

رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... الْآيَةُ [غافر: ٥١]، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ رَدًّا عَلَى الْمُتَافِقِينَ فِيمَا أَمَلُوهُ وَرَجَّوْهُ وَانْتَظَرُوهُ مِنْ زَوَالِ دَوْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِيمَا سَلَكُوهُ مِنْ مُضَانَعَتِهِمُ الْكَافِرِينَ، خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ إِذَا هُمْ ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَأْصَلُوهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ يَسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿تَنْذِيرًا﴾ [المائدة: ٥٢]. ﴿إِنَّ الْمُتَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٥)</sup> مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا<sup>(٦)</sup>.

[مُخَادَعَةُ الْمُتَافِقِينَ لِلَّهِ وَكَسَلُهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَتَذَبُّبُهُمْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ]

فَدَقَّعْتُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الآية: ٩] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ الْمُتَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يُخَادَعُ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلَكِنَّ الْمُتَافِقِينَ لِيَجْهَلِيَهُمْ وَقَلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ يَعْتَقِدُونَ: أَنَّ أَمْرَهُمْ كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ أَمْرَهُمْ يَرُوجُ عِنْدَهُ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْلِفُونَ لَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُمْ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَلْفُفُونَ لَهُمْ كَمَا يَلْفُفُونَ لَكَرٍّ... الْآيَةُ [المجادلة: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أَي هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَصَلَالِهِمْ، وَيَخْدُلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَيْسَ الْمَصِيدُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥] وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا﴾... الْآيَةُ، هَذِهِ صِفَةُ الْمُتَافِقِينَ فِي أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا وَخَيْرِهَا، وَهِيَ الصَّلَاةُ إِذَا قَامُوا إِلَيْهَا، قَامُوا وَهُمْ كَسَالَى عَنْهَا، لِأَنَّهُمْ لَا نِيَّةَ لَهُمْ فِيهَا، وَلَا إِيْمَانَ لَهُمْ بِهَا، وَلَا حَشْيَةً، وَلَا يَفْعَلُونَ مَعْنَاهَا، وَهَذِهِ صِفَةُ ظَوَاهِرِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ بَوَاطِنِهِمْ الْفَاسِدَةِ، فَقَالَ:

(١) فتح الباري: ٣٤٣/١١ (٢) فتح الباري: ٥٣/٢ ومسلم: ٤٥١/١ (٣) فتح الباري: ٢٤٨/٢ ومسلم: ٣٢٥/١ (٤) الموطأ: ٢٢٠/١ (٥) مسلم: ٤٣٤/١ وتحفة الأحوذى: ١/١ (٦) والنسائي: ٢٥٤/١



عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعْبُرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتَّبِعُ»<sup>(١)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أَيُّ وَمَنْ صَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرِيدًا﴾ [الكهف: ١٧] فَإِنَّهُ ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ فَلَا هَادِيَ لَهُمْ وَلَا مُنْقِذَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [١٥٩] إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا<sup>(٣)</sup> [١٦٠] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(٤)</sup> مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا<sup>(٥)</sup> [النَّهْيُ عَنِ وِلَاءِ الْكُفَّارِ]

يُنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي مُصَاحَبَتَهُمْ وَمُضَادَّةَتَهُمْ، وَمُنَاصَحَتَهُمْ وَإِسْرَارَ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ، وَإِفْشَاءَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوهُم مِّنْهُ ثُمَّ تَغْلِبُوهُمْ وَبِعُذْرِكُمْ اللَّهُ تَنْقِصُكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨] أَيُّ يُحَذِّرُكُمْ عُقُوبَتَهُ فِي ارْتِكَابِكُمْ نَهْيَهُ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أَيُّ حُجَّةً عَلَيْكُمْ فِي عُقُوبَتِهِ إِيَّاكُمْ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالنَّضْرُ بْنُ عَرَبِيٍّ.

[الْمُنَافِقُونَ - الْمَوَالُونَ لِلْكَفَّارِ - فِي أَسْفَلِ النَّارِ إِلَّا أَنْ يُتُوبُوا]

دَرَجَاتٍ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قَالَ: فِي تَوَابِتٍ مِنْ نَارٍ تُطْبِقُ عَلَيْهِمْ، أَيُّ مُغْلَقَةٌ مَقْلَعَةٌ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ سُئِلَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: يُجْعَلُونَ فِي تَوَابِتٍ مِنْ نَارٍ تُطْبِقُ عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَلِ دَرَكٍ مِنَ النَّارِ<sup>(٥)</sup> ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أَيُّ يُقْذَرُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، تَابَ عَلَيْهِ وَقِيلَ نَذْمُهُ إِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ، وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ، وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أَيُّ بَدَلُوا الرِّيَاءَ بِالْإِخْلَاصِ، فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنْ قَلَّ ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) الطبري: ٣٣٣/٩ (٢) مسلم: ٢١٤٦/٤ (٣) الطبري: ٩/٣٣٩ (٤) الطبري: ٣٣٩/٩ (٥) ابن أبي حاتم: ١٠٩٨/٤ (٦١٥٦) إسناده ضعيف فيه علي بن يزيد الألهاضي ضعيف (تقريب) قال الدار قطني متروك [الضعفاء] ويُغني عنه ما تقدم.

بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

[الْإِيمَانُ يَبْغِضُ الرُّسُلَ وَالْكَفَرُ يَبْغِضُهُمْ كُفْرٌ خَالِصٌ]

تَوَعَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَافِرِينَ بِهِ وَرُسُلِهِ، مِنَ الْيُهودِ وَالنَّصَارَى حَيْثُ فَرَّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ فِي الْإِيمَانِ، فَآمَنُوا بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، بِمُجَرَّدِ التَّشْهِي وَالْعَادَةِ، وَمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، لَا عَنْ دَلِيلٍ فَادَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْهَوَى وَالْعَصِيَّةِ، فَالْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعْنَاتُ اللَّهِ - آمَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ إِلَّا عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِخَاتَمِهِمْ وَأَشْرَفِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالسَّامِرَةُ لَا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ تَعَدَّ يُوْشَعَ خَلِيفَةُ مُوسَى ابْنِ عِمْرَانَ، وَالْمَجُوسُ يُقَالُ: إِنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: زَرَادَشْتُ، ثُمَّ كَفَرُوا بِشَرِّعِهِ، فَرَفَعَ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَاجِبٌ بِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَنْ رَدَّ بُيُوتَهُ لِلْحَسَدِ أَوْ الْعَصِيَّةِ أَوْ التَّشْهِي، تَبَيَّنَ أَنَّ إِيْمَانَهُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ إِيْمَانًا شَرْعِيًّا، إِنَّمَا هُوَ عَنْ غَرَضٍ وَهَوَى وَعَصِيَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فَوَسَّمَهُمْ بِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أَيْ فِي الْإِيمَانِ ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أَيْ طَرِيقًا وَمَسْلَكًا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أَيْ كُفْرُهُمْ مُحَقَّقٌ لَا مَحَالَةَ بِمَنْ ادَّعَوْا الْإِيمَانَ بِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَرْعِيًّا، إِذْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ لَكُونَهُ رَسُولُ اللَّهِ، لَا مُمْنًا بِنَظِيرِهِ، وَبِمَنْ هُوَ أَوْضَحُ دَلِيلًا وَأَقْوَى بُرْهَانًا مِنْهُ، أَوْ نَظَرُوا حَقَّ النَّظَرِ فِي بُيُوتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أَيْ كَمَا

أَيَّ فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَذِّبُ الْعِبَادَ بِذُنُوبِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أَيْ أَصْلَحْتُمْ الْعَمَلَ وَامْتَنَّم بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَاحِكًا عَلِيمًا﴾ أَيْ مَنْ شَكَرَ شَكَرَ لَهُ، وَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِهِ عَلِمَهُ وَجَازَاهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿١٤٨﴾ إِنْ بُدِّدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

[الْإِذْنُ بِالْجَهْرِ بِالسُّوءِ لِلْمَظْلُومِ مَعَ تَرْغِيهِ فِي الْعَفْوِ]

قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يَقُولُ: لَا يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا، فَإِنَّهُ قَدْ أُرْخِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وَإِنْ صَبَرَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَا يَدْعُ عَلَيْهِ، وَلَيْقُلْ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِ، وَاسْتَخْرِجْ حَقِّي مِنْهُ<sup>(٢)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ: قَدْ أُرْخِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَدَّى عَلَيْهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مَالِكٍ الْجَزَرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ الرَّجُلُ يَشْتُمُكَ فَتَشْتُمُهُ، وَلَكِنْ إِنْ افْتَرَى عَلَيْكَ فَلَا تَقْتَرِ عَلَيْهِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].<sup>(٣)</sup> وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا مَا لَمْ يَتَّخِذِ الْمَظْلُومُ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ بُدِّدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا قَدِيرًا﴾ أَيْ إِنْ تَطَهَّرُوا أَتَيْهَا النَّاسُ خَيْرًا أَوْ أَخْفَيْتُمُوهُ أَوْ عَفَوْتُمْ عَنْ أَسَاءِ إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَجْزِلُ ثَوَابَكُمْ لَدَيْهِ، فَإِنْ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى أَنْ يَغْفَرَ عَنْ عِبَادِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا قَدِيرًا﴾ وَلِهَذَا وَرَدَّ فِي الْأَثَرِ: أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: سُبْحَانَكَ عَلَى جِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: سُبْحَانَكَ عَلَى غَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِغَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»<sup>(٥)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا

(١) الطبري: ٣٤٤/٩ (٢) الطبري: ٣٤٤/٩ إسناده ضعيف فيه هشيم بن بشير وهو مدلس ولم يصرح (٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١١٧٢ (٤) أبو داود: ٤٨٩٤ (٥) مسلم: ٢٠١/٤

حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهْرَهُ فَأَخَذَتْكُمْ الصَّبَغَةُ وَأَسَدُ نَظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ فَتَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَيُّ مِنْ بَعْدِهَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى يَدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بِلَادِ مِصْرَ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ وَجَمِيعِ جُنُودِهِ فِي النَّيْمِ، فَمَا جَاوَزُوهُ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ فَقَالُوا لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾... الْآيَتَيْنِ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ إِتْخَاذِهِمُ الْعِجْلَ، مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ طه، بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى إِلَى مَنَاجَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ لَمَّا رَجَعَ وَكَانَ مَا كَانَ، جَعَلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ مِنَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَابْتَدَعُوهُ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ مِنْهُمْ مَنْ عَبْدَهُ، فَجَعَلَ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ أَحْيَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَمَا لَنَا بِمُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا قَوْمَهُمُ الطُّورَ بِبَيِّنَتِهِمْ﴾ وَذَلِكَ حِينَ امْتَنَعُوا مِنَ الْإِلتِزَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ، وَظَهَرَ مِنْهُمْ إِيَّاءُ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَفَعَ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِهِمْ جَبَلًا، ثُمَّ أَلْزَمُوا: فَالْتَزَمُوا وَسَجَدُوا، وَجَعَلُوا يُنْظَرُونَ إِلَى فَوْقِ رُءُوسِهِمْ، خَشْيَةً أَنْ يَنْقُطَ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُمْ سُلَاطَةً طَافُوا عَلَيْهِمْ وَعَقِبَهُمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾... الْآيَةِ [الأعراف: ١٧١] ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أَيُّ فَخَالَفُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَإِنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ بَيْتِ الْقُدُسِ سُجَّدًا وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ، أَيُّ اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا فِي تَرْكِهَا الْجِهَادِ وَنُكُولِنَا عَنْهُ، حَتَّى تَهِنَا فِي التَّيِّهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَدَخَلُوا يَرْحُفُونَ عَلَى أَشْهَابِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ فِي شَعْرَةٍ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أَيُّ وَصَيْنَاهُمْ بِحِفْظِ السَّبْتِ وَالتَّزَامِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مَا دَامَ مَشْرُوعًا لَهُمْ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أَيُّ شَدِيدًا، فَخَالَفُوا وَعَصَوْا وَتَحَيَّلُوا عَلَى ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾... الْآيَاتِ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

اسْتَهَانُوا بِمَنْ كَفَرُوا بِهِ، إِنَّمَا لَعَدِمَ نَظَرِهِمْ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَقَبَالِهِمْ عَلَى جَمْعِ حُطَامِ الدُّنْيَا مِمَّا لَا ضَرُورَةَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَكْفُرُهُمْ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِبُيُوتِهِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ حَسَدُوهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَادُوهُ وَقَاتَلُوهُ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّ الدُّنْيَوِيَّ الْمُؤْصُولَ بِالذِّلِّ الْآخِرَوِيَّ ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالسَّكَنَةَ وَبَاءُوا بِقَصَصٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقِرُّوا بَيْنَ أَعْلَمِ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾... الْآيَةِ [البقرة: ٢٨٥]، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمُ الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ وَالثَّوَابَ الْجَلِيلَ وَالْعَطَاءَ الْجَمِيلَ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ عَلَى مَا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَيُّ لِدُنُوبِهِمْ، أَيُّ إِنْ كَانَ لِبَعْضِهِمْ ذُنُوبٌ.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَمَا لَنَا بِمُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وَرَفَعْنَا قَوْمَهُمُ الطُّورَ بِبَيِّنَتِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٣﴾

#### [عِنَادُ الْيَهُودِ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَالشَّدِيدِيُّ وَتَقَادَةُ: سَأَلَ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا نَزَلَتْ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى مَكْتُوبَةً<sup>(١)</sup>. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: سَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ صُحُفًا مِنَ اللَّهِ مَكْتُوبَةً إِلَى فَلَانٍ وَفَلَانٍ وَفَلَانٍ بِتَضَدِّيقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكَفْرِ وَالْإِلْحَادِ، كَمَا سَأَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَبْلَهُمْ نَظِيرَ ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ سُحْرَانَ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾... الْآيَاتِ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أَيُّ بِطَغْيَانِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَعُتُوهُمْ وَعِنَادِهِمْ، وَهَذَا مُفسَّرٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ

﴿فَمَا تَقْضِيهِمْ مِثْقَلُهُمْ وَعُكْفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾ وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا قَتَلُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الشَّكَّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾

﴿جَرَائِمُ الْيَهُودِ﴾

وَهَذِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا مِمَّا أَوْجَبَ لَعْنَتَهُمْ وَطَرَدَهُمْ وَإِعَادَهُمْ عَنِ الْهُدَى، وَهُوَ نَقْضُهُمُ الْمَوَاقِفَ وَالْعُهُودَ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِمْ. وَكُفْرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، أَيْ حُجْجِهِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا عَلَى [أَيْدِي] الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ إِجْرَائِمِهِمْ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا جَمًّا غَيْرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيْ فِي غَطَاءٍ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَفٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ...﴾ الْآيَةَ [فصلت: ٥] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ كَانَتْهُمْ اغْتَدَرُوا إِلَيْهِ بِأَنْ قُلُوبَهُمْ لَا تَعِي مَا يَقُولُ، لِأَنَّهَا فِي غُلْفٍ وَفِي أَكْتَفٍ، فَقَالَ اللَّهُ: بَلْ هِيَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ تَمَرَّنَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَقَلَّةُ الْإِيمَانِ.

[قَوْلُهُمْ فِي مَرْيَمَ وَادْعَاؤُهُمْ قَتْلَ عِيسَى وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ]

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَنَّهُمْ رَمَوْهَا بِالزَّنَا<sup>(٢)</sup>. وَكَذَلِكَ قَالَ السُّدِّيُّ وَجُوبَيْرٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ، أَنَّهُمْ رَمَوْهَا وَابْنَهَا بِالْعِظَائِمِ، فَجَعَلُوهَا زَانِيَةً، وَقَدْ حَمَلَتْ بِوَلَدِهَا مِنْ ذَلِكَ، زَادَ بَعْضُهُمْ: وَهِيَ حَائِضٌ. فَعَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي يَدْعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمُنْصَبَ قَتَلْنَاهُ، وَهَذَا مِنْهُمْ مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ، كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ ﴿يَتَّبِعُهَا

الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وَكَانَ مِنْ خَبَرِ الْيَهُودِ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَسَخَطُهُ وَغَضَبُهُ وَعِقَابُهُ: أَنَّهُ لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى حَسَدُوهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ الَّتِي كَانَ يُبْرِئُ بِهَا الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ طَائِرًا، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَكُونُ طَائِرًا يُشَاهَدُ طَيْرَانُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا وَأَجْرَاهَا عَلَى يَدَيْهِ، وَمَعَ هَذَا كَذَبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَسَعَوْا فِي أَذَاهُ بِكُلِّ مَا أَمَكْنَهُمْ، حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُسَاكِنُهُمْ فِي بَلَدِهِ، بَلْ يَكْثُرُ السَّيَاحَةُ هُوَ وَأُمَّهُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثُمَّ لَمْ يَقْنَعْنَاهُ ذَلِكَ، حَتَّى سَعَوْا إِلَى مَلِكٍ دَمَشَقَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكَانَ رَجُلًا مُشْرِكًا مِنْ عِبَادَةِ الْكُؤَاكِبِ، وَكَانَ يُقَالُ لِأَهْلِ مِلَّتِهِ: الْيُونَانُ، وَأَنْهَوْا إِلَيْهِ:

(١) الطبري: ٩/ ٣٦٤ (٢) الطبري: ٩/ ٣٦٧ (٣) الطبري: ٩/ ٣٦٧

أَنَّ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ رَجُلًا يَفْتِنُ النَّاسَ وَيُضِلُّهُمْ، وَيُفْسِدُ عَلَى الْمَلِكِ رِعَايَاهُ، فَغَضِبَ الْمَلِكُ مِنْ هَذَا، وَكَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ بِالْمُقَدَّسِ أَنْ يَحْتَاطَ عَلَى هَذَا الْمَذْكُورِ، وَأَنْ يَضْلِبُهُ وَيَضَعُ الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَكْفَأَ أَدَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابَ امْتَثَلَ مَتَوَلَّى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ذَلِكَ، وَذَهَبَ هُوَ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ - إِنْنَا عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ، وَقِيلَ: سَبْعَةَ عَشَرَ نَفَرًا - وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَحَصَرُوهُ هُنَاكَ. فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ وَأَنَّهُ لَا مَحَالَةَ مِنْ دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ أَوْ خُرُوجِهِ عَلَيْهِمْ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شِبْهِي وَهُوَ رَافِقِي فِي الْجَنَّةِ؟ فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ شَابٌّ مِنْهُمْ فَكَأَنَّهُ اسْتَضَعَّرَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَعَادَهَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَنْتَدِبُ إِلَّا ذَلِكَ الشَّابُّ، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ، وَالْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شِبْهَ عِيسَى حَتَّى كَأَنَّهُ هُوَ، وَفِيحَتْ رُوزَنَةٌ مِنْ سَقْفِ الْبَيْتِ، وَأَخَذَتْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتْرَهُ مِنَ الثَّوْمِ، فَرَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾... [الآية [آل عمران: ٥٥]]، فَلَمَّا رَفَعَ خَرَجَ أُولَئِكَ النِّفَرُ، فَلَمَّا رَأَى أُولَئِكَ ذَلِكَ الشَّابُّ، ظَنُّوا أَنَّهُ عِيسَى، فَأَخَذُوهُ فِي اللَّيْلِ وَصَلَبُوهُ، وَوَضَعُوا الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَظْهَرُوا الْيَهُودَ أَنَّهُمْ سَعَوْا فِي صَلْبِهِ، وَتَبَجَّحُوا بِذَلِكَ، وَسَلَّمُوا لَهُمْ طَوَائِفَ مِنَ النَّصَارَى ذَلِكَ، لِيَجْهَلِيَهُمْ وَقَلَّةَ عَقْلِهِمْ، مَا عَدَا مَنْ كَانَ فِي الْبَيْتِ مَعَ الْمَسِيحِ، فَإِنَّهُمْ شَاهَدُوا رَفْعَهُ. وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَّ الْيَهُودُ: أَنَّ الْمَضْلُوبَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، حَتَّى ذَكَرُوا: أَنَّ مَرْيَمَ جَلَسَتْ تَحْتَ ذَلِكَ الْمَضْلُوبِ وَبَكَتْ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ خَاطَبَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ امْتِحَانِ اللَّهِ عِبَادَهُ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ.

وَقَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ الْأَمْرَ وَجَلَّاهُ وَبَيَّنَّهُ، وَأَظْهَرَهُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ، الْمُؤَيَّدِ بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَالِدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ، الْمُطَّلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أَيُّ رَأَوْا شِبْهَهُ فَظَنُّوهُ إِيَّاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنْ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَغِي شَكِّي

مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ قَتَلَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ سَلَّمَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ جُهَاِلِ النَّصَارَى: كُلُّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ وَحَيْرَةٍ وَضَلَالٍ وَسُحْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أَيُّ وَمَا قَتَلُوهُ مُتَقَبِّحِينَ أَنَّهُ هُوَ، بَلْ شَاكِينَ مُتَوَهِّمِينَ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا أَعْيُنَ مَنْعِ الْجَنَابِ، لَا يَرَامُ جَنَابُهُ، وَلَا يُضَامُ مِنْ لَدُنْ بِنَابِهِ، ﴿حَكِيمًا﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ مَا يَقْدَرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْلُقُهَا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ وَالسُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَالْأَمْرُ الْقَدِيمُ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ، خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَفِي الْبَيْتِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ، يَعْنِي فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ: إِنْ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي انْتِنِي عَشْرَةَ مَرَّةٍ، بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شِبْهِي فَيَقْتُلَ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟ فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِتًّا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ ذَلِكَ الشَّابُّ، فَقَالَ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ ذَاكَ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شِبْهَ عِيسَى، وَرَفَعَ عِيسَى مِنْ رُوزَنَةٍ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبَّهَ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ صَلَبُوهُ، فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ انْتِنِي عَشْرَةَ مَرَّةٍ بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ، كَانَ اللَّهُ فِيهَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيهَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ الشَّطُورِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيهَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ، فَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَتَلُوها، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ بَنِيهِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شِبْهِي فَيَقْتُلَ مَكَانِي، وَهُوَ رَافِقِي فِي الْجَنَّةِ؟

(١) ابن أبي حاتم: ٤/ ١١١٠ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٨٩/٦

وَأَمَّاكُمْ مِنْكُمْ»<sup>(٩)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٠)</sup>.

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنِّي أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مَمَّصَرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبَهُ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلِكَ كُلَّهُمَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، ثُمَّ تَقَعُ الْأَمْنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأَسُودُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنَّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذَّنَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَلَيَلْعَبَ الصَّبِيَّانِ بِالْحَيَاتِ لَا تَضُرَّهُمْ، فَيَمُكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَتَوَفَّى، وَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ» وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(١١)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمِئِذٍ، فَإِذَا تَصَافَوْا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلَوْا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَّوْا مِنَّا نَقَاتِلَهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا وَاللَّهِ، لَا نَخْلِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا. فَيَقَاتِلُونَهُمْ: [فَيَنْهَزُهُمْ] ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يُقْتَنُونَ أَبَدًا، فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينَةَ، فَيَبْنِيانَهَا هُمُ يَبْنِيانَهَا الْعَنَائِمُ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ. فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ فَيَبْنِيانَهَا هُمُ يُعْدُونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَأَاهُ عَدُوُّ اللَّهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ

[يُؤْمِنُ جَمِيعُ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ بِالْمَسِيحِ قَبْلَ مَوْتِهِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا» رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَ ذَلِكَ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالَ: ذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِ عِيسَى، وَقَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا آمَنَ بِهِ<sup>(١٤)</sup>. [ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ «ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ» مِنْ صَحِيحِهِ الْمُتَّفَقِ بِالْقَبُولِ: نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَقْضِي الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ «وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا»<sup>(١٥)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٦)</sup> وَقَوْلُهُ: «قَبْلَ مَوْتِهِ» أَيُّ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

(طَرِيقُ أُخْرَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيَهْلَنَ عِيسَى بِفَجِّ الرُّوحَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ، أَوْ لَيَنْتَبِهُمَا جَمِيعًا»<sup>(١٧)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٨)</sup> وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَمْحُو الصَّلِيبَ، وَتُجْمَعُ لَهُ الصَّلَاةُ، وَيُعْطَى الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْتُلَ، وَيَضَعُ الْخَرَاجَ، وَيَنْزِلُ الرُّوحَاءَ فَيَحُجُّ مِنْهَا أَوْ يَعْتَمِرُ أَوْ يَجْمَعُهُمَا» قَالَ: وَتَلَا أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ»... الْآيَةُ، فَزَعَمَ حَظَلُّهُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: يُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى. فَلَا أَذْرِي هَذَا كُلُّهُ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ شَيْءٌ قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ<sup>(١٩)</sup>؟ وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) الطبري: ٣٨٠/٩ (٢) الطبري: ٣٨٠/٩ (٣) الطبري: ٩/٩

٣٨٠ (٤) فتح الباري: ٥٦٦/٦ (٥) مسلم: ١٣٥/١ وانظر

أيضاً فتح الباري: ٤٤/٥ (٦) أحمد: ٥١٣/٢ (٧)

مسلم: ١٣٥/١ (٨) أحمد: ٢٩٠/٢ (٩) فتح الباري: ٦/٦

٥٦٦ (١٠) أحمد: ٢٧٢/٢ ومسلم: ١٣٦/١، ١٣٧ (١١)

أحمد: ٤٠٦/٢ وأبو داود: ٤٣٢٤ والطبري: ٣٨٨/٩

لَا نَذَابَ حَتَّىٰ يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، فَيَرْبِهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ»<sup>(١)</sup>.

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَقَاتِلَنَّ الْيَهُودَ فَلَتَقْتُلَنَّاهُمْ، حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيٌّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»<sup>(٣)</sup>.

وَلَنَذْكُرَ حَدِيثَ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ هَهُنَا: رَوَى مُسْلِمٌ بِنِ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِنَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً فَخَفَضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُمْ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجَ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمُرُّوْا حَاجِبَهُمْ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ كَأَنِّي أَشَبُّهُ بِعَبْدِ الْعَزْزِيِّ بْنِ قُطَيْنٍ، مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاقْتُلُوا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا لَبَنُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمَ كَسَنِهِ، وَيَوْمَ كَشْهَرِ، وَيَوْمَ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَسَنَهُ أَتُكْفِيْنَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، افْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَيُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتَنْبُتُ، فَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دُرَى، وَأَسْبَعُهُ ضُرُوعًا، وَأَمَلَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُضِيبُونَ مُنْجِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِيبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ، فَتَنْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّخْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْلِكًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَّةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ، فَيَقْبِلُ

وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ وَيَضْحَكُ، فَيَبْنِمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيٍّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاصْبَعًا كَفَيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسُهُ قَطَرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، وَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِنَابٍ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسُحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَيَبْنِمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرَّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةٍ فَيَسْرُبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُخَصِّرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ النُّورِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيَضِيبُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبِيرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَتَنَنَّهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْخَيْطِ، فَتَحُولُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُرُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ، وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلْفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَخْرِجِي ثَمْرَكَ وَرُدِّي بَرَكَتَكَ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعُصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيَبَارِكُ اللَّهُ فِي الرُّسْلِ حَتَّى إِنَّ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتُكْفِي الْفَنَامَ، [وَمِنَ النَّاسِ وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْعَنَمِ لَتُكْفِي الْفَخْدَ مِنَ النَّاسِ] فَيَبْنِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَاهِمُ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمْرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ<sup>(٤)</sup> وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ<sup>(٥)</sup>. وَسَنَذْكُرُهُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾... الْآيَةُ [الْأَنْبِيَاءُ: ٩٦].

(١) مسلم: ٢٢٢١/٤ (٢) مسلم: ٢٢٣٨/٤ (٣) مسلم: ٤/٢٢٣٩ (٤) مسلم: ٢٢٥٠/٤ (٥) أحمد: ١٨١/٤ وأبو داود: ٤٩٦/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٩٩/٦ والنسائي في الكبرى: ١٥/٥ وابن ماجه: ١٣٥٦/٢

[المزمل: ١٧]، وَذَلِكَ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] (١).

### (صِفَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ» (٢). وَفِي حَدِيثِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ: «فَيُنْزَلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْفِي دَمَشَقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفِّهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكََيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ مِثْلُ جُمَانِ اللَّوْلُؤِ، لَا يَجُلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ» (٣). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى» قَالَ: فَفَتَعَتْهُ: فَإِذَا رَجُلٌ حَسْبَتُهُ قَالَ: «مُضْطَرَبٌ، رَجُلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءٍ» قَالَ: «وَلَقِيتُ عِيسَى» فَفَتَعَتْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «رَبُّعُهُ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ» يَعْنِي الْحَمَامَ «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ» (٤) الْحَدِيثُ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَادَمٌ جَسِيمٌ سَبَطٌ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الرُّطْبِ» (٥). وَلَهُ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَانِي النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنَةُ طَافِيَةٍ» (٦). وَلِمُسْلِمٍ عَنْهُ مَرْفُوعًا «وَأَرَانِي اللَّهَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا تَرَى مِنْ آدَمِ الرَّجَالِ، تَضْرِبُ لِمَتَّهُ بَيْنَ مَنَكِبَيْهِ رَجُلُ الشَّعْرِ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنَكِبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ رَأَيْتُ وَرَاءَهُ رَجُلًا جَعْدًا قَطَطًا، أَغْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَشْبَهُ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قُطْنٍ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنَكِبَيْ رَجُلٍ، يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَسِيحُ الدَّجَالُ» (٧).

[وَقَدْ بُنِيَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةً مَنَارَةً لِلْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ بَيْضَاءُ مِنْ حِجَارَةٍ مَنَحُوتَةٍ عَوْضًا عَنِ الْمَنَارَةِ الَّتِي هُدِمَتْ بِسَبَبِ الْحَرِيقِ الْمُنْسُوبِ إِلَى صَنِيعِ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعْنَتُ اللَّهِ الْمَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَكَانَ أَكْثَرُ عِمَارَتِهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَقَوِيَتِ الظُّنُونُ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا وَرَدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ].

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ يَعْقُوبَ ابْنِ عَاصِمٍ بِنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ التَّقْفِي قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عَمْرٍو، وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ، تَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ - أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَحَدُثُ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا: يُحَرِّقُ الْبَيْتَ وَيَكُونُ وَيَكُونُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُخْرِجُ الدَّجَالَ فِي أُمَّتِي فَيَمُكُّتُ أَرْبَعِينَ، لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمُكُّتُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِيلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ - أَوْ إِيْمَانٍ - إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلْتُهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ» قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «فَيَنْتَهِي شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَمَثُلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْتَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقُهُمْ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَضَعُ وَيَضَعُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ الظَّلُّ - نَعْمَانُ الشَّاكُ - فَتَبْتُّ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. ثُمَّ يُقَالُ: أَيُّهَا النَّاسُ: هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿وَقَفُّهُمْ﴾ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ [الصفات: ٢٤] قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾

(١) مسلم: ٢٢٥٨/٤ (٢) أبو داود: ٤٩٨/٤ (٣) مسلم: ٤/٢٥٣ (٤) فتح الباري: ٤٩٣/٦ ومسلم: ١٥٤/١ (٥) فتح الباري: ٥٤٩/٦ (٦) مسلم: ٢٢٤٨/٤ (٧) مسلم: ١٥٤/١



سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠٤

الْبَقَرَةُ

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿١٦٢﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٣﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٤﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكِ الْمَكِينِ ﴿١٦٥﴾ يُشْهِدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُلُّهُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

ثُمَّ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعِيسَى: أَحْمَرُ، وَلَكِنْ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ أَدَمُ سَبْطُ الشَّعْرِ، يَتَهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، يُنَظِّفُ رَأْسَهُ مَاءً - أَوْ يَهْرَاقُ رَأْسَهُ مَاءً - فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا ابْنُ مَرْيَمَ، فَذَهَبَتْ أَلْتَفْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ، جَعَدَ الرَّأْسَ، أَغَوْرُ عَيْنَيْهِ الْيُمْنَى، كَانَ عَيْنُهُ عَيْنَةً طَافِيَةً، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الدَّجَالُ، وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنِ» قَالَ الزُّهْرِيُّ: رَجُلٌ مِنْ خِزَاعَةِ هَلَكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ<sup>(١)</sup>. هَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَاظُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَهَ مِنَ اللَّهِ، وَأَقْرَبُ عِبُودِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا تَكْوِيلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ إِيَّايَ قَوْلِي﴾ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٦-١١٨].

﴿فَيُظَاهِرُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَتِ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿١٦٧﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٦٨﴾ لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٦٩﴾

[تَحْرِيمُ طَيِّبَاتٍ عَلَى الْيَهُودِ لِأَجْلِ ظُلْمِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بِسَبَبِ ظُلْمِ الْيَهُودِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ كَانَ أَحْلَاهَا لَهُمْ، وَهَذَا التَّحْرِيمُ قَدْ يَكُونُ قَدْرًا، بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى قَبَضَهُمْ لِأَن تَأَوَّلُوا فِي كِتَابِهِمْ، وَحَرَّوْا وَبَدَّلُوا أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، فَحَرَّمُواهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَشْدِيدًا مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَضْيِيقًا وَتَنْطَعًا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ شَرْعِيًّا بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّ الْجَمِيعَ مِنَ الْأَطْعِمَةِ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ مَا عَدَا مَا كَانَ حَرَّمَ إِسْرَءِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَئِهَا، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي التَّوْرَةِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ

سُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أَيْ إِنَّمَا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ بِسَبَبِ بَعْثِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَتِ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أَيْ صَدُّوا النَّاسَ وَصَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَهَذِهِ سَجِيَّةٌ لَهُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَا مِنْ قَدِيمِ الذَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، وَلِهَذَا كَانُوا أَعْدَاءَ الرُّسُلِ، وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَذَّبُوا عِيسَى وَمُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ﴾ أَيْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاَهُمْ عَنِ الرِّبَا فَتَنَّاوَلُوهُ وَأَخَذُوهُ وَاخْتَالُوا عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ مِنَ الْحَبْلِ، وَصُوفٍ مِنَ الشَّيْبَةِ، وَأَكَلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ثُمَّ

وَيُوسُفُ وَيُؤُوبُ وَشُعَيْبٌ وَمُوسَى وَهَارُونُ وَيُؤُسُ وَدَاوُدُ  
وَسُلَيْمَانُ وَالْيَاسُ وَالْيَسْعُ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى  
وَالْكَافُّ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَسَيَدُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أَيَّ خَلْقًا آخَرِينَ  
لَمْ يُذَكِّرُوا فِي الْقُرْآنِ.

[فَضْلُ مُوسَى]

قَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِمُوسَى  
عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُ: الْكَلِيمُ. وَقَدْ رَوَى  
الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ:  
جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقْرَأُ  
(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا قَرَأَ هَذَا إِلَّا  
كَافِرٌ، قَرَأْتُ عَلَى الْأَعْمَشِ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ عَلَى يَحْيَى بْنِ  
وَثَّابٍ، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ عَلَى أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ،  
وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَرَأَ  
عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى  
تَكْلِيمًا﴾<sup>(١)</sup>. وَإِنَّمَا اشْتَدَّ غَضَبُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ رَحِمَهُ  
اللَّهُ عَلَى مَنْ قَرَأَ كَذَلِكَ، لِأَنَّهُ حَرَفَ لَفْظَ الْقُرْآنِ وَمَعْنَاهُ،  
وَكَانَ هَذَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ  
السَّلَامُ أَوْ يَكَلِّمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ. كَمَا رَوَيْنَاهُ عَنْ بَعْضِ  
الْمُعْتَزَلَةِ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى بَعْضِ الْمَشَايِخِ (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى  
تَكْلِيمًا) فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ اللَّحْنَاءِ، فَكَيْفَ تَضَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟  
يَعْنِي أَنَّ هَذَا لَا يَحْتَمِلُ التَّحْرِيفَ، وَلَا التَّأْوِيلَ.

[الْقَصْدُ مِنْ بَعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أَيَّ يُبَشِّرُونَ مَنْ  
أَطَاعَ اللَّهَ وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ، وَيُنْذِرُونَ مَنْ خَالَفَ  
أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بِالْعِقَابِ وَالْعَذَابِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ  
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَيَّ  
إِنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ بِالْإِسَارَةِ وَالنَّدَارَةِ، وَبَيَّنَّ  
مَا يُحِبُّهُ وَيُرْضَاهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، لَئَلَّا يَبْقَى لِمُعْتَزِلٍ  
عُذْرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ  
لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ  
تُنْزِلَ وَتَخْزِي﴾ [طه: ١٣٤]، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ الرَّاكِبُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أَيَّ الثَّابِتُونَ فِي  
الدِّينِ، لَهُمْ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ  
عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عَطَفَ عَلَى  
﴿الرَّاكِبُونَ﴾ وَخَبَرَهُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ  
قَبْلِكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْزَلْتُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَتُعَلِّبُهُ  
ابْنُ سَعْيَةَ وَأَسَدُ بْنُ زَيْدٍ بْنُ سَعْيَةَ وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، الَّذِينَ دَخَلُوا  
فِي الْإِسْلَامِ، وَصَدَّقُوا بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ الزَّكَاةُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ  
زَكَاةَ الْأَمْوَالِ، وَيَحْتَمِلُ زَكَاةَ النُّفُوسِ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ،  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَيَّ يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِالتَّبَعِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْجَزَاءِ عَلَى  
الْأَعْمَالِ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ﴾ هُوَ الْخَبَرُ عَمَّا  
تَقَدَّمَ ﴿سَيُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْثِ مِنْ بَعْدِهِ  
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ  
وَعِيسَى وَيُؤُوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾  
وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ  
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لَئَلَّا يَكُونَ  
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾  
[أَوْحَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا أَوْحَى إِلَى مَنْ قَبْلَهُ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ  
عِكْرَمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ  
سَكِينٌ وَعَدِي بْنُ زَيْدٍ: يَا مُحَمَّدُ مَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى  
بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ مُوسَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا:  
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْثِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إِلَى  
آخِرِ الْآيَاتِ<sup>(١)</sup>. فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ  
مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا أَوْحَى إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ،  
فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْثِ مِنْ  
بَعْدِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وَالزَّبُورُ اسْمُ  
الْكِتَابِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[الْمَذْكُورُونَ فِي الْقُرْآنِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَسُولًا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ  
نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أَيَّ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْآيَةِ، يَعْنِي فِي السُّورِ  
الْمَكِّيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ نَصَّ اللَّهُ عَلَى  
أَسْمَائِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَهُمْ: آدَمُ وَإِدْرِيسُ وَنُوحٌ وَهُودُ  
وَصَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَلُوطٌ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ

(١) الطبري: ٤٠٠/٩ إسناده ضعيف محمد بن أبي محمد شيخ  
محمد بن إسحاق مجهول كما مر مرارا. (٢) الطبراني الأوسط:  
(٨٦٠٢) عبد الجبار بن عبد الله لا يعرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٥

سُورَةُ النِّسَاءِ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا  
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ  
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ  
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ  
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ  
الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ  
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ  
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
فَيُوفِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ  
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا  
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ  
قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾  
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ  
فِي رَحْمَتِهِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾

الْحَقُّ، وَسَعَوْا فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِفْتِدَاءِ بِهِ،  
قَدْ خَرَجُوا عَنِ الْحَقِّ وَضَلُّوا عَنْهُ، وَبَعُدُوا مِنْهُ بُعْدًا  
عَظِيمًا شَاسِعًا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي الْكَافِرِينَ  
بِآيَاتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ، الظَّالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ وَبِالْصَّدِّ  
عَنْ سَبِيلِهِ وَارْتِكَابِ مَاتِمِهِ وَانْتِهَاكِ مَحَارِمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ  
لَهُمْ ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ أَيْ سَبِيلًا إِلَى الْخَيْرِ ﴿إِلَّا طَرِيقَ  
جَهَنَّمَ﴾ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾...  
الْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ الرَّسُولُ  
بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أَيْ قَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ  
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَالْبَيَانِ  
الشَّافِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمِنُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ  
وَاتَّبَعُوهُ، يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ  
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ فَهُوَ غَيَّبَ عَنْكُمْ وَعَنِ إِيْمَانِكُمْ،  
وَلَا يَنْصَرُّ بِكُفْرَانِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ

نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾... الْآيَةِ [القصص: ٤٧].  
وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ  
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ  
الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَا  
أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ  
مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ  
رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ» (١).

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ  
يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿١٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ  
سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا  
لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغَيِّرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٧٣﴾ إِلَّا طَرِيقَ  
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧٤﴾ يَأْتِيهَا  
النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ  
وَلَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
حَكِيمًا ﴿١٧٥﴾

لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إِلَى آخِرِ  
السِّيَاقِ، إِثْبَاتَ نُبُوَّتِهِ ﷺ وَالرَّدَّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّتَهُ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ  
بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ وَإِنْ كَفَرَ بِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِمَّنْ كَذَبَكَ  
وَحَالَفَكَ، قَالَهُ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ  
الْكِتَابَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ  
بَيْدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]  
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أَيْ فِي عِلْمِهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ  
يُطْلِعَ الْعِبَادَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى وَالْقُرْآنَ، وَمَا يُجِبُهُ  
اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْغُيُوبِ  
مِنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى  
الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ إِلَّا أَنْ  
يُعَلِّمَهُ اللَّهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ  
إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَقَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ  
عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أَيْ بِصِدْقِ مَا جَاءَكَ  
وَأَوْحَى إِلَيْكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ مَعَ شَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ  
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ  
ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيْ كَفَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ يَتَّبِعُوا

إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ أَيَّ إِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَ لَهُ: كُنْ فَكَانَ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، أَيَّ خَلَقَهُ بِالكَلِمَةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَرْيَمَ، فَفَتَحَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَانَ عِيسَى بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْفَتْحَةُ الَّتِي نَفَخَهَا فِي جَيْبِ دُرْعِمَا، فَتَزَلَّتْ حَتَّى وَلَجَتْ فَرْجَهَا بِمَنْزِلَةِ لِقَاحِ الْأَبِ وَالْأُمِّ، وَالْجَمِيعُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا قِيلَ لِعِيسَى: إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحٌ مِنْهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ تَوَلَّدَ مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاشِئٌ عَنِ الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ بِهَا: كُنْ، فَكَانَ. وَالرُّوحُ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَنتُمْ صَادِقَةٌ كَانَا يَكْفُرَانِ الظَّالِمِينَ﴾

[المائدة: ٧٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [التحریم: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ...﴾ [الزخرف: ٥٩].

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿كُنْ﴾ فَكَانَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سِنَانَ الْوَاسِطِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ شَاذَ بْنَ يَحْيَى يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قَالَ: لَيْسَ الْكَلِمَةُ صَارَتْ عِيسَى، وَلَكِنْ بِالْكَلِمَةِ صَارَ عِيسَى<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»<sup>(٦)</sup>.

زَادَ فِي رِوَايَةٍ: «مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>. فَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ:

(١) أحمد: ٢٣/١ (٢) فتح الباري: ٥٥١/٦ (٣) أحمد: ٣/١٥٣ (٤) عبد الرزاق: ١٧٧/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٦٣١٠ (٦) فتح الباري: ٥٤٦/٦ (٧) فتح الباري: ٥٤٧/٦ (٨) مسلم: ٥٧/١

تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنُوكُمْ حِينَئِذٍ [إبراهيم: ٨] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أَيَّ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمْ الْهِدَايَةَ فِيهِدِيهِ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَاثِيَةَ فَيُعْوَثِيهِ، ﴿حَكِيمًا﴾ أَيَّ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشُرْعِهِ وَقُدْرِهِ. ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لَا تَسْأَلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرَ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [٧١] [نَهَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَإِطْرَاءِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ]

يُنْهَى تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْإِطْرَاءِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي عِيسَى حَتَّى رَفَعُوهُ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَتَقُولُوه مِنْ حَيْزِ الثَّبُوتِ، إِلَى أَنْ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَعْبُدُونَهُ. بَلْ قَدْ غَلَوْا فِي أَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ بِمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ، فَادْعُوا فِيهِمُ الْعِصْمَةَ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ سِوَاءَ كَانَتْ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا، أَوْ ضَلَالًا أَوْ رَشَادًا، أَوْ صَحِيحًا أَوْ كَذِبًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَهُمْ كَذِبًا أَرَبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣١]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ. فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَلَفْظُهُ: «فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٣)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أَيَّ لَا تَقْتَرُوا عَلَيْهِ وَتَجْعَلُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، تَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ غُلُوًّا كَبِيرًا، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ وَتَوَحَّدَ فِي سُودِدِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا

وَعَشْرُونَ عَلَى مَقَالَةٍ، وَمِائَةٌ عَلَى مَقَالَةٍ، وَسَبْعُونَ عَلَى مَقَالَةٍ، وَأَزِيدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْقُصُ. فَلَمَّا رَأَى مِنْهُمْ عِصَابَةً قَدْ زَادُوا عَلَى الثَّلَاثِ مِائَةً بِمِائَتَيْ عَشَرَ نَفَرًا، وَقَدْ تَوَافَقُوا عَلَى مَقَالَةٍ، فَأَخَذَهَا الْمَلِكُ وَنَصَرَهَا وَأَيَّدَهَا - وَكَانَ فِيلُسُوفًا ذَاهِيَةً - وَمَحَقَّ مَا عَدَاهَا مِنَ الْأَقْوَالِ، وَانْتَضَمَ دَسْتُ أُولَئِكَ الثَّلَاثِ مِائَةٍ وَالثَّمَانِيَةِ عَشَرَ، وَبُنِيَتْ لَهُمُ الْكِنَائِسُ، وَوَضِعُوا لَهُمْ كُتُبًا وَقَوَائِينَ، وَأَخَذُوا فِيهَا الْأَمَانَةَ الَّتِي يُلْقِنُونَهَا الْوُلْدَانَ مِنَ الصِّغَارِ، لِيَعْتَقِدُوهَا، وَيُعَمِّدُونَهُمْ عَلَيْهَا، وَأَتَّبَعَ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمَلَكِيَّةُ. ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا مَجْمَعًا ثَانِيًا، فَحَدَّثَ فِيهِمُ الْيَعْقُوبِيَّةُ، ثُمَّ مَجْمَعًا ثَالِثًا فَحَدَّثَ فِيهِمُ النَّسْطُورِيَّةُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْفِرَقِ تَثْبُتُ الْأَقَانِيمَ الثَّلَاثَةَ فِي الْمَسِيحِ، وَيَحْتَلِفُونَ فِي كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ، وَفِي اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ - عَلَى رُغْمِهِمْ - هَلِ اتَّحَدَا، أَوْ مَا اتَّحَدَا، أَوْ امْتَزَجَا، أَوْ حَلَّ فِيهِ عَلَى ثَلَاثِ مَقَالَاتٍ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يُكْفَرُ الْفِرْقَةُ الْأُخْرَى، وَنَحْنُ نُكْفَرُ الثَّلَاثَةَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أَيْ يَكُنْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَيْ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَيْ الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ، وَجَمِيعُ مَا فِيهَا عِبْدُهُ وَهُمْ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَنَصْرِيهِ، وَهُوَ وَكِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهُمْ صَاحِبَةٌ وَوَلَدٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَبْعَثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَرَدَّا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْمِلْهُمُ إِلَهُهُ جَمِيعًا﴾ قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٧﴾

[الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَسْتَنْكِفُونَ عَنْ كَوْنِهِمْ عِبَادَ اللَّهِ] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لَنْ يَسْتَكْبِرَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَنْ يَحْتَشِمَ ﴿الْمَسِيحُ

«وَرُوحٌ مِنْهُ» كَقَوْلِهِ: «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ» [البجائية: ١٣] أَيْ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ، وَلَيْسَتْ مِنْهُ لِلتَّعْيِيزِ، كَمَا تَقُولُهُ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ - بَلْ هِيَ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى. وَأُضِيفَتِ الرُّوحُ إِلَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيفِ، كَمَا أُضِيفَتِ النَّاقَةُ وَالْبَيْتُ إِلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَطَهْرَ بَيْتِي لِطَافِينَ﴾ [الحج: ٢٦] وَكَمَا رَوَى فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «فَأَدْخُلْ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ»<sup>(١)</sup>. أَصَافَهَا إِلَيْهِ إِصَافَةً تَشْرِيفٍ [لَهَا]، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ قَبِيلِ وَاحِدٍ وَنَمِطٍ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيْ فَصَدَّقُوا بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ، وَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا بِأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أَيْ لَا تَجْعَلُوا عِيسَى وَأُمَّهُ مَعَ اللَّهِ شَرِيكَيْنِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [المائدة: ٧٣] وَكَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ الْمَذْكُورَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي... الْآيَةُ [الأنعام: ١١٦] وَقَالَ فِي أَوَّلِهَا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾... الْآيَةُ [المائدة: ٧٢] فَالْتَّصَارَى - عَلَيْهِمُ لَعَائِنُ اللَّهِ - مِنْ جَهْلِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ ضَاطِبٌ، وَلَا لِكُفْرِهِمْ حَدٌّ، بَلْ أَقْوَالُهُمْ وَضَلَالَتُهُمْ مُتَتَبِرَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ إِلَهًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ شَرِيكًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ وَلَدًا، وَهُمْ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ لَهُمْ آرَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَأَقْوَالٌ غَيْرُ مُؤْتَلِفَةٍ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ حَيْثُ قَالَ: لَوْ اجْتَمَعَ عَشْرَةٌ مِنَ النَّصَارَى لَا فَرَقُوا عَلَى أَحَدٍ عَشَرَ قَوْلًا.

[فِرْقُ النَّصَارَى]

وَلَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ عُلَمَائِهِمُ الْمَشَاهِيرُ عَنْدهُمْ وَهُوَ سَعِيدُ ابْنُ بَطْرِيْقٍ، بَتْرُكُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِي حُدُودِ سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا [فِي] الْمَجْمَعِ الْكَبِيرِ الَّذِي عَقَدُوا فِيهِ الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي لَهُمْ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيرَةُ الصَّغِيرَةُ، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينِ بَانِي الْمَدِينَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَأَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ اخْتِلَافًا لَا يَنْضَبُطُ وَلَا يَنْحَصِرُ، فَكَانُوا أَزِيدَ مِنَ الْفَلْسَفَةِ؛ أَسْفَقًا، فَكَانُوا أَحْزَابًا كَثِيرَةً، كُلُّ خَمْسِينَ مِنْهُمْ عَلَى مَقَالَةٍ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٦

سُورَةُ النِّسَاءِ

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُهَا هَلَكَ  
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا  
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا النِّسْفَانِ مِمَّا تَرَكَ  
وَلِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ  
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُهُ  
الْأَنعَامُ إِلَّا مَا بَلَغَ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مُحِلِّي الصِّدِّ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ  
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ  
وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَمِينَ الْبَيْتِ  
الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا  
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ  
الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا  
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧٧﴾

يُكَلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿١٧٧﴾

[حُكْمُ الْكَلَالَةِ، وَهِيَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: أَخْرَجَ سُورَةُ نَزَلَتْ بَرَاءُهُ،  
وَأَخْرَجَ آيَةَ نَزَلَتْ: يَسْتَفْتُونَكَ <sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَرِيضٌ لَا أَقْعُلُ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَبَّ عَلَيَّ،  
أَوْ قَالَ: صَبَّوْا عَلَيَّ، فَعَقَلْتُ فَقُلْتُ: إِنَّهُ لَا يَرِثُنِي إِلَّا كَلَالَةٌ،  
فَكَيْفَ الْمِيرَاثُ؟ [قَالَ] فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْفَرَائِضِ <sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ  
فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ. وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ  
فَنَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي  
الْكَلَالَةِ»... الآية <sup>(٤)</sup>. وَكَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -

أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا أَلَمَّتْ بَكَّةُ الْمَرْثُونَ <sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ:  
«وَمَنْ يَسْتَفْتِكَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَفْتِكَ فَيَسْتَفْتِيهِمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا  
أَيَّ فَيَجْمَعُهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَنْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ  
الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ، وَلَا يَجِفُّ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَأَمَّا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَبُوْغِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَزِيَدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»  
أَيَّ فَيُعْطِيهِمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ،  
وَيَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسِعَةً وَرَحْمَتِهِ وَأَمْتِنَانِهِ  
«وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَبُوا وَاسْتَكْبَرُوا» أَيَّ: ائْتَمَعُوا مِنْ طَاعَةِ  
اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ ذَلِكَ «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا  
وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» كَقَوْلِهِ: «إِنَّ  
الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» أَيَّ  
صَاحِبِينَ خَفِيرِينَ ذَلِيلِينَ كَمَا كَانُوا مُتَعَبِينَ مُسْتَكْبِرِينَ.

«يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا  
مُبِينًا» <sup>(٢)</sup> فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي  
رَحْمَةِ مَنَّةٍ وَفَضْلِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا <sup>(٣)</sup>  
[أَوْصَافُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا جَمِيعَ النَّاسِ وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُ قَدْ  
جَاءَهُمْ مِنْهُ بُرْهَانٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ لِلْعُدْرِ،  
وَالْحُجَّةُ الْمُزِيلَةُ لِلشُّبْهَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا  
مُبِينًا» أَيَّ ضِيَاءً وَاضِحًا عَلَى الْحَقِّ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ  
وَعِيزَةُ: وَهُوَ الْقُرْآنُ <sup>(١)</sup> «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا  
بِهِ» أَيَّ جَمَعُوا بَيْنَ مَقَامِي الْعِبَادَةِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي  
جَمِيعِ أُمُورِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا  
بِالْقُرْآنِ <sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. «فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مَنَّةٍ  
وَفَضْلٍ» أَيَّ يَرْحَمُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَيَزِيدُهُمْ ثَوَابًا  
وَمُضَاعَفَةً وَرَفْعًا فِي دَرَجَاتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ  
إِلَيْهِمْ، «وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أَيَّ طَرِيقًا وَاضِحًا  
قَصْدًا قِيَامًا لَا اغْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ، وَهَذِهِ صِفَةُ  
الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مِنْهَاجِ  
الِاسْتِقَامَةِ وَطَرِيقِ السَّلَامَةِ فِي جَمِيعِ الْأَعْتِقَادَاتِ  
وَالْعَمَلِيَّاتِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ  
الْمُقْضِي إِلَى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ.

«يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُهَا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ  
وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا  
وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا النِّسْفَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا  
وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ بَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ

(١) الطبري: ٤٢٤/٩ (٢) الطبري: ٤٢٨/٩ (٣) الطبري: ٤٢٩/٩  
(٤) فتح الباري: ١١٧/٨ (٥) أحمد: ٢٩٨/٣ (٦) فتح الباري: ٢٦/١٢  
والمسلم: ١٢٣٥/٣ (٧) فتح الباري: ١٢/٥ (٨) أبو داود: ٣٠٨/٣ وتحفة الأحوذ: ٦/٢٧٣  
والنسائي في الكبرى: ٥٩/٤ وابن ماجه: ٤٦٢/١

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: قَضَىٰ فِينَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: النِّصْفَ لِلْبَيْتِ وَالنِّصْفَ لِلْأُخْتِ. ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ: قَضَىٰ فِينَا. وَلَمْ يَذْكُرْ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ هُزَيْلِ بْنِ شَرْحِبِيلٍ قَالَ: سُئِلَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنْ ابْنَةٍ وَابْنَةٍ ابْنٍ وَأُخْتٍ، فَقَالَ: لِلْابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ، وَأَتِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَسَيَّأُ بَعْضِي، فَسَأَلَ ابْنَ مَسْعُودٍ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ: النِّصْفَ لِلْبَيْتِ، وَلِلْبَيْتِ الْإِبْنُ السُّدُسُ تَكْمَلَةُ الثَّلَاثِينَ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ، فَاتَيْنَا أَبَا مُوسَى، فَأَخْبَرَنَا بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْخَبَرُ فِيكُمْ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أَيُّ: وَالْأَخُ يَرِثُ جَمِيعَ مَالِهَا إِذَا مَاتَتْ كَلَالَةً، وَلَيْسَ لَهَا وَلَدٌ أَيُّ: وَلَا وَالِدٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا وَالِدٌ لَمْ يَرِثَ الْأَخُ شَيْئًا، فَإِنْ فُرِضَ أَنْ مَعَهُ مَنْ لَهُ فَرَضٌ صُرِفَ إِلَيْهِ فَرَضُهُ، كَزَوْجٍ أَوْ أَخٍ مِنْ أُمٍّ، وَصُرِفَ الْبَاقِي إِلَى الْأَخِ، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «إِنْ كَانَتْ أُنْتَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ» أَيُّ فَإِنْ كَانَ لِمَنْ يَمُوتُ كَلَالَةً أُخْتَانِ، فُرِضَ لَهُمَا الثَّلَاثَانِ، وَكَذَا مَا زَادَ عَلَى الْأُخْتَيْنِ فِي حُكْمِهِمَا، وَمِنْ هَهُنَا أَخَذَ الْجَمَاعَةُ حُكْمَ الْبَيْتَيْنِ، كَمَا اسْتَفِيدَ حُكْمُ الْأَخَوَاتِ مِنَ الْبَنَاتِ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مِمَّا تَرَكَ» [النساء: ١٢].

وَقَوْلُهُ: «وَلِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» هَذَا حُكْمُ الْعَصَبَاتِ مِنَ الْبَنِينَ وَبَنِي الْبَنِينَ وَالْإِخْوَةِ إِذَا اجْتَمَعَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ، أُعْطِيَ الذَّكَرُ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيْنِ. وَقَوْلُهُ: «يَبْنِي اللَّهُ لَكُمْ» أَيُّ يَفْرَضُ لَكُمْ فَرَائِضُهُ، وَيَحْدُ لَكُمْ حُدُودُهُ، وَيُوضَّحُ لَكُمْ سَرَائِعُهُ. وَقَوْلُهُ: «أَنْ تَضِلُّوا» أَيُّ لِكَلَّا تَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ الْبَيَانِ «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أَيُّ هُوَ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرَابَاتِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ مِنَ الْمُتَوَفَّى.

يَسْتَفْتُونَكَ عَنِ الْكَلَالَةِ ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ فِيهَا، فَدَلَّ الْمَذْكُورُ عَلَى الْمُتْرُوكِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْكَلَالَةِ وَاشْتِقَاقِهَا، وَأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ الْإِكْلِيلِ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَلِهَذَا فَسَّرَهَا أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ بِمَنْ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾، وَقَدْ أَشْكَلَ حُكْمَ الْكَلَالَةِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: ثَلَاثٌ وَوَدُثٌ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَادَ عَهْدَ الْإِنَّا فِيهِنَّ عَهْدًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ: الْجَدُّ وَالْكَلَالَةُ وَبَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ عَنِ الْكَلَالَةِ حَتَّى طَعَنَ بِإِضْغَاعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ»<sup>(٥)</sup> هَكَذَا رَوَاهُ مُخْتَصَرًا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مَطْوَلًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا<sup>(٦)</sup>. وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِآيَةِ الصَّيْفِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي فَضْلِ الصَّيْفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[ذِكْرُ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَاهَا وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ وَعَلَيْهِ

### التَّكْلَانُ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ﴾ أَيُّ مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصر: ٨٨] كُلُّ شَيْءٍ يَفْنَى وَلَا يَبْقَى إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. قَوْلُهُ: «لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ» أَيُّ: الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدٌ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَلَهُ» أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَلَوْ كَانَ مَعَهَا أَبٌ لَمْ تَرِثْ شَيْئًا، لِأَنَّهُ يَحْجُبُهَا بِالْإِجْمَاعِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ بَنَصُّ الْقُرْآنِ، وَلَا وَالِدٌ، بِالنِّصِّ عِنْدَ التَّامُّلِ أَيْضًا، لِأَنَّ الْأُخْتَ لَا يَفْرَضُ لَهَا النِّصْفُ مَعَ الْوَالِدِ، بَلْ لَيْسَ لَهَا مِيرَاثٌ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ فِي الْمَيِّتِ: تَرَكَ بَنَاتًا وَأَخْتًا إِنَّهُ لَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَهُ» أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ قَالَ: فَإِذَا تَرَكَ بَنَاتًا فَقَدْ تَرَكَ وَلَدًا فَلَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ، وَخَالَفَهُمَا الْجُمْهُورُ فَقَالُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: لِلْبَيْتِ النِّصْفُ بِالْفَرَضِ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ الْآخَرُ بِالتَّعْصِيبِ بِدَلِيلِ غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصَّتْ أَنْ يُفْرَضَ لَهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ. وَأَمَّا وَرَأَتْهَا بِالتَّعْصِيبِ فَلَمَّا

(١) فتح الباري: ٤٨/١ ومسلم: ٢٣٢٢/٤ (٢) أحمد: ١/

٢٦ (٣) مسلم: ١٢٣٦/٣ (٤) البخاري: ٦٧٤١ (٥)

البخاري: ٦٧٣٦ (٦) فتح الباري: ١٧/١٢ ومسلم: ١٢٣٣/٣

الْمَائِدَةِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ فَاسْتَحْلَوْهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ، وَزَادَ: وَسَأَلْتُهَا عَنْ خُلْقِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: الْقُرْآنُ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(١١)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُكَلِّفُ غَيْرَ حِلٍّ الصِّيدِ أَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾<sup>(١)</sup> يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيذَ وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ سِتْنَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(٢)</sup>

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: إِعْهَدْ إِلَيَّ، فَقَالَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعَاهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ بِأَمْرٍ بِهِ أَوْ شَرٍّ يَنْهَى عَنْهُ. وَعَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَهُوَ فِي التَّوْرَةِ: يَا أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَغْنِي بِالْعُقُودِ الْعُهُودُ<sup>(١٢)</sup>. وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: وَالْعُهُودُ مَا كَانُوا يَتَعَاهَدُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلْفِ وَغَيْرِهِ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يَغْنِي بِالْعُهُودِ، يَغْنِي مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَمَا حَرَّمَ، وَمَا فَرَضَ وَمَا حَدَّ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، فَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَنْكُثُوا، ثُمَّ شَدَّدَ فِي

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخَذَ عُمَرُ كَيْفًا وَجَمَعَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: لَا أَقْضِيَنَّ فِي الْكَلَالَةِ قَضَاءً تَحْدُثُ بِهِ النِّسَاءُ فِي خُدُورِهِنَّ، فَخَرَجَتْ حَيْثُ نِلَتْ حَتَّى مِنَ الْبَيْتِ فَتَقَرَّقُوا، فَقَالَ: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُبَيِّنَ هَذَا الْأَمْرَ لَأَتَمَّهُ<sup>(١٤)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَرَوَى الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ النَّيْسَابُورِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: لَأَنْ أَكُونَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ثَلَاثٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ: مِنَ الْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ؟ وَعَنْ قَوْمٍ قَالُوا: تَقَرُّ بِالزَّكَاةِ فِي أَمْوَالِنَا وَلَا نُؤَدِّيهِا إِلَيْكَ، أَيَحِلُّ فِتْنَتُهُمْ؟ وَعَنِ الْكَلَالَةِ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(١٥)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ رَوَى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَخْلِفَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: هُوَ مَا عَدَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ<sup>(١٦)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الصَّدِيقُ عَلَيْهِ جُمُهورُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَتَمَّةُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، كَمَا أَرَشَدَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ وَوَضَّحَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَصِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ

### [فَصَائِلُ الْمَائِدَةِ وَزَمَنُ نَزُولِهَا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَشْمَاءِ بِنْتِ يَزِيدٍ، قَالَتْ: إِنِّي لَأَخِذَةٌ بِزِمَامِ الْعَضْبَاءِ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْمَائِدَةُ كُلُّهَا، وَكَادَتْ مِنْ ثِقَلِهَا تَدُقُّ عَضْدَ النَّاقَةِ<sup>(١٧)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَتَزَلَّ عَنْهَا. فَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ<sup>(١٨)</sup>.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَالْفَتْحُ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(١٩)</sup>. وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾<sup>(٢٠)</sup> [النصر: ١]. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ نَحْوَ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٢١)</sup>. وَرَوَى الْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قَالَ: حَجَجْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِي: يَا جُبَيْرُ، تَقْرَأُ

(١) الطبري: ٤٣٩/٩ (٢) الحاكم: ٣٠٤/٢ (٣) الطبري: ٩/٤٣٧ (٤) مسند أحمد ٤٥٥/٤٦ إسناده ضعيف فيه ليث بن أبي سليم صدوق اختلط فلم يتميز حديثه فترك كما في التقريب وشيخه شهر بن حوشب كثير الأوهام والإرسال (٥) مسند أحمد ١٧٦/٢ فيه حثي بن عبدالله قال البخاري فيه نظر [الكامل لابن عدي ٢/٨٥٥] وعبدالله بن لهيعة فيه ضعف أيضا (٦) تحفة الأحوذى: ٤٣٦/٨ فيه أيضا حثي بن عبدالله (٧) تحفة الأحوذى: ٨/٤٣٧ (٨) الحاكم: ٣١١/٢ (٩) الحاكم: ٣١١/٢ (١٠) أحمد: ١٨٨/٦ (١١) النسائي في الكبرى: ١١١٣٨ (١٢) الطبري: ٤٥٠/٩ (١٣) الطبري: ٤٤٩/٩



رَجِيءٌ» [النحل: ١١٥] أَي: أَبْحَثْنَا تَنَاقُلَ الْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا مُتَعَدٍّ، وَهَكَذَا هُنَا أَي: كَمَا أَخْلَلْنَا الْأَنْعَامَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ فَحَرِّمُوا الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بِهِذَا، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

### [الْأَمْرُ بِاخْتِرَامِ الْحَرَمِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ، وَالْهَذْيُ وَالْبُدْنُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ<sup>(٩)</sup>. وَقِيلَ: شَعَائِرُ اللَّهِ: مَحَارِمُهُ، أَي: لَا تَحْلُوا مَحَارِمَ اللَّهِ الَّتِي حَرَّمَهَا تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ تَحْرِيمَهُ وَالْاعْتِرَافَ بِتَعْظِيمِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ مِنَ الْإِنْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ وَتَأْكِيدِ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾... آيَةُ [التوبة: ٣٦]، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ: اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثُ مَتَوَالِيَاتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمُ، وَرَجَبٌ مُضَرٌّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَسَعْبَانَ»<sup>(١٠)</sup>. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ تَحْرِيمِهَا إِلَى آخِرِ وَقْتٍ.

### [الْإِهْدَاءُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيَّةَ﴾ يَعْنِي لَا تَتَرَكُوا الْإِهْدَاءَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَإِنَّ فِيهِ تَعْظِيمًا لَشَعَائِرِ اللَّهِ، وَلَا تَتَرَكُوا تَقْلِيدَهَا فِي أَغْنَاقِهَا لِتَسْمِيَةِ بِهِ عَمَّا عَدَاهَا مِنَ الْأَنْعَامِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهَا هَدْيٌ إِلَى الْكِبَرَةِ فَيجَنَّبُهَا مَنْ يُرِيدُهَا بِسُوءٍ، وَتَبَعَتْ مَنْ يَرَاهَا عَلَى الْإِثْنَيْنِ بِمِثْلِهَا؛ فَإِنَّ مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَلِهَذَا لَمَّا حَجَّ

ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِغُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿سُوءَ الدَّارِ﴾<sup>(١١)</sup> وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ: مَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمِيثَاقِ عَلَى مَنْ أَقَرَّ بِالْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَالْكِتَابِ أَنْ يُوفُوا بِمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَرَائِضِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

### [بَيَانُ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ هِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ. قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١٢)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَلِكَ هُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ بِهِذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبَاحَةِ الْجَنِينِ إِذَا وَجِدَ مَيِّتًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا دُبِحَتْ<sup>(١٣)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ فِي الشَّيْخِ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَنَحِّرُ النَّاقَةَ وَنَذْبَحُ الْبَقْرَةَ أَوْ الشَّاةَ فِي بَطْنِهَا الْجَنِينِ، أُنَلِّقُهُ أَمْ نَأْكُلُهُ؟ فَقَالَ: «كُلُّوهُ إِنْ شِئْتُمْ، فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاءُ أُمِّهِ» وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(١٤)</sup>. رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ذَكَاءُ الْجَنِينِ ذَكَاءُ أُمِّهِ»<sup>(١٥)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَقَّى عَلَيْكُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَزِيرِ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَيْتَةَ وَمَنَامَهُ يُذَكِّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ<sup>(١٧)</sup>. وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلُ لُغَتِهِ اللَّهُ بِهِ وَالْمُنْتَفِقَةُ وَالْمُؤَفَّذَةُ وَالْمَرَدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَنْعَامِ إِلَّا أَنَّهَا تَحْرُمُ بِهِذِهِ الْعَوَارِضِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا مَا ذُكِّمْتُ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ يَعْنِي مِنْهَا فَإِنَّهُ حَرَامٌ لَا يُمَكِّنُ اسْتِدْرَاكُهُ وَتَلَاخُفُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يَتَلَقَّى عَلَيْكُمْ﴾ أَي: إِلَّا مَا سَيَتَلَقَّى عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْرِيمِ بَعْضِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ مَحْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ بِالْأَنْعَامِ مَا يَعْصِي الْإِنْسِي مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَمَا يَعْصِي الْوَحْشِي كَالطَّيْلِ وَالْبَقَرِ وَالْحُمْرِ، فَاسْتَشْنَى مِنَ الْإِنْسِيِّ مَا تَقَدَّمَ، وَاسْتَشْنَى مِنَ الْوَحْشِيِّ الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَخْلَلْنَا لَكُمْ الْأَنْعَامَ [فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ] إِلَّا مَا اسْتَشْنَى مِنْهَا - لِمَنْ التَزَمَ تَحْرِيمَ الصَّيْدِ، وَهُوَ حَرَامٌ - لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَيْتَ اللَّهُ عَفْوَرٌ

(١) الطبري: ٤٥٢/٩ (٢) الطبري: ٤٥٥/٩ (٣) الطبري: ٩/

٤٥٦ (٤) أبو داود: ٢٥٢/٣ وتحفة الأحوذ: ٤٨/٥ وابن

ماجه: ١٠٦٦/٢ (٥) أبو داود: ٢٥٣/٣ (٦) الطبري: ٩/

٤٥٨ (٧) الطبري: ٤٥٨/٩ (٨) الطبري: ٤٦٣/٩ (٩)

الطبري: ٤٦٣/٩ (١٠) فتح الباري: ١٠/١٠

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بَاتَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ وَهُوَ وَادِي الْعَقِيقِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ طَافَ عَلَى نِسَائِهِ وَكُنَّ تَسْعًا، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ أَشْعَرَ هَذِيهَ وَقَلَدَهُ، وَأَهْلَ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَكَانَ هَذِيهَ إِيْلًا كَثِيرَةً تَنِيْفٌ عَلَى السَّيِّئِينَ، مِنْ أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ وَمَعْنَاهَا ظَاهِرٌ أَيْ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ قَدْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَذَلِكَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، فَتَقْتَضُوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، بَلِ احْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]

أَيْ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ، فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ. فِي كُلِّ أَحَدٍ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَأَصْحَابُهُ حِينَ صَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ النَّبِيِّ، وَقَدْ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَمَرَّ بِهِمْ أَنَسُ بْنُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ يُرِيدُونَ الْعُمْرَةَ، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: نَصُدُّ هَؤُلَاءِ كَمَا صَدَدْنَا أَصْحَابَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَالشَّانُ هُوَ: الْبُغْضُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ - وَهُوَ الْبِرُّ - وَتَرْكِ الْمُتَكْرَاتِ، وَهُوَ التَّقْوَى. وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَآئِمِ وَالْمَحَارِمِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْإِثْمُ: تَرْكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِفِعْلِهِ. وَالْعُدْوَانُ: مُجَاوَزُهُ مَا حَدَّ اللَّهُ فِي دِينِكُمْ، وَمُجَاوَزُهُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِي غَيْرِكُمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَصْرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ ظَالِمًا؟ قَالَ «تَحْجُزُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُهُ»<sup>(٦)</sup>.

(١) الطبري: ٣٣٢/١٠ (٢) الطبري: ٤٨١، ٤٨٠/٩ (٣) الطبري: ٤٧٢/٩، ٤٧٥ (٤) الطبري: ٤٧٨/٩ (٥) الطبري: ٤٩٠/٩ (٦) أحمد: ٩٩/٣

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ فَلَا تَسْتَحِلُّوهُا؛ وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا خَرَجُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ فِي غَيْرِ الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ قَلَدُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّعْرِ وَالْوَبْرِ، وَتَقَلَّدَ مُشْرِكُو الْحَرَمِ مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ [الْحَرَمِ] فَيَأْمَنُونَ بِهِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: نُسِخَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ آيَتَانِ آيَةُ الْقَلَالِيدِ وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَآخُذْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾<sup>(١)</sup> [المائدة: ٤٢].

[تَحْرِيمٌ مِنْ قَصْدِ النَّبِيِّ الْحَرَامِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا ءَاتِينَ آلِيَتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أَيْ وَلَا تَسْتَحِلُّوْا قِتَالَ الْقَاصِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَكَذَا مَنْ قَصَدَهُ طَالِبًا فَضْلَ اللَّهِ وَرَاجِعًا فِي رِضْوَانِهِ، فَلَا تَصُدُّوهُ وَلَا تَمْنَعُوهُ وَلَا تُهَيِّجُوهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ عَمِيرٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ ﴿يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ التَّجَارَةَ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وَقَوْلُهُ ﴿وَرِضْوَانًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَرَضَّوْنَ اللَّهُ بِحَبِّهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ عِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْحُطَمِ بْنِ هِنْدِ الْبَكْرِيِّ، كَانَ قَدْ آغَارَ عَلَى سَرَحِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ اعْتَمَرَ إِلَى النَّبِيِّ، فَأَرَادَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنْ يَعْتَرِضُوا عَلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى النَّبِيِّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا ءَاتِينَ آلِيَتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾<sup>(٣)</sup>.

[إِبَاحَةُ الصَّيْدِ بَعْدَ الْحَلَالِ مِنَ الْإِحْرَامِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أَيْ إِذَا فَرَّغْتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ وَأَحْلَلْتُمْ مِنْهُ فَقَدْ أَبَحْنَا لَكُمْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ مِنَ الصَّيْدِ، وَهَذَا أَمْرٌ بَعْدَ الْحُظْرِ، وَالصَّحِيحُ - الَّذِي يَثْبُتُ عَلَى السَّبْرِ -: أَنَّهُ يَرُدُّ

[إِبَاحَةُ الصَّيْدِ بَعْدَ الْحَلَالِ مِنَ الْإِحْرَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أَيْ إِذَا فَرَّغْتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ وَأَحْلَلْتُمْ مِنْهُ فَقَدْ أَبَحْنَا لَكُمْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ مِنَ الصَّيْدِ، وَهَذَا أَمْرٌ بَعْدَ الْحُظْرِ، وَالصَّحِيحُ - الَّذِي يَثْبُتُ عَلَى السَّبْرِ -: أَنَّهُ يَرُدُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٧

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْجَفَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقَ الْيَوْمَ يَيْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مَعَ مَا كَلَّمَكُمُ اللَّهُ فُكُلُوا أَمَّا أَمْسَكُنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْفُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حُلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حُلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَجَدِّينَ أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤﴾

أَسْلَمَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ يَعْنِي إِنْسِيَّهُ وَوَحْشِيَّهُ، وَاللَّحْمُ يَعْصَمُ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ حَتَّى الشَّحْمُ، وَلَا يُحْتَاجُ إِلَى تَحْدِثِ الظَّاهِرِيَّةِ فِي جُمُودِهِمْ هَهُنَا، وَتَعَسُّفِهِمْ فِي الْإِحْتِجَاجِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَيْتَهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقٌ﴾ يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْسَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أَعَادُوا الضَّمِيرَ فِيمَا فَهَمُوهُ عَلَى الْخِنْزِيرِ حَتَّى يَعْصَمَ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ. وَهَذَا بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ، فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ الضَّمِيرُ إِلَّا إِلَى الْمُضَافِ دُونَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ اللَّحْمَ يَعْصَمُ جَمِيعَ الْأَجْزَاءِ كَمَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ، وَمِنْ الْعُرْفِ الْمُطْرَدِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ

إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ هُشَيْمٍ بِهِ نَحْوُهُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَضْبُرُ عَلَى آذَانِهِمْ، أَكْثَرُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَضْبُرُ عَلَى آذَانِهِمْ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»<sup>(٣)</sup>.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْجَفَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقَ الْيَوْمَ يَيْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٢﴾

[مَا حُرِّمَ أَكْلُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عِبَادَهُ خَبِيرًا مُتَّصِمًا النَّهْيِ عَنْ تَعَاطِي هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ مِنَ الْمَيْتَةِ، وَهِيَ مَا مَاتَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ حَتَّى أَنْفَهُ مِنْ غَيْرِ ذَكَاةٍ وَلَا اضْطِيَادٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ، لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمِ الْمُحْتَفَنِ، فَهِيَ ضَارَّةٌ لِلدِّينِ وَلِلدِّينِ، فَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَتُسْتَنَى مِنَ الْمَيْتَةِ السَّمَكُ، فَإِنَّهُ حَلَالٌ سِوَاءَ مَا تَذَكِّيَّةٍ أَوْ غَيْرَهَا لِمَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي مُوطَّئِهِ، وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةٍ فِي سُنَنِهِمْ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ، فَقَالَ: «هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحُلُّ مَيْتَتُهُ»<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا الْجَرَادُ

لِمَا سَيَأْتِي مِنَ الْحَدِيثِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْدَّمُ﴾ [المائدة: ٣] يَعْنِي بِهِ الْمَسْفُوحُ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَمِلَ عَنْ الطَّحَالِ فَقَالَ: كُلُّوهُ، فَقَالُوا: أَنَّهُ دَمٌ، فَقَالَ: إِنَّمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمُ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ، وَقَدْ رَوَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحِلُّ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَابْنُ مَاجَةٍ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ

(١) فتح الباري: ١١٧/٥ (٢) أحمد: ٣٦٥/٥ (٣) مسلم: ٢٢٤/٤ (٤) أبو داود: ٦٤/١ وتحفة الأحوذى: ١/٢٢٤ والنسائي: ٥٠/١ وابن ماجه: ١٣٦/١ وابن خزيمة: ٥٩/١ وابن حبان: ٢٧٢/٢ (٥) ترتيب مسند الشافعي: ١٧٣/٢ (٦) أحمد: ٩٧/٢ والدارقطني: ٢٧٢/٤ والبيهقي: ٢٥٤/١

مِنْ مَذْبَحِهَا. وَالنَّطِيعَةُ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ، أَيِ مَنْطُوحَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّعْيُ﴾ أَيِ مَا عَدَا عَلَيْهَا أَسَدٌ أَوْ فَهْدٌ أَوْ نَمِرٌ أَوْ ذئبٌ أَوْ كَلْبٌ، فَأَكَلَ بَعْضَهَا فَمَاتَتْ بِذَلِكَ، فَهِيَ حَرَامٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ سَالَ مِنْهَا الدَّمُ، وَلَوْ مِنْ مَذْبَحِهَا، فَلَا تَحِلُّ بِالْإِجْمَاعِ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ مَا أَفْضَلَ السَّعْيُ مِنَ الشَّاةِ أَوْ الْبَعِيرِ أَوْ الْبَقَرَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى مَا يُمكنُ عَوْدُهُ عَلَيْهِ مِمَّا انْعَدَدَ سَبَبَ مَوْتِهِ، فَأَمَكَنَ تَدَارُكُهُ بِذِكَاةٍ وَفِيهِ حَيَاةٌ مُسْتَقَرَّةٌ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْمُتَخَيِّفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّعْيُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ يَقُولُ: إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ وَفِيهِ رُوحٌ فَكُلُوهُ، فَهُوَ ذَكِيٌّ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَالسَّيِّدِيِّ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِذَا أَذْرَكْتَ ذَكَاةَ الْمُوفُودَةِ وَالْمَرْدِيَّةِ وَالنَّطِيعَةِ، وَهِيَ تُحَرِّكُ يَدًا أَوْ رِجْلًا فَكُلْهَا<sup>(١١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ طَاوُسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَالضَّحَّاكَ وَغَيْرَ وَاحِدٍ: أَنَّ الْمَذَكَاةَ مَتَى تَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ تَذُلُّ عَلَى بَقَاءِ الْحَيَاةِ فِيهَا بَعْدَ الذَّبْحِ، فَهِيَ حَلَالٌ<sup>(١٢)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا قُوَّةَ لِلْعَدُوِّ غَدًا، وَلَيْسَ مَعَنَا مَدَى، أَفَنَذْبَحُ بِالْقَصَبِ؟ فَقَالَ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكُلُوهُ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ، وَسَأَحْدِثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ: أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمُدَى الْحَبَسَةِ»<sup>(١٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصْبِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَتْ النُّصْبُ حِجَارَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ<sup>(١٤)</sup>. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَهِيَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نَصْبًا، كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا، وَيَنْصَحُونَ مَا أَقْبَلَ مِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ بِدِمَاءِ تِلْكَ الذَّبَائِحِ، وَيُسْرَحُونَ اللَّحْمَ وَيَصْعُقُونَهُ عَلَى

بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّزْدِشِيرِ، فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخِزْيَرِ وَدَمِهِ»<sup>(١٥)</sup>. فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّنْفِيرُ لِمُجَرَّدِ اللَّحْمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعْدُ الْأَكِيدُ عَلَى أَكْلِهِ وَالتَّعَذُّبُ بِهِ؟ وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى شُمُولِ اللَّحْمِ لِجَمِيعِ الْأَجْزَاءِ مِنَ الشَّحْمِ وَغَيْرِهِ؟ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْحَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِزْيَرِ وَالْأَضْنَامِ» فَعِيلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا تُطْلَى بِهَا الشُّفْنُ، وَتُدَهَّنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِغُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «لَا، هُوَ حَرَامٌ»<sup>(١٦)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سُوْفْيَانَ أَنَّهُ قَالَ لِهَرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ: نَهَانَا عَنِ الْمَيْتَةِ وَالِدَمِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَهْلُ لَعْنِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٤] أَيِ مَا ذُبِحَ فَذَكَرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ حَرَامٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ أَنْ تَذْبَحَ مَخْلُوقَاتُهُ عَلَى اسْمِهِ الْعَظِيمِ، فَمَتَى عُدِلَ بِهَا عَنْ ذَلِكَ، وَذَكَرَ عَلَيْهَا اسْمُ غَيْرِهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ طَاغُوتٍ أَوْ وَثْنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّهَا حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَالْمُتَخَيِّفَةُ﴾ وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ بِالْحَقْنِ، إِمَّا قَصْدًا، وَإِمَّا إِنْثَاقًا، بِأَنْ تَتَخَلَّلَ فِي [وَنَاقَهَا]، فَتَمُوتَ بِهِ، فَهِيَ حَرَامٌ. وَأَمَّا «الْمَوْفُودَةُ» فَهِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِالْحَشِيشَةِ، حَتَّى [تَوْفَدَ بِهَا] فَتَمُوتَ<sup>(١٧)</sup>. قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَضْرِبُونَهَا بِالْعَصِيِّ، حَتَّى إِذَا مَاتَتْ أَكَلُوهَا<sup>(١٨)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرْمِي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ فَأُصِيبُ؟ قَالَ: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَ بَعْرَضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ، فَلَا تَأْكُلْهُ»<sup>(١٩)</sup>. فَفَرَّقَ بَيْنَ مَا أَصَابَهُ بِالسَّهْمِ أَوْ بِالْمِزْرَاقِ وَنَحْوِهِ بِحَدِّهِ، فَأَحَلَّهُ، وَمَا أَصَابَ بَعْرَضِهِ فَجَعَلَهُ وَقِيدًا لَمْ يُحَلِّهِ، وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ.

وَأَمَّا «الْمَرْدِيَّةُ» فَهِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ شَاهِقٍ أَوْ مَوْضِعٍ عَالٍ، فَتَمُوتُ بِذَلِكَ، فَلَا تَحِلُّ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْمَرْدِيَّةُ الَّتِي تَسْقُطُ مِنْ جَبَلٍ<sup>(٢٠)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ الَّتِي تَرْدَى فِي بُئْرٍ<sup>(٢١)</sup>. وَقَالَ السَّيِّدِيُّ: هِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ جَبَلٍ أَوْ تَرْدَى فِي بُئْرٍ<sup>(٢٢)</sup>.

وَأَمَّا «النَّطِيعَةُ» فَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحٍ غَيْرِهَا لَهَا، فَهِيَ حَرَامٌ، وَإِنْ جَرَحَهَا الْقُرْنُ وَخَرَجَ مِنْهَا الدَّمُ، وَلَوْ

(١) مسلم: ١٧٧٠/٤ (٢) فتح الباري: ٤٩٥/٤ ومسلم: ٣/١٢٠٧ (٣) الطبري: ٤٩٦/٩ (٤) الطبري: ٤٩٦/٩ (٥) فتح الباري: ٥١٨/٩ (٦) الطبري: ٤٩٨/٩ (٧) الطبري: ٩/٤٩٨ (٨) الطبري: ٤٩٨/٩ (٩) الطبري: ٥٠٢/٩ (١٠) الطبري: ٥٠٧، ٥٠٤/٩ (١١) الطبري: ٥٠٣/٩ (١٢) الطبري: ٥٠٤/٩ (١٣) فتح الباري: ٥٥٤/٩ ومسلم: ٣/١٥٥٨ (١٤) الطبري: ٥٠٨/٩

الْغُصْبِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، فَهِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ هَذِهِ الذَّبَابِجِ الَّتِي فُعِلَتْ عِنْدَ الثُّصِبِ - حَتَّى وَلَوْ كَانَ يُذَكَّرُ عَلَيْهَا اسْمُ اللَّهِ فِي الذَّنَجِ عِنْدَ الثُّصِبِ - مِنَ الشَّرِكِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ هَذَا عَلَى هَذَا، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ تَحْرِيمُ مَا أَهْلُ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ.

### [حُرْمَةُ الْإِسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أَيِ حَرَمِ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْإِسْتِقْسَامَ بِالْأَزْلَامِ، وَاجِدَهَا زَلَمٌ، وَقَدْ تَفَتَّحَ الرَّأْيُ، فَيُقَالُ: زَلَمٌ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّيْهَا يَتَعَاطُونَ ذَلِكَ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحِ ثَلَاثَةٍ، عَلَى أَحَدِهَا مَكْتُوبٌ: اِفْعَلْ، وَعَلَى الْآخَرِ: لَا تَفْعَلْ، وَالثَّلَاثُ: غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: مَكْتُوبٌ عَلَى الْوَاحِدِ: أَمْرِنِي رَبِّي، وَعَلَى الْآخَرِ: نَهَانِي رَبِّي، وَالثَّلَاثُ: غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَإِذَا أَجَالَهَا فَطَلَعَ سَهْمُ الْأَمْرِ فَعَلَهُ، أَوْ النَّهْيُ تَرَكَهُ، وَإِنْ طَلَعَ الْفَارُغُ أَعَادَ، وَالْإِسْتِقْسَامُ مَاخُودٌ مِنْ طَلَبِ الْقِسْمِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْلَامِ، هَكَذَا قَرَّرَ ذَلِكَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ قِدَاحٌ كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا الْأُمُورَ<sup>(٢)</sup>. وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: إِنَّ أَعْظَمَ أَصْنَامِ قُرَيْشٍ صَنَمٌ كَانَ يُقَالُ لَهُ هُبْلٌ، مَنصُوبٌ عَلَى بَثْرِ دَاخِلِ الْكُعْبَةِ، فِيهَا تَوْضَعُ الْهَدَايَا، وَأَمْوَالُ الْكُعْبَةِ فِيهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ سَبْعَةُ أَزْلَامٍ، مَكْتُوبٌ فِيهَا مَا يَتَحَاكَمُونَ فِيهِ مِمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ، فَمَا خَرَجَ لَهُمْ مِنْهَا رَجَعُوا إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْدِلُوا عَنْهُ<sup>(٣)</sup>. وَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَخَلَ الْكُعْبَةَ، وَجَدَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ مُصَوِّرَيْنِ فِيهَا، وَفِي أَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ فَقَالَ: «قَاتِلَهُمُ اللَّهُ، لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا»<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قَالَ: هِيَ سِهَامُ الْعَرَبِ، وَكِبَابُ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ [بِهَا]<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي الْأَزْلَامِ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِلْقِمَارِ، فِيهِ نَظَرٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْإِسْتِخَارَةِ تَارَةً وَفِي الْقِمَارِ أُخْرَى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ [فَرَّقَ] بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقِمَارِ، وَهُوَ الْمَيْسِرُ فَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَنَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٦)</sup> إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أُمُورِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ، بِأَنْ يَعْبُدُوهُ ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْخَيْرَةَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالبَخَارِيُّ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِّي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِّي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاصْرِفْني عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضَيْتُ بِهِ»<sup>(٧)</sup>. لَفْظُ أَحْمَدَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

### [بِأَسِ الْكُفَّارِ وَالشَّيْطَانِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ ﴿الَّذِينَ يَسُ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَتَّبِعُوا أَنْ يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَالسُّدِّيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ<sup>(٩)</sup>. وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَرُدُّ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسُ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ يَتَّبِعُهُمْ»<sup>(١٠)</sup>. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُوا مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُسْلِمِينَ، لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرِكِ وَأَهْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى أَمْرًا

(١) الطبري: ٥٠٨/٩ (٢) الطبري: ٥١٥/٩ (٣) الطبري: ٩/٥١٣ (٤) فتح الباري: ٤٤٦/٦ (٥) الطبري: ٥١٢/٩ (٦) أحمد: ٣٤٤/٣ وفتح الباري: ٥٨/٣ وأبو داود: ١٨٧/٢ ونحفة الأحوذ: ٥٩١/٢ والنسائي: ٨٠/٦ وابن ماجه: ٤٤٠/١ (٧) الطبري: ٥١٦/٩ (٨) الطبري: ٥١٦/٩ (٩) مسلم: ٢١٦٦/٤

لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَتَذَكَّرُوا فِي مَخَالَفَةِ الْكُفَّارِ، وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، فَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أَيُّ لَا تَخَافُوهُمْ فِي مَخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَاخْشَوْنِي، أَنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَأُبْذِلْهُمْ، وَأُظْفِرْكُمْ بِهِمْ، وَأَشْفِ صُدُورَكُمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلْكُمْ قُوفَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[إِكْمَالُ دِينِ الْإِسْلَامِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيِّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَالْجِنِّ، فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لَا كِذْبَ فِيهِ وَلَا خُلْفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَيُّ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُمُ الدِّينَ، تَمَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أَيُّ فَارْضُوهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ، وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ الرُّسُلِ الْكَرِيمِ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كُتُبِهِ.

#### [إِبَاحَةُ الْمَيْتَةِ فِي حَالَةِ الْإِضْطِرَارِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ فَمَنْ احْتَاجَ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِضَرُورَةٍ أَلْجَأَتْهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَهُ تَنَاوُلُهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُ، لِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ حَاجَةَ عَبْدِهِ الْمُضْطَرِّ وَانْتِفَارَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُ، وَيَغْفِرُ لَهُ، وَفِي الْمُسْتَدِّ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»<sup>(١)</sup>. لَفْظُ ابْنِ حِبَّانَ. وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ جَوَازِ تَنَاوُلِ الْمَيْتَةِ أَنْ يَمْضِيَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لَا يَجِدُ طَعَامًا، كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعَوَامِّ وَغَيْرِهِمْ، بَلْ مَتَى اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ جَارَ لَهُ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي وَقِيدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا بِأَرْضٍ تُصَيِّبُنَا بِهَا الْمُخْمَصَةُ، فَمَتَى نَحِلُّ لَنَا بِهَا الْمَيْتَةَ؟ فَقَالَ: «إِذَا لَمْ تَضْطَحُوا، وَلَمْ تَغْتَنِّقُوا، وَلَمْ تَحْتَفِنُوا بَقْلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا»<sup>(٢)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ هَارُونَ بْنِ عَثَرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، بَكَى عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يَبْكُوكَ؟» قَالَ: أَبْكَايَنِي أَنَا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَأَمَّا إِذَا أُكْمِلَ فَإِنَّهُ لَمْ يُكْمَلْ شَيْءٌ إِلَّا نَقَصَ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ»<sup>(٣)</sup>. وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى الْحَدِيثُ الثَّابِتُ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ، لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَا تَخْذَنَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: قَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ الْحَسَنِ

(١) الطبري: ٥١٩/٩ (٢) مسلم: ١٣٠/١ (٣) أحمد: ١/٣٨ (٤) فتح الباري: ١٢٩/١ (٥) مسلم: ٢٣١٣/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٠٧/٨ والنسائي: ٢٥١/٥ (٦) فتح الباري: ٨/١١٩ (٧) ابن حبان: ١٨٢/٤ (٨) أحمد: ٢١٨/٥

وَرَوَى عَنْ خَيْثَمَةَ وَطَاوُسٍ وَمُجَاهِدٍ وَمَكْحُولٍ وَيَحْيَى ابْنِ أَبِي كَثِيرٍ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَمَّا مَا صَادَ مِنَ الطَّيْرِ الْبَارَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ الطَّيْرِ، فَمَا أَدْرَكَتْ فَهُوَ لَكَ، وَإِلَّا فَلَا تَطْعَمُهُ<sup>(٢)</sup>. قُلْتُ: وَالْمُحْكِي عَنْ الْجُمُهور: إِنَّ الصَّيْدَ بِالطَّيُورِ كَالصَّيْدِ بِالْكِلَابِ، لِأَنَّهُ تَكَلَّبَ الصَّيْدَ بِمَحَالِهَا، كَمَا تَكَلَّبَهُ الْكِلَابُ، فَلَا فَرْقَ. كَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ صَيْدِ الْبَارِي فَقَالَ: «مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُلْ»<sup>(٣)</sup>.

وَسَمَّيْتُ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُضْطَادُّ بِهِنَّ: جَوَارِحَ مِنَ الْجَرْحِ، وَهُوَ الْكَسْبُ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: فَلَانَ جَرَحَ أَهْلُهُ خَيْرًا، أَيْ كَسَبَهُمْ خَيْرًا، وَيَقُولُونَ: فَلَانٌ لَا جَارِحَ لَهُ، أَيْ لَا كَاسِبَ لَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِأَلْسِنَتِكُمْ» [الأنعام: ٦٠] أَيْ مَا كَسَبْتُم مِّنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مُكَلِّبِينَ» يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِّنَ الضَّيْمِ فِي «عَلَّمْتُمْ» فَيَكُونُ حَالًا مِّنَ الْفَاعِلِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِّنَ الْمَفْعُولِ، وَهُوَ «الْجَوَارِحُ» أَيْ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ فِي حَالِ كَوْنِهِنَّ مُكَلَّبَاتٍ لِلصَّيْدِ، وَذَلِكَ أَنْ تَقْتَضِيَهُ بِمَحَالِهَا أَوْ أَظْفَارِهَا، فَيَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - عَلَى أَنَّ الْجَارِحَ إِذَا قَتَلَ الصَّيْدَ بِصَدْمَتِهِ لَا بِمَحَالِهَا وَظَفَرِهِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ «تَعْلَمُونَهُنَّ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ» وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَرْسَلَهُ اسْتَرْسَلَ، وَإِذَا أَشْلَاهُ اسْتَشْلَى، وَإِذَا أَخَذَ الصَّيْدَ أَمْسَكَهُ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَجِيءَ إِلَيْهِ، وَلَا يُمْسِكُهُ لِنَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» فَتَمَّى كَانَ الْجَارِحُ مُعَلَّمًا، وَأَمْسَكَ عَلَى صَاحِبِهِ، وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَتَ إِزْسَالِهِ، حَلَّ الصَّيْدَ وَإِنْ قَتَلَهُ بِالْإِجْمَاعِ. وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِمِثْلِ مَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرْسِلُ الْكِلَابَ الْمُعَلَّمَةَ وَادْكُرُ اسْمَ اللَّهِ. فَقَالَ: «إِذَا أُرْسَلَتْ كُلِّبَكَ

أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «مَا لَمْ تَضْطَبِّحُوا» يَغْنِي بِهِ الْعَدَاءُ «وَمَا لَمْ تَغْتَبِقُوا» يَغْنِي بِهِ الْعُشَاءُ «أَوْ تَحْتَفِقُوا بَقْلًا فَشَأْنَكُمْ بِهَا» فَكُلُوا مِنْهَا.

وَقَوْلُهُ: «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» أَيْ مُتَعَاظٍ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَاحَ ذَلِكَ لَهُ، وَسَكَتَ عَنِ الْآخِرِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [النحل: ١١٥] وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ الْعَاصِيَ بِسَفَرِهِ لَا يَتَرَحَّصُ شَيْءٍ مِنْ رُخْصِ السَّفَرِ، لِأَنَّ الرُّخْصَ لَا تَنَالُ بِالْمَعْصِيَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ أَنْطَبَيْتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْفَعُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»

### [بَيَانُ الْحَلَالِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْخَبَائِثِ الضَّارَّةِ لِمُتَنَاوِلِهَا إِمَّا فِي بَدَنِهِ أَوْ فِي دِينِهِ أَوْ فِيهِمَا، وَاسْتَشْنَى مَا اسْتَشْنَاهُ فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ» [الأنعام: ١١٩] قَالَ بَعْدَهَا: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ أَنْطَبَيْتُ» كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الطَّيِّبَاتُ: مَا أَحَلَّ لَهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يُصِيبُوهُ وَهُوَ الْحَلَالُ مِنَ الرِّزْقِ. وَقَدْ سِئِلَ الزُّهْرِيُّ عَنْ شُرْبِ الْبُولِ لِلتَّدَاوِي فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

### [حُكْمُ صَيْدِ الْجَوَارِحِ الْمُعَلَّمَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» أَيْ أَجَلَّ لَكُمْ الذَّبَائِحَ الَّتِي ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، وَأَجَلَّ لَكُمْ مَا [اضْطَرَّدْتُمُوهُ] بِالْجَوَارِحِ، وَهِيَ الْكِلَابُ وَالْفُهوُودُ وَالضُّقُورُ وَأَشْبَاهُهَا، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمُهورِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ. وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» وَهِنَّ الْكِلَابُ الْمُعَلَّمَةُ، وَالْبَارِي، وَكُلُّ طَيْرٍ يُعَلَّمُ لِلصَّيْدِ. وَالْجَوَارِحُ: يَغْنِي الْكِلَابُ الضُّوَارِي وَالْفُهوُودُ وَالضُّقُورُ وَأَشْبَاهُهَا<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، ثُمَّ قَالَ:

(١) الطبري: ٥٤٨/٩ (٢) الطبري: ٥٤٧/٩، ٥٤٨ (٣) الطبري:

٥٤٩/٩ فيه ابن جريج هو ثقة لكنه معروف بالتدليس (٤) الطبري:

٥٥٠/٩ فيه مجاهد بن سعيد تغير في آخر عمره ليس بالقوي كما مر

وقد انفرد بذكر البازي في هذا الحديث فإن الحفاظ قد رووا هذا

الحديث عن الشعبي عن عدي بن حاتم في الكلب المعلم. ولم

يذكروا البازي.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو أَمَامَةَ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعُكْرَمَةُ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ، وَمَكْحُولٌ وَإِبْرَاهِيمُ التَّحِيّطِيُّ، وَالشَّدْيِيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: يَعْنِي ذَبَائِحَهُمْ<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، أَنَّ ذَبَائِحَهُمْ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا يَذْكُرُونَ عَلَى ذَبَائِحِهِمْ إِلَّا اسْمَ اللَّهِ، وَإِنْ اعْتَقَدُوا فِيهِ تَعَالَى مَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ عَنْهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ، قَالَ: أَذْلَيْ بِجِرَابٍ مِنْ شَحْمٍ يَوْمَ خَيْبَرَ فَحَضَّشْتُهُ وَقُلْتُ: لَا أُعْطِي الْيَوْمَ مِنْ هَذَا أَحَدًا، وَالثَّنْثُ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ يَنْتَسِمُ<sup>(١٠)</sup>. فَاسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ، عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ تَنَاوُلُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ، قَبْلَ الْقِسْمَةِ. وَهَذَا ظَاهِرٌ. وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ الْحَنَفِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَالْحَنَابِلَةُ، عَلَى أَصْحَابِ مَالِكٍ فِي مَنْعِهِمْ أَكْلَ مَا يَعْتَقِدُ الْيَهُودُ تَحْرِيمَهُ مِنْ ذَبَائِحِهِمْ، كَالشُّحُومِ وَنَحْوِهَا مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ. وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِمُ الْجُمْهُورُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَأَجُودُ مِنْهُ فِي الدَّلَالَةِ، مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ أَهْلَ خَيْبَرَ أَهْدُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةً مُضْلِيَةً، وَقَدْ سَمَوْا ذِرَاعَهَا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الذَّرَاعُ، فَتَنَاوَلَهُ، فَتَهَشَّ مِنْهُ نَهَشَةً، فَأَخْبَرَهُ الذَّرَاعُ أَنَّهُ مَسْمُومٌ، فَلَفَظَهُ، وَأَثَرُ ذَلِكَ فِي ثَنَائَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبْهَرِهِ، وَأَكَلَ مَعَهُ مِنْهَا بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنُ مَعْرُورٍ فَمَاتَ، فَقِيلَتْ الْيَهُودِيَّةُ الَّتِي سَمَّيْنَاهَا، وَكَانَ اسْمُهَا زَيْنَبُ. وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَكْلِهَا وَمَنْ مَعَهُ، وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ هَلْ نَزَعُوا مِنْهَا مَا يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَهُ مِنْ شَحْمِهَا أَمْ لَا؟<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَطَعَّامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ﴾ أَيُّ وَيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ، وَلَيْسَ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْحُكْمِ عِنْدَهُمْ، اَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَبَرًا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ: مِنْ الْأَكْلِ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ، ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، سَوَاءً كَانَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ أَوْ غَيْرِهَا. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى. أَيُّ

الْمُعَلَّمِ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ. قُلْتُ: وَإِنْ قَتَلْتُمْ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَتَلْتُمْ. مَا لَمْ يَشْرُكْهَا كُلُّ لَيْسَ مِنْهَا، فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَيْتَ عَلَى كُلِّكَ وَلَمْ تَسْمِ عَلَى غَيْرِهِ» قُلْتُ لَهُ: فَإِنِّي أَرْمِي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ فَأُصِيبُ؟ فَقَالَ: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بَعْضُ، فَإِنَّهُ وَقِيدٌ، فَلَا تَأْكُلْهُ»<sup>(١٢)</sup>. وَفِي لَفْظٍ لَهُمَا: «وَإِذَا أُرْسِلَتْ كُلُّبُكَ فَأَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَأَذْكُرْهُ حَيًّا فَأَذْبَحْهُ، وَإِنْ أَذْرَكَهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ، فَإِنْ أَخَذَ الْكَلْبُ ذَكَاتَهُ»<sup>(١٣)</sup> وَفِي رِوَايَةٍ لَهُمَا: «إِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ»<sup>(١٤)</sup>.

### [التَّسْمِيَةُ عَلَى الْجَارِحِ عِنْدَ إِزْسَالِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ عِنْدَ إِزْسَالِهِ لَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «إِذَا أُرْسِلَتْ كُلُّبُكَ الْمُعَلَّمُ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ»<sup>(١٥)</sup>. وَفِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْمُخَرَّجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا «إِذَا أُرْسِلَتْ كُلُّبُكَ فَأَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فَأَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ»<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يَقُولُ: إِذَا أُرْسِلَتْ جَارِحُكَ قَتْلُ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَإِنْ نَسِيتَ فَلَا حَرَجَ<sup>(١٧)</sup>. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْأَكْلِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ رَبِيئَهُ عَمْرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فَقَالَ: «سَمِ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»<sup>(١٨)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ قَوْمًا يَأْتُونَنَا - حَدِيثَ عَهْدِهِمْ يَكْفُرُ - بِلُحْمَانٍ لَا نَدْرِي أَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَمْ لَا؟ فَقَالَ: «سَمُّوا اللَّهَ أَنْتُمْ وَكُلُوا»<sup>(١٩)</sup>.

﴿الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيْبَتِ وَطَعَّامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكَلْبَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَّامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَاللَّحْصَتِ مِنَ الْمُؤَنَّتِ وَالْمُخَصَّنَّتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكَلْبَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا عَاتَيْتُمُوهُمْ أَجُورَهُنَّ مُخَصَّنَّاتٍ غَيْرَ مُسْكُوخِينَ وَلَا مُتَجَدِّدَاتٍ أَحْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآلِائِينَ فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي

الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥٠﴾

### [حَلَّ ذَبِيحَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَبَائِثِ، وَمَا أَحْلَلَهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيْبَتِ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ حُكْمَ ذَبَائِحِ أَهْلِ الْكِتَابِينَ، مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَقَالَ: ﴿وَطَعَّامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكَلْبَ حَلَّ لَكُمْ﴾

(١) فتح الباري: ٥٢٧/٩ ومسلم: ١٥٢٩/٣ (٢) فتح الباري: ٥١٣/٩ ومسلم: ١٥٣٠/٣ (٣) فتح الباري: ٥٢٧/٩ ومسلم: ١٥٢٩/٣ (٤) فتح الباري: ٥٢٤/٩ (٥) فتح الباري: ٥٢٧/٩ ومسلم: ١٥٣٢/٣ (٦) الطبري: ٥٧١/٩ (٧) فتح الباري: ٤٣١/٩ ومسلم: ١٥٩٩/٣ (٨) فتح الباري: ٥٥٠/٩ (٩) الطبري: ٥٧٧-٧٣/٩ (١٠) فتح الباري: ٥٥٢/٩ (١١) فتح الباري: ٥٦٩/٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٨

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا  
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ  
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا  
وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ  
أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا  
فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ  
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ  
وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾  
وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ  
بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الْصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ  
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقْوٍ قَوْمٍ عَلَى  
أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هَوَا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ  
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بَانَ الرَّجُلُ إِذَا نَكَحَ امْرَأَةً فَزَنَتْ قَبْلَ  
دُخُولِهِ بِهَا أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا. وَتَرُدُّ عَلَيْهِ مَا بَدَّلَ لَهَا مِنَ  
الْمَهْرِ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾  
فَكَمَا شَرَطَ الْإِحْصَانَ فِي النِّسَاءِ، وَهِيَ الْعِفَّةُ عَنِ الزَّانَا،  
كَذَلِكَ شَرَطَهَا فِي الرِّجَالِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ أَيْضًا  
مُحْصِنًا عَافِيًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ وَهُمْ الزَّانَاةُ  
الَّذِينَ لَا يَرْتَدُّعُونَ عَنْ مَعْصِيَةِ، وَلَا يَرُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَمَّنْ  
جَاءَهُمْ ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أَيُّ ذَوِي الْعِشْيَقَاتِ الَّذِينَ لَا  
يَفْعَلُونَ إِلَّا مَعَهُنَّ. كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ - سَوَاءً - .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا  
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ  
إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ

وَلَكُمْ أَنْ تَطْعَمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ كَمَا أَكَلْتُمْ مِنْ  
ذَبَائِحِهِمْ. وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمُكَافَاةِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالْمُجَازَاةِ،  
كَمَا أَلَيْسَ النَّبِيُّ ﷺ ثَوْبُهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولٌ،  
حِينَ مَاتَ وَدَفَنَهُ فِيهِ، قَالُوا: لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ كَسَا الْعَبَّاسَ  
حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ثَوْبُهُ، فَجَازَاهُ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ بِذَلِكَ،  
فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي فِيهِ: «لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا  
يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»<sup>(١)</sup> فَمَحْمُولٌ عَلَى التَّنْذِيرِ  
وَالِاسْتِحْبَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[جَوَازُ نِكَاحِ الْحَرَائِرِ الْعَفَافِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَيُّ وَأَجِلْ لَكُمْ نِكَاحُ  
الْحَرَائِرِ الْعَفَافِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ. وَالظَّاهِرُ مِنَ  
الْآيَةِ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَفِيفَاتِ عَنِ الزَّانَا، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا  
مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٥] وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ  
لَا يَرَى التَّزْوِيجَ بِالنِّصْرَانِيَّةِ، وَيَقُولُ: لَا أَعْلَمُ شِرْكًَا  
أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ رَبَّهَا عِيسَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُوْفِيَ<sup>(٢)</sup>﴾ الْآيَةُ  
[البقرة: ٢٢١].

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْغِفَارِيِّ، عَنِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى  
يُوْفِيَ﴾ قَالَ فَحُجِرَ النَّاسُ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي  
بَعْدَهَا ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فَكَفَّ  
النَّاسُ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ تَزَوَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ  
مِنْ نِسَاءِ النِّصَارَى، وَلَمْ يَرَوْا بِذَلِكَ بَأْسًا، أَخَذًا بِهَذِهِ الْآيَةِ  
الْكَرِيمَةِ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾  
فَجَعَلُوا هَذِهِ مُحْصَصَةً لِلَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا  
الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُوْفِيَ﴾ [البقرة: ٢٢١] وَهَذَا إِنْ قِيلَ بِدُخُولِ  
الْكِتَابِيَّاتِ فِي عُمُومِهَا وَإِلَّا فَلَا مُعَارَضَةَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهَا، لِأَنَّ  
أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ انْفَضَّلُوا فِي ذِكْرِهِمْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ  
مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ﴾ [البينة: ١] وَكَقَوْلِهِ:  
﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ ءَسَلِمْتُمْ فَإِنْ أَسَلِمُوا فَقَدْ  
أَهْتَدَوْا﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ٢٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أَيُّ مُهَوَّرَهُنَّ. أَيُّ كَمَا  
هُنَّ مُحْصَنَاتٌ عَفَافَاتٌ فَاذْبُلُوا لَهُنَّ الْمُهَوَّرَ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ.  
وَقَدْ أَفْتَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ

(١) أبو داود: ١٦٧/٥ (٢) صحيح البخاري (٥٢٨٥) (٣)  
الطبري: ٥٨٥/٩، ٥٨٦

عَلَّ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لِمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾  
[الْأَمْرُ بِالْوُضُوءِ]

قَوْلُهُ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الْآيَةُ أَمْرَةٌ بِالْوُضُوءِ عِنْدَ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ هُوَ فِي حَقِّ الْمُحَدِّثِ وَاجِبٌ، وَفِي حَقِّ الْمُطَهَّرِ نَدْبٌ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْأَمْرَ بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ كَانَ وَاجِبًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بَرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خَفِيهِ، وَصَلَّى الصَّلَاةَ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ. قَالَ: «إِنِّي عَمَدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ»<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ الْمُشِيرِ، قَالَ: رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُصَلِّي الصَّلَاةَ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا بَالَ أَوْ أَحْدَثَ، تَوَضَّأَ وَمَسَحَ بِفَضْلِ طَهْرِهِ الْخَفَيْنِ. فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَشَيْءٌ تَصْنَعُهُ بِرَأْيِكَ؟ قَالَ: بَلْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَصْنَعُهُ، فَأَنَا أَصْنَعُهُ كَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَرَأَيْتَ وَُضُوءَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ لِكُلِّ صَلَاةٍ طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ طَاهِرٍ، عَمَّنْ هُوَ؟ قَالَ: حَدَّثَنِي أَشْمَاءُ بِنْتُ زَيْدِ ابْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَنْظَلَةَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ الْغَسِيلِ، حَدَّثَهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَمْرًا بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ طَاهِرٍ، فَلَمَّا شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَمَرَ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَوَضَعَ عَنْهُ الْوُضُوءَ إِلَّا مِنْ حَدَثٍ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَرَى أَنَّ بِهِ قُوَّةَ عَلَى ذَلِكَ، كَانَ يَفْعَلُهُ حَتَّى مَاتَ<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٦)</sup>. وَفِي فِعْلِ ابْنِ عُمَرَ هَذَا وَمُداوَمَتِهِ عَلَى إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ دَلَالَةٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ ذَلِكَ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَامًا، فَقَالُوا: أَلَا نَأْتِيكَ بِوُضُوءٍ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا أُمِرْتُ بِالْوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَى

[الْنِيَّةِ وَالتَّسْمِيَةِ فِي الْوُضُوءِ]

الصَّلَاةِ»<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَى الْخَلَاءَ، ثُمَّ إِنَّهُ رَجَعَ فَأَتَى بَطْعَامَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ: لِمَ؟ أَأُصَلِّي فَأَتَوَضَّأُ؟<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قَدْ اسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ عَلَى وَجُوبِ النَّيَّةِ فِي الْوُضُوءِ، لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ: إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ لَهَا. كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: إِذَا رَأَيْتَ الْأَمِيرَ فَقُمْ، أَيْ لَهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَانَوِيٌّ»<sup>(١٠)</sup>. وَيُسْتَحَبُّ قَبْلَ غَسْلِ الْوَجْهِ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى وَضُوءِهِ، لِمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ جَيِّدَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا وَُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»<sup>(١١)</sup>. وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَغْسِلَ كَفَّيْهِ قَبْلَ إِدْخَالِهِمَا فِي الْإِنَاءِ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ النَّوْمِ، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَدْخُلْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، فَإِنْ أَحَدُكُمْ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»<sup>(١٢)</sup>. وَحَدَّثَ الْوَجْهَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ مَا بَيْنَ مَتَابِعِ شَعْرِ الرَّأْسِ - وَلَا اغْتِبَارَ بِالصَّلَعِ وَلَا بِالْعَمَمِ - إِلَى مُتَتَهَى اللَّحْيَيْنِ وَالذَّقَنِ طَوْلًا، وَمِنْ الْأُذُنِ إِلَى الْأُذُنِ عَرْضًا.

[تَحْلِيلُ اللَّحْيَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عُثْمَانَ يَتَوَضَّأُ...، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، قَالَ: وَخَلَّلَ اللَّحْيَةَ ثَلَاثًا جِئْنَ غَسَلَ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَ الَّذِي رَأَيْتُمْوَنِي فَعَلْتُ<sup>(١٣)</sup>. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(١٤)</sup>.

(١) أحمد: ٣٥٨/٥ (٢) مسلم: ٢٣٢/١ وأبو داود: ١٢٠/١  
وتحفة الأحوذى: ١٩٤/١ والنسائي: ٨٦/١ وابن ماجه: ١/١  
١٧٠ (٣) الطبري: ١١/١٠ (٤) ابن ماجه: ١٧٠/١ (٥)  
أحمد: ٢٢٥/٥ (٦) أبو داود: ٤١/١ (٧) أبو داود: ٣٦/٤  
(٨) تحفة الأحوذى: ٥٧٩/٥ والنسائي: ٨٥/١ (٩) مسلم: ١/١  
٢٨٣ (١٠) فتح الباري: ١٥/١ ومسلم: ١٥١٥/٣ (١١) أبو  
داود: ٧٥/١ (١٢) فتح الباري: ٣١٦/١ ومسلم: ٢٣٣/١  
(١٣) جامع المسانيد والسنن: ١٩٧/١٧ (١٤) تحفة الأحوذى:  
١٣٣/١ وابن ماجه: ١٤٨/١

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَحَسَنُهُ الْبُخَارِيُّ.

[كَيْفِيَّةُ الْوُضُوءِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَغَسَلَ وَجْهَهُ: أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَتَضَمَّضَ بِهَا وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً فَجَعَلَ بِهَا هَكَذَا، يُعْنِي أَضَافَهَا إِلَى يَدِهِ الْأُخْرَى، فَغَسَلَ بِهَا وَجْهَهُ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا يَدَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا يَدَهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَى رِجْلَيْهِ الْيُمْنَى حَتَّى غَسَلَهَا، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا رِجْلَهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْنِي يَتَوَضَّأُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أَيَّ مَعَ الْمَرَافِقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٢].

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُتَوَضِّئِ أَنْ يَشْرَعَ فِي الْعُضُدِ فَيَغْسِلَهُ مَعَ ذِرَاعَيْهِ لِمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أُمِّي يَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»<sup>(٣)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يَقُولُ: «تَبْلُغُ الْحَلِجَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الْبَاءُ لِلِلِصَاقِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيقٍ مَالِكٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ بِنِ عَاصِمٍ، وَهُوَ جَدُّ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرَبِّتَنِي كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ: نَعَمْ فَدَعَا بِوُضُوءٍ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ثَلَاثًا، وَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَذْبَرَ بَدَأَ بِمَقْدَمِ رَأْسِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ<sup>(٥)</sup>.

وَفِي حَدِيثٍ عَبْدِ خَيْرٍ عَنْ عَلِيٍّ فِي صِفَةِ وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوَ هَذَا<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُعَاوِيَةَ وَالْمُقَدَّمِ ابْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ فِي صِفَةِ وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَهُ<sup>(٧)</sup>. فَبِهِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى وَجُوبِ تَكْمِيلِ مَسْحِ جَمِيعِ الرَّأْسِ.

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَبَانَ، قَالَ: رَأَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ تَوَضَّأَ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ ثَلَاثًا، فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ تَضَمَّضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ قَدَمَهُ الْيُمْنَى ثَلَاثًا، ثُمَّ الْيُسْرَى ثَلَاثًا مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(٨)</sup> أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٩)</sup>. وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عُثْمَانَ فِي صِفَةِ الْوُضُوءِ: وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً<sup>(١٠)</sup>.

[وُجُوبُ غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ دُونَ الْمَسْحِ]

قَوْلُهُ: ﴿وَأَزِلُّكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قُرِءَ ﴿وَأَزِلُّكُمْ﴾ بِالنَّضْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿وَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا ﴿وَأَزِلُّكُمْ﴾ يَقُولُ: رَجَعْتُ إِلَى الْغَسْلِ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَعُرْوَةَ وَعَطَاءٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ، وَإِبْرَاهِيمُ وَالضَّحَّاكُ، وَالسَّيِّدِيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالرُّهْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(١٢)</sup>. وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي وَجُوبِ الْغَسْلِ، كَمَا قَالَ السَّلَفُ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ بِالْخَفْضِ عَلَى الْمُجَاوِزَةِ وَتَنَاسُبِ الْكَلَامِ، كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ: جَحَرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: (عَلَيْهِمْ نِتَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) [الْإِنْسَان: ٢١] وَهَذَا دَائِعٌ شَائِعٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ شَائِعٌ.

ذَكَرَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةَ فِي غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ

قَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ بِنِ عَاصِمٍ وَالْمُقَدَّمِ ابْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَسَلَ الرَّجْلَيْنِ فِي وَضُوءِهِ إِثْمًا مَرَّةً، وَإِثْمًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، عَلَى اخْتِلَافٍ رَوَايَاتِهِمْ.

(١) أحمد: ٢٦٨/١ (٢) فتح الباري: ٢٩٠/١ (٣) فتح الباري: ٢٨٣/١ ومسلم: ٢١٦/١ (٤) مسلم: ٢١٩/١ (٥) فتح الباري: ٣٤٧/١ ومسلم: ٢١٠/١ (٦) أبو داود: ٨٢/١ (٧) أبو داود: ٨٩، ٨٨/١ (٨) عبد الرزاق: ٤٤/١ (٩) فتح الباري: ٣١١/١ ومسلم: ٢٠٥/١ (١٠) أبو داود: ٨٢، ٨٠ (١١) الطبري: ٥٥/١٠ (١٢) الطبري: ٥٤-٥٧

عَنْ هَمَامٍ قَالَ: بَالَ جَرِيرٌ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَيْهِ، فَقِيلَ: تَفْعَلُ هَذَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَالَ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَيْهِ، قَالَ الْأَعْمَشُ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَكَانَ يُعْجِبُهُمْ هَذَا الْحَدِيثُ لِأَنَّ إِسْلَامَ جَرِيرٍ كَانَ بَعْدَ نَزُولِ الْمَائِدَةِ<sup>(١٤)</sup>. لَفْظُ مُسْلِمٍ. وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَشْرُوعِيَّةُ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَيْنِ قَوْلًا مِنْهُ وَفَعَلًا.

[الْأَمْرُ بِالتَّيَمُّمِ عِنْدَ عَدَمِ وُجُودِ الْمَاءِ وَلِلْمَرِيضِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لِمَسْتُمُ النِّسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النِّسَاءِ، فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى إِعَادَتِهِ لِكَلَّا يَطُولُ الْكَلَامُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَبَبَ نَزُولِ آيَةِ التَّيَمُّمِ هُنَاكَ، لَكِنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى هَهُنَا حَدِيثًا خَاصًّا بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَقَدْ رَوَى عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَقَطَتْ قِلَادَةُ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ الْمَدِينَةَ، فَأَنَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ، فَتَنَى رَأْسَهُ فِي حِجْرِي رَاقِدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَكَزَنِي لَكَزَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: حَبَسْتَ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ، فَتَمَنَيْتُ الْمَوْتَ لِمَكَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي، وَقَدْ أَوْجَعَنِي، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ، وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ، فَالْتَمَسَ الْمَاءَ فَلَمْ يَوْجَدْ، فَتَزَلَّتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ: لَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بِبَرَكَةِ لَهُمْ<sup>(١٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أَيُّ فَلِهَذَا سَهَّلَ عَلَيْكُمْ وَيَسَّرَ، وَلَمْ يُعَسِّرْ، بَلْ أَبَاحَ التَّيَمُّمَ عِنْدَ الْمَرَضِ، وَعِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ تَوْسِيعَةً عَلَيْكُمْ، وَرَحْمَةً بِكُمْ، وَجَعَلَهُ فِي حَقِّ مَنْ شَرَعَ لَهُ: يَقُومُ مَقَامَ الْمَاءِ إِلَّا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَكَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: تَخَلَّفَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا، فَأَذْرَكْنَا وَقَدْ أَرْهَقْتُنَا الصَّلَاةُ، صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا فَتَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ، وَبِلُ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»<sup>(١٦)</sup>. وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ<sup>(١٧)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ، وَبِلُ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»<sup>(١٨)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ [جَزْءٍ] أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَبِلُ لِلْأَعْقَابِ وَطُيُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ»<sup>(١٩)</sup>. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالْحَاكِمُ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أَنَّ رَجُلًا تَوَضَّأَ فَتَرَكَ مَوْضِعَ ظُفْرِ عَلَى قَدَمِهِ، فَأَبْصَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وَضُوءَكَ»<sup>(٢٠)</sup>. وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ تَوَضَّأَ وَتَرَكَ عَلَى قَدَمِهِ مِثْلَ مَوْضِعِ الظُّفْرِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وَضُوءَكَ»<sup>(٢١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَصَلِّي، وَفِي ظَهْرِ قَدَمِهِ لُغْمَةٌ قَدِرَ الدَّرْهَمَ لَمْ يَصْبِهَا الْمَاءُ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعِيدَ الْوُضُوءَ<sup>(٢٢)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ بَقِيَّةَ، وَزَادَ: وَالصَّلَاةَ<sup>(٢٣)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ صَحِيحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَمْرُ بِالتَّخْلِيلِ بَيْنَ الْأَصَابِعِ] وَفِي حَدِيثِ حُمْرَانَ عَنْ عُمَرَ بْنِ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِي أُوَيْسٍ، النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَلَّلَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ<sup>(٢٤)</sup>. وَرَوَى أَهْلُ السُّنَنِ عَنْ لَقِيطِ بْنِ صَبْرَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ. فَقَالَ: «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ، وَخَلِّلْ بَيْنَ الْأَصَابِعِ، وَبَالِغٌ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا»<sup>(٢٥)</sup>.

[الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَيْنِ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ] رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ أُوسٍ بْنِ أَبِي أُوَيْسٍ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى نَعْلَيْهِ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ<sup>(٢٦)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أُوسٍ بْنِ أَبِي أُوَيْسٍ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى سُبَاطَةَ قَوْمٍ، فَقَالَ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى نَعْلَيْهِ وَقَدَمَيْهِ<sup>(٢٧)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ: أَنَا أَسْلَمْتُ بَعْدَ نَزُولِ الْمَائِدَةِ، وَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ بَعْدَمَا أَسْلَمْتُ<sup>(٢٨)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ

(١) فتح الباري: ٣١٩/١ ومسلم: ٢١٤/١ (٢) فتح الباري: ٣٢١/١ ومسلم: ٢١٥/١ (٣) مسلم: ٢١٣/١ (٤) البيهقي: ٧٠/١ والحاكم: ١٦٢/١ (٥) مسلم: ٢١٥/١ (٦) البيهقي: ٧٠/١ (٧) أحمد: ٤٢٤/٣ (٨) أبو داود: ١٢١/١ (٩) مجمع الزوائد: ٢٣٥/١ (١٠) أبو داود: ٩٩/١ وتحفة الأحوذ: ١٤٩/١ والنسائي: ٧٩/١ وابن ماجه: ١٤٢/١ (١١) أحمد: ٨/٤ (١٢) أبو داود: ١١٣/١ (١٣) أحمد: ٤/٣٦٣ (١٤) فتح الباري: ٥٨٩/١ ومسلم: ٢٢٨/١ (١٥) فتح الباري: ١٢١/٨

كِتَابِ الْأَحْكَامِ الْكَبِيرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِيعَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ التَّوْسِيعَةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالتَّسْهِيلِ وَالسَّمَاخَةِ.

[الدَّعَاءُ بَعْدَ الْوُضُوءِ]

وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِالْحَثِّ عَلَى الدَّعَاءِ عَقِبَ الْوُضُوءِ بِأَنْ يَجْعَلَ فَاعِلُهُ مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ الدَّاخِلِينَ فِي امْتِنَالِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ عَقْبَةَ بْنِ غَامِرٍ قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبِي فَرَوَحْتُهَا بِعَيْشِي، فَأَذْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّمَا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَذْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» قَالَ: قُلْتُ: مَا أَجُودَ هَذَا! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودُ مِنْهَا، فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جِئْتَ آتِفًا، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُكَبِّرُ - أَوْ فَيَسْبُحُ - الْوُضُوءَ، يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»<sup>(١)</sup>. لَفْظُ مُسْلِمٍ.

[فَضْلُ الْوُضُوءِ]

وَرَوَى مَالِكٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»<sup>(٢)</sup> رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الطَّهُّورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصُّومُ جُنَّةٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا»<sup>(٤)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٠٩

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَّلُ تَطَّلِعُ عَلَى خَاسِئَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

صَدَقَهُ مِنْ غُلُولٍ، وَلَا صَلَاةَ بِغَيْرِ طَهُّورٍ»<sup>(٥)</sup>.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلِيكَ لِلَّهِ شُكْرَاءٌ بِالْقِسْطِ وَلَا يُجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ الرِّسَالَةِ وَالْإِسْلَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا عَبْدَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ فِي

(١) أحمد: ١٥٣/٤ ومسلم: ٢٠٩/١ وأبو داود: ١١٨/١

والنسائي: ٩٢/١ وابن ماجه: ١٥٩/١ (٢) الموطأ: ٣٢/١

(٣) مسلم: ٢١٥/١ (٤) مسلم: ٢٠٣/١ (٥) مسلم: ٢٠٤/١

شَرَعَهُ لَهُمْ هَذَا الدِّينَ الْعَظِيمَ وَإِذْ سَالَهُ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولُ الْكَرِيمَ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ فِي مُبَايَعَتِهِ عَلَى مُتَابَعَتِهِ وَمُتَاصِرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ، وَالْقِيَامِ بِدِينِهِ وَإِبْلَاغِهِ عَنْهُ، وَقَبُولِهِ مِنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي أَنْفَقْتُكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وَهَذِهِ هِيَ النِّبْيَةُ الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ عَلَيْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ كَمَا قَالُوا: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَأَثَرِهِ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِلْيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] وَقِيلَ: هَذَا تَذَكُّارٌ لِلْيَهُودِ بِمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوَاقِفِ وَالْعُهُودِ فِي مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْإِقْبَادِ لِشَرْعِهِ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تَأْكِيدٌ وَتَحْرِيزٌ عَلَى مُوََاطَئَةِ التَّقْوَى فِي كُلِّ حَالٍ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَخْتَلِجُ فِي الصَّمَائِرِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

### [الْأَمْرُ بِالتَّزَامِ الْعَدْلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أَيُّ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا لِأَجْلِ النَّاسِ وَالسُّمُوعَةِ، وَكُونُوا «شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ» أَيُّ بِالْعَدْلِ لَا بِالْجَوْرِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّهُ قَالَ: نَحْلِي أَبِي نُحْلًا، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَهُ لِيُشْهَدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ: «أَكُلْ وَلَدِكَ نَحَلْتُ مِنْهُ؟» قَالَ: لَا، فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ». وَقَالَ: «إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرِ» قَالَ: فَرَجَعَ أَبِي فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أَيُّ لَا يَجْعَلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، بَلِ اسْتَعْمِلُوا الْعَدْلَ فِي كُلِّ أَحَدٍ صَدِيقًا كَانَ أَوْ عَدُوًّا، وَلِهَذَا قَالَ «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» أَيُّ عَدْلُكُمْ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى مِنْ تَرْكِهِ، وَدَلَّ الْفِعْلُ عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي عَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ، كَمَا فِي نَظَائِرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّبِعُوا فَأَتَّبِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

التَّفْضِيلِ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي لَيْسَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْهُ شَيْءٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وَكَقَوْلِ بَعْضِ الصَّحَابِيَّاتِ لِعُمَرَ: أَنْتَ أَقْطُ وَأَغْلُظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ أَفْعَالِكُمُ الَّتِي عَمِلْتُمُوهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدُ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أَيُّ لِلذُّنُوبِ «وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وَهُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، لَا يَتَأَلَوْنَهَا بِأَعْمَالِهِمْ بَلْ بِرَحْمَتِهِ مِنْهُ وَفَضْلِهِ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ وُصُولِ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَهُوَ تَعَالَى الَّذِي جَعَلَهَا أَشْبَابًا إِلَى تَبَلُّ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ. فَالْكُلُّ مِنْهُ وَلَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَهَذَا مِنْ عَذَابِهِ تَعَالَى، وَحُكْمَتِهِ، وَحُكْمِهِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ، بَلِ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ.

### [كَفَّ أَيْدِيَ الْكُفَّارِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾. رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ مِنْزِلًا، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِصَاءِ يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَهَا، وَعَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ سِلَاحَهُ بِشَجَرَةٍ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى سَنَفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَسَلَّهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». قَالَ الْأَعْرَابِيُّ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُ». قَالَ: فَشَامَ الْأَعْرَابِيُّ السَّيْفَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ الْأَعْرَابِيِّ، وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى جَنْبِهِ، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ. وَقَالَ مَعْمَرٌ: كَانَ فَتَادَةٌ يَذْكُرُ نَحْوَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ أَرَادُوا أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلُوا هَذَا الْأَعْرَابِيَّ، وَتَأَوَّلَ: «أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ» الْآيَةَ<sup>(٣)</sup>. وَفِصَّةُ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ - وَهُوَ غَوْرُثُ بْنُ الْحَارِثِ - ثَابِتَةٌ فِي الصَّحِيحِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أَيُّ لَا يَجْعَلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، بَلِ اسْتَعْمِلُوا الْعَدْلَ فِي كُلِّ أَحَدٍ صَدِيقًا كَانَ أَوْ عَدُوًّا، وَلِهَذَا قَالَ «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» أَيُّ عَدْلُكُمْ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى مِنْ تَرْكِهِ، وَدَلَّ الْفِعْلُ عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي عَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ، كَمَا فِي نَظَائِرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّبِعُوا فَأَتَّبِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وَقَوْلُهُ: «هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلٍ

(١) فتح الباري: ٢٥٠/٥، ومسلم: ١٢٤٢/٣ (٢) صحيح

البخاري (٣٩٤، ٣٦٨٣، ٦٠٨٥) (٣) عبد الرزاق: ١٨٥/١

(٤) البخاري: ٤١٣٥، ٤١٣٦، ٤١٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٠

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِنْهُمُ  
فَسَوْحًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ الْغَاوَةَ  
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ  
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَأْهَلِ الْكِتَابِ  
قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا  
كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ  
كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ  
مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ  
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى  
النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ  
ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ  
أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي  
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

وَذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ  
وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَنِي النَّضِيرِ حِينَ أَرَادُوا  
أَنْ يُلْقُوا عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الرَّحَى، لَمَّا جَاءَهُمْ  
يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ الْعَامِرِيِّينَ، وَوَكَّلُوا عَمْرُو بْنَ جِحَاشِ بْنِ  
كَعْبٍ بِذَلِكَ، وَأَمَرُوهُ إِنْ جَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ الْجِدَارِ  
وَاجْتَمَعُوا عِنْدَهُ أَنْ يُلْقَى تِلْكَ الرَّحَى مِنْ فَوْقِهِ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ  
النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا تَمَلَّؤُوا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَبِعَهُ  
أَصْحَابُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يَعْنِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَمَا  
أَمَرَ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ، وَحَفِظَهُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ وَعَصَمَهُ، ثُمَّ أَمَرَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَغْدُوَ إِلَيْهِمْ، فَحَاصَرَهُمْ حَتَّى أَنْزَلَهُمْ  
فَأَجْلَاهُمْ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ  
اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ  
وَوَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ  
قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُمُ جَنَّتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ  
ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٧﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا  
قُلُوبَهُمْ قَلَسِيَةً يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا  
حَظًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا  
مِنْهُمْ فَأَعْفَ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَمِنَ  
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِمَّا ذُكِّرُوا مِمَّا  
ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ الْغَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ  
وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٩﴾

[مِيثَاقُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَعْنُهُمْ عَلَى نَقْضِهِ]

لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَمِيثَاقِهِ  
الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ،  
وَأَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ بِالْحَقِّ، وَالشَّهَادَةِ بِالْعَدْلِ، وَذَكَرَهُمْ بَعْمَهُ  
عَلَيْهِمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ فِيمَا هَدَاهُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى،  
شَرَعَ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَيْفَ أَخَذَ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِفَ عَلَى مَنْ كَانَ  
قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، فَلَمَّا نَقَضُوا  
عَهْدَهُ وَمَوَاقِفَهُ أَغْقَبَهُمْ ذَلِكَ لَعْنًا مِنْهُ لَهُمْ، وَطَرَدًا عَنْ بَابِهِ  
وَجَنَابِهِ، وَجِجَابًا لِقُلُوبِهِمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى وَدِينِ  
الْحَقِّ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَقَالَ تَعَالَى:  
﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ  
عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يَعْنِي عُرَفَاءَ عَلَى قَبَائِلِهِمْ بِالْمَبَايَعَةِ وَالسَّمْعِ

وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ  
وَأَبْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّ هَذَا كَانَ لَمَّا تَوَجَّهَ مُوسَى  
عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقِتَالِ الْجَبَارَةِ، فَأَمَرَ بِأَنْ يُقِيمَ نَقَبَاءَ، مِنْ كُلِّ  
سِبْطٍ نَقِيبٌ <sup>(١)</sup>.

[نَقَبَاءُ الْأَنْصَارِ لَيْلَةُ الْعَقَبَةِ]

وَهَكَذَا لَمَّا بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ،  
كَانَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ: وَهُمْ أُسَيْدُ بْنُ  
الْحَضِيرِ، وَسَعْدُ بْنُ خَيْمَةَ، وَرِفَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَيُقَالُ  
بِذَلِكَ: أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيَّهَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَتِسْعَةٌ مِنَ  
الْخَزَرَجِ وَهُمْ: أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَسَعْدُ بْنُ  
الرَّبِيعِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعُجْلَانِ،  
وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ،  
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ عُمَرَ بْنِ [خُثَيْسٍ]  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ ذَكَرَهُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فِي شِعْرِ لَهُ.

قَتَادَةُ: هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَاعْتَفُ عَنْهُمْ وَاَصْفَحْ﴾ مَنسُوحَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَلْأُوا الَّذِينَ لَا يُولِئُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾...  
الْآيَةُ [التوبة: ٢٩] (٣).

### [مِيثَاقُ النَّصَارَى وَنَسْيَانُهُمْ لَهُ وَتَبَيُّجُهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ أُكُوفَ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَاقُواوْا كَذَلِكَ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمُنَاصَرَتِهِ، وَمُؤَازَرَتِهِ، وَاقْتِفَاءِ آثَارِهِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِكُلِّ نَبِيٍّ يُرْسِلُهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَعَلُّوْا كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ، خَالِفُوا الْمَوَاقِيقَ، وَتَقَضُّوا الْعُهُودَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ النَّصَارَى عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ لَا يَزَالُونَ مُتَبَاغِضِينَ مُتَعَادِينَ يُكْفَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تَحْرِمُ الْأُخْرَى، وَلَا تَدْعُهَا تِلْجَ مَعْبَدَهَا، فَالْمَلِكِيَّةُ تُكْفَرُ الْيَهُودِيَّةَ، وَكَذَلِكَ الْآخَرُونَ، وَكَذَلِكَ النَّسْطُورِيَّةُ وَالْأَرِيوسِيَّةُ، كُلُّ طَائِفَةٍ تُكْفَرُ الْأُخْرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ يُنْفِثُهُمُ اللَّهُ يَمًا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ لِلنَّصَارَى عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، وَمَا نَسَبُوهُ إِلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا مِنْ جَعْلِهِمْ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا. تَعَالَى الْوَاحِدُ الْأَخَذَ الْفَرْدَ الصَّمَدَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفَوْنَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوْا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١٥﴾  
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

كَمَا أوردَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ (١). وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا عُرَفَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ لِيَلْتَمِذَ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَهُمْ الَّذِينَ وَلُوا الْمُعَاقِدَةَ وَالْمُبَايَعَةَ عَنْ قَوْمِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أَيِ بِحِفْظِي وَكَلَامَتِي وَنَصْرِي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أَيِ صَدَقْتُمُوهُمْ فِيمَا يَجِئُونَكُمْ بِهِ مِنْ الْوَحْيِ ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أَيِ نَصَرْتُمُوهُمْ وَوَارَزْتُمُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وَهُوَ الْإِنْفَاقُ، فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أَيِ ذُنُوبِكُمْ، أَمْحُوها وَأَسْتُرُهَا وَلَا أُوَاجِدُكُمْ بِهَا ﴿وَلَأُجْزِلَنَّكُمْ جَزَاءً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيِ أَدْفَعُ عَنْكُمْ الْمُحْذَرَّ، وَأَحْصَلُ لَكُمْ الْمَقْصُودَ.

### [الْمِيثَاقُ وَتَقْضَاهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ صَلَّى سَوَاءً السَّبِيلِ﴾ أَيِ فَمَنْ خَالَفَ هَذَا الْمِيثَاقَ بَعْدَ عَقْدِهِ وَتَوْكِيدِهِ وَشَدْوِهِ وَجَحْدِهِ وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةً مِّنْ لَا يَعْرِفُهُ، فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ، وَعَدَلَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عِنْدَ مُحَالَاتِهِمْ مِيثَاقَهُ وَتَقْضِيهِمْ عَهْدَهُ، فَقَالَ: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ أَيِ فَيَسَبِّبُ تَقْضِيَهُمُ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ لَعَنَاهُمْ، أَيِ أَبْعَدَنَاهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَطَرَدْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أَيِ فَلَا يَتَعَطَّوْنَ بِمَوْعِظَةٍ لَّغَلْظِهَا وَقَسَاوَرِيهَا ﴿يُخْرِفُونَ إِلِكُمُ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أَيِ فَسَدَتْ قُلُوبُهُمْ وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ، وَحَمَلُوهُ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَيِ وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِه رَغْبَةً عَنْهُ. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مَكْرَهُمْ وَغَدَرَهُمْ لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ تَمَالُؤُهُمْ عَلَى الْفِتَنِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢).

﴿فَاعْتَفُ عَنْهُمْ وَاَصْفَحْ﴾ وَهَذَا هُوَ عَيْنُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَامَلْتَ مِنْ عَصَى اللَّهِ فَيَكُ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ. وَبِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تَأْلِيفٌ وَجَمْعٌ عَلَى الْحَقِّ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يَعْنِي بِهِ الصَّفْحَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ. وَقَالَ

(١) ابن هشام: ٨٧، ٨٦/٢ (٢) الطبري: ١٣١/١٠ (٣) الطبري: ١٣٤/١٠



## [بَيَانُ الْحَقِّ بِالرُّسُولِ وَالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَبَيْنَ الْحَقِّ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ: عَرَبِيَهُمْ وَعَجَبِيَهُمْ، أُمِّيَّهُمْ وَكِتَابِيَهُمْ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْفُرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَيُّ بَيِّنٍ مَا بَدَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَأَوَّلُوهُ، وَافْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ فِيهِ، وَيَسْكُتُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا غَيَّرُوهُ وَلَا فَايِدَةَ فِي بَيَانِهِ. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَنْ كَفَرَ بِالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. قَوْلُهُ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فَكَانَ الرَّجْمُ مِمَّا أَخْفَوْهُ (١). ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ فَقَالَ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٢) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ إِلَى أَهْلِ طُرُقِ النَّجَاةِ وَالسَّلَامَةِ وَمَنَاهِجِ الْإِسْقَامَةِ (٣) وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَهَدِيَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) أَيُّ يُنْجِيهِمْ مِنَ الْمَهَالِكِ، وَيُوضِّحُ لَهُمْ أَبْيَنَ الْمَسَالِكِ، فَيُصْرِفُ عَنْهُمْ الْخُذُورَ، وَيُحْصِلُ لَهُمْ أَحَبَّ الْأُمُورِ، وَيُنْفِي عَنْهُمْ الضَّلَالَةَ، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى أَفْوَرِ حَالَةٍ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٦) [شِرْكُ النَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَحَاكِمًا بِكُفْرِ النَّصَارَى فِي إِدْعَائِهِمْ فِي الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ - وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ - أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا. ثُمَّ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١١

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٧) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْرُكُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَالَهُمْ ثُبُوتٌ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٩) يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٠) قَالُوا يَمُوسَى إِنْ فِيهَا قَوْمٌ مُجْرِمُونَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (١١) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مَوْمِنِينَ (١٢)

قَالَ مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَكُونِهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أَيُّ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْهُ، أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى صَرْفِهِ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ وَمُلْكُهُ وَخَلْقُهُ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَدْلِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَّبَاعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ أَيُّ نَحْنُ مُتَّسِبُونَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَهُمْ بُنُوهُ، وَلَهُ بِهِمْ

سِينَكِ وَأَزْدَادُوا سَعًا» [الكهف: ٢٥] أَي قَمَرِيَّةً لِتَكْمِيلِ ثَلَاثِمِائَةٍ الشَّمْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْلُومَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَتْ الْفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ آخِرَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»<sup>(١)</sup>.

وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بُعِثَ بَعْدَ عِيسَى نَبِيٌّ، يُقَالُ لَهُ خَالِدٌ بُنْ سِنَانٍ كَمَا حَكَاهُ الْقَضَاعِيُّ وَغَيْرُهُ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وَتَغْيِيرِ الْأَدْيَانِ، وَكَثْرَةِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالتَّيْرَانِ وَالصُّلْبَانِ، فَكَانَتِ النُّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ النِّعَمِ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَمْرُ عَمَمٍ، فَإِنَّ الْفَسَادَ كَانَ قَدْ عَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ، وَالطُّغْيَانَ وَالْجَهْلَ قَدْ ظَهَرَ فِي سَائِرِ الْعِبَادِ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِقِيَائِهِ مِنْ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، مِنْ بَعْضِ أَخْبَارِ الْيَهُودِ وَغِبَادِ النَّصَارَى وَالصَّابِيِّينَ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمَجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءَ كُلُّهُمْ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ فَأَصْلَحَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّحَتْهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَتْلِيكَ وَأَتْلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَان. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ: يَا رَبِّ إِذْنُ يَتْلَعُوا رَأْسِي، فَيَدْعُوهُ خُبْرَةٌ، فَقَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نَعْرَكَ، وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنُتَوَّقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا تَبْعَثُ خَمْسَةَ أَمْثَالِهِ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ. وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ مُتَصَدِّقٌ. وَرَجُلٌ رَجِيمٌ رَفِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ

عِنَايَةٍ، وَهُوَ يُجِبُّنَا. وَتَقْلُوا عَنْ كِتَابِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِعَبْدِهِ إِسْرَائِيلَ: «أَنْتَ ابْنِي بِكَرِّي» فَحَمَلُوا هَذَا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَحَرَفُوهُ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عَقْلَانِهِمْ وَقَالُوا: هَذَا يُطْلَقُ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّشْرِيفِ وَالِإِكْرَامِ. كَمَا نَقَلَ النَّصَارَى عَنْ كِتَابِهِمْ: أَنَّ عِيسَى قَالَ لَهُمْ: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَأَيِّكُمْ، يَعْنِي رَبِّي وَرَبَّكُمْ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبُتُوَّةِ مَا ادَّعَوْهَا فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا مِنْ ذَلِكَ مَعَزَتَهُمْ لَدَيْهِ وَحُطُوتَهُمْ عِنْدَهُ، وَلِهَذَا قَالُوا: نَحْنُ أَنْبَاءُ اللَّهِ وَأَحْيَاؤُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ «قَدْ قَلِمَ يَعِدُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» أَي لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَدْعُونَ أَنْبَاءَهُ وَأَحْيَاءَهُ، فَلِمَ أَعَدَّ لَكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ عَلَى كُفْرِكُمْ وَكَذِبِكُمْ وَافْتِرَائِكُمْ؟

«بَلْ أَشَدُّ بَشَرًا وَمِمَّنْ خَلَقَ» أَي لَكُمْ أَسْوَدُ أَمْثَالِكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَهُوَ سُخْرَانُهُ الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ عِبَادِهِ «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» أَي هُوَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ «وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أَي الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ «وَالِيَهُ الْمَصِيرُ» أَي الْمَرْجِعُ وَالْمَأْتِ بِإِلَيْهِ، فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ. «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>(٢)</sup>.

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِأَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، الَّذِي لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ، بَلْ هُوَ الْمُعَقَّبُ لِجَمِيعِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ» أَي بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ مَا بَيْنَ إِرسَالِهِ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ هَذِهِ الْفِتْرَةِ كَمْ هِيَ؟ فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ التَّهْدِيدِيُّ وَفَتَادَةٌ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: كَانَتْ سِتْمِائَةَ سَنَةٍ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ فَتَادَةٍ: خَمْسِمِائَةٍ وَسِتُّونَ سَنَةً<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ: خَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً<sup>(٦)</sup>. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سِتْمِائَةُ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَلَا مُتَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْقَائِلَ الْأَوَّلَ أَرَادَ سِتْمِائَةَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ. وَالْآخِرَ أَرَادَ: قَمَرِيَّةً، وَبَيْنَ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ وَبَيْنَ الْقَمَرِيَّةِ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ

(١) البغوي: ٢٣/٢ (٢) فتح الباري: ١٠١/٣٢٤ (٣)

البغوي: ٢٣/٢ (٤) عبد الرزاق: ١٨٦/١ (٥) فتح الباري:

ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ . وَرَجُلٌ غَافٍ فَقِيرٌ ذُو عِيَالٍ . وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا [زَبَرَ] لَهُ : الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ نَجَّ - أَوْ تَبَعَاءُ ، شَكَّ يَحْيَى - لَا يَنْتَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ [البُخْلُ] أَوْ الْكَذِبَ «وَالسَّنْظِيرُ الْفَاحِشُ»<sup>(١)</sup> .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ إيرادِ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ : «وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَجْمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ : «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»<sup>(٢)</sup> . وَكَانَ الدِّينُ قَدِ اتَّسَعَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَهَدَى الْخَلَائِقَ وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَتَرَكَهُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أَيْ لَيْلًا نَحْتَجُّوا وَتَقُولُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَغَيَّرُوهُ : مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ وَيُنذِرُ مِنَ الشَّرِّ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ إِنِّي قَادِرٌ عَلَى عِقَابِ مَنْ عَصَانِي ، وَتَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي<sup>(٣)</sup> .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آدَمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾<sup>(١)</sup> يَنْقُورُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَمَنْ بَدَّلُوا بَدَّلُوا خُيُوتًا قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ<sup>(٢)</sup> قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ<sup>(٣)</sup> قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ<sup>(٤)</sup> قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ<sup>(٥)</sup> قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ<sup>(٦)</sup>

﴿وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّي وَإِنِّي مُسْلِمٌ﴾<sup>(١)</sup> وَكَانَ الدِّينُ قَدِ اتَّسَعَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَهَدَى الْخَلَائِقَ وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَتَرَكَهُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أَيْ لَيْلًا نَحْتَجُّوا وَتَقُولُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَغَيَّرُوهُ : مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ وَيُنذِرُ مِنَ الشَّرِّ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ إِنِّي قَادِرٌ عَلَى عِقَابِ مَنْ عَصَانِي ، وَتَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي<sup>(٣)</sup> .

عَمْرَانِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآيَةِ لَدَيْهِمْ فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أَيْ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيكُمْ نَبِيٌّ مِنْ لَدُنْ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ ، وَكَذَلِكَ كَانُوا لَا يَزَالُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ ، وَيُحَذِّرُونَ نَفْسَهُ ، حَتَّى خَتِمُوا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَسْهُوبِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَهُوَ أَشْرَفُ مِنْ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْهُمْ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قَالَ : الْخَادِمُ وَالْمَرْءُ

[تَذَكِيرُ مُوسَى قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَأَمْرُهُ بِدُخُولِهِمْ فِي

الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَتَمَرُّدُهُمْ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بْنِ

(١) أحمد: ٤/١٦٢ (٢) مسلم: ٤/٢١٩٧ (٣) الطبري: ١٠/١٥٨

تَعَالَى. فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَقُومُوا  
ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ﴾ أَيِ الْمُطَهَّرَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَيِ الَّتِي  
وَعَدَكُمْوهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ أَبِيكُمْ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ وَرَآئِهِ مَنْ آمَنَ  
مِنْكُمْ ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَى آذَانِكُمْ﴾ أَيِ وَلَا تَتَكَلَّمُوا عَنِ الْجِهَادِ  
﴿فَتَقَبِّلُوا خَاسِرِينَ﴾ (١) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن  
نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿وَلَا  
أَيِ اعْتَدُوا بِأَنَّ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي أَمَرْتَنَا بِدُخُولِهَا وَقِتَالِ  
أَهْلِهَا، قَوْمًا جَبَّارِينَ، أَيِ ذَوِي خَلْقٍ هَائِلَةٍ، وَقُوَى  
شَدِيدَةٍ، وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى مُقَاوَمَتِهِمْ وَلَا مُصَاوَلَتِهِمْ، وَلَا  
يُمْكِنُنَا الدُّخُولُ إِلَيْهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا  
دَخَلْنَاها، وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ.

[خُطْبَةُ يُوشَعَ وَكَالِبِ عَنِ الْجِهَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْتَمَ اللَّهُ  
عَلَيْهِمَا﴾ أَيِ فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَمُتَابَعَةِ  
رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حَرَضَهُمْ رَجُلَانِ لِلَّهِ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ  
عَظِيمَةٌ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ أَمْرَ اللَّهِ وَيَخْشَى عِقَابَهُ، وَقَرَأَ  
بِفَضْلِهِمْ: (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ). أَيِ مِمَّنْ لَهُمْ  
مَهَابَةٌ وَمَوْضِعٌ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُمَا يُوشَعَ بْنُ نُونٍ،  
وَكَالِبُ بْنُ يُوفْتَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ،  
وَعَطِيَّةُ وَالسُّدِّيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ  
السَّلَفِ وَالْخَلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ (٢). فَقَالَا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ  
الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَاتَّعَمَّتْ أَمْرُهُ، وَوَأَقْبَحْتُمْ  
رَسُولَهُ، نَصَرَكُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَأَيَّدَكُمُ وَظَفَرَكُمُ بِهِمْ.  
وَدَخَلْتُمْ الْبَلَدَ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَكُمْ، فَلَمْ يَنْفَعِ ذَاكَ فِيهِمْ شَيْئًا  
﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ  
وَرَبُّكَ فَفَتَحْنَا إِيَّاهُ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ وَهَذَا نَكُولُ مِنْهُمْ عَنِ  
الْجِهَادِ، وَمُخَالَفَةِ لِرَسُولِهِمْ، وَتَخَلُّفٍ عَنْ مُقَاتَلَةِ الْأَعْدَاءِ.

[حُسْنُ جَوَابِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ بَدْرٍ]

وَمَا أَحْسَنَ مَا أَجَابَ بِهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ  
بَدْرٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ اسْتَشَارَهُمْ فِي قِتَالِ النِّعِيرِ،  
الَّذِينَ جَاؤُوا لِمَنْعِ الْعِيرِ، الَّذِي كَانَ مَعَ أَبِي سَفْيَانَ،

وَالْبَيْتُ (١). وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ  
قَالَ: الْمَرْءُ وَالْخَادِمُ. ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنْ  
الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِهِمْ يَوْمَئِذٍ. ثُمَّ قَالَ  
الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٢).  
وَقَالَ فَتَادَةُ: كَانُوا أَوَّلَ مَنْ اتَّخَذَ الْخَدَمَ (٣).

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَاوِيَ فِي  
جَسَدِهِ، أَمِنَا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِزْبَتْ لَهُ  
الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا» (٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي  
عَالِمِي زَمَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ مِنَ  
الْيُونَانِ وَالْقِبْطِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ بَنِي آدَمَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ  
ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَكَّيْنَاهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ  
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا  
عَنْ مُوسَى لَمَّا قَالُوا: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ  
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ (٥) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعٌ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ (٦) قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْيَاسَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى  
الْعَالَمِينَ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠] وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُمْ  
كَانُوا أَفْضَلَ زَمَانِهِمْ، وَإِلَّا فَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفُ مِنْهُمْ،  
وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَكْمَلُ شَرِيعَةً، وَأَقْوَمُ مِنْهَاجًا، وَأَكْرَمُ  
نَبِيًّا، وَأَعْظَمُ مُلْكًا، وَأَعَزُّ أَرْزَاقًا، وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا،  
وَأَوْسَعُ مَمْلَكَةً، وَأَدْوَمُ عِزًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ  
جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]،  
وَقَدْ ذَكَرْنَا الْأَحَادِيثَ الْمُتَوَاتِرَةَ فِي فَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ  
وَشَرَفِهَا وَكَرَمِهَا عِنْدَ اللَّهِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ  
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَحْرِيطِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْجِهَادِ وَالْدُّخُولِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ  
الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ فِي زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ، لَمَّا ارْتَحَلَ هُوَ  
وَنَبُوهُ وَأَهْلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ لَمْ  
يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى، فَوَجَدُوا فِيهَا قَوْمًا مِنَ  
الْعَمَالِقَةِ الْجَبَّارِينَ قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا وَتَمَلَّكُوهَا، فَأَمَرَهُمْ  
رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالدُّخُولِ إِلَيْهَا، وَبِقِتَالِ  
أَعْدَائِهِمْ، وَبَشَرَهُمْ بِالنُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ، فَتَكَلَّمُوا وَعَصَوْا  
وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ فِي النَّيِّ، وَالتَّمَادِي فِي  
سَيْرِهِمْ حَارِثِينَ، لَا يَذَرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ فِيهِ إِلَى مَقْصِدٍ،  
مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى تَقْرِيطِهِمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ

(١) عبد الرزاق: ١٨٧/١ (٢) الحاكم: ٣١٢/٢ (٣)

الطبري: ١٦٣/١٠ (٤) الترمذي: ٢٣٤٦ (٥) الطبري: ١٠

عَبَّاسٍ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ: إِفْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: أُرْفُقْ: إِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. [تَحْرِيمُ دُخُولِ الْيَهُودِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَكُونُونَ فِي الْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ، لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ حَكَمَ اللَّهُ بِتَحْرِيمِ دُخُولِهَا عَلَيْهِمْ مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَوَقَعُوا فِي التَّيِّهِ يَسِيرُونَ دَائِمًا، لَا يَهْتَدُونَ لِلْخُرُوجِ مِنْهُ، وَفِيهِ كَانَتْ أُمُورٌ عَجِيبَةٌ، وَخَوَارِقُ كَثِيرَةٌ مِنْ تَطْيِيلِهِمْ بِالْغَمَامِ، وَإِنزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ، وَمِنْ إِخْرَاجِ الْمَاءِ الْجَارِي مِنْ صَخْرَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَثَبَّتَ اللَّهُ بِهَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ. وَهُنَاكَ نَزَلَتْ التَّوْرَةُ، وَشُرِعَتْ لَهُمُ الْأَحْكَامُ، وَعُمِلَتْ فِتْنَةُ الْعَهْدِ وَيُقَالُ لَهَا: فِتْنَةُ الزَّمَانِ.

### [فَتْحُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ مَنْصُوبٌ بِقَوْلِهِ ﴿يَكُونُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فَلَمَّا انْقَضَتْ الْمُدَّةُ، خَرَجَ بِهِمْ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ بِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وَبَسَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْجِيلِ الثَّانِي، فَقَصَدَ بِهِمُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ فَحَاصَرَهَا، فَكَانَ فَتْحُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَلَمَّا تَضَيَّقَتْ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ وَخَشِيَ دُخُولَ السَّبْتِ عَلَيْهِمْ، قَالَ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ. فَحَبَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى فَتَحَهَا، وَأَمَرَ اللَّهُ يَوْشَعَ بْنَ نُونٍ، أَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ يَدْخُلُونَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، أَنْ يَدْخُلُوا بِأَبْهَا سَجْدًا، وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ، أَيْ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبُنَا. فَبَدَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، وَدَخَلُوا يَرْحَفُونَ عَلَى أَسْنَانِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا كُلُّهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَكُونُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: فَتَاهُوا أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ: فَهَلْكَ مُوسَى وَهَارُونُ فِي التَّيِّهِ، وَكُلُّ مَنْ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا مَضَتْ الْأَرْبَعُونَ سَنَةً، نَاهَضَهُمْ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ، وَهُوَ

فَلَمَّا فَاتَ إِفْتِنَاصُ الْعِيرِ، وَاقْتَرَبَ مِنْهُمْ النَّيِّرُ، وَهُمْ فِي جَمْعٍ مَا بَيْنَ التَّسْعِمَانَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي الْعُدَّةِ، وَالْبَيْضِ وَالْيَلْبِ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ تَكَلَّمَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ» وَمَا يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا لِيَسْتَعْلِمَ مَا عِنْدَ الْأَنْصَارِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا جُمُهورَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: كَأَنَّكَ تُعَرِّضُ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعَرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ، فَخَضْتَهُ لَخَضَنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَّرُهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللَّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَيَسِرَ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ سَعْدٌ وَنَشَطَهُ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْذُوقٍ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا سَارَ إِلَى بَدْرِ اسْتَشَارَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّا كُمْ يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: إِذَا لَا نَقُولُ لَهُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا إِلَى بِرِّكَ الْغِمَادِ لَا تَبْعَانَاكَ. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَرَوَاهُ ابْنُ جَبَانَ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي الْمَعَارِ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ طَرَفٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَلَفْظُهُ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ قَالَ: قَالَ الْمُقَدِّدُ يَوْمَ بَدْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَلَكِنْ امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ. فَكَانَتْ سُرِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٣)</sup>.

### [دُعَاءُ مُوسَى عَلَى الْيَهُودِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يَعْنِي لَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْقِتَالِ غَضِبَ عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ دَاعِيًا عَلَيْهِمْ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أَيْ لَيْسَ أَحَدٌ يُطِيعُنِي مِنْهُمْ فَيَمْتَلِ أَمْرُ اللَّهِ وَيُجِيبُ إِلَى مَا دَعَوْتَ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَا وَأَخِي هَارُونُ ﴿فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَفْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ

(١) البداية والنهاية: ٣/٢٦٢ (٢) أحمد: ١٠٥/٣ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٣٤ وابن حبان: ١٠٩/٧ (٣) البخاري: ٤٦٠٩ (٤) الطبري: ١٠/١٨٨ (٥) الطبري: ١٠/١٨٩ (٦) الطبري: ١٨٩/١٠

بِاسْطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾  
 إِنَّي أُرِيدُ أَنْ نَبْنِئَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ  
 جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ  
 مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ  
 كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَوْا خَبْرًا أَعْجَزْتَ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ  
 هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

### [قِصَّةُ هَابِيلَ وَقَابِيلَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبِينًا وَخِيمَ عَاقِبَةِ النَّبِيِّ وَالْحَسَدِ وَالظُّلْمِ،  
 فِي خَبَرِ ابْنَيْ آدَمَ لِصُلْبِهِ وَهُمَا قَابِيلُ وَهَابِيلُ كَيْفَ عَدَا  
 أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَتَلَهُ، بَغْيًا عَلَيْهِ وَحَسَدًا لَهُ فِيمَا وَهَبَهُ  
 اللَّهُ مِنَ النِّعْمَةِ، وَتَقَبَّلَ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَخْلَصَ فِيهِ لِلَّهِ عَزَّ  
 وَجَلَّ، فَفَارَزَ الْمُقْتُولُ بِوَضْعِ الْأَتَامِ وَالِدُخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ،  
 وَخَابَ الْقَاتِلُ وَرَجَعَ بِالصِّفَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أَيِ أَفْضَلِ  
 عَلَى هَؤُلَاءِ الْبُعَاةِ الْحَسَدَةِ، إِخْوَانِ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ، مِنَ  
 الْيَهُودِ وَأُمَّتَالِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ، خَبَرِ ابْنَيْ آدَمَ، وَهُمَا هَابِيلُ  
 وَقَابِيلُ، فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيِ عَلَى الْجَلِيلَةِ وَالْأَمْرِ الَّذِي لَا يُبْسَ  
 فِيهِ وَلَا كَذِبَ، وَلَا وَهْمَ وَلَا تَبْدِيلَ، وَلَا زِيَادَةَ وَلَا  
 نُقْصَانَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْلُ الْحَقُّ﴾ [آل  
 عمران: ٦٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ نَفْصُ عَلَيْنِكَ نَبَأَهُمْ  
 بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] وَقَالَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ  
 الْحَقِّ﴾ [مریم: ٣٤]، وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِمَا فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ  
 وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لِآدَمَ عَلَيْهِ  
 السَّلَامُ، أَنْ يُزَوِّجَ بَنَاتَهُ مِنْ بَيْنِهِ لِضُرُورَةِ الْحَالِ، وَلَكِنْ  
 قَالُوا: كَانَ يُؤَلَّدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، فَكَانَ يُزَوِّجُ  
 أَنْثَى هَذَا الْبَطْنِ لِذَكَرِ الْبَطْنِ الْآخَرِ، وَكَانَتْ أُخْتُ هَابِيلَ  
 دَمِيمَةً، وَأُخْتُ قَابِيلَ وَضِيئَةً، فَأَرَادَ أَنْ يُسْتَأْذِنَ بِهَا عَلَى  
 أَخِيهِ، فَأَبَى آدَمُ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يُقَرَّبَا قُرْبَانًا، فَمَنْ تَقَبَّلَ مِنْهُ  
 فَهِيَ لَهُ، فَتَقَبَّلَ مِنْ هَابِيلَ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ قَابِيلَ، فَكَانَ مِنْ  
 أَمْرِهِمَا مَا قَصَّه اللَّهُ فِي كِتَابِهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: نُهِيَ أَنْ  
 تَنْكِحَ الْمَرْأَةُ أَخَاهَا تَوَآمَهَا، وَأَمَرَ أَنْ يَنْكِحَهَا غَيْرُهُ مِنْ  
 إِخْوَتِهَا، وَكَانَ يُؤَلَّدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ، فَبَيْنَمَا هُمُ

الَّذِي قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَ مُوسَى، وَهُوَ الَّذِي افْتَتَحَهَا <sup>(١)</sup>.  
 وَهُوَ الَّذِي قِيلَ لَهُ: «الْيَوْمَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ». فَهَمُّوا بِافْتِتَاحِهَا  
 وَدَنَبَ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، فَخَشِيَ أَنْ دَخَلَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ  
 أَنْ يَسْبِتُوا، فَنادَى الشَّمْسُ: إِنِّي مَأْمُورٌ، وَإِنَّكَ مَأْمُورَةٌ،  
 فَوَقَفَتْ حَتَّى افْتَتَحَهَا، فَوَجَدَ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَمْ يَرِ  
 مِثْلُهُ قَطُّ، فَقَرَّبُوهُ إِلَى النَّارِ فَلَمْ تَأْتِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ  
 الْعُلُولُ، فَدَعَا رُؤُوسَ الْأَسْبَاطِ وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا  
 قَبَايِعَهُمْ، وَالتَّصَفَّتْ يَدُ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِيَدِهِ فَقَالَ: الْعُلُولُ  
 عِنْدَكَ فَأَخْرِجْهُ، فَأَخْرَجَ رَأْسَ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ لَهَا عَيْنَانِ  
 مِنْ يَاقُوتٍ وَأَسْنَانِ مِنْ لُؤْلُؤٍ فَوَضَعَهُ مَعَ الْقُرْبَانِ، فَأَتَتْ  
 النَّارُ فَأَكَلَتْهُ. وَهَذَا السِّبَاقُ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ.

### [تَسْلِيَةُ اللَّهِ لِمُوسَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تَسْلِيَةٌ  
 لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُمْ، أَيْ لَا تَأْسَفْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ  
 فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ  
 الْقِصَّةُ تَضَمَّنَتْ تَفْرِيعَ الْيَهُودِ، وَبَيَانَ فَضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ  
 لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَتُكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ  
 الْجِهَادِ، فَضَعُفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنْ مُصَابِرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ  
 وَمُفَالَاتِهِمْ، مَعَ أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَلِمَتِهِ  
 وَصِفَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُوَ يَعِدُهُمْ بِالنَّصْرِ  
 وَالظَّفَرِ بِأَعْدَائِهِمْ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بَعْدُوهُمْ  
 فِزَعُونَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْغَرَقِ لَهُ وَلِجُنُودِهِ فِي الْيَمِّ  
 وَهُمْ يَنْظُرُونَ، لِيَقَرَّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ، ثُمَّ  
 يَنْكَلُونَ عَنْ مُقَاتَلَةِ أَهْلِ بَلَدِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ لَا  
 تَوَازِي عِشْرَ الْمُعْشَارِ فِي عُدَّةِ أَهْلِهَا وَعَدِيدِهِمْ، فَظَهَرَتْ  
 قَبَائِحُ صَنِيعِهِمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَافْتَضَحُوا فَضِيحَةً لَا  
 يُعْطِيهَا اللَّيْلُ، وَلَا يَسْتُرُهَا الذُّبُلُ، هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ  
 يَمْمَهُونَ، وَفِي عَيْهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَهُمْ الْبُعْضَاءُ إِلَى اللَّهِ  
 وَأَعْدَاؤُهُ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ،  
 فَقَبَّحَ اللَّهُ وُجُوهَهُمْ الَّتِي مُسِخَ مِنْهَا الْخَنَازِيرُ وَالْقِرَدُ،  
 وَالزَّرَمَهُمْ لَعْنَةً تَضَحُّهُمْ إِلَى النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ، وَيَقْضِي لَهُمْ  
 فِيهَا بِتَأْيِيدِ الْخُلُودِ، وَقَدْ فَعَلَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي جَمِيعِ  
 الْوُجُودِ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ  
 مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا  
 يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٧] لِيَنْ بَسَطَتْ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا

كَذَلِكَ إِذْ وُلِدَ لَهُ امْرَأَةٌ وَضِيئَةٌ، وَوُلِدَ لَهُ أُخْرَى فَبِيحَةٌ دَمِيمَةٌ، فَقَالَ أَخُو الدَّمِيمَةِ: أَنْتَ حَنِي أَخْتُكَ وَأَنْتَ حَكُ أَخْتِي، فَقَالَ لَا، أَنَا أَحَقُّ بِأَخْتِي، فَقَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ صَاحِبِ الْكَنْسِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ صَاحِبِ الزَّرْعِ، فَقَتَلَهُ<sup>(١)</sup>. إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيِ مِمَّنِ اتَّقَى اللَّهَ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: لَأَنْ أَشْتَقِينَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَبَّلَ لِي صَلَاةً وَاحِدَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَقُولُ لَهُ أَخُوهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الَّذِي تَقَبَّلَ اللَّهُ قُرْبَانَهُ لِنَفْسِهِ، حِينَ تَوَعَّدَهُ أَخُوهُ بِالْقَتْلِ عَلَى غَيْرِ مَا ذُنِبَ مِنْهُ إِلَيْهِ ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ أَيِ لَا أَقْبَلُكَ عَلَى صَنِيعِكَ الْفَاسِدِ بِمِثْلِهِ فَكُونَ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاءٌ فِي الْخَطِيئَةِ ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيِ مِنْ أَنْ أَضْغَعُ كَمَا تُرِيدُ أَنْ تَضْغَعَ، بَلْ أَضْغِرُ وَأَحْتَسِبُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: وَإِمْ اللَّهُ إِنْ كَانَ لِأَشَدِّ الرَّجُلَيْنِ، وَلَكِنْ مَنَعَهُ التَّحَرُّجُ، يَعْنِي الْوَرَعُ. وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا تَوَاجَعَا الْمُسْلِمَانِ بِسِنْفَيْهِمَا، فَأَلْقَايِلَ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا الْقَائِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَنِي قَيْسَ يَدُهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي؟ فَقَالَ: «كُنْ كَابْنِ آدَمَ»<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَخَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ وَأَبِي بَكْرِ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَقَّادٍ وَأَبِي مُوسَى وَخَرَشَةَ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنِّي أَصْحَابُ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَتَفَادَةُ وَالسَّيِّدِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ﴾ أَيِ بِإِثْمِ قَتْلِي وَإِثْمِكَ الَّذِي عَلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَيِ فَحَسَنْتَ وَسَوَّلْتَ لَهُ نَفْسَهُ، وَشَجَعْتَهُ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، أَيِ بَعْدَ هَذِهِ

(١) الطبري: ٢٢٣/١٠ (٢) فتح الباري: ٣٥/١٣ ومسلم: ٤/٢٢١٤ (٣) أحمد: ١٨٥/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٣٦/٦ (٥) الطبري: ٢١٦، ٢١٥/١٠ (٦) الطبري: ٥٣٦/٤ (٧) عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف وهذا الحديث رواه عبدالرحمن بن زيد عن أبيه [تقريب] وقال الإمام أبو عبدالله الحاكم روى عن أبيه أحاديث موضوعة [المدخل إلى الصحيح] (٨) أحمد: ٣٨٣/١ (٩) فتح الباري: ١٢/١٩٨ ومسلم: ٣/١٣٠٣ وتحفة الأحوذى: ٤٣٦/٧ والسائي في الكبرى: ٦/٣٣٤ وابن ماجه: ٨٧٣/٢ (١٠) الطبري: ٢١٩/١٠ فيه محمد بن إسحاق وهو مدلس لم يصرح بالسماع وشيخه حكيم بن حكيم بن عباد بن ضيف مختلف فيه

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ جَعَلَ يَلْوِي عُنُقَهُ، فَأَخَذَ إِبْلِيسُ دَابَّةً وَوَضَعَ رَأْسَهَا عَلَى حَجَرٍ، ثُمَّ أَخَذَ حَجَرًا آخَرَ فَضَرَبَ بِهِ رَأْسَهَا حَتَّى قَتَلَهَا، وَابْنُ آدَمَ يَنْظُرُ، فَفَعَلَ بِأَخِيهِ مِثْلَ ذَلِكَ<sup>(٦)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَخَذَ بِرَأْسِهِ لِيَقْتُلَهُ فَاضْطَجَعَ لَهُ، وَجَعَلَ يَغْمُزُ رَأْسَهُ وَعِظَامَهُ وَلَا يَدْرِي كَيْفَ يَقْتُلُهُ، فَجَاءَهُ إِبْلِيسُ فَقَالَ: أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَخُذْ هَذِهِ الصَّخْرَةَ فَاطْرَحْهَا عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ: فَأَخَذَهَا فَأَلْقَاهَا عَلَيْهِ فَشَدَّخَ رَأْسَهُ، ثُمَّ جَاءَ إِبْلِيسُ إِلَى حَوَاءَ مُسْرِعًا فَقَالَ: يَا حَوَاءُ، إِنَّ قَابِيلَ قَتَلَ هَابِيلَ، فَقَالَتْ لَهُ: وَنَحَكَ! وَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ الْقَتْلُ؟ قَالَ: لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَسْحَرُكَ، قَالَتْ: ذَلِكَ الْمَوْتُ. قَالَ: فَهُوَ الْمَوْتُ، فَجَعَلَتْ تَصِيحُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا آدَمُ وَهِيَ تَصِيحُ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَلَمْ تُكَلِّمَهُ، فَارْجَعَ إِلَيْهَا مَرَّتَيْنِ فَلَمْ تُكَلِّمَهُ فَقَالَ: عَلَيْكَ الصَّيْحَةُ وَعَلَى بَنَاتِكَ، وَأَنَا وَبَنِي مِنْهَا بَرَاءٌ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَيِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ؟ وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى أَبِي دَاوُدَ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنْ أَشْقَى النَّاسِ رَجُلًا لِابْنِ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ، مَا سَفَكَ دَمًا فِي الْأَرْضِ مِنْذُ قَتَلَ أَخَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا لِحَقِّ بِهِ مِنْهُ شَرٌّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ<sup>(١٠)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ  
نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ  
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ  
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا  
مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا  
جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ  
فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ  
لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ  
﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ  
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ أَنَّهُمْ  
لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوهُ بِهِمْ مِنْ  
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أَي حَرَّمَ قَتْلَهَا وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ، فَقَدْ سَلِمَ  
النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَأَنَّمَا  
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وَقَالَ الْأَعْمَشُ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي  
صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُثْمَانَ يَوْمَ  
الدَّارِ فَقُلْتُ: جِئْتُ لَأَنْصُرَكَ، وَقَدْ طَابَ الضَّرْبُ يَا أَمِيرَ  
المُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَيْسُرُكَ أَنْ تُقَتِّلَ النَّاسَ  
جَمِيعًا وَإِلَائِي مَعَهُمْ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَ رَجُلًا  
وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلْتَ النَّاسَ جَمِيعًا، فَانْصَرَفَ مَا دُونًا لَكَ  
مَأْجُورًا غَيْرَ مَا زُورٍ، قَالَ: فَانْصَرَفْتُ وَلَمْ أَقَاتِلْ. <sup>(٤)</sup>

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ كَمَا قَالَ  
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ  
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا  
النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وَإِحْيَاؤها أَلَّا يُقَتَّلَ نَفْسًا حَرَّمَهَا اللَّهُ،

(١) الطبري: ١٠/٢٢٥ (٢) الطبري: ١٠/٢٢٦ (٣) أبو داود: ٢٠٨/٥ (٤) [الطبقات لابن سعد ٣/٥١] فيه الأعمش سلمان ابن مهران ثقة حافظ لكنه يبدل ولم يصرح

كَيْفَ يُؤَرَى سَوْءَهُ أَخِيهِ قَالَ يُؤَلِّقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ  
هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَرَى سَوْءَهُ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ  
السُّدِّيُّ بِإِسْنَادِهِ الْمُتَقَدِّمِ إِلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: لَمَّا  
مَاتَ الْغُلَامُ تَرَكَهُ بِالْعَرَاءِ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَذْفُو، فَبَعَثَ اللَّهُ  
غُرَابَيْنِ أَخَوَيْنِ فَافْتَتَلَا، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَحَفَرَ لَهُ،  
ثُمَّ حَتَّى عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: ﴿يُؤَلِّقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ  
مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَرَى سَوْءَهُ أَخِي﴾ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي  
طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ غُرَابٌ إِلَى غُرَابٍ مَيِّتٍ،  
فَحَتَّى عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ حَتَّى وَارَاهُ، فَقَالَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ:  
﴿يُؤَلِّقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَرَى سَوْءَهُ  
أَخِي﴾ <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:  
عَلَاهُ اللَّهُ بِنْدَامَةً بَعْدَ خُسْرَانٍ.

### [تَعْجِيلُ عَقُوبَةِ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ]

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ  
أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عَقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ  
فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» <sup>(٣)</sup>. وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي  
فِعْلِ قَابِلٍ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا  
يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا  
وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ  
رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ  
لَمُسْرِفُونَ﴾ <sup>(٣٢)</sup> إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ  
فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ  
حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا  
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾

### [يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَرِمَ الْإِنْسَانَ]

يَقُولُ تَعَالَى: مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظُلْمًا وَعَدْوَانًا  
﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَي شَرَعْنَا لَهُمْ وَأَعْلَمْنَاهُمْ  
﴿أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا  
قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ  
جَمِيعًا﴾ أَي مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ سَبَبٍ مِنْ فِصَاصٍ أَوْ فَسَادٍ  
فِي الْأَرْضِ، وَاسْتَحْلَلَ قَتْلَهَا بِلا سَبَبٍ وَلَا جِنَايَةٍ، فَكَأَنَّمَا  
قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ



فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ... الْآيَةُ، الْمُحَارَبَةُ هِيَ الْمُضَادَّةُ وَالْمُخَالَفَةُ، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى الْكُفْرِ، وَعَلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَإِخَافَةِ السَّبِيلِ. وَكَذَا الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ يُطْلَقُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِّ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، قَالَا: «إِنَّمَا جَزَاؤُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» إِلَى «أَنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ» نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُشْرِكِينَ، فَمَنْ تَابَ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْتَلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ. وَلَيْسَتْ تَحَرُّزُ هَذِهِ الْآيَةُ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ مِنَ الْحَدِّ إِنْ قُتِلَ، أَوْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، أَوْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، ثُمَّ لَحِقَ بِالْكَفَارِ، قَبْلَ أَنْ يُقْتَلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ الَّذِي أَصَابَ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا جَزَاؤُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا»، نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ، مَنْ تَابَ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ الَّذِي أَصَابَهُ<sup>(٦)</sup>.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ غَامَّةٌ فِي الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ ارْتَكَبَ هَذِهِ الصِّفَاتِ؛ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي قِلَابَةَ - وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ الْجَرَمِيُّ الْبَصْرِيُّ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَّةٍ، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْحَمُوا الْمَدِينَةَ، وَسَقَمَتْ أَجْسَامُهُمْ فَشَكُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ فَتَصْبِيحُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا؟» فَقَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَّ، وَطَرَدُوا الْإِبِلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأَذْرَكُوا فَجَاءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ، ثُمَّ بُذِلُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا. لَفْظُ مُسْلِمٍ، وَفِي لَفْظٍ لَهَا: مِنْ عُكْلٍ أَوْ غَرَبِيَّةٍ، وَفِي لَفْظٍ: وَأَلْفُوا فِي الْحَرَّةِ فَجَعَلُوا يَسْتَسْقُونَ، فَلَا يَسْقُونَ<sup>(٧)</sup>.

(١) الطبري: ٢٣٥/١٠ (٢) الطبري: ٢٣٦/١٠ (٣) الطبري: ٢٣٣/١٠ وقد تقدم الكلام على العوفي وعائلته (٤) الطبري: ٢٣٥/١٠ (٥) الطبري: ٢٤٤/١٠ (٦) أبو داود: ٥٣٦/٤ والنسائي: ١٠١/٧ (٧) فتح الباري: ١١٤/١٢ ومسلم: ٣/١٢٩٦

فَذَلِكَ الَّذِي أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، يَعْنِي أَنَّهُ مِنْ حَرَمٍ قَتَلَهَا إِلَّا بِحَقٍّ، حَيَّى النَّاسُ مِنْهُ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: «وَمَنْ أَحْيَاهَا» أَيَّ كَفَّ عَنْ قَتْلِهَا<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا»، يَقُولُ: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا وَاحِدَةً حَرَّمَهَا اللَّهُ فَهُوَ مِثْلُ مَنْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَنْ اسْتَحْلَلَ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَحْلَلَ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا، وَمَنْ حَرَّمَ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» مَنْ قَتَلَ النَّفْسَ الْمُؤْمِنَةَ مُتَعَمِّدًا، جَعَلَ اللَّهُ جَزَاءَهُ جَهَنَّمَ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا، يَقُولُ: لَوْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا لَمْ يَزِدْ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْعَذَابِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ مُجَاهِدٌ: «وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» قَالَ: مَنْ لَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا فَقَدْ حَيَّى النَّاسَ مِنْهُ<sup>(٤)</sup>.

#### [تَهْدِيدُ الْمُسْرِفِينَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أَيَّ بِالْحُجَجِ وَالْبُرَاهِينِ وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ «ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ» وَهَذَا تَفْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى ارْتِكَابِهِمُ الْمُحَارِمَ بَعْدَ عَلِيمِهِمْ بِهَا، كَمَا كَانَتْ بَنُو فَرِيطَةَ وَالنَّضِيرَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَنِي قَيْنِقَاعَ مِمَّنْ حَوَّلَ الْمَدِينَةَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْحُرُوبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحُرُوبُ أَوْزَارَهَا. فَدَا مِنْ أَسْرُوهُ، وَوَدَا مِنْ قَتْلُوهُ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ حَيْثُ يَقُولُ: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضَكُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٥﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ فَتُظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْفُجْرِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسْكَرٌ تَضْرِبُكُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِيخْرَاجَهُمْ أَفْتَتُمُونَنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾» [البقرة: ٨٤، ٨٥].

#### [جَزَاءُ الْمُحَارِبِينَ وَالْأَشْرَارِ]

وَقَوْلُهُ: «إِنَّمَا جَزَاؤُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ

بَعْضًا، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْزُهُ إِلَى اللَّهِ: إِنْ شَاءَ عَذَّبْهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ، فَاللهُ أَعَدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَشْنِي عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ، فَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ»<sup>(٥)</sup>. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَقَدْ سُئِلَ الْحَافِظُ الدَّارِقُطِيُّ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ<sup>(٦)</sup> فَقَالَ: رَوَى مَرْفُوعًا وَمَوْفُوقًا، قَالَ: وَرَفَعَهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا» يَعْنِي سَرًّا وَعَارًا وَنَكَالًا وَذِلَّةً وَعُقُوبَةً فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ. «وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» أَيُّ إِذَا لَمْ يَتُوبُوا مِنْ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى هَلَكُوا، لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَعَ الْجَزَاءِ الَّذِي جَازَيْنَهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعُقُوبَةُ الَّتِي عَاقَبَتْهُمْ بِهَا فِيهَا «عَذَابٌ عَظِيمٌ» يَعْنِي عَذَابٌ جَهَنَّمُ<sup>(٧)</sup>.

[تَسْقُطُ حَدُودُ الْمُحَارِبِينَ إِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ» أَمَّا عَلَى قَوْلٍ مِنْ قَالَ: إِنَّهَا فِي أَهْلِ الشَّرْكِ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الْمُحَارِبُونَ الْمُسْلِمُونَ، فَإِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُمْ انْتِحَامُ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَقَطْعُ الرَّجْلِ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي سُقُوطَ الْجَمِيعِ، وَعَلَيْهِ عَمَلُ الصَّحَابَةِ. كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: كَانَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرٍ التَّيْمِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ قَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَحَارَبَ، فَكَلَّمَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، فَكَلَّمُوا عَلِيًّا فِيهِ فَلَمْ يُؤْمِنْهُ، فَاتَى سَعِيدَ بْنَ قَيْسٍ الْهَمْدَانِيَّ فَخَلَفَهُ فِي دَارِهِ، ثُمَّ أَتَى عَلِيًّا، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتَ مَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ» [المائدة: ٣٤] قَالَ: فَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا، قَالَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يَبْغَضُوا مِنَ الْأَرْضِ» قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: مَنْ شَهَرَ السَّلَاحَ فِي فِتْنَةِ الْإِسْلَامِ، وَأَخَافَ السَّبِيلَ ثُمَّ ظَفِرَ بِهِ وَقُدِرَ عَلَيْهِ فِيمَا مِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ بِالْخِيَارِ: إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ وَإِنْ شَاءَ صَلَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالضَّحَّاكُ. وَرَوَى ذَلِكَ كُلُّهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup> وَمُسْتَدْرَدٌ هَذَا الْقَوْلُ: أَنَّ ظَاهِرَ (أَوْ) لِلتَّخْيِيرِ كَمَا فِي نِظَائِرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ «فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِلَغِ الْكُتُبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا» [المائدة: ٩٥] وَكَقَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ الْفُؤَادِيَّةِ: «فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فِدْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْبٍ» [البقرة: ١٩٦] وَكَقَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ الْبَيْمِينَ: «فَكَفَّرْتَهُمْ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» [المائدة: ٨٩] هَذِهِ كُلُّهَا عَلَى التَّخْيِيرِ فَكَذَلِكَ فَلْتَكُنْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ يُبْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَنْ يَطْلُبَ حَتَّى يُفْتَدَرَ عَلَيْهِ فَيَقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ. أَوْ يَهْرَبَ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالزُّهْرِيُّ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ أَنْ يُنْفَى مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ أَوْ يُخْرِجُهُ السُّلْطَانُ أَوْ نَائِبُهُ مِنْ مُعَامَلَتِهِ بِالْكَلْفَةِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الشَّعْنَاءِ وَالْحَسَنُ وَالزُّهْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانَ: إِنَّهُ يُنْفَى وَلَا يُخْرَجُ مِنَ الْأَرْضِ الْإِسْلَامِ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُرَادُ بِالتَّقْيِ هَهُنَا السَّجُنُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» أَيُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ مِنْ قَتْلِهِمْ وَمِنْ صَلْبِهِمْ وَقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ وَنَهْيِهِمْ - خِزْيٌ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَعَ مَا أَذْخَرَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَهَذَا يُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ. فَأَمَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَبَقِيَ صَحِيحٌ مُسْلِمٌ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النَّسَاءِ أَلَّا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِي، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا يَعْصُهُ بَعْضُنَا

(١) الطبري: ٢٦٣/١٠ (٢) الطبري: ٢٦٢/١٠ (٣) ٢٦٣ (٤) مسلم: ١٣٣٣/٣ (٥) أحمد: ١٥٩/١ وَتَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ: ٣٧٧/٧ وَابْنُ مَاجَهَ: ٨٦٨/٢ (٦) الدارقطني: ٢١٥/٣ (٧) الطبري: ٢٧٦/١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٤

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا  
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا  
أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ  
﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ  
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ  
لَا يَخْرُجُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ  
قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ  
هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ  
آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُخْفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ  
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا  
وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ. مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ  
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَفْعَلْ  
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالْوَسِيلَةِ وَالْجِهَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمَرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ إِذَا  
قُرِنَتْ بِطَاعَتِهِ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْإِنْكَفَافُ عَنِ الْمَحَارِمِ  
وَتَرْكُ الْمُنْهَيَّاتِ، وَقَدْ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ  
الْوَسِيلَةَ﴾. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ طَلْحَةَ عَنْ  
عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيِ الْفُرْجَةِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ  
وَأَبُو وَائِلٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ  
زَيْدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ  
وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضَاهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ  
يَبْتَغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبري: ٢٨٠/١٠ إسناده ضعيف فيه مجالد بن سعيد وتقدم  
الكلام عليه (٢) الطبري: ٢٨٤/١٠ ضعيف فيه الوليد بن مسلم  
كثير التدليس وهو يدلّس تدليس التسوية ولم يصرح هنا (٣)  
الطبري: ٢٩١/١٠ (٤) الطبري: ٢٩١/١٠ (٥) الطبري: ٢٩١/١٠

سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ: فَإِنَّهُ حَارِثَةُ بْنُ بُدَيْرٍ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١)</sup>.  
وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ غَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ  
مُرَادٍ إِلَى أَبِي مُوسَى وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ فِي إِمَارَةِ عُثْمَانَ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَمَا صَلَّى الْمَكْتُوبَةَ، فَقَالَ: يَا أَبَا  
مُوسَى، هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ، أَنَا فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ  
الْمُرَادِيُّ، وَإِنِّي كُنْتُ حَارِثْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَيْتُ فِي  
الْأَرْضِ فَسَادًا، وَإِنِّي ثَبْتُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُقْدِرُوا عَلَيَّ، فَقَامَ  
أَبُو مُوسَى فَقَالَ: إِنَّ هَذَا فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ، وَإِنَّهُ كَانَ حَارِبَ  
اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَإِنَّهُ تَابَ مِنْ قَبْلِ  
أَنْ تُقْدِرَ عَلَيْهِ، فَمَنْ لَقِيَهُ فَلَا يَعْزُضْ لَهُ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنْ يَكُ  
صَادِقًا فَسَبِّحْ مِنْ صَدَقَ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا تَذَرِكُهُ ذُنُوبُهُ،  
فَأَقَامَ الرَّجُلُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ، فَأَذْرَكَ اللَّهُ تَعَالَى  
بِذُنُوبِهِ فَقَتَلَهُ. ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُوسَى بْنِ إِسْحَاقَ  
الْمَدَنِيِّ: أَنَّ عَلِيًّا الْأَسَدِيَّ حَارِبَ وَأَخَافَ السَّبِيلَ  
وَأَصَابَ الدَّمَ وَالْمَالَ فَطَلَبَهُ الْأَيْمَةُ وَالْعَامَّةُ، فَاْمْتَنَعَ وَلَمْ  
يُقْدِرُوا عَلَيْهِ حَتَّى جَاءَ تَائِبًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ  
هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَجْعَلُ الَّذِينَ أَتَوْهُمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ  
رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾  
[الزمر: ٥٣] فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَعِدْ قِرَاءَتَهَا،  
فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ، فَغَمَدَ سِنْفَهُ، ثُمَّ جَاءَ تَائِبًا حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ  
مِنَ السَّحَرِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى  
الصُّبْحَ، ثُمَّ قَعَدَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فِي غِمَارٍ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا  
أَسْفَرُوا عَرَفَهُ النَّاسُ فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: لَا سَبِيلَ لَكُمْ  
عَلَيَّ، جِئْتُ تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُقْدِرُوا عَلَيَّ، فَقَالَ أَبُو  
هُرَيْرَةَ: صَدَقَ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ حَتَّى أَتَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ،  
وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: هَذَا عَلِيُّ  
جَاءَ تَائِبًا، وَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَلَا قَتْلَ، فَتَرَكَ مِنْ ذَلِكَ  
كُلَّهُ، قَالَ وَخَرَجَ عَلَيَّ تَائِبًا مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي  
الْبَحْرِ، فَلَقُوا الرُّومَ فَقَرَّبُوا سَفِينَتَهُ إِلَى سَفِينَةٍ مِنْ سَفِينِهِمْ  
فَاقْتَحَمَ عَلَى الرُّومِ فِي سَفِينَتِهِمْ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَى شَقَاهَا  
الْآخِرِ، فَمَالَتْ بِهِ وَبِهِمْ فَغَرَّقُوا جَمِيعًا<sup>(٢)</sup>.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ  
وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْقَدُوا بِهِ مِنْ  
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نُقِلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾  
يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ

يَرَاوْنَ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّتِهِ وَآلِيمٌ مَسَّهُ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَكَلَّمَا رَفَعَهُمُ اللَّهُ فَصَارُوا فِي أَعْلَى جَهَنَّمَ صَرَبَتْهُمْ الرِّبَانِيَّةُ بِمَقَامِعِ الْحَدِيدِ، فَيَرُدُّوهُمْ إِلَى أَسْفَلِهَا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أَي دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا، وَلَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ؟ فَيَقُولُ: شَرٌّ مَضْجَعٍ، فَيَقَالُ: هَلْ تَقْتَدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ يَارَبِّ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُؤَمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

### [الْأَمْرُ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ]

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا وَأَمِيرًا يَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ، وَقَدْ كَانَ الْقَطْعُ مَعْمُولًا بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَرَّرَ فِي الْإِسْلَامِ، وَزِيدَتْ شُرُوطُ أُخْرَى كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا كَانَتْ الْقَسَامَةُ وَالذَّبِيَّةُ وَالْقِرَاضُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي وَرَدَ الشَّرْعُ بِتَقْرِيرِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَزِيَادَاتُ هِيَ مِنْ تَمَامِ الْمَصَالِحِ.

### [مَتَى تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ؟]

وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ»<sup>(٤)</sup>.

وَأُخْرِجَ الشَّيْخَانِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ فِي رُبْعٍ دِينَارٍ فَصَاعِدًا»<sup>(٥)</sup> وَلِمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعٍ دِينَارٍ فَصَاعِدًا»<sup>(٦)</sup>. فَهَذَا الْحَدِيثُ فَاصِلٌ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَنَصٌّ فِي إغْتِيَابِ رُبْعِ الدِّينَارِ لَا مَا سَاوَاهُ. وَحَدِيثُ ثَمَنِ الْمَجْنَنِ -

وَالْوَسِيلَةُ هِيَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَخْصِيلِ الْمَقْصُودِ. وَالْوَسِيلَةُ أَيْضًا عَلَمٌ عَلَى أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَارُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ أَقْرَبُ أَمَكِنَةِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ جِئَنَ يَسْمَعُ النَّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ النَّامِيَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتٍ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْتَعْتُهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الْمَحَارِمِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ، أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّارِكِينَ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ، وَرَعَبَهُمْ فِي ذَلِكَ بِالَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْفَلَاحِ، وَالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ الْخَالِدَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تَحُولُ وَلَا تَزُولُ فِي الْغُرَبِ الْعَالِيَةِ الرَّبِيعَةِ، الْأَمَةِ الْحَسَنَةِ مَنَاطِرُهَا، الطَّيِّبَةِ مَسَاكِنُهَا، الَّتِي مَنْ سَكَنَهَا بَنِعُمْ لَا يَبْأَسُ، وَيَخْشَى لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ.

[لَا تُقْبَلُ الْفِدْيَةُ مِنَ الْكُفَّارِ وَهُمْ يَسْتَمِرُّونَ فِي عَذَابِ

### النَّارِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِجُلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَبِمِثْلِهِ لَيَفْتَدِي بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَتَقَنَّ وَصَوْلَهُ إِلَيْهِ، مَا تُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ، بَلْ لَا مَنُودِحَةَ عَنْهُ وَلَا مَحِيصَ وَلَا مَنَاصِرَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي مُوجِعٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾... الْآيَةُ [الحج: ٢٢] فَلَا

(١) فتح الباري: ٢٥١/٨ (٢) مسلم: ٢٨٨/١ (٣) مسلم: ٤/٢١٢ والنسائي: ٣٦/٦ (٤) فتح الباري: ٨٣/١٢ ومسلم: ٣/١٣١٤ (٥) فتح الباري: ٩٩/١٢ ومسلم: ١٣١٢/٣ (٦) مسلم: ١٣١٣/٣

مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>(١)</sup>. وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهري عن عروة، عن عائشة: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِءُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حَبِيبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟» فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اِسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعِشِيُّ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاخْتَطَبَ فَأَتَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا» ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يَدُهَا. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَسَنْتُ تَوْبَتَهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجْتُ، وَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَزْنَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ. وَفِي لَفْظٍ لَهُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَتْ امْرَأَةٌ مَخْزُومِيَّةً تَشْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجَحِّدُهُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَطْعِ يَدِهَا<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ هُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ، الْحَاكِمُ فِيهِ، الَّذِي لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]. ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ

مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْنُوكَ يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُوا لِلشَّحْوِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ

وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمَ - لَا يُتَابِي هَذَا، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الدِّينَارُ بِأَتْنِي عَشَرَ دِرْهَمًا، فَهِيَ ثَمَنُ رُبْعِ دِينَارٍ، فَأَمَكَنَّ الْجَمْعُ بِهَذَا الطَّرِيقِ، وَيُرْوَى هَذَا الْمَذْهَبُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَبِهِ يَقُولُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَأَبُو ثَوْرٍ، وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الطَّاهِرِيُّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، إِلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ رُبْعِ الدِّينَارِ وَالثَّلَاثَةِ دَرَاهِمَ مَرْدٌ شَرِيعِي، فَمَنْ سَرَقَ وَاحِدًا مِنْهُمَا أَوْ مَا يُسَاوِيهِ قُطِعَ.

وَأَمَّا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدُ وَزُفَرٌ، وَكَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَإِنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ النَّصَابَ عَشْرَةُ دَرَاهِمَ مَضْرُوبَةٍ غَيْرِ مَعْشُوشَةٍ، [وَالثَّانِي] هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ الْقَطْعُ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا.

وَأَمَّا نَاسِبٌ فِي بَابِ السَّرْقَةِ أَنْ يَكُونَ الْقَدْرُ الَّذِي تُقَطَّعُ فِيهِ رُبْعُ دِينَارٍ، لِثَلَاثَةِ نِصَارِ النَّاسِ فِي سَرْقَةِ الْأَمْوَالِ، فَهَذَا هُوَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ مُجَازَاةً عَلَى صَنِيعِهِمَا السَّيِّئِ فِي أَخْذِهِمَا أَمْوَالَ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يُقَطَّعَ مَا اسْتَعَانَا بِهِ فِي ذَلِكَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ، أَيُّ تَنْكِيلًا مِنَ اللَّهِ بِهِمَا عَلَى ارتِكَابِ ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ فِي انْتِقَامِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيُّ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

[تَوْبَةُ السَّارِقِ مَقْبُولَةٌ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ مَنْ تَابَ بَعْدَ سَرِقَتِهِ وَأَتَابَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ بِهَا الَّذِينَ سَرَقَتْهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ سَرَقَتْنَا. قَالَ قَوْمُهَا: فَتَحْنُ نَفْسَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْطَعُوا يَدَهَا» فَقَالُوا: نَحْنُ نَفْسُهَا بِحَمْسِمِائَةٍ دِينَارٍ، فَقَالَ: «افْطَعُوا يَدَهَا» فَقُطِعَتْ يَدُهَا الْيُمْنَى، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكَ كَيَوْمَ وَلَدْتِكِ أُمُّكِ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿فَمَنْ تَابَ

(١) أحمد: ١٧٧/٢ (٢) فتح الباري: ٦١٩/٧ ومسلم: ٣/

١٣١٥ (٣) مسلم: ١٣١٦/٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١٥

سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلْسُّحْرِ فَإِنْ جَاءُوكَ  
فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ  
يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ  
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤١﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُ اللَّهُ فِيهِمَا  
أَلَمْ يَنْزِلْ فِيهِمَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ  
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا  
هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ  
هَادُوا وَالرَّبَنِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ  
اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ  
وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ  
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ  
فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ  
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ  
فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ  
لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٤﴾

ذَلِكَ.

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ،  
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنِيًّا، فَقَالَ  
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ  
الرَّجْمِ؟» فَقَالُوا: نَفْضُحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ، فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ، فَأَتُوا  
بِالتَّوْرَةِ فَشَرَّوْهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ  
مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: اِرْفَعْ يَدَكَ،  
فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ  
الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ  
يُخْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ. أَخْرَجَاهُ، وَهَذَا لَفْظُ  
الْبُخَارِيِّ، وَفِي لَفْظٍ لَهُ: فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا؟»  
قَالُوا: نُسَخِّمُ وَجُوهَهُمَا وَنُخْرِبُهُمَا، قَالَ: «فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ  
فَأَنُتَلُّوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [آل عمران: ٩٣] فَجَاءُوا  
فَقَالُوا لِرَجُلٍ مِنْهُمْ مِمَّنْ يَرْضَوْنَ أَغْوَرَ: اقْرَأْ، فَقَرَأَ حَتَّى

يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ  
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤١﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُ اللَّهُ فِيهِمَا حُكْمُ  
اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾  
إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ  
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَنِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ  
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ  
وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾

[التَّلْقِينُ بِعَدَمِ الْحُزْنِ عَلَى تَصَرُّفَاتِ الْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ]  
نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكُرِيمَاتُ فِي الْمُسَارَعِينَ فِي الْكُفْرِ،  
الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، الْمُقَدِّمِينَ آرَاءَهُمْ  
وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى شَرَائِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ «مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا  
بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ» أَيْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِالْسِتِّهِمْ،  
وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ خَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَنَافِقُونَ «وَمِنْ  
الَّذِينَ هَادُوا» أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ، وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ  
«سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ» أَيْ مُسْتَجِيبُونَ لَهُ، مُتَعَمِّلُونَ عَنْهُ  
«سَمِعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوا» أَيْ يَسْتَجِيبُونَ لِأَقْوَامٍ  
آخَرِينَ لَا يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ  
يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ وَيُتَهَوَّنُوهُ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَحْضُرُ  
عِنْدَكَ مِنْ أَعْدَائِكَ.

[تَحْرِيفُ الْيَهُودِ وَمُحَاوَلَةُ انْحِرَافِهِمْ عَنِ الرَّجْمِ فِي قِصَّةِ  
الْيَهُودِيِّينَ]

«يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ» أَيْ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى  
غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَبْدُلُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَاعَقْلُوهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ  
«يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا»  
قِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ قَتَلُوا قَتِيلًا، وَقَالُوا: تَعَالَوْا  
حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنْ حَكَمَ بِالذِّبَّةِ فَاقْبَلُوهُ، وَإِنْ  
حَكَمَ بِالْقِصَاصِ فَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّينَ الَّذِينَ زَنَيَا، وَكَانُوا  
قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِرَجْمِ مَنْ  
أَخْصَنَ مِنْهُمْ، فَحَرَّفُوهُ وَاضْطَلَحُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى الْجَلْدِ  
مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَالتَّحْمِيمِ وَالْإِرْكَابِ عَلَى حِمَارٍ مَقْلُوبِينَ، فَلَمَّا  
وَقَعَتْ تِلْكَ الْكَاثِبَةُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: تَعَالَوْا  
حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ، فَإِنْ حَكَمَ بِالْجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ فَخُذُوا عَنْهُ،  
وَاجْعَلُوهُ حُجَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَيَكُونُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ  
قَدْ حَكَمَ بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ، وَإِنْ حَكَمَ بِالرَّجْمِ فَلَا تَتَّبِعُوهُ فِي

﴿فَخُذُوهُ﴾ أَيِ إِقْبَلُوهُ، ﴿وَلِنْ لَّمْ تَوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أَيِ مِنْ قَبُولِهِ وَاتَّبَاعِهِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١﴾ سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَيِ الْبَاطِلِ ﴿أَكْثَلُونَ لِلشَّحِّ﴾ أَيِ الْحَرَامِ، وَهُوَ الرِّشْوَةُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٤)</sup>. أَيِ وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَيْفَ يَظْهَرُ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَأَنَّى يَسْتَجِيبَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ وَكَأَنَّ بَنَحَاكُمُونَ إِلَيْكَ﴾ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا أَيِ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَحْكَمْ بَيْنَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ بِتَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ، بَلْ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ يَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ<sup>(٥)</sup>﴾. ﴿وَلِنْ حَكَمْتَ فَاحْكَمْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً خَارِجِينَ عَنْ طَرِيقِ الْعَدْلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

[دُمْ مَقَاصِدِ الْيَهُودِ الرَّائِعَةِ وَمَدْحُ كِتَابِهِمُ التَّوْرَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَمَقَاصِدِهِمُ الرَّائِعَةِ فِي تَرْكِهِمْ مَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِالْمَشْكِ بِهِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حُكْمِهِ، وَعَدَلُوا إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بُطْلَانَهُ وَعَدَمَ لُزُومِهِ لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا حُكْمَ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ٤٢﴾ ثُمَّ مَدَحَ التَّوْرَةَ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أَيِ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهَا وَلَا يُدِّلُونَهَا وَلَا يُحَرِّفُونَهَا ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْكِتَابِ﴾ أَيِ وَكَذَلِكَ الرَّاسِخُونَ مِنْهُمْ، وَهُمْ: الْعُلَمَاءُ الْعَبَادُ.

انْتَهَى إِلَى مَوْضِعٍ مِنْهَا، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ: اِرْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ، فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ تَلَوُّحٌ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ فِيهَا آيَةَ الرَّجْمِ، وَلَكِنَّا نَتَكَاتَمُ بَيْنَنَا، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا<sup>(١)</sup>.

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَبَى يَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةً قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودٌ فَقَالَ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟» قَالُوا: نَسُودُ وُجُوهُهُمَا وَنُحْمَمُهُمَا، وَنُحْمِلُهُمَا وَنُخَالِفُ بَيْنَ وَجُوهِهِمَا وَيُطَافُ بِهِمَا. قَالَ: ﴿فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] قَالَ: فَجَاءُوا بِهَا فَفَرَّعُوهَا، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِآيَةِ الرَّجْمِ، وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَهُمَا مِنَ الْحِجَابَةِ بِنَفْسِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَتَى نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ فَدَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْقُفِّ، فَأَتَانَهُمْ فِي بَيْتِ الْمِدْرَاسِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ رَجُلًا مِمَّنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ فَاحْكَمْ. قَالَ: وَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «اثْنُونِي بِالتَّوْرَةِ» فَأَتَى بِهَا، فَتَرَعَ الْوَسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ وَوَضَعَ التَّوْرَةَ عَلَيْهَا، وَقَالَ: «أَمَنْتُ بِكَ وَبِمَنْ أُنْزِلَ» ثُمَّ قَالَ: «اثْنُونِي بِأَعْلَمِكُمْ» فَأَتَى بِفَتَى شَابٍّ... ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الرَّجْمِ نَحْوَ حَدِيثِ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ<sup>(٣)</sup>.

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَكَمَ بِمُوَافَقَةِ حُكْمِ التَّوْرَةِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِكْرَامِ لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ، لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيِّ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنْ هَذَا بِوَحْيٍ خَاصٍّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَسُؤَالُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ: لِيَقَرَّرَهُمْ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ - مِمَّا تَوَاطَوْا عَلَى كِتْمَانِهِ وَجَحْدِهِ وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ تِلْكَ الدَّهْوَرِ الطَّوِيلَةِ - فَلَمَّا اغْتَرَفُوا بِهِ، مَعَ عَمَلِهِمْ عَلَى خِلَافِهِ: بِأَنَّ زَنْيَهُمْ وَعِنَادَهُمْ وَتَكْلِيْفُهُمْ - لِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ - مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ... (\*)

وَعَدُولُهُمْ إِلَى تَحْكِيمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا كَانَ عَنْ هَوَى مِنْهُمْ، وَشَهْوَةِ لِمُوَافَقَةِ آرَائِهِمْ لَا لِإِعْقَادِهِمْ صِحَّةَ مَا يُحْكَمُ بِهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ أَيِ: الْجَلْدَ وَالتَّحْمِيمَ

(١) الموطأ: ٨١٩/٢ (٢) مسلم: ١٣٢٦/٣ (٣) أبو داود: ٥٩٧/٤ (\*) الظاهر أن جواب "لما" غير مذكور، أي لما اعترفوا بذلك كله وقعت عليهم الحجة. ووقع في بعض النسخ مع علمهم أي وقع التقرير عليهم لعلمهم بهذا كله. والله أعلم (٤) الطبري: ٣١٩/١٠ (٥) الطبري: ٣٣٠-٣٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٦

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقِمْ وَالْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنِ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِيَّةِ يَبْعُونَ وَمِنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ إِنَّمَا أَنزَلْتُ فِي الدِّيَةِ فِي بَنِي النَّصِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ قَتْلَى بَنِي النَّصِيرِ كَانَ لَهُمْ شَرَفٌ، تُؤَدَّى لَهُمْ الدِّيَةُ كَامِلَةً، وَأَنَّ قُرَيْظَةَ كَانُوا يُؤَدَّى لَهُمْ نِصْفُ الدِّيَةِ، فَتَحَاكُمُوا فِي ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيهِمْ، فَحَمَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَقِّ فِي ذَلِكَ، فَجَعَلَ الدِّيَةَ فِي ذَلِكَ سُوءًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ (٣). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ بِنَحْوِهِ (٤).

وَقَدْ رَوَى الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْوَالِيزِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّينَ الَّذِينَ رَزَّيْنَا، كَمَا تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ، وَقَدْ يَكُونُ اجْتِمَاعُ هَذَانِ السَّبَبَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ أَلْفُ نَفْسٍ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَهَذَا يَقْوَى

وَالْأَخْبَارُ وَهُمْ: الْعُلَمَاءُ ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَيُّ بِمَا اسْتَوْدَعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ وَيَعْمَلُوا بِهِ ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوا﴾ أَيُّ لَا تَخَافُوا مِنْهُمْ وَخَافُوا مِنِّي ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ سَيَأْتِي بَيَانُهُمَا.

سَبَبٌ آخَرُ فِي نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَنزَلَ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنزَلَهَا اللَّهُ فِي الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا قَدْ قَهَرَتْ الْأُخْرَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى ارْتَضَوْا وَاصْطَلَحُوا عَلَى أَنْ كُلُّ قَبِيلٍ قَتَلَتْهُ الْعَزِيزَةُ مِنَ الدَّلِيلَةِ فِدْيَتُهُ خَمْسُونَ وَسَقًا، وَكُلُّ قَبِيلٍ قَتَلَتْهُ الدَّلِيلَةُ مِنَ الْعَزِيزَةِ فِدْيَتُهُ مِائَةٌ وَسَقًا، فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ [فَذَلَّتِ الطَّائِفَتَانِ كِلَاهُمَا لِمَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَوْمَئِذٍ لَمْ يَظْهَرْ، وَلَمْ يُوطِّئْهُمَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصُّلْحِ] فَتَقَلَّتِ الدَّلِيلَةُ مِنَ الْعَزِيزَةِ قَتِيلًا، فَأَرْسَلَتْ الْعَزِيزَةُ إِلَى الدَّلِيلَةِ أَنْ ابْعَثُوا لَنَا بِمِائَةِ وَسَقٍ، فَقَالَتِ الدَّلِيلَةُ: وَهَلْ كَانَ هَذَا فِي حَيِّينَ قَطُّ دَيْنُهُمَا وَاحِدٌ، وَنَسَبُهُمَا وَاحِدٌ، وَبَلَدُهُمَا وَاحِدٌ: دِيَّةُ بَعْضِهِمْ نِصْفُ دِيَّةِ بَعْضٍ، إِنَّمَا أَغْطَيْنَاكُمْ هَذَا ضَمِيمًا مِنْكُمْ لَنَا، وَفَرَقًا مِنْكُمْ، فَأَمَّا إِذْ قَدِمَ مُحَمَّدٌ فَلَا نُعْطِيكُمْ ذَلِكَ، فَكَادَتْ الْحَرْبُ تَهْجِجُ بَيْنَهُمَا ثُمَّ ارْتَضَوْا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَتِ الْعَزِيزَةُ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا مُحَمَّدٌ بِمُعْطِيكُمْ مِنْهُمْ ضَعْفَ مَا يُعْطِيهِمْ مِنْكُمْ، وَلَقَدْ صَدَقُوا، مَا أَغْطَوْنَا هَذَا إِلَّا ضَمِيمًا مِنَّا وَفَهَرًا لَهُمْ، فَدُسُّوا إِلَى مُحَمَّدٍ مَنْ يُخْبِرُكُمْ رَأْيَهُ، إِنْ أَغْطَاكُمْ مَا تُرِيدُونَ حَكَمْتُمُوهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِكُمْ حَذَرْتُمْ فَلَمْ تَحْكُمُوهُ. فَدُسُّوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَاسًا مِنَ الْمُتَافِقِينَ لِيُخْبِرُوا لَهُمْ رَأْيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَخْبَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَمْرِهِمْ كُلِّهِ وَمَا أَرَادُوا، فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا مَحْزَنَ لِّلَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ فَبَيْنَهُمْ وَاللَّهُ أَنزَلَ، وَإِيَّاهُمْ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِنَحْوِهِ (٢).

وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ قَوْلُهُ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إِلَى

(١) أحمد: ٢٤٦/١ (٢) أبو داود: ٧/٤ (٣) الطبري: ١٠

٣٢٦ (٤) أحمد: ٣٦٣/١ وأبو داود: ١٦/٤ والنسائي: ١٩/٨



الظَّالِمُونَ ﴿لَا تَنفَعُهُمْ لَمْ يُنصِفُوا الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالنَّسْوَةِ بَيْنَ الْجَمْعِ فِيهِ، فَخَالَفُوا وَظَلَمُوا وَاعْدَوْا﴾<sup>(٧)</sup> عَلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

### [يُقْتُلُ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ]

وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو نَصْرِ بْنِ الصَّبَّاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الشَّامِلِ». إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ، عَلَى الْاِخْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَقَدْ احْتِجَّ الْأَيْمَةُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَكَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ فِي كِتَابِ عَمْرِو بْنِ حَزَمٍ: «أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ»<sup>(٨)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ»<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.

وَيُؤَيِّدُ مَا قَالَهُ ابْنُ الصَّبَّاحِ مِنَ الْاِخْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي ذَلِكَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ الرُّبَيْعَ عَمَّةَ أَنَسٍ، كَسَرَتْ ثِيَابَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَى الْقَوْمِ الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «الْقِصَاصُ»، فَقَالَ أَخُوهَا أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُكْسِرُ ثِيَابَ فُلَانَةٍ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ» قَالَ: فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسِرُ ثِيَابَ فُلَانَةٍ! قَالَ: فَرَضِي الْقَوْمُ فَعَفَوْا، وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»<sup>(١٠)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١١)</sup>.

### [قِصَاصُ الْجُرُوحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تُقْتَلُ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَتُقَطَّعُ الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ، وَيُقَطَّعُ الْأَنْفُ بِالْأَنْفِ، وَتُنَزَّعُ السِّنُّ بِالسِّنِّ، وَتُقْتَصَّرُ الْجِرَاحُ بِالْجِرَاحِ<sup>(١٢)</sup>. فَهَذَا يَسْتَوِي فِيهِ أَخْرَافُ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ، إِذَا كَانَ عَمْدًا، فِي النَّفْسِ وَمَا دُونَ النَّفْسِ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْعَبْدُ رِجَالُهُمْ

أَنَّ سَبَبَ النُّزُولِ قِصَّةُ الْقِصَاصِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَحَدَّثَهُ ابْنُ الْيَمَانِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو مِجْلَزٍ وَأَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ وَعِكْرَمَةُ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ<sup>(١)</sup>. زَادَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَضِيَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأَمَةِ بِهَا. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: مَنْ جَحَدَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَقْرَبَ بِهِ وَلَمْ يَحْكَمْ بِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ فَاسِقٌ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ [ابْنِ] طَاوُسٍ، قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ﴾... الْآيَةِ، قَالَ: هِيَ بِهَ كُفْرٍ.

قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ: وَلَيْسَ كَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ: كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ وَكِيعٌ عَنْ سَعِيدِ الْمَكِّيِّ، عَنْ طَاوُسٍ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: لَيْسَ بِكَفْرٍ يُقْتَلُ عَنِ الْمِلَّةِ<sup>(٦)</sup>.

﴿وَكُنِينَا عَلَيْهِمْ فِيمَا أَنْزَلَ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٣٥)</sup>

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا وَبَحَثَ بِهِ الْيَهُودُ وَقَرَعُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ فِي نَصِّ التَّوْرَةِ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَهُمْ يُخَالِفُونَ حُكْمَ ذَلِكَ عَمْدًا وَعِنَادًا، وَيُقِيدُونَ النَّصْرِيَّ مِنَ الْفَرِطِيِّ، وَلَا يُقِيدُونَ الْفَرِطِيَّ مِنَ النَّصْرِيِّ، بَلْ يَعْدِلُونَ إِلَى الدِّيَةِ، كَمَا خَالَفُوا حُكْمَ التَّوْرَةِ الْمَنْصُوصَ عِنْدَهُمْ فِي رَجْمِ الزَّانِي الْمُخْصَنِّ، وَعَدَلُوا إِلَى مَا اضْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْجُلْدِ وَالتَّحْيِيمِ وَالْإِشْهَارِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ جَحَدُوا حُكْمَ اللَّهِ قَضَا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَعَمْدًا، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) الطبري: ٣٥٧-٣٤٧/١٠ (٢) الطبري: ٣٥٧/١٠ (٣)

الطبري: ٣٥٦/١٠ (٤) الطبري: ٥٩٧/٤ (٥) عبد الرزاق:

١٩١/١ والطبري: ٥٩٥/٤ (٦) الطبري: ٣٥٥/١٠ (٧) كذا

في الأصل والوجه أن يقال: وتعدى بعضهم على بعض. (٨)

النسائي: ٥٨/٨ (٩) ابن ماجه: ٨٩٥/٢ (١٠) أحمد: ٣/

١٦٧ (١١) فتح الباري: ١٢٤/٨ ومسلم: ١٣٠٢/٣ (١٢)

الطبري: ٣٦٠/١٠

مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ  
بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

### [ذِكْرُ عِيسَى وَمَذْهَبُ الْإِنجِيلِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أُنْبَغْنَا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ يعني  
أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
التَّوْرَةِ﴾ أي مُؤْمِنًا بِهَا حَاكِمًا بِمَا فِيهَا ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ  
هُدًى وَنُورٌ﴾ أي هُدًى إِلَى الْحَقِّ وَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ  
الشُّبُهَاتِ وَحُلِّ الْمُسْكِلاتِ ﴿وَمَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
التَّوْرَةِ﴾ أي مُتَّبِعًا لَهَا غَيْرَ مُخَالِفٍ لِمَا فِيهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ  
مِمَّا بَيْنَ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضُ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ:  
﴿وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]  
وَلِهَذَا كَانَ الْمَشْهُورُ مِنْ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِنجِيلَ  
نَسَخَ بَعْضَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ  
لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وَجَعَلْنَا الْإِنجِيلَ ﴿هُدًى﴾ يُهْتَدَى بِهِ  
﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ  
﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَ وَعِيدَهُ وَعِقَابَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾  
فُرِيَءَ (وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَا مُ  
كُنْ، أَيْ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ لِيَحْكُمَ أَهْلُ مِلَّتِهِ بِهِ فِي زَمَانِهِمْ،  
وَفُرِيَءَ ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بِالْجَزْمِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَا مُ الْأَمْرُ، أَيْ  
لِيُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا فِيهِ، وَلِيُقِيمُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فِيهِ، وَمِمَّا  
فِيهِ الْبَشَارَةُ بِعِثَةِ مُحَمَّدٍ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ وَتَصْدِيقِهِ إِذَا  
وُجِدَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ  
حَتَّىٰ تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾...  
الآيَةُ [المائدة: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ  
الَّذِي الْأُمِّيُّ الَّذِي يَخْدُوعُهُمْ مَكْنُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾  
إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وَلِهَذَا قَالَ  
هَهُنَا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾  
أَيِ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، الْمَائِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ،  
التَّارِكُونَ لِلْحَقِّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي  
النَّصَارَى. وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ السِّيَاقِ.

وَيَسْأَلُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، إِذَا كَانَ عَمَدًا فِي النَّفْسِ وَمَا دُونَ  
النَّفْسِ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.  
قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ

لَا يَجُوزُ أَنْ يُقْتَصَرَ مِنَ الْجَرَاحَةِ حَتَّى تَنْدَمِلَ جَرَاحَةُ  
الْمَجْنُونِ عَلَيْهِ، فَإِنْ اقْتَصَرَ مِنْهُ قَبْلَ الْإِنْدِمَالِ ثُمَّ زَادَ جُرْحُهُ،  
فَلَا شَيْءَ لَهُ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ  
عَمْرِو بْنِ شُعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلًا طَعَنَ رَجُلًا  
بِقَرْنٍ فِي رُكْبَتِهِ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَقِذْنِي، فَقَالَ:  
«حَتَّى تَبْرَأَ»، ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَقِذْنِي، فَأَقَادَهُ فَقَالَ: يَا  
رَسُولَ اللَّهِ، عَرِجْتُ، فَقَالَ: «قَدْ نَهَيْتُكَ فَعَصَيْتَنِي، فَأَبْعَدَكَ  
اللَّهُ وَبَطَلَ عَرَجُكَ» ثُمَّ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَصَرَ مِنْ  
جُرْحٍ حَتَّى يَبْرَأَ صَاحِبُهُ<sup>(١)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

(مُسْأَلَةٌ) فَلَوْ اقْتَصَرَ الْمَجْنُونُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَانِي فَمَاتَ مِنَ  
الْقِصَاصِ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ مِنَ  
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ.

### [الْعَفْوُ كَفَّارَةٌ لِلذُّنُوبِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾  
قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ  
بِهِ﴾ يَقُولُ: فَمَنْ عَفَا وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْمَطْلُوبِ  
وَأَجْرٌ لِلطَّالِبِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ  
السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ  
فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْجَارِحِ. وَأَجْرُ الْمَجْرُوحِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>.  
رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ  
تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قَالَ: لِلْمَجْرُوحِ، وَرَوَى  
عَنِ الْحَسَنِ الْبُسْرِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ وَأَبِي  
إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيَّ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُجْرَحُ مِنْ جَسَدِهِ  
جَرَاحَةٌ فَيَتَصَدَّقُ بِهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ مِثْلَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ»<sup>(٤)</sup>  
وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الظَّالِمُونَ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ طَاوُسٍ وَعَطَاءٍ أَنَّهُمَا قَالَا: كُفِّرَ  
دُونَ كُفْرِ، وَظَلَمَ دُونَ ظُلْمٍ، وَفَسَقَ دُونَ فِسْقٍ.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

(١) أحمد: ٢١٧/٢ (٢) الطبري: ٣٦٧/١٠ (٣) الطبري:

٣٢٦/١٠ (٤) أحمد: ٣١٦/٥ (٥) النسائي في الكبرى: ٦/

٣٣٥ والطبري: ٣٦٤/١٠

وَعَنِ الْوَالِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمُهِمِّنَا﴾ أَيُّ شَهِيدًا<sup>(٤)</sup>.  
وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمُهِمِّنَا﴾ أَيُّ حَاكِمَا  
عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ<sup>(٥)</sup>.

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ الْمَعْنَى، فَإِنَّ اسْمَ الْمُهِمِّينِ  
يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ  
قَبْلَهُ، جَعَلَ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ: آخِرَ  
الْكُتُبِ وَخَاتِمَهَا وَأَسْمَلَهَا وَأَعْظَمَهَا وَأَكْمَلَهَا، حَيْثُ جَمَعَ  
فِيهِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ، مَا لَيْسَ فِي  
غَيْرِهِ، فَلِهَذَا جَعَلَهُ شَاهِدًا وَأَمِينًا وَحَاكِمَا عَلَيْهَا كُلِّهَا،  
وَتَكْفُلُ تَعَالَى بِحِفْظِهِ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا  
نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أَيُّ  
فَأَحْكُمُ يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ النَّاسِ، غَرِبَهُمْ وَعَجَبَهُمْ، أُمِّيَّهُمْ  
وَكِتَابِيَّهُمْ، بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ،  
وَبِمَا قَوَّرَهُ لَكَ مِنْ حُكْمٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ  
يَنْسَخْهُ فِي شَرَعِكَ<sup>(٦)</sup>. هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِمَعْنَاهُ، رَوَى  
ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُخَيَّرًا  
إِنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ فَزَادَهُمْ إِلَى  
أَحْكَامِهِمْ، فَتَزَلَّتْ ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ  
أَهْوَاءَهُمْ﴾ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا فِي  
كِتَابِنَا<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيُّ أَرَآءُهُمُ الَّتِي اضْطَلَحُوا  
عَلَيْهَا، وَتَرَكُوا يَسْبِيهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أَيُّ لَا  
تَنْصَرِفَ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ إِلَى أَهْوَاءِ هَؤُلَاءِ  
الْجَهْلَةِ الْأَشْقِيَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً  
وَمِنْهَا جَا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا  
مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾ [المائدة: ٤٨] قَالَ: سَبِيلًا<sup>(٨)</sup> وَعَنْهُ: سَبِيلًا  
وَسُنَّةً.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وَهَذَا خِطَابٌ

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
الْكِتَابِ وَمُهِمِّنًا عَلَيْهِ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا  
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً  
وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي  
مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا  
فِيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُولُوا عَنْ بَعْضِ مَا  
أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ  
ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أَفَحُكْمُ الْجَهْلَةِ  
يَتَوَنَّنُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

[مَدْحُ الْقُرْآنِ وَوصْفُهُ وَالْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى كَلِيمِهِ،  
وَمَدَحَهَا وَأَثْنَى عَلَيْهَا، وَأَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا حَيْثُ كَانَتْ سَائِغَةً  
الِاتِّبَاعِ، وَذَكَرَ الْإِنْجِيلَ وَمَدَحَهُ وَأَمَرَ أَهْلَهُ بِإِقَامَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَا  
فِيهِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ  
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ  
اللَّهِ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أَيُّ مِنْ الْكِتَابِ  
الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدَحَهُ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَانَ نَزْوُهُ كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ،  
مِمَّا زَادَهَا صِدْقًا عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ الَّذِينَ  
انْقَادُوا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَاتَّبَعُوا شَرَائِعَ اللَّهِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَايَاتُ بِيَدِي أَوْ لَا تُؤْمِنُونَ إِنَّا لَأُولُوا الْعِلْمِ مِنْ  
قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخَوِّنُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَدًا﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا  
إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أَيُّ إِنْ كَانَ  
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ مَجِيءِ مُحَمَّدٍ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أَيُّ لَكَائِنَا لَا مَحَالَةَ وَلَا بُدَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ  
وغيره، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ التَّيْمِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
أَيُّ مُؤْمِنًا عَلَيْهِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ: الْمُهِمِّينُ الْأَمِينُ، قَالَ: الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى كُلِّ  
كِتَابٍ قَبْلَهُ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ  
وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَعَطِيَّةَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَعَطَاءَ الْخُرَاسَانِيَّ  
وَالسُّدِّيَّ وَابْنَ زَيْدٍ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْقُرْآنُ  
أَمِينٌ عَلَى الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَبْلَهُ، فَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا فَهُوَ حَقٌّ،  
وَمَا خَالَفَهُ مِنْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ.

(١) الطبري: ٣٧٨/١٠ (٢) الطبري: ٣٧٩/١٠ (٣) الطبري:

٣٧٧-٣٨٠ (٤) الطبري: ٣٧٧/١٠ (٥) الطبري: ١٠/

٣٧٩ (٦) الطبري: ٣٨٢/١٠ (٧) الطبري: ٣٣٢/١٠ (٨)

الطبري: ٣٨٧/١٠ إسناده ضعيف فيه أبو إسحاق السبيعي وهو

مدلس ولم يصرح.

أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ نَقْطَعَ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾... الآية [الأنعام: ١١٦].

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ وَابْنُ صَلُوبَا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيَّا وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَابُ يَهُودَ، وَأَشْرَافُهُمْ، وَسَادَاتُهُمْ، وَإِنَّا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعْنَا يَهُودَ وَلَمْ يُخَالِفُونَا، وَإِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةٌ، فَنَحَاكُمُهُمْ إِلَيْكَ، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ، وَتُؤْمِنُ لَكَ وَنُصَدِّقُكَ، فَأَبَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ: ﴿وَأَن آخِذَكُمْ يَتَّبِعُهُمُ بَآئِرُ اللَّهِ وَلَا تُفْلِحُ عَنْهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَقَوْمٍ يُفْقَهُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يُنَكِّرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ، وَعَدِلَ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ، بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الصَّلَاحَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، مِمَّا يَضَعُونَهَا بَارَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ النَّاسُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمُلْكِيَّةِ الْمَأْخُودَةِ عَنْ مِلْكِهِمْ جَنْكِيْزُ خَانَ الَّذِي وَضَعَ لَهُمْ «الْيَسَاقَ»، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدْ افْتَبَسَهَا مِنْ شَرَائِعِ شَيْءٍ: مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَيْنِهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَلَا يُحْكَمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أَيِ يَسْتَعُونَ وَيُرِيدُونَ، وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ؟ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟ أَيِ وَمَنْ أَعْدَلَ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ، وَأَمَّنَ بِهِ، وَأَيَقِنَ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ

لِجَمِيعِ الْأُمَمِ، وَإِخْبَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْعَظِيمَةِ، الَّتِي لَوْ شَاءَ لَجَمَعَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَشَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يُنْسَخُ شَيْءٌ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِكُلِّ رَسُولٍ شَرِيعَةً عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ نَسَخَهَا أَوْ بَعْضَهَا بِرِسَالَةِ الْآخَرِ الَّذِي بَعْدَهُ، حَتَّى نَسَخَ الْجَمِيعَ بِمَا بَعَثَ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، الَّذِي ابْتَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً، وَجَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَسِّرْكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ﴾ أَيِ أَنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ الشَّرَائِعَ مُخْتَلِفَةً لِيَخْتَبِرَ عِبَادَهُ فِيهَا شَرَعَ لَهُمْ، وَيُنَبِّهَهُمْ أَوْ يَعَاقِبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ بِمَا فَعَلُوهُ أَوْ عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ: ﴿فِي مَآءَاتِكُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ الْكِتَابِ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَذَّبَهُمْ إِلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَاتِّبَاعُ شَرْعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ، وَالتَّصَدِيقُ بِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ آخِرُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيِ مَعَادُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَمَصِيرُكُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أَيِ فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الْعَادِلِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، بَلْ هُمْ مُعَانِدُونَ لِلْبُرَاهِينِ الْفَاطِعَةِ، وَالْحُجَجِ الْبَالِغَةِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّامِغَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْأَوَّلَ أَظْهَرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَن آخِذَكُمْ يَتَّبِعُهُمُ بَآئِرُ اللَّهِ وَلَا تُفْلِحُ عَنْهُمْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ وَالنَّهْيِ عَنْ خِلَافِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَيِ وَاحْذَرِ أَعْدَاءَكَ الْيَهُودَ أَنْ يُدْلِسُوا عَلَيْكَ الْحَقَّ فِيمَا يُنْهَوْنَ إِلَيْكَ مِنْ أُمُورٍ، فَلَا تَقْتَرِ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَذَبَتْ كَفَرَةٌ خَوْنَةٌ ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أَيِ عَمَّا تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَخَالَفُوا شَرْعَ اللَّهِ ﴿فَاعَلَمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أَيِ فَاَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَحُكْمَتِهِ فِيهِمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْهُدَى، لِمَا لَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ الَّتِي اقْتَضَتْ إِضْلَالَهُمْ وَنَكَالَهُمْ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أَيِ إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ نَاكِبُونَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا

(١) الطبري: ٣٩٣/١٠ فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت لا يعرف